رجاء عالم

باهبل

مكة Multiverse

1945 - 2009



رواية

مكتبة

التنوير

رجاء عالم

بَاهَبَل

مكة Multiverse

2009 - 1945



الكتاب: **بَاهَبَل، مكة** ***Multiverse***، رواية

تأليف: رجاء عالم

عدد الصفحات: 336 صفحة

الترقيم الدولي: 8 - 239 - 472 - 614 - 978

الطبعة الأولى: 2023

هذه الطبعة مرخصة لدار التنوير بموجب عقد نشر

الناشر

دار التنوير

تونس: 16 الهادي خفشة - عمارة شهرزاد - المنزه 1 - تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar - altanweer.com

لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية فارس قاسم (سارة بنما) - الطابق السفلي

هاتف: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

موقع إلكتروني: www.daraltanweer.com

رجاء عالم

بَاهَبَل

مكة Multiverse

2009 - 1945

رواية



جدّة

يصدح عويلُ مغنيّة الفادو البرتغالية في ليل حديقة بيت القنصل الفرنسي بجِدَّة.

على الكراسي المكسوَّة بالأبيض يصطف الجمهورُ المُخْتَار، يجلس بيننا عباس أنيقًا في ثوبه الأسود من تصميم «لامار» يمنحه سُمرة تراجيدية، يُعَزِّزها شَعرُه الفاحم الصقيل بتموّجاته الخفيفة، يهمس:

«يا الله، أسعدتوني بقبول دعوتي المفاجئة، أنا غطست غطسة، قضيتُ رمضان معتكفًا خارج العالم. وللأمس وأنا مشغول. اعذروني ما أحب أفجعكم لكن، حضرت عزاء عَمَّتي نورية. يا الله عَمَّتي هذه سوريالية. لو بإيدي كنت عملت لها جنازة سينمائية ورميتها في البحر...». وسَكَتَ الكلامُ ليعلو الفادو.

من ذلك التصريح غير المألوف تَلَبَّسَتْني س. بعدها بأسبوع كنتُ أبحث عن عباس لأعاجله بذلك السؤال المباشر:

«حدِّثني عن عمَّتك نورية». ضحك بانبهار.

«هي جَاتِك أنتِ كمان؟!!».

ومَضَتِ الحبكة تتجسَّد مُتلاحقة تنكث رفَّ ذكريات برأس عباس رَتَّبها كتسبيح، وبين السؤال والآخر حضورٌ حَيٌّ لنورية من موتها، (نورية الاسم الذي الذي اخترناه معًا لكي تتخفَّى فيه هذه المرأة المرشَّحة في موتها للسفر في البحر)، تعيش بيننا، تقتحم على عباس بذكرى يطلبني لتوصيلها، أو تقتحم عليَّ لأستزيده. وفي المسافة بين طوفان جِدَّة وثلج باريس تستدرج نورية أخواتها البنات لهذه الحكاية.

ولا أدري إن كان سيعذرني عباس في تحريفي لأمور في حكايته

لأبعدها عن أن تكون حكاية عائلة بعينها، وفي هذا السياق أوضح أن اسم «السردار» لا علاقة له بأي عائلة تحمل هذا الاسم.

زارتني نورية محتجّةً: «صرختي من هذه الصرخات».

ودفعتني لمراجعة كتابهنّ هذا المطمور في الأدراج. قرأته. قد تبدو أنها حيوات من زمن منقرضٍ، أو من كوكب آخر، لكن الآن هذا الصوت القديم يكتسي صوتَ العصرِ، لأنه جزء من تاريخ مسيرة المرأة في تلك البلاد.

من المهم الاعتراف بأن ما دفعني ابتداءً لكتابتهِ، هو هذا الغضب تجاه صرامة العبودية المُبَطّنة التي خضعن لها، عبودية تأتي باسم الحب وباسم التكريم وصون العِرْض، لكنها تسحق وتطمس الهوية والوجود بجدارة.

ولا زلت حتى الآن حين أقرأهن أشعر بألم.

بين نورية وسكّرية وحورية وعائلة السردار... كنت أشعر بأن هذه الحكاية لا تستقيم إلّا بالتعبير عنهم بلغتهم المكّية. كانت موسيقى اللهجة المكّية تلحّ عليَّ في أصداء تترجَّع في قلبي وقلوب مكية رحلت لكنّها باقية في كياني. وهنا لا بدّ لي من التنويه أنني كنت أتحرّج من اللهجة العامية أحيانًا فأقلبها للفصحى، وأحيانًا سمحت لفصلٍ أو فصلين بالتردد بين عناوين مختلفة وتركت لها الإبقاء على العناوين المشطوبة.

أرجو أن يغفر لي عباس تحريفي لحكايته وإفراجي عنها على غير توقّع.

تمَّ هذا السرد ما بين نوفمبر 2009 وإبريل 2012، وبقي في الأدراج حتى الآن بانتظار الإجازة بالظهور من نورية، وها قد جاءت، وأيقظتني بهذه النسمة التي تسللت من هذا الفجر الباريسي.

البساتين - طريق الملك

جدة، 4 يوليه 2009

«يجب أن يضم وفدنا خرّيجي السوربون لو أمكن، لا بد وأن نعطي أولوية للتبادل الثقافي مع فرنسا، منتهزين تَوَجُّه المملكة الجديد لتنويع مصادر الخبرة العلمية، بدلًا من تركيز البعثات على الولايات المتحدة».
أربعة وعشرون زوجًا من الأعين اتجهت لرئيس القسم: الدكتور ربيب الباشا الاسطنبولي، المُتصدِّر للاجتماع والمشهور بلقب السردار العلماني، في ثوبه الأبيض ورأسه الحاسر يُظهر شعره الأجعد مثل حقل رفَّاصات. نظرات حسد ممزوجة بسخرية من الزملاء الذين خَطَّ الشيبُ رؤوسهم مجمَّدين في كراسي الأستاذية. كل ما في هيئة السردار العلماني يوحي بالتجاوز، هو الوحيد ضمن هيئة التدريس، وربما الطلبة، الذي يرتاد الجامعة حاسرًا بلا غترة. ولولا بقية اعتبار للعميد لجاء إلى محاضراته في بنطاله الجينز. طُرفته المفضلة أن «الغترة هي قِدْر البخار، تسخّن بالطاقة الشمسية وتطبخ صلعَ الشباب الخليجي وركودهم الفكري!». الحجرة تئزّ بهواء التكييف المركزي، على الجدار وراءه يتجلّط البردُ على الإطارات المُذَهَّبَة لصُوَر مؤسس الدولة السعودية الملك عبد العزيز، وعن يمينه الملك عبد الله وعن يساره ولي العهد الأمير سلطان، تلمع ابتساماتهم ومستعدين لإلقاء غتَرهم على تلك الطاولة كدلالة حماية.

هذا الشاب الغندور يُحبطهم بكونه أصغر من تولَّى كرسي أستاذية في جامعة عريقة كجامعة الملك عبد العزيز، تولّاه حين كان في الخامسة والعشرين، ثم عُيِّنَ رئيسًا لقسم العمارة ولم يتجاوز الخامسة والثلاثين.

«حظ يفلق الصخر». يحدّقون في عينيه، بينما يُضمِرون تلك العبارة المشحونة بعبوة ناسفة من الحسد، «طبعًا، تبرعات أبيه تشتري دولة وليس فقط جامعة».

«ربما كانت فرصة يا دكتور للعثور على مترجم فرنسي لمؤلفاتكم الأربعين، والتي تحوي كنوز نقوش معمار مكة، ويجب أن تجد طريقها إلى العالم». يتفانى المعيدون الجدد من تلامذته للدفاع عنه ضد شيخوخة الأساتذة المحنَّطين. يحيطونه بما هو أقرب إلى التقديس، ويتواصلون مع موجة السينمائيين الشبان في مجلة بكة لإخراج بحوث السردار العلماني المصوَّرة، والتي وَثَّقَ فيها لمجموعته من نوادر الأبواب والرواشن وحليات الأسقف والنسيج ونقوشها، وعلاقة تلك النقوش بتنفس البيت وإضاءته وتشكيله الروحي.

يرمقه منافسُه وكيل القسم ساخرًا، يتخيَّل الوجوهَ في ما لو فَجَّرَ لهم السؤال الذي يدور في رأسه:

«كُتُب عمارة يا دكتور ولّا كتب أزياء؟ فعلًا الفرنسيون خير من ينشر لك غُرزة رِجْلِ الغُراب والمنفوش وتعشيق الخشب». ولم تَفُتِ السردار العلماني ابتسامته الملتوية.

في طريقه إلى بيته، سَلَكَ الدكتور السردار طريقَ المدينة شمالًا. التهشُّم الحادّ تحت عجلاته نَبَّهَه إلى عيون القطط المزروعة في الطريق لتحديد مسارات الإسفلت. انقلعت إحداها تحت عجلته الأمامية وطارت لمسافة أمتارٍ أمامه، ففجّرت شظايا فسفورية من ماضيه، فيما الأعين المعدنية تتلاحق شامتة تبحلق فيه. قاد موازنًا العجلات لتدوسها عينًا وراء عين، يطقطق زجاجها بلذة شيطانية تحت أضراسه ويُخرِّش عجلاته!

انعطف غربًا في شارع حراء باتجاه البحر. يشعر بجلاءٍ عجيب لبصره. فجأة، ولأول مَرَّةٍ في عام، تَنَبَّهَ للمَشْهَد حوله. بلا إنذار تباطأت سيارة الدكتور متأملًا جانبَيْ الشارع العريض:

«يا ليكزيس يا زَقْ، مجعوص تظن ملكت الطريق في سيارة بمليون

مداس سعودي؟». صاح ذلك العامل سائق السوزوكي المتآكلة موديل 75، ورافقته جوقة أبواق العربات المندفعة حول الدكتور السردار، تحثّه على الإسراع، ولم يلقِ لها بالًا. في الورقة المبسوطة على المقعد المجاور قام بتسجيل قائمة بالمطاعم الآخذة في التكاثر على الجانبين

(مشويات لذيذة التركية، الكبدجي، مطعم جحا، برجر وبرجر، يم يم، مُعَسَّلات فرنسية...)، هذه بالذات أضحكته، من الذي أشرك الفرنسيين في حقوق اختراع المُعَسَّل الشرقي؟! تسميات مضحكة لا حصر لها تفضح النهم المتمدّد حوله. تأكّد من الإحصائية التي أجراها، في مسافة العشرة كيلومترات التي يُمَثِّلها الشارع من نقطة تقاطعه مع طريق المدينة إلى دَوَّار تقاطعه مع طريق الملك، هناك ما لا يقلّ عن ثلاثمائة مطعم، كما أنّ محلات بيع الحلويات تُباغت المارة كل يوم بالتكاثر.

سَلَكَ طريق الملك أو(طريق الموت). شُهرة اكتسبها من سباقات الموت التي تعجن إسفلته بحديد أفخم السيارات وأشلاء شبّان جدة. يجتازه يوميًا ولا يلتقي عزرائيل، حتى تأكد أن عزرائيل يتفاداه، بل ويسخر من وقوفه بعشرات الحوادث في رواحه ومجيئه من فيلته الجديدة بحي البساتين، السكن الذي لم يشعر فيه بالسكن رغم توظيفه لكل مدخراته لشرائه. ثلاثة ملايين ريال للبناء ومليون رابع للأثاث.

استقبله باب الجراج الأتوماتيكي بخشبه الماهاجوني مالحًا بنداوة البحر، ولَفَحَ وجهَه نفسُ الصمت المُتَحَدِّي. دائمًا، وما إن يفتح باب السيارة ليطأ أرض الجراج حتى يندفع الصمت صوبه، يحلو للصمت أن يتحول لخطافات تنهشه، بينما تلعب معه حزورة: أين دالية؟ أين رأسكَ من قدميكَ؟ ما آخر أحلامك لأسكب عليها ماء نار من بطارية سيارتك؟ عام مضى عليه في محاولاته لإحياء هذه الفيلا وإخراس سخريتها بتكرار نفس التخمينات: زوجته دالية بلا شك في النادي الرياضي أو في بازار خيري، وابنته مرام تزور صديقة، بينما ابنه في طابقِ الترفيه تحت الأرض في جلسته الأبدية: يواجه شاشة الكمبيوتر في لُعبة «كاونتر سترايك»

الجماعية على الإنترنت. أدهش السردار العلماني أن فريق اللاعبين يضم رجالًا في الأربعين متزوجين وآباء. فيصل شخصية من الـ«فيرتوال ريالتي» يلتهم أكوام رقائق برنجلز بالشطة ويتجرع الريد بول، ويتضخّم فلا يتجسَّد إلا ليعزف على الجيتار. لا تزال تتردَّد في مؤخرة رأس السردار العلماني معزوفات فرقة Poker face للروك، التي لم يكفّ فيصل يتمرَّن عليها في الأسبوع الأخير، وتقود كل من في البيت للجنون، ويساومهم لتحسين تحصيله الدراسي مقابل تمويلهم لسفره لحضور حفلها القادم في 29 يناير 2010:

«هذه فرقة روك ثورية تفضح الديكتاتورية وحروبها المصطنعة والمؤامرات الحكومية، وقد قاطعتِ العزف تسع سنوات احتجاجًا على حكم بوش الابن. فرقة من Allentown تحتفل بجوائز عشرين سنة من صنع الموسيقى، شعارهم انتشار الرؤوس الـCOOL، كووول هيدز!»، يقولها مستنكرًا جهلهم. مراهق كووول يتضامن مع جماعات إنقاذ غزة، ومع ضحايا مجازر دارفور والمجاعات. يُمَارس كل نضاله على صفحات الفيس بوك، أمّا في الواقع فلا يغادر تلك الأريكة، ولا تُفارق قبضتاه مقابض البلاي ستيشن، ورفيقه الأثير free box مستودع ألعاب الفيديو الذي لا ينضب.

طيرٌ نائم انتفض لوقع خطوات السردار العلماني، تَخَبَّطَ مُرفرفًا في العتمة وترك بقعة من مخلفاته على زجاج الليكزيس المُلَمَّع. لم يلتفت السردار، ومن الجراجِ عَبَرَ إلى الحديقة الخلفية. نداوة تهسهس على العشب الأخضر المُغَطِّي للهضبة الاصطناعية، وفي سهلها تمتد مياه حوض السباحة. لا يذكر آخر مرَّة اخترق جسدٌ مياهَه، تكلفة الصيانة السنوية بعد التخفيض تتجاوز العشرة آلاف ريال. أي إنهم يعقّمون هذا الماء ليموت على سطحه الذباب الطيار والفراش النادر المرور في جدة.

فكرةُ السباحة أرسلتْ تقلصاتها إلى معدته، تأمَّل في عجيبة الحائط

الذي ابتكره. حائطٌ مُغطّى بمَقَارِع أبواب البيوت المكية التي هُدمت لتوسعة الحرم. رمقته رؤوسُ الأسود بأعينها المُغمَضَة، تعضُّ بأهدابها المتآكلة على ملامحه، وفاحت للحَمَام النحاسي رطوبة بحر جدة. في الليالي العاصفة تمرُّ الريحُ وتقرعُ المَقَارِع ويسمع في فراشه أسنان الأسود تُطقطق والحمام ينقر بمناقيره والأكفّ تُصَفِّق، نفس إيقاعات تصفيق الزائرات المكيّات في درجات بيت جَدِّه بالمُدَّعى، لكن هذه الليلة المَقَارِع صامتة صمتًا مريبًا، لكنه شديد الوعي بمقرعة خفية تندسّ بينها وتوشك أن تطرق. طرقة واحدة كفيلة بكسر دورة الكون حوله ونقله إلى عالم آخر:

«كم ستصمد تلك المَقَارِع في الرطوبة وفراق بيت الله؟ أتمقته تلك المعادن لأنه ساهم في نفيها من دائرة الحرم؟؟ هل فعلًا استغلَّ مذبحة عمارة مكة وجهلَ أصحابها بقيمتها الفنية ليشتريها بتراب الفلوس كما يتّهمه حُسّادُه؟»، يضحك ساخرًا، «وأينه هذا المؤمن بقيمتها الفنية؟! أكيد دُفِن مع رواشينه». سَخَرَ من فكرته العميقة بالذنب، خاصّةً وأنه قد أصبح من أهم جامعي التُحف.

سكتةُ المَقَارِع الليلة مُريبة، إلا أنه لم يجرؤ فيتلفّت حوله، يشعر بخطوات حافية تتركُ بُقَعَ رطوبةٍ على الرخام تتبعه، وتلك المطارق واعية بطبعات الأقدام وتحبس أنفاسها متنصّتة لاقترابها.

أسندَ رأسَه لروشن خشب الساج المُغَطِّي لواجهة الصالون مُطِلًا على حوض السباحة، رائحةٌ قديمة من كل بخور أحرقته المكّيات ولعًا برجالهن واستشفاء من سحر أو مرض. خشب رأى الكثير من دواخل البيوت وحَجَبَ الكثير.

يتحسَّس كلَّ عُقْدة وضفيرة وحفرة،

«يد الحَفَّار، أو حِنيّة الحفّار توقظ في الخشب قلوبًا تتنفّس بحُرِّيَّة كلما ارتفعت في السماء، بينما تتعشَّق وتتلاحم كلما هبطت للأرض لَتمنع أعين المتلصّصين». عبارات يردّدها تلامذتُه من محاضراته تتجسد له.

«الخشب الذي تحنّنه اليد غير الخشب الذي تحفره الماكينة».

رأسُ الدكتور السردار العلماني هذ الليلة مُجَرَّد أرقام. تَذَكَّرَ الثروةَ التي قصمتْ ظَهْرَه في نقل تلك المحفورة وتركيبها على واجهة هذه الفيلا الحديثة.

«فيلتك راقصة تانغو إفرنجية تُقَنِّعها بقُنعة عجوز مكاويَّة!!»، يسخَرُ رفاقُه من ذوقه العجوز: «في حقيقتك أنت تاجر أبًا عن جَدّ، فلا تُقنعنا بأن غايتكَ حفظ التراث، فالخشب القديم مكانه المتاحف، في العراء لن يصمد لرطوبة بحر جدة».

«هذه الأخشاب معجزة، مُعَالَجة لتقاوم الحر والرطوبة، لا كما واجهات بيوتنا الحديثة، لا تمضي على البيت سنة إلا ويتآكل بالجُدَري».

أحيانًا، في مثل هذه الليلة القمرية، يُخامر السردار العلماني الشَكُّ في كلِّ ما كَرَّسَ له عمره. يقف كما يقف الآن مضطربًا للا سبب فاقدًا للوُجْهَة: «ما أهمية كل هذه الدراسات؟ كم قَطَّعتَ من رواشين وسقوف؟ كل شغلتك تشليح. أشرف للبيوت تروح روحة واحدة؟ بيوت فايبر جلاس ولّا محفورة بصخر ولّا خشب كلها في النهاية عبقرية بشرية، مين نصَّبك تحنِّط اللي راح، وتوقف به للدنيا بالعرض؟».

وتأتي إسطوانة زوجته دالية لتؤكد شكوكه:

«صديقتي أميرة فتحت جاليري المِرْكَاز لإحياء التراث، إن كنت غاويًا للقديم وَظِّف أميرة تصَنِّعلنا مشربيات جديدة، بدلًا من أن يضربنا النمل الأبيض من راوشينك المكاوية. في المولد خنقتَ ضيوفك بالرطوبة من تلك الرواشن التي تُسَرِّب برودةَ التكييف المركزي».

أعطى ظهرَه للحديقةِ التي تعوَّد أن يُحدِّث أشجارها في فرحه ويُغنِّي لها لتزهر مثيرًا سخرية أولاده، وَلَجَ من باب الصالون العريض، بهدوء ابتلعَ الرخامُ الفاخر خطواته، تجوَّل في فخامة الصالون الشاسع على غير هُدًى، تجاهل أخشاب السقف التي تُزقزق مع كل خطوة تخطوها الخادمة الفلبينية في الحجرات العلوية. هذا السقف نَقَلَه بكامل بهائه من قصر البنت، قمر أربعة عشر التي ابتلع البحر مراكبَ أبيها وتركه مديونًا، لتُضحِّي بالزواج

من كبير تُجّار النحاس، أقبح رجال السوق، لأنه وعد بتسديد ديون الأب، واشترطت مهرها أن يبني لها النحّاسُ القصرَ المعروف بقصر البنت. لم تشترط فرشًا أو زينة، فقط طلبت الوَزْنَة، كبير مُعَلِّمِي البناء في مكة، لكي ينقش سقف غرفتها بيديه. المُعَلِّم الوزنة الوسيم الذي نقش منائر مكة مكشوفةً على كائنات سماوية تتجسَّد وتُسفر عن وجوهها للبشر، لم يعرف اسم تلك البنت التي استحضرته. لكن وما إن بدأ نقش حكايتها حتى وقع في عشقها وصار يحفر لها قلبَه بالأزرق والأحمر، يفتل من شرايينه ويترك لها طيورًا نادرة ويُخفي لها أشطر أبيات الغزل والألغاز المُتأهبة لكي تخرج من مخابئها أواخر الليل لكي تُسَمِّي البنت بكل الأسماء وتُشاغلها. انتهى بناء القصر ولم تنته حركةُ تعريقات سقف حجرة نوم البنت، إذ ليلةً وراء ليلة تتقارب قِدَدُ الساج المجلوبة من غابات سومطرة لتُلملم البنت حين تستلقي رازحة تحت جسد نحّاسها الثقيل. تستدرجها لتلحق بطيرٍ هنا وزهرة ساقطة هناك، وتتعثَّر بالكلمات التي تحملها عن الأرض فلا تنسحق تحت ثقل مُضَاجِعِها ورائحة سجم النحاس تحت أظافره. لا تشعر البنت بثقل الجسد، تغيبُ في العشق الحَيِّ في السقف.

تقدَّم الدكتور السردار العلماني على أطراف أصابعه حريصًا لا ينظر إلى الأعلى، مستشعرًا عينَ البنت التي لا تزال تسري في نقوش السقف وتوشوش بمؤخر عنقه همسًا يخاف تفسيره. طاف يتأمَّل الأثاث الحديث الذي أصرَّت زوجته دالية على اختياره، مزيج من العصري والباروك الفرنسي، يقتله هذا التبعثر الذوقي. بينه وبين ذوق زوجته متاهات. تأمَّل في صُورةِ ابنته مرام، في الثالثة عشرة، حَبّ الشباب يتآكل وجهها، صدرها الناهد في قميص يحمل شعار فرقة skillet المتكونة من البنتين والثلاثة شبان. مكياج العين الحاد الذي يذبح طفولةَ مرام، يحوِّلها إلى كائن بين المرأة والطفلة، «امرأة قزمة!»، ينحشر صوتٌ برأسه متلذذًا بالسخرية منه! التفت إلى الحفرة في الأريكة المواجهة لشاشة البلازما 54 بوصة، حيث تتسمَّر مرام كل ظهيرة أمام برنامج ستار أكاديمي، وفاتورة هاتفها التي

تتصاعد في مواسم التصويت للمُرَشَّحين. برجفةٍ ربما من برد التكييف المركزي تجنَّب الهبوط إلى الطابق تحت الأرضي حيث صمت قبور تُشيّعه السماعات التي اعتزل ابنه وراءها العالم. تَجَنَّبَ أيضًا حجرات النوم الخمس في الطابق العلوي، اتجه إلى حجرة مكتبه يمين المدخل الرئيسي، ولأول مَرَّة أزعجَه تَوَسُّع المكتب العريض من جلد ذهبي.

كعادته كل مساء دخل على صفحته في الفيس بوك، مباشرة لبروفايل ابنه فيصل، تمهل أمام الـstatus، ليستطلع مزاج ابنه اليوم كما يستطلع النشرة الجوية.

كل يوم ابنه في حال تُترجمه الأغاني التي يُدمنها، ولا تسكت. تضُخّ مباشرة إلى دماغه من الـIPod، قرأ:

I can not frame, that's why I lose control, I aim, I stumble and I fall, Our adaptation can't be faithful,Your world does not attract me. This is the end, you see,There's no more truth in me, As if you would deserve it,You are my enemy.

انفجرت تلك الكلمات مثل نبوءة بصدره، أطفأ كمبيوتره، أنصت مجددًا لصدى النبوءة يترجَّع في صمت البيت. بمفتاحٍ صغيرٍ فَتَحَ دُرْجَ مكتبه، شَدَّه بعنف، تقلَّصتْ يده على مظروفين هناكَ، دسَّهما في جيبه وغادر.



كائنات نسبية

مكة، منتصف ليل 4 يوليه 2009

سلك الدكتور السردار العلماني طريق الملك جنوبًا للخط الدائري، متتبعًا اللوحات الإرشادية الزرقاء تُكرِّر بالأبيض (مكة المكرمة)، مخترقًا السبعة والأربعين كيلومترًا بين جبالٍ سُود تتسلقها رمالٌ بلون القمر. كانت الساعة الثانية عشرة ليلًا من مساء الأربعاء. قدمه تخرج عن طوعه، تضغط دواسة البنزين فتنهب السيارة الليلَ لتبعثَ من الإسفلت عيونَ القِطَط وتلاحقه، تنفتح تلك العيون مثل حقل مغناطيسي لتقسر عجلاته على التزام المَسَار الأسرع. حضورٌ غريبٌ يتنفسُ حولَه في برودة تكييف السيارة ويدفعه إلى كسر الحد الأقصى للسرعة المُصَرَّح بها 120 كم في الساعة. على المسار المُعاكس المؤدِّي إلى جدَّة تتلاحق صارخة أضواء العربات متجاوزة كل قوانين السير. تزداد كثافة الغشاوة خلف نظارتيه الثقيلتين، يحفظ الطريق غيبًا وإلا لَعَشِيَ كخفاشٍ وارتطم بما حوله. بدا مثل تيارِ رَفْضٍ في حركته عكس نهر تلك السيَّارات المنفلتة، مشتعلة الرؤوس كالشَّياطين مُغَادِرَةً مكة. مساء الأربعاء موعد الهجرة الشاملة من مدن المملكة إلى جِدَّة المشهورة بباريس الجزيرة. كلما قطع هذا الطريق يراه مثل شريان يضخُّ للمكيين شيئًا من الحرية التي تُمَثِّلها مقاهٍ ومطاعم ومدن ألعاب كورنيش جِدَّة على البحر الأحمر.

على مدخل مكة استقبله دَوَّارُ حي الرُصِيفَة، يتوسَّطه نَصْبٌ من تقاطع دورَقَيْن عملاقين من دوارق ماء زمزم. فجأة بدا الدورقان كعمل فني مفاهيمي ساخر، كجسدين في حالة مضاجعة، جسد يروي الآخر من السُرة مباشرة، رمز للعطش لفراق مكة والذي صار من المستحيل ريُّه بعد أن أُغلقتْ للأبد فوهةُ بئر زمزم بصحن الحرم، وصار الماء المعجزة يُضَخُّ

بمضخات عبر مواسير. يفكر السردار العلماني بالمقال الذي قرأه من أن الماء يتأثر بالضخ، وتتكسر ذرّاته وتعاني صدمات من المعالجة الصناعية. تنهبه فكرة الماء المقدَّس المصدوم.

لا يضيعِ المكّيّ لأن زمزم سيفور بقلبه ويرجعه لبيت الله، زمزم المصدوم يفلّت جذور المكيين أمثاله، تتضخم عيون القطط بالإسفلت، تطارده حتى بوابة القصر القديم في حي النُزهة العريق جنوب مكة، أطفأ المحرك، مَدَّ يده لمقبض باب الليكزس ثم تراجع، بقى في سيارته لا يجرؤ على التَرَجُّل خوفَ أن تنشب بقدميه تلك العيون، لم يعرف كم مضى عليه في جلسته بسيارته أمام باب القصر المهجور. شعر بصخرة تتشكّل بصدره مكان القلب، حوطت قرنيتيه دائرتا قتامة. قبل قرون أعلن جَدُّه الحادي عشر بأن «مغادرة مكة خيانة روحية»، عبارة بقيت مُصلتة على أعناق أحفاده كسيفٍ، فلم يجرؤ أحد منهم على بيع متر من أملاكه أو مغادرتها، إلا قبلِ عام فقط، حين نفاه بيتُ الله. ذهبت بيوت أجداده في التوسعة، وتحوَّلَ التراب المكي إلى ملايين في حسابه البنكي. حينها أغلقَ قصرَ عمّته الموقوف للخير وتحوَّل لسكنى الفيلا الفاخرة بمدينة جدة بطريق الملك على البحر الأحمر.

لم ينتظر أن يُفتَح له، يعرف أن صالح، السائق اليمني -وبغياب سيدته منذ عقد ونصف من الزمان- قد تحوَّل إلى شبحٍ، وكَفَّ عن مغادرة حجرته، لا يفتح مهما زعقتْ أبواق السيارات وتَتَالَى الطَرق على الباب.

أخيرًا، وحين جرؤ على الترجُّل، استقبله قفلُ القصر القديم ببرودٍ. فَتَحَ ووَلَجَ لهجر أصفر، أرضُ الحديقة تُهسهس بصفرةِ أوراق شجر الجوافة والحناء التي تموت ببطء، وتُرَقِّط السيارةَ العتيقةَ المتوقّفة منذ رُبع قرنٍ هناك: Rolls-Royce Hooper Cloud Empress 1956 (R /S /R). تأمَّلَ في بياضها الذي حال إلى الصفرة بينما تعتَّقت حمرة نبيذها بالزمن، يتلملم الأحمر على السقف وغطاء صندوق السيارة، ويجري سائلًا بمَيَلان أنيق على الرفرافين الأماميين، تاركًا للبياض أن يسيح كقناع على غطاء

المُحَرِّك قاطعًا بمنتصف البابين واصلًا إلى الرفرافين الخلفيين بحيث لا يُظهر من طاستيّ العجلتين غير هلالِ بياضٍ يمسُّ برشاقته الأرض. كانت أول رولز تدخل مكة كعجيبةٍ في بداية الستّينات.

أشاح السردار العلماني النظرَ عن تلك الجميلة النائمة في الهجر مع جارتها الكرايسلر الفضية Chrysler Imperial Crown Coupe 1957، والتي عاصرت مغامرات مراهقته. تَجَاهَل أيضًا الهيكل الثالث للسيارة المُحْتَرقة، والذي تلبَّد عليه غطاءُ القماش الأخضر كجلدة ثانية. ظلت السيارات تلك قائمة مثل بؤرة وجعٍ بما تختزنه من ذكريات.

سارع محتميًا بدهليز القصر، عبقٌ قديم هبط بحنانه على قلبه، يشعر بأعين الأحياء والأموات تتابعه وتترقَّب مُتَخَوِّفَة من حلول مستأجر غريب. كل حجرات القصر المنقوشة الأسقف بأقواسها العالية فارغة، عدا تلك الحجرة المخلوان بآخر الممر لليمين. هذا الوكر الذي امتصَّ طفولتَه المتأخرة ومراهقته وشبابه. قُفْل المخلوان احتاج وقتًا ليسمح بدورة المفتاح. تقمَّص المراهقُ الذي كانه، بيد مرتعدة دفع الباب ولوهلةٍ قَاوَمَته عتمةُ الداخل.

اندفع بين أجساد فرعونية، لفتياتٍ فاتناتٍ وعبيدٍ يحملون على رؤوسهم الشمعدانات. صفوفٌ من تماثيل دقيقة حَدَّقت مُصَوِّبة شمعداناتها الشمعية حوله. على النافذة الوحيدة بدت الستارة العريضة من مخمل أحمر أثقل وأثقل بطبقات الهجر والصمت، هذه النافذة التي لم تُفتح قط، والتي تحجب عيون الجيران التي استماتت للتلصص عليه طوال فترة شبابه. كبر بيقين أنه مرصود، كما كانت أمه مرصودة هي أيضًا، ربطة وسواس جَمَعَتْهما هنا.

اقشعرَّ جسده بحُمرة الحجرة المُكَدَّسة بالتماثيل. وقف مواجهًا للأريكة التي لفظت عليها عمَّته آخرَ أنفاسها، أريكة من مخمل أحمر زاهٍ مدبوغة ببصمات أصابعهما. بوسعه تتبُّع ريق احتضارها ممزوجًا ببقايا عطرها «أوبيوم»، شيء من زيت زهرة الخشخاش حين دلَّكها قبل عشر سنوات ليلة موتها. «الخشخاش يقهر الشيب في الشعر والقلب». الوصفة التي رجع بها من عجوز مُعَمَّر في أَزِقَّة الحُسين بالقاهرة.

لم يجرؤ فيُغَطِّس أصابعه كما اعتاد في حمرة المخمل. الحركة التي رافقته في اضطرابات المراهقة، حين كان المخمل له مثل ثدي أم يبسط عليه راحته ويُسَكِّن حوله الكون.

أخرج المظروفَين من جيبه. بأصابع متجلدة ترك أحدهما على الأريكة، تمامًا على بقعة الدهن التي تركها شَعْرُ عمَّته حيث تُوَسِّد رأسها، بينما من الطاولة الجانبية تناول طبق الدخان، تُوتياء أزرق فيه علبة برسمة روميو وجولييت، تُجاورها علبة كبريت أبو شُعلة، ربع سيجارة بقيت جافة بقلب العلبة، بالكاد أشعلها قبل أن تتفتَّت ووقف ليَعبَّ حريقَها، يمتص فيها لعاب عمّته الذي لَحَمَها منذ عقد من الزمن، بينما انهمك يقرأ للمَرَّة الأخيرة الرسالة في المظروف الثاني. بوجهٍ سقطت كل ملامحه فَكَّر فجأة بإضافةِ تَعديلٍ ثم عَدَلَ عن ذلك، ترك سِنُّ القَلم نقطةً بأول سطر، فرك رمادَ السيجارة بين كَفَّيه كعطرٍ حتى تلاشى في مسامه. بهدوء حَشَرَ الرسالةَ في المظروف وبلسانٍ جافٍّ بالكاد استحلبَ من مذاق السيجارة ما يُغلق به الرسالة.

ترك الرسالتين جنبًا إلى جنب مثل بقعتي ضوء على قتامة مخمل الأريكة الأحمر، انحنى وبقلمه الأنيق كتب على الأولى: «إلى من يهمه الأمر»، وعلى الثانية كتب: «إلى هيئة كبار العلماء»، وشقَّت وجهَه ابتسامة أقرب إلى تكشيرة.

بشكل آلي ابتعد، مُلقيًا بنظرةٍ أخيرة على المظروفين، جَرَّ السلّم المعدني من مخبئه وراء الباب، فَتَحه في وسط الحجرة.

ارتقاه ليربط شماغه المُرَقَّط بالأحمر حول عمود الثريا المتدلية من السقف، جحظت أعينُ النوبيّات ترقبه بينما شَدَّ متأكدًا من قوة احتمال الثريا. فجأة انقطع التيار الكهربائي، وللحال اندلعت حركةٌ مُباغتة في العتمة: صوتُ سقوط السلم، صوت مقاومة في العتم، تخلخل في تيار الهواء في الحجرة الراكدة، حشرجة أقرب إلى فحيح زاحف رسمت دوّامة في وسط الحجرة صاعدة لسقفها، للمحةٍ دَبَّتِ الحياة في الأرض والجدران، جاشت الصور والتماثيل، طفح دمُه بأخيلةٍ من حُمرةٍ وسواد، لحظات وسكت كل شيء كما انبعث فجأة.

تمثال إضافي يحمل ثريًا مكة

7 يوليه 2009

أكان ذلك صباح اليوم الثالث؟ غيابه غير المألوف ليومي الأحد والاثنين عن مكتبه في الجامعة لفت النظر لاختفائه.

سيارته أمام باب القصر المهجور بحي النزهة في مكة. عدم ظهوره أثار التساؤلات. وحين علا الطرق والتكسير على باب المخلوان امتصَّه مخملُ الستارة الأحمر، وفاحت رائحة عطر الأفيون تُعَزِّزُ ركودَ المخلوان، وبقلبه انتصب نوري ساكنًا مُعَلَّقًا كتمثالٍ في الهواء يحمل الثريا الضخمة على رأسه. حين انخلع الباب لم يطرف له جفن. وحين أضاؤوا الثريا تفجَّرت بعض مصابيحها، وهَطَلَ زجاجُها وأنوارُها على الجسد الذي سَرَقَ الأضواءَ عن فتنةِ الفرعونيات الحاملات للشمعدانات.

العيونُ والشهقاتُ التي تدافعت على التوالي في المخلوان، لم تُعَكِّر جحوظ عينيه، كان عزرائيل يطل عليهم من وراء نظارتيه الثقيلتين تتشبثان باستماتةٍ بأرنبتيّ أنفه.

عويلُ وفجيعة زوجتِهِ وابنته، صَفْقَةَ الغضبِ على وجه ابنه ابن الخامسة عشرة، مشاعرُ متضاربة قارسة حامَت كذبابٍ حول قدميه المعلقتين في الهواء.

بدا على رجال الشرطة الترَدُّدُ خوفًا من الصعود إليه، وتَوَسَّطَهم ينظرهم من عَلٍ بينما اشتعل زئبرُ شَعْره بهيجةِ أنوار الثريا، اضطروا للطلب من الزوجةِ المغادرة واستغرقهم الأمرُ دهرًا لالتقاط البصمات، مؤجِّلين إنزاله الذي ربما لم يعد ضروريًا. بدا مُحَنَّطًا هناك مثله مثل الستائر الثقيلة على

نافذة المخلوان الضيقة، مهمة الستائر أن تُعتّق عطر الأوبيوم فلا تسرّب الضوء لتركيبته، وذلك مُذْ عُلِّقَتْ قبل ما يزيد على ربع القرن.

ظَهَرَ «عباس الزيبق»، الشاب الأسمر، بملامحه الإغريقية ضمن الفوضى حول القصر، حَامَ لا يجرؤ على الدخول ليشهد الحركة المذهلة التي أقدم عليها قرينه نوري. تتكاثر سيارات الشرطة والإسعاف ومَنْ حَضَرَ من إخوته. سيارة الليكزس تقف معترضة البوابة كساتر. في محاولةٍ للاختراق يدور حولها الجيران وجموع الصغار، يسترقون النظر من البوابة المشرعة لما يجري في الداخل.

لَمَحَ ذلك الطفل في الثامنة الذي خرج يركض. زاغ يراوغ من بين الأقدام والموانع نحيلًا كأنما انفلتَ من صُوَر الأفارقة المُعَلَّقَة بالمخلوان. تبرق عينا الطفل بالنظرة التي استرقها للضحية،

«وَلّ عليكَ قلبكَ حديد!»، جاءَ ردُ فِعْلِ الجَار على النشوة التي أخذ يروي بها الطفل ما رأى.

في لمحةٍ سَرَت الحكايةُ لما وراء النوافذ المحيطة ونَقَلَتْها الهواتفُ الجوّالة باستفاضة. حين انحسر الاهتمامُ عن الطفل اقترب عباسُ منه. لم يظهر على الطفل أنه يرى شبح عباس الواقف أمامه، لكنه شعر ببرد الموت يلفحه. اصفرَّ وجه الطفل وضرب بيديه متراجعًا إلى الوراء. سقطت بينهما كاميرا عباس المخفية في ساعة اليد الضخمة التي جعلت العائلة تُشَكِّك في رجولته لشَبَهها بالساعات النسائية. لم تفارقه تلك الكاميرا مذ رَكِبَه وسواسُ الأفلام التسجيلية، وغالبًا ما كان يستعملها حيث يحظر التصوير في مجالس العائلة أو حول الحرم.

سقطت الكاميرا من ثياب الطفل الذي بلا شك قد سرقها من ممتلكات المشنوق في المخلوان في غفلة من رجال الشرطة. استجمع الطفلُ شجاعته، وكأنما خضع لرغبة الشبح عباس في مواكبة الحوادث في الداخل. بتحدٍّ التقط الطفل الكاميرا وانطلق راجعًا مخترقًا البوابة.

مُحتميًا بفوضى المفجوعين ظَهَرَ الطفل على باب المخلوان، وكانوا قد ألقوا بغُترةٍ أحدهم على الوجه المُعلَّق.

بدا المشنوق مثل رجل يلفُّ طرفَيّ غُترته حول وجهه محتميًا. انزلق رُكنا الغترة من على الرأس قليلًا ليكشفا مَقْطَعًا طوليًا يُظْهِر الأنفَ والعين اليسرى تتلصص، حركة متلصّصة من المشنوق غافلت الموجودين في الحجرة.

رغم الموت تسمَّرت عين الطفل للبياض في العين التي ترقبه من الغترة، تخلخلت مفاصله بنشوة وخوف، أراد أن يصرخ منبّهًا المجتمعين بأن المشنوق يراقبهم... بخبث دارَ الجسدُ ملليمتراتٍ صوبَ الباب ليسمح للطفل باختلاسِ لقطاتٍ لوقفته في الهواء مشتعلًا بالثريا.

كلما انغلقتِ العدسة على المشنوق في الداخل ضربتْ جسدَ عباسٍ في الخارج شحنةٌ كهربائية، وفجَّرتْ بجسده مشاهد من حياة نوري، الرّجل الذي كان رافقه كظلِّه. هَبّتْ ريح السَمومُ صفراء، وشَعَرَ برملها يكحت مفاصله وينبهه لخفَّته العجيبة،

«لا يزال الجسد حارًّا، الأرجح أنه كان لا يزال حيًّا لدقائق قبل دخولنا»، قال الضابطُ بينما يقف عاجزًا أمام الرسالتين اللتين تركهما نوري على الأريكة الحمراء، «باعتقادي أنّ في الرسالتين الدليل على أنها خيرة اختارها لنفسه، الله يغفر له». ولم يجرؤ على فتحهما.

انفجر مفهوم الانتحار برؤوس إخوته. تشاغلوا به عن حقيقةِ أن الجسدَ لا يزال حارًّا، مما يُشير إلى أن الشنقَ غير المُحترف أطالَ فترةَ النزع. وانعقد لسان الطفل يريد إبلاغهم بأنه: «لا يزال يتحرك».

بدا عباس محبوسًا في الخارج بخفة تُعجِزه عن التحكُّم بجسده، لا يستطيع توجيه قدميه إلى الدخول للتأكد مما إذا كان نوري لا يزال يحشرج، بينما استعاض الطفل عن الكلام بلذة أن يلتقط صورًا للمكان وتماثيله والصُوَر المُكبَّرَة على جدرانه كترجيع لذلك النزع. وقف عباس مثل شاشة سينما تسقط عليها الصور التي يلتقطها الطفل في الداخل،

والمُلَخَّصة للتسجيلات التي صوَّرها مع نوري لعائلته عشوائيًا من العام 1946 حتى العام 2008، من عشرات الساعات كان قد اختار حبكةَ نصفِ ساعةٍ تَمَّمَها في فيلم تسجيلي قصير مع صديقه جورج، المُخْرِج اللبناني، لتقديمها لمهرجان البندقية السينمائي.

وجَرَفَتْه عناوينُ الفيلم خاطفة بلون فوسفوري أخضر: «نورية آلا جارسون ترانسفورميشن»، «حرم الباشا الإسطنبولي/ نواة فيلم وثائقي»، «أم كلثوم، أسطورة مكية»، «شيزوفرينيا / كرامات العائلة»، «عين العقل الله يِبَرِّد قلوبكم شاي بعطر دوش من الروضة»، «كَفَن مزراتي»، «مَرْمَطة موديرن»، «إللي ما يهمَّك وَصَّي عليه زوج أُمّك».

تجاهل عباس المشهد بعنوان «الشماغ والغترة: حلول جذرية». لربما يحوي اللحظات الأخيرة التي انتهت بتدلّي نوري هكذا من الثريا!

لكم يكره تشوّه جماله المصقول! جحوظ العين المخفي في الغترة يُعَمِّق حاجة عباس

للحنان، فكر في انحراف ذلك السيناريو عن هدفه الجمالي والإنساني، مشهد الشنق والثريا ربما مُبَالَغ فيه، وربما ينفِّر المشاهدين المرهَفين أمثاله، نوري ربما يعشق تلك التراجيدية المتطرّفة، أما هو، عباس، فيحب العمق الثقيل مثل الماء الثقيل الذي تُستنبط منه القنابل الذرية. فكّر في محو كل ذلك السيناريو والبدء من جديد، من الواقع الأغرب من الخيال، بمجرد نية التغيير بدأ شريطُ الحوادثِ يتوالى، وجَرَفَه لمشاهد قديمة من حياة عماته نورية وحورية وسُكَّرِيَّة. وخصوصًا رائحة الكاز التي تحرق حواسه العارية في وحدته أمام جثمان نوري.

حامية كالكاز الذي صبَّته عليها أمها

مكة، 1946

قُمريَّة في الحادية عشرة، في جامتها مكشوفة الوجه تتبع والدها الشيخ مصطفى السردار، تُعَفِّر أزِقَّةُ مكة المُتْرَبَة قدميها في الصندل الأزرق الفيروزي، تحمل البنت زنبيل المقاضي الذي يطفح بالخضار راجعة تتبع مصطفى السردار من حلقة الخضار بسوق الصغير. تمشي وعيناها على كل ما حولها تشرب من غرائب السوق. يتوقَّف بها مصطفى السردار أمام حانوت الحنوطي مرزا مُجَهِّز الموتى. تضع قمرية قدمها اليسرى على اليمنى لتخفي الفيروزة التي سرقتها قبل أيام من بسطة بائع السُبَح وطرَّزتها في صندلها. سحرتها تلك الفيروزة ما إن سمعت بائعَ السُبَح يخترع حكايتها،

«هذا قلب الملكة نفرتيتي، كان الفراعنة يرمونه في نهر النيل حين تقلّ الأمطار ويقلّ جمال المواليد البنات، ما إن يلمس قلب الملكة الماء حتى يذوب في كوبيا زرقاء ترفع ماء النيل وتكثِّر البنات العسل، وتتقاتل على أحلاهن التماسيح».

تَلْفِت السردار الحركةُ غير العادية على طلب الأكفان:

«كأن عزرائيل لَفَّ مع الضحى على مكة ووَجَّبَ؟».

يرفع المرزا رأسه لتحيته متبسِّمًا، بينما يناول على عَجَلٍ كَفَنَ طفلٍ للزبون الشاحب. الأكفان مصفوفة على الأرفف وفقًا للمقاسات: الرف الأكبر لأكفان الشبان حيث وفياتهم هي الأكثر، والأصغر لأكفان الشيوخ، أما رفّ الأطفال فهو الذي تظهر فيه التقليعات، فتتلوَّن أكفانه بتطريزات كأقمطة المواليد. ملحق بكل كفن صُرَّةٌ تحوي تركيباته العجيبة من الورد والكافور وأعشاب يجمعها المرزا من جبل الرحمة بعرفات حيث ينزل الله

كل حجّ، ويُخَمِّرها بِرَشَّةِ رمادٍ، ويعتقد في تلك الرَّشَّة سرًّا يحفظ الميت من أن يتآكله الدود، وربما من حساب الملكَيْن مُنْكَر ونكير.

ويَتَرَيَّثُ المرزا بينما يُجَهِّزُ للشاب الآخر لَفَّةً كبيرة من البفتا البيضاء، «الشيخ البنَّا، شيخ الأساطين، رحمةُ الله عليه طلعتْ روحه هذا الفجر ولا بد سيدفنونه مع صلاة الظهر، وتعرفه ما شاء الله كان الجسيم النُزَهي». ويزن بين يديه غطاء الكفن، يختاره فاخرًا أقرب للسجادة، فاقع الزرقة، تتفاوت سماكة أغطية النعوش وفقًا لرفاهية الحياة التي خاضها الجثمان. خفيفة للدراويش وأهل الله، وثقيلة فخمة لأهل الدنيا ووجهائها.

يتأمل مصطفى السردار في جسد المرزا الذي تحنَّط مما يجعل من المستحيل التكهُّن بعمره. تتذكَّره المُدَّعَى وكأنّه مُنذ الأبد في ذاك الحانوت، يسجّل أسماء مواليدهم على ورقة مثل روزنامة مثبتة وراءه للجدار، وتتمدد في قوائم واصلة للأرض لزبائن حتميين، حيث إنّ كل مولود مصيره للكفن. بينما يحتفظ بسجل طريف لأولئك الذين ماتوا أكثر من مرة، وتم تكفينهم ثم قاموا وجلسوا في نعوشهم المحمولة على الرؤوس وأفزعوا المشيّعين، أو نهضوا من قبورهم بعد أول رشّة تراب! يترك المرزا سجلّه ذلك على غطاء زير الماء يمين باب الحانوت، كل من يصيبه الخوف من الموت أو اليأس من الدنيا يأتي ليقف بصمت ليقرأ حكايا أؤلئك المبعوثين، ويقولون بأن المرزا يضيف إلى تلك القصص طرافات من أطلق ريحًا على رؤوس المشيّعين، ومن انقضَّت على نعشه المحمول حدأة نقرت وجهه فصاح قائمًا ليعمِّر لأعوام. لا نهاية لتلك الصفحات المصفرّة والتي تتوالد من تلقائها ويزداد سُمْك المُجلّد برائحة المسك الذي يخلطونه في الكافور لتخفيف الحزن، حيث لا يمكن الاستغناء عن الكافور الموصوف ليطفئ خصوبة الموت، فينثرونه على الميت فلا يجرّ أهله وراءه للقبر.

لا تفوت «المرزا» عين السردار التي استقرّت على لَفّة القطن التي أضافها:

«ابن آدم ما لم تسدّ شرجه يستمر يبلع ويفَلِّتْ»، ويضيف للبقجة ليفة الغُسل قبل أن يربطها ويدفعها للشاب، ويَتَوَجَّه لمصطفى السردار،

«ليف وصلنا من قاع الحبشة، يكشط برد عزرائيل عن الموتى»،

يتوقف المؤذن العجوز بكتاب المرزا، يُقَلِّب الصفحات كعادته كل يوم، يلصق الصفحة بأنفه ويقرأ لكي ينتقي من تلك الحبكات حبكة نجاته من الموت، اعتاد المرزا أولئك الذين يقفون على كتابه، يختارون الحبكة التي سينهضون بها من موتهم، بعضهم يتوسَّع فيقف بجرأة بقلمه، يضيف صفحات من تأليفه أو أمانيه، المرزا لا يكتب إلا على وجه الورقة ويترك ظهرها فارغًا كباب يسمح للأقدار أن تتجدد وتعيد كتابة خواتيمها، وبعض القراء يقطع جزءًا أو صفحة كاملة من تلك الصفحات، ويسرقها ليدسَّها تحت وسادته حتى يستظهر حبكتها ليلعبها بعد موته. يتخربش الكتاب بكل أنواع الخطوط وتهويمات البشر الفانين، والذين يناورون ويستميتون للانزلاق من كف عزرائيل حتى بعد أن تُطْبق على أرواحهم.

«ليت ليفك الحبشي يكشطه عنا نحن الأحياء يا مرزا». يقول السردار. يتحمَّس المرزا، «يا ولد كفن هات عيِّنة النيل الأبيض»، يهمز ابنه الذي يسارع في ثوبه الأصفر الليموني ليناوله مجموعة من الليف المُكَدَّس بركن الحانوت. لاحظ السردار كيف تبيَضّ عين المرزا حين ينظر لابنه، سمّاه «ولد كفن» لكي ييأس منه الموت، كل مواليد مكة مسجلة أسماؤهم في قوائم المرزا عدا ابنه «ولد كفن»، مما يثير سخرية سوق المُدَّعى التي تتشاءم منه لحدائه العذب للنعوش التي عَبَرَت أزقتها. الحداء الذي يوحي للسامعين بأن الجنازات قوافل سفر سعيدة، ويغريهم باللحاق. «ولد كفن» معروف بضعفه في بياض الأكفان، مذ وُلِدَ وكلَّما قَمَّطوه في الأبيض ركبته حُمَّى، حتى كاد يهلك، وعرضوه على السيد المبروك ليمونية فأفتى بكسوته بالأصفر الليموني، علاجه المعروف لكل العاهات، قال:

«لون الحياة الذي رجع به خُدَّامنا الجِنّ من بِرْكَة سيدنا الخضر الوارد عنه في القرآن بأنه أخضر ليموني ولا يموت!». ومن يومها تَلَبَّسَ «ولد

كفن» بالليموني ليصير سخرية شبان مكة في ثيابهم البيضاء. كلما أقبل على جمعهم بادروه: «يا واد يا صفاري يا حامض لا تتسحَّب بين البيوت، الله لا يحمِّض الدنيا في حلوقنا».

بيد بالغة الطراوة ينتقي المرزا للسردار ليفةً بطول ذراع، يناوله إياها مع صرة حنوط من الكتان يستخرجها من حزامه، ويقدّمها غامزًا،

«انقعِ الليفة في هذا الحنوط لماء غُسل الجمعة، خمس جُمَع وأدعُ لنا بالبركة. تكشط عن راجلك الصغير الوَخَم، ترتوي العروق ويقوم الهامد».

يتناولها السردار ساخرًا، «ما ينفع الدوا، في صُرم قد هوى».

يبدو الحَرَج على وجه ولد كفن، تُحرجه تركيباتُ أبيه وقناعتُه بتأثيرها في إعادة الفحولة، يُحَوِّل مجرى الحديث لزنبيل المقاضي بيد البنت قُمْريَّة، «زنبيلكم عامر بالكُرَّاث، لعلَّ طبختكم اليوم عيش بلحم».

يضحك مصطفى السردار مُؤَمِّنًا، «بعد صلاة الفجر مَرّيت على فرن الخبّاز شلضوم ووَصَّيت على خميرة العيش للجماعة، ولا بُدَّ أنها الآن خمرتْ وطافحة».

ينظر الشيخ مرزا بحزن للبنت الرازحة تحت ثقل الزنبيل، «الله يحفظ لكم». يُخْرَج مصطفى السردار، «هذه بنت الجارية، أمها كبرت في بيتنا».

بضيق ونفاد صبر تقلقلت قمرية من قدم لأخرى، يُخْرِجها أن يتركَّز الحديث حولها، تشيح بوجهها إلى اليمين لسجل المبعوثين على الزير، بإصبع كسول تُقلِّب صفحة، وتتشاغل بتَهَجِّي الكلمات. تهبّ نسمة تقلب تحت بصرها الصفحات، تلحظ تكرار كلمة: «استأنف»، تأتي تلك الكلمة دائمًا في أسفل كل صفحة ومائلة للركن. غافلتهم ومزقت ركن الصفحة بالكلمة وألقتها إلى الطريق. وفاتتها بقيتها «استأنف رقيب وعتيد التسجيل». انتابتها قشعريرة حين مضغت ركن الصفحة تلك القطة العوراء وابتلعته، بحدس خفي وَعَتْ بأنها قد ضحَّت لتوها بفرصة للاستئناف.

يقاطعها اقتراح «ولد كفن»: «والله لو نزَّلتها الدَكَّة تعطيك وزنها ذهب صافي».

تمرُّ العينُ خاطفة على براعم جسد البنت، وتصدّها قُمْريَّة بنظرةٍ ساخرة لثوبه الأصفر الليموني. اخترقتْ نظرة قُمْريَّة الساخرة كبَرْقٍ بصدره.

يعلو صوت السردار، «دكة إيه يا ولد كفن؟! هذه وُلِدَت تحت سقفنا وربَّيناها بنت من بناتنا، وإن قَدَّرني الرحمن ما تغمض عينها إلا في بيتنا وبين أخواتها».

يتنحنح المرزا بآخر الحانوت مُحَذِّرًا ابنه من الاسترسال في ذلك الحوار، بطرف عينه ينزلق الشاب على بشرتها النحاسية اللامعة، والأهداب التي تضرب للحاجب، وتنعس على عين الغزال المشقوقة بلون البندق والمُكَحَّلة بكحل ربَّاني، تَفَصَّدَ العَرَقُ بمؤخر عنقه لتلك الشفة الممتلئة بكرَم، واللسان الأحمر الذي يمرّ باضطراب ويرطّبهما، فَكَّرَ:

«هذه ولعة الكاز اللي انصبّ على البنت»، واشتعلتْ بجوفه.

انطلقت شائعة «ولعة الكاز» تلك من النواح الذي اندلع منذ عشر سنوات مرات ومرات ليشقّ صمت الليل ببيت السردار، والأشباح التي لمحوها بجوف الليل تندفع فجأة على سطح ذلك البيت المهيب: عرفوا خيال الجارية فرح والتي لم تكمل أربعين ولادتها للقُمْريَّة تركض إلى السطح حاسرة الرأس، تحمل الوليدة قُمريَّة بيد وصفيحة الكاز باليد الأخرى، تضع البنت على أرض الطيرمة، وتصيح لكي توقظ الجيران: «الله شاهد»، وتصب الكاز على الجسد الصغير، وتندفع حورية كبرى بنات السردار تختطف البنت قبل أن تقدح فرح عودَ الكبريت. يسقط العود الملتهب ويوقد نارًا يسارع لإطفائها الأولاد الذين تدافعوا للمشهد، لكنّها كانت كافية ليرى الجيران ملامح الجارية النفساء، تنهار على قدمي حورية الحاملة لابنتها، تنوح:

«ما أنساها لكِ ما عشتِ يا عَمَّتي حورية». تحاول تقبيل قدميها لإنقاذها الرضيعة من جنونها. ترفعها حورية بلطف، وتسارع بالوليدة قُمْريَّة إلى حَمَّام السطح، تخلع كوفلتها المُغرَّقَة بالكاز وتغسل عن جسدها السائل الخانَق، وتُغَطِّسها في صفيحة ماء الرماد المنقوع لغسل شعورهن، تفركها برغوته، والرضيعة ساكنة كزبدة مطواعة، تلاحقها فرح ككلبة موجوعة

تنوح، بينما تنتقل حورية بقُمريَّة لناموسيتها. لا تصرخ الوليدة مخدَّرة بالكاز الذي ملأ رئتيها، عيناها شقّان رفيعان يتحرك وراءهما البؤبؤان ببطء على الوجوه الفزعة حولها، وعلى وجهها ابتسامة غائمة.

تنحني حورية عليها لساعات ترقبها: «والله البنت شكلها سكرانة ومُكَيَّفة!».

ضحكتها الحنون تُخْمِدُ النارَ بحدقتيِّ فرح وتركع أمامها لا تجرؤ على مدّ يدها لابنتها: «أحسن لها الموت ما دام ناكرها».

تُنصتُ البناتُ من الناموسيات المحيطة، وتحاول حورية طمأنتها: «ولا يهمك، البنت بنت البيت، سواء اعترفَ أبويا بها أو أنكرَ».

«في الأول لَبّسَها لأخوه، قال: قُمْريَّة ما هي من صلبي، ولا بدّ من صلب عبد الشكور! وعبد الشكور لا له في الجَمل ولا بما حَمَل. وبعدين بعين بجحة صار يقول: ما هي من صلبي ويسكت!! يعني بنت مين؟ بنت الجن اللي في البيت ولّا الهوا؟!».

«البنت بنتنا وأختنا ولا يهمِّك».

«والله يا حورية أنتِ من حور الجنة، والقلب الكبير في البيت، رجال على نِساء كل ما دَقَّتْنا شوكة جرينا لك. كلك عقل، وأنت عارفة معنى إنكاره، والله الموت أستر لها».

حورية هي كبرى بنات مصطفى السردار، وجميلة جميلات مكة، تتناقل الخاطبات بمدن الحجاز أوصاف قامتها الرشيقة وعنقها الطويلة كعنق غزال وأنفها المُسَمْسَم. ينسجون الحكايا عن عينيها اللتين فيهما الشجر والسماء محلولة، وعن ماء النور المترقرق تحت جلدها. تتعمَّقُ الزُرقةُ بعينيها وتهبط لصوتها هدأة كهدأة الليل تنزع فتيل الجارية المُلَوَّعَة:

«أبويا خائف أمي تزعل كونه استملحكِ وأنتِ فرح بحق، معجونة بعسل. لكن مصيره يعترف».

تصبّ وتسقيها الشاي بنبات الدوش العطري المجلوب من بساتين المدينة المنوّرة لكي تُبَرِّد حرقة قلبها.

بعدها تكررت رائحة الكاز التي توقظ سوق المُدَّعى فجأة. تدرّبت حواسُ الجيرانِ على التقاط تلك الرائحة، مع خيال حورية التي تنام بعين وتُنصتُ بالأخرى لنوبات جنون الجارية فرح. تعرف باقتراب النوبة من تَصَاعُد قرقعةِ القدور في المطبخ، ومِنْ حِدَّة الفلفل الأسود في الطبخ، وحين يكتمل القمر ويشقّ من الخارجة الخلفية لقلب المطبخ حيث ترقد فرح، عندها تُبلغ أخواتها البنات غامزة بأن: «القمر يُقَلِّب القدور وحامية طاسته». إشارة لتشديد المراقبة على فرح، التي تنجح دائمًا في مُغَافَلَتهم، ودائمًا تبلغ الطيرمة بتنكة الكاز في يد والرضيعة قُمْريَّة في يد، وتُكمل صبَّ الكاز حين تندفع حورية من عميق نومها وتختطف قمرية قبل أن يبلغ الكبريت المشتعل كوفلتها المُشَرَّبة. ورغم جنون فرح إلا أنها حملتْ لحورية جميلَ تلك القفزات لوقف جحيم جنونها وخطف قُمْريَّة من موتة كانت ستحوِّلها لفنار بطيرمة السردار.

وتعالت شكوى فرح التي لم تجرؤ على إسماعها لظالمها:

«يعني سِتِّي سكينة ما يراودها السؤال أنا جبت البنت من فين؟! مريم العذرا وِلْدَتْ من غير ما مَسَّها إنس ولا جان؟ وأنا ما شفت باب الطريق من يوم اشتريتوني بِزْرَة من الدَكَّة من عشرين سنة. أُشهد عليه الله، دمه ولحمه هاملها وناكرها. أنا ما لي حياة في بيت بنتي فيه مقطوعة من أصلها. يا تموت وترتاح، يا تاخذوني للبقيع أستجير بالحبيب محمد وأترك لكم لحمكم ودمكم بيعوه».

كلُّ المُدَّعى كانت ترقبُ تلك الرضيعة قمرية التي كبرت فتنة. في رَوْحتها وجيئتها كل صباح تحمل ذلك الزنبيل وتتبع السردار، وأينما اتجهت لها عين سارع مصطفى السردار لتكرار إنكاره:

«قُمْريَّة بنت البيت، نعم، لكن ما هي من صُلبي»، عبارة مرتعشة بخِزْيٍ تحميه من غضب زوجته الهانم سكينة.

تجمع قُمْريَّة وصفات المرزا. تمد لسانها لبنت الصفدي، تُهدِّدها بفضحها حين تتلصص من وراء قلاليبها لتغمز بائع اللبان المليح أسفل

روشانها. تحت أنظار السوق التي لا ترحم تعلَّمت أن تمشي بشظايا الحصى في صندلها الفيروزي ولا تنحني لنفضه.

«ما تعلمت إلا الـلَعْوَتَه والمُقاوحة والنِطَاح من نَزْلَتها للسوق».

شكوى الجارية فرح تُلَخِّص العدوى التي التقطتها ابنتها من المُكَاسَرَة والمساومة وكيف تُبالغ وتُخفي العيب، بعطش تشرَّبَتْ قمرية غرابة وقسوة السوق، والأهم تعلمت كيف ترد نظرة الرجلَ بالتحديق في عينيه بوقاحة مماثلة، أو بسخريةٍ حتى يُغْضِي.

تغيب عيناها وتخطف بلمعتها قلبَ «ولد كفن» ابن الحنوطي، تعبث بإصبع قدمها بالفيروزة المسروقة على صندلها.

«يا بنت ارفعي الزنبيل بلا رخاوة»، يُقاطعها أمرُ أبيها، تشعر بالغيظ في صوته، تعرف أن كلامه مُوَجَّه لولد كفن ولها هي، ولكلٍ تدويرة تتبرعم على جسدها تلفت الأنظار إليها! تتبعه، بينما يَسوّد قلبها بكُحل عين «ولد كفن»، تُغافل أبيها وتلتفت رافعة صندلها لنظرته التي تلاحقها.

«عينِك قدَّامِك»، يصفعها والدها مُوَبِّخًا على باب المجلس بدهليزهم، في محاولة يائسة لانتزاعها من تلك الأحلام التي لا سلطان له عليها.

«لا تاخدي في خاطرك يا بنتي يا قُمْرِيَّة»، يبرزمن المَقْعَد عن اليسار عَمُّها عبد الشكور، يطبع على رأسها قُبْلَةً مُواسية.

تقفز الدرجات ثلاثًا فرارًا من عين أبيها المُضَيِّقَة عليها.

«يا مصطفى يا أخويا حرام عليكَ، بنتك الرمانة في صدرها، ومُجرجرها في الأسواق وسادر في إنكارك».

انحطَّ مصطفى على الدكة لا يحير جوابًا: «ترا عزرائيل أقرب لنا من حبل الوريد، في دقيقة تغمض عينيك وتروح ويبقى ذنبها في جنبكَ. سكينة أم أولادك عارفة، وكلنا عارفين، لا تضيع عليك آخرتك حرمة».

على سُفرة الغداء الممدودة على أرض الخارجة المفتوحة للسماء، وأمام صواني العيش باللحم المُتَوَرِّدة الحواف والمفروشة باللحم المفروم والكراث والطحينة، وأمام درزن أولاده، وبحضور ثلاثة من أخوته، وقبل

أن يمدّ مصطفى يده، «قُمْرِيَّة من صلبي ولدت في فراشي من فرح الجارية».

غاصت أنفاس الشهود وما طلعت. أشاحت زوجته سكينة بعينيها متظاهرة بالصمَم، مدّت يدها بالسِّكِّينة العريضة وانهمكت في تقطيع أقراص العيش باللحم إلى مثلثات. وضعت أكملها في صحن زوجها دلالة خضوع. عينه لم تفارقها. يضعف أمام هذه المرأة الشامخة التي مات والدها العراقي في فترة حمل أمها المكية بها، وحين جاء أهله حاجين يسألون عنها ادَّعتْ أمها بأنها ماتت لكِيلا يرحلوا بها. يرقب السردار ردَّة فعل المرأة التي جاءته بعد زوجين، يفكِّر بأن كل رخاء دجلة والفرات انفتح له من معاشرة هذ المرأة: «قُمْرِيَّة اجلسي معانا على السُفرة، من اليوم أكلكِ مع أخواتكِ». تردَّدت قُمْرِيَّة في وقفتها على باب الخارجة، ومن المطبخ طرقعت قدورُ أمها فرح، تهمزها للاستجابة: «تعالي في ضلع عَمِّك».

يد عمها عبد الشكور حسمتْ تَرَدُّدَها، مثل طير حيران اندسَّت تحت ضلعه الأيمن، ولم تعرف مذاقًا للقمة، لم تجرؤ على مدّ يدها لصينية الأرز أو العيش باللحم بين أيدي من كانت تُعِدُّهم سادتها. بدت يدها دخيلة متطفلة وربما مفجوعة مرتعدة، استدار عمها وألقمها بضع لقمات، وجدت صعوبة في بلعها، ورفضت الاستزادة واحترم حَرَجَها. لم تعتد الأكل الساخن، دائمًا تأتيها اللقمة مع أمّها وبقية الجواري بعد أن تبرد بين أيدي أخوتها. غرست رأسها في كوب الماء تشرب مدة الغداء حتى نهض أبوها وقفزتْ تُلملم السفرة. نامت ليلتها تلك «بنت سادة» لكن بمِعْدَةٍ خاوية مثقوبة بخوف لا تملك تفسيره، من ذلك اليوم كُتِبَ لها أن تعرف ألّا شبع إلا شبع الفرح الذي تشعره الطيور في طيرانها الحرّ، وألّا جوع إلا الجوع للطريق، حيث الأعين تتجدّد عابرة حولها ولا تعرفها، انغلقت عليها زنزانة اعتراف والدها بنسَبها له، ولقوانين النسَب الصارمة.

خُلْع

مكة، 1949

يفتقدون قُمْرِيَّة في المطبخ وعلى طست الغسيل وفي الغبار الذي لم يعدْ يُنْفَضُ في مَقْعَدِ أبيها. كلّما بحثوا عنها وجدوها على «المنوَر» عند كوَّة السلالم تلك، أو خلف نوافذ الأسطح المخرَّمة، قلبها في الخارج. تحوَّلتْ لمعةُ البندق في عينيها إلى عقيقٍ دموي، تجلَّط الكاز المُشَرَّب لخلاياها، فلا تقدحه نار ولا ضحكة. صار باب الطريق مُحَرَّمًا عليها مثلها مثل أخواتها المؤصَّلات.

«بنت الأصل والفصل لا يلمح ظفرها غريب، تموت مستورة من بيتها لقبرها. وأنتِ بالذات يا قُمْرِيَّة كنتِ طالعة بفطيرة وجهك عَلَم في السوق وفاضحتنا». يُجَرِّعها أبوها تلك الكلمات مع كل لقمة في جلسة البنات حوله أثناء الوجبات.

«حتى لا يُعَيِّروكِ، ونعدِّل نصيبك، لا بدّ وأن ينسى أهل المُدَّعَى كونهم لمحوا لكِ طَرَف أو ملامح، وأن لكِ وجود وتشمّين الهوا، بكرة تشوفي كيف صرتِ جوهرة مكنونة». تنفرد بها سكينة بتلك الوعود لتلطيف نظرة الضياع بعينيها.

بقلب قمرية حفرة، تشتاقُ لذعةَ الفجر في خروجها كل فجر لطلعة القرارة، حين تنحدر وراء والدها إلى حلقة الغنم، وذلك الخروف الذي يحفظه صاحبه على منصة للعرض لكل من يدخل السوق، يربطه من عنقه بسلسلة ذهبية لكرة ثقيلة تسمح له بالتمخطر على المنصة، ويُحَرِّج عليه:

«لا يفوتك الطَلِي، طَبْطِبْ على لِيَّتِـه وتأكد أنها ريانة، ترا الرَحْرَحَة

نُصف المتعة». يسمح لكل من يقترب ببسط كفّه على باطن الإلية، حتى يمل الخروف الأيدي، فيبدأ بالركل ويسحق للأرض إليته التي تتضخم يومًا وراء يوم، يضحك البائع وجمهوره: «لا تخافوا، يطحن نفسه حين يستوحش لماء الفُرات. لسانه عراقي، ولا يتكلم مكاويّتكم المَلْتوتة». تحلو له نكتته تلك ويُكرِّرها كلما وقفت قُمريَّة أمام مُنصته باهتة، «ترا الفرات مجنون يجري بثلاثة بلاد وبكل من يشرب منه قطرة، لا ترمشي بعينك البندقية قدّامه لا يشيلك على قرونه وينهب بكِ الأرض». وكانت تُغافل والدها وتدسُّ كفها في بطانة الإلية الطرية، وتسمع تدفق الفرات وتأمل أن يحملها إلى حيث لا ترجع.

الآن في حبسها تشعر بأن الفرات قد حمل روحَها على قرونه وترَكَها جسدًا يفصّلون له ثيابًا جديدة غير صدقات ثياب أخواتها اللواتي حوّلوها إلى دمية عزيزة.

هرمونات المراهقة بدَّلت مسحة الذهول بعين قمْريَّة إلى نظرات نارية متحدّية، وُضعت العائلة في حالة تأهب بانتظار انفجارعِرْق الجارية. ليلة بلوغها قَبَضَ العَسَّاسُ على قُمريَّة منفلتة في طلعة القرارة، من بنفسج الفجر فاجأته المرأةُ السافرة بلا حتى جَامَة أو مِنديل يلمّ شعرها الكثيف كجَاعِد خروف، للوهلة الأولى ظَنَّها جِنِّية من جنِّيات القرارة، لكن رِقَّة قدمَيْها العاريتين على أرض الطريق طمأنته، يعرف أن الجنيات بأقدام حمير، ولاحَقَ القدمين تطيران بنقش الحناء أمامه كحمامة. تَمَهَّلَتْ تبحث عن مصطبة الخروف العراقي والتي حلّ محلها مركاز شيخ السوق. ألقى عليها العسَّاس إحرامه اللاس ولَفَّها في بطانية استعارها من حارس المِرْكَاز، بطرف البطانية قبض على كفّها الصغيرة، كف ترتعد كطير مذبوح وتصل رعدتها إلى قلبه، قادها جافّ الريق إلى مركز الشرطة بقصر الحميدية بإجياد، وغادر لا يلوي على شيء. وقفت هناك مثل طير عارٍ تحت أنظار الجند، ولم يعرفوا لمن يردّونها.

لم يُصدِّق مصطفى السردار الخبرَ، خرج يركض إلى قصر الحميدية.

أول ما رآها غابتْ أنفاسُه وترنَّحَ وسقطت حزمة «القنعة التركية» التي أحضرها من تحت إبطه. أسنده الجندُ فانحنى وبالكاد شَدَّ جذعَه ليقف، بينما تلقّف جندي القُنعة وألقاها على البنت يسترها.

رجع بها الشيخ مصطفى تتعثّر تحت قُنْعَتِها التركية، لم تعتد ذاك الشَبَك على الوجه: «يا بنت ارحميني، أنا أعطيتكِ اسم لا تمرّغيه في التراب».

«الجنون فيها طبع، ما إن خالفتها الدنيا إلا وهَجَّت».

وبمجرَّد ظهورها في المبيت نشبت حربٌ بينها وبين إخوتها الذكور: «تلعبي الجنون حيلة علينا وتفضحينا؟». وتعالت قعقعةُ قدورِ أمِّها الجارية فرح، وخرجتْ بحَطَبَة مشتعلة، خطفتها من كانون النار تحت قدور الغداء،

«خلّوني أنا أربّيها. ما صدَّقنا يكون لكِ أصل»، وتسمَّرت فرح بحطبَتها المشتعلة على باب المطبخ، سمَّرها مشهدُ قُمريَّة مشتبكة بالأيدي مع محسن، الأخ الأصغر والأكثر حميّة. شَقَّتْ ثوبَه بنَهشةٍ وفرَّتْ يطاردها الجميعُ، خَطفَت الدَرَجات بقفزةٍ وصارت في الدهليز، لم يردّها عن الانفلات للسوق إلا وقفة عَمِّها عبد الشكور على باب الطريق، بلا وعي ارتدَّت إلى باب الحوش الخلفي، وطاردها أخوتُها مع أبيهم في الحوش وحصروها لركنه،

«لا يردّك لصوابك إلا الكُرباج... ينزِّل الجنّي اللي في رأسك لرجليك». العَصا التي ظهرت في يد محسن قَدَحَت الكازَ المُعتَّق بجسد قُمريَّة، فَحَّتْ مخطوفةَ الأنفاس تُهَدِّد:

«لو قربتوا والله أطلع من ثيابي». خرس الجميع، الخطوة الأولى التي أخذها محسن صوبها سُمِعَ لها صوت تَمَزُّقٍ. بخفّةٍ جهنّميّةٍ شَقَّتْ قُمريَّة ثوبَها الجديد لنصفين وألقته عن جسدها. توَقَّفَ الحَمَامُ في الهواء مع عيون الجيران المتلصّصة، وبلمحةٍ ألحقتْ بثوبها صديريتها وسروالها الحلبي، وامتشق تمثال أنثى بديع حَشَرَ قلوبَ جمهورها الغاضب في الحناجر. اندفع الهواء يهفهف، وظهرتْ أخواتُها البنات بشراشف الصلاة

البيضاء تتطاير في الهواء وألقينها على عُري التمثال، لملمنها في البياض واقتدنها إلى الدهليز، ودخلن بها حجرة الأم سكينة وهي تكتم نحيبها، ولم يجرؤ أحد من أخوتها على ملاحقتها أو مناقشة ذلك الطقس الكهنوتي الأزلي. أرخى محسن عصاه، وكابر مصطفى السردار مقاوِمًا أول نوبة قلبية تصيبه، سحَّ عرقه وطفحت مرارات أخوتها لحلوقهم. تراجعوا بمزيج من فزع وغضب وانبهار مستتر، فالخروجُ من الثياب خروج للجسد من قمقمه: «شُبيِّك لبيك» يطلع مارد أعمى، فإما أن يَقتل من أطلقه أو يُحقِّق له المعجزات.

«ما بعد خلع البنت إلا القبر يسترها»، هتف مصطفى السردار منحطًا بأرض الفناء حيث هو، وتعفَّرت ثيابه المُبَخَّرة بترابه، يدير برأسه فكرة التخلّص منها. وظهر عبد الشكور معارضًا موجة الغضب الممزوج بالقهر في رجال البيت:

«فتحتوا جهنم على البنت وهذه آخرتها!»، ركع أمام أخيه وحدَّق بعينيه مهددًا، «اشهدوا، قمريَّة في حمايتي بعد اليوم، إياكم، لا ترتفع عليها يد، ترا جوابها عندي». والتفت مُوَزِّعًا تهديده على أخوتها: «خلُّوا ملايكة البنت تسكن».

طقس خلع الثياب ذلك أطلق العنان لجنون قمرية، ولم تردعها حتى نظرة اليأس في عين أمها، نظرة فاقت جحيم الحطبة المشتعلة.

هجاج قمْريَّة الثاني جاء مع حمى احتباس طمثها لشهرين متتالين، على غفلة من الجميع انفلتت في سوق المُدَّعى، لم ينتبه لخروجها إلا صبيُّهم المليح «نُصّ لسان»، لاحقها المراهق عن بُعد مثل ظِلٍّ، له نفس خصرها الرقيق وقامتها الممشوقة، انفلتت ذاهلة بلا وجهة في الأزقة الضيقة، في ثوبها الأصفر الفاقع بلا قُنعة وبالمنديل الأحمر يلف شعرها، تتبع قدماها الحافيتان برودة المياه التي تجري بين الحجارة التي ترصف الأزقة، حتى إذا بلغت آخر شِعْب علي واعترضتْها صخورُ أبو قبيس وقفت مذعورة وقد فقدت الوجهة، بهدوء تقدَّم «نُصّ لسان» وأخذ بيدها. الحنان الذي

ضَخَّه ليدها رَطَّبَ وجهَها بالدمع، بينما استدار راجعًا بها إلى البيت مع أذان العشاء، رجعت ببقعة حمراء طفت تصبغ مؤخرة ثوبها الأصفر، بعيونٍ زائغة ترى ما لا يرونه، لا التهديدات ولا الحبس والضرب نجح في إطفاء تلك اللمعة التي تضيء من حمم ثائرة بقلبها الذي بلا قرار، من ثورة لا يفهمون لغتها.

«اعتراف سيدي مصطفى بها كشفها للعيون، في فرحتها سكنوها بسم الله الرحمن الرحيم وطيَّروها». لا تُفصح أمها فرح بكلمة جن لكيلا يُسفروا لها عن قباحتهم.

«قمريَّة اسم حار. فتيلة مُغَرَّقَة في كاز. أنصحكم سموها سُكَّريَّة تذوب في أعرافكم وتحلى عيشتها بينكم».

وجَرَّدتها تمتمة الشيخ ليمونية من فتيلتها المحروقة، «بسم الله والله أكبر سمّيناك سُكَّريَّة، دفَنَّا قُمريَّة وفطيرة وجهها اللي حفظتها سوق المُدَّعى».

خلعوا مع الاسم فضيحة خروجاتها للطريق سافرة وعُريها. حجبوها ليتَمَكَّن الاسمُ الجديد منها. حبسوها بمَخْلَوان خلف غرفة سكينة التي أشرفت شخصيًا على حراستها وضمان ألّا تنفلت للطريق بالاسم الجديد.

لما يزيد عن الشهر لم يدخل على سُكَّريَّة حي، ولا هي خرجت، وسرت في البيت توقعات موتها إضرابًا عن الحياة. حتى كان ذلك المساء، حين سُمِعَتْ دربكة على سلالم البيت، وتخلخل الجمود برائحة ورد بلدي تتبع جَدَّتها المصرية نازك طليقة جَدّها جاءت للحج بلا إنذار ولا استئذان، ظهرت في حبس سُكَّريَّة كجنيَّة حقيقية، لم تجرِّب الاقتراب للمسها أو للسلام، جلست على الباب تحكي بصوتٍ مُوَقَّع يأخذها ليلٌ ويحطُّ بها نهار. جاءت بالنيل والمراكب التي وَصَفَتْها تتهادى على سطحه، والكازينوهات التي تسهر للفجر تستقبل العشّاق الذين يأتون من بعيد تقودهم آهات أم كلثوم. خدَّرتْها الحكايات، فكَفَّت سُكَّريَّة عن طرق رأسها بالجدار، ولأول مَرَّة منذ شهرٍ تَركوا بابَ مخلوانها مفتوحًا وتَبِعَتْ

كحمَلٍ وديع للخَارجة، جلستْ بين قدميّ جدَّتها الهانم نازك حتى الفجر تَنصُتُ بينماً لم تسكت الهانم، تُغَرِّد مثل حمامة فَارَقَها النعاس وتتحدّث عن القاهرة وحياتها المملوءة بالحيوية، وتتحدث عن العقَّاد وطه حسين وأحمد رامي، والشعراء الشُبَّان الذين يجتمعون كل أربعاء بصالونها الأدبي، وسهراتها للفجر في المسرح، ونوادر الممثلات وراء الكواليس، وأفلام ليلى مراد... لأول مَرَّة بعد عام من الاعتراف بسُكَّريَّة دخل صوتٌ لرأس البنت، ورجعت تسمع:

«مثلها مثل البَدَن، النفس تمرض ولها طِبٌّ وأطباء، حرام عليكم، بنت ولدي مش وحش تحبسوه بانتظار يا عيني يذبل في حبسه، أرسلها معايا يا ولدي يا مصطفى أشوف لها تدبيرة».

«كيف أرسلها معكِ وأنتِ يا أمي نازك فاضحتينا هنا بفطيرة وجهك المكشوفة لكل سوق المُدَّعى؟! تِفْتِي وتحلِّي وتربطي مثل الرجال، تناقشي رجال البسطات، وتغمزي محرّضة الحريم على الأغوات، وتجادلي المَطاوعة، ولك في كل نزلة للحرم عركة». حُسم الصراع على تلك الفطيرة حين رضخت الأم للمساومة: تتنازل عن البالطو الرمادي وغطاء الشعر، وترتدي القنعة التركية في نزلاتها اليومية للحرم وتكفّ عن مناكفاتها للأغوات الخصيان، مقابل أن يُسمح بسفر سُكَّريَّة برفقتها إلى القاهرة للعلاج، بخطوط ثلاثة تحت كلمة (للعلاج).

بوكس أحمر ببطانة خشب

خرجت سُكَّريَّة من بيت السردار ملفوفة في قُنعتها التركية، تمسك مرتعدة بيد جدتها نازك، وانسلبت بهجة من البيت الكبير بخروج نازك ببدَعها وشكيمتها القوية، وسُكَّريَّة بثوراتها الصغيرة. انفجرت نورية في بكاء مفاجئ، تردد:

«هذا الكعك المطلسم المرسول من بيت خدندش، الله يهديها سُكَّريَّة ضحكتْ لما نصحتها ترميه، أكلت الطلاسم بجنّها وطيّروها».

«يا الله عليك يا نورية وشكوكك، هذه أبرك ساعة، والله حاسدتها، يا ريتهم يسحروني بنت جارية مجنونة، أخلع لهم بلبوص ويفلتوني هذه الفلتة أشم الهوا». دفعتها بدرية على الروشن، تلاحقان مع نسوة البيت عباءتَيِ الجدة وسُكَّريَّة تتبعان السردار يقودهما هابطًا المدّعى حتى موقف العربة الفورد (البوكس) التي كانت بانتظارهما لتأخذهما إلى جِدَّة. تراجع السردار، وحسمت نازك تردُّدَ جسد سُكَّريَّة ودفعتها بخفة إلى المقعد الخلفي واندفعت خلفها مغلقة الباب بشدّة. وقف السردار أمام النافذة، رفع سبّابته محذّرًا، ولم تُسعفه كلمة، تراجع وتجاهلت أمه غمغمته:

«أمانة»، وهو يشير إلى وجه سُكَّريَّة.

ما إن تحرَّكت العربة لإشارته حتى استدار السردار راجعًا، متجنبًا النظرة في عين أخيه عبد الشكور وعيون الباعة المتحمسة وتلك اللائمة بطول السوق، وتفاقم شعوره بالذنب، وهذا الصوت الذي يكرر برأسه: «انزاحت عن صدرونا غُمَّة بنت الجارية».

بينما تتكرّر برأس سكرية وصية أمها فرح:

«إذا تفارقت الأقدام سَبِّحْ الله اللمَّام». لم يطاوعها لسانها بذلك التسبيح.

بلغت السيارة البوكس أم الدود وسط الصحراء وتنفست نازك الصعداء، وبلا تردد كشفت عن وجهها القنعة التركية، ولفّت شعرها المصبوغ بالحناء بمنديل أخضر كرّاثي، موجهة كلامها للسائق والصبي «نُصّ لسان» المرسول من السردار لمرافقتهما حتى الميناء:

«الراجل فيكم يشتكيني لولدي مصطفى». ببهجة وغنج رفع «نُصّ لسان» يده لفمه وأرسل زغرودة رقيعة، ردّدتها كثبان الرمل البيضاء المحيطة والجبال البركانية،

«طيِّريني يا عمة لبلاد البَسط وهز الوَسط، ولبسيني بدلة رقص بلدي ووعد عليَّ أتحفكِ. لا تغرّك هيئتي متقرطس بثياب الرجال ترا أنا رقّاصة ميري».

قالها مرقّصًا خاصرته في جلسته. حوقل السائق كاتمًا ضحكته، ضربته نازك بطرف قنعتها ضاحكة:

«قال إيه، راسلينك عليَّ عين، بينما أنتَ أكثر غنج من حريم السلاطين!! والله لو حنّطوك في جُبَّة إمام ترا سرّك طافح، أنتَ النيل يغلب حُماره معاك، مكانك باريز مع حمار توفيق الحكيم». وبنفس التحدي التفتت إلى سُكَّريَّة: «والآن، على قول أهل مكة، من هنا شُوْرِك في كُوْرك، ترفعي القنعة أو ترخيها أنتِ على هوى رأسك، لا أب ينفخ جهنم ولا أَم تتمسكن وتشغِّل من وراكِ الزَنَّانة... ترا حريم أهل مكة دُهَى، أسأليني يا حبيبتي أنا عاجنتهم وخابزتهم وهاجَّة منهم، يشتكوا من السجن ويربوا السجّانين». ولم تجرؤ سُكَّريَّة على رفع قنعتها، غرقت في سوادها، ترتعد بإثارة أعمق من فهمها.

خوف مثير تَفَجَّرَ داخلها من الأرض التي تطويها العربة، لأول مرة تنفتح على هذا المدى الذي من دون نهاية، انتابتها رغبة أن تفتح باب السيارة وتنطلق في الخلاء، وألّا يتبع جُرَّتْها أحد. هتفت نازك بالسائق:

«ادخل بنا في الرملة يا أمير، عندي حاجة أقضيها». أرشدته للتوغل في الكثيب الكبير، حتى غابت وراءهم طريق السيارات:

«الآن أسترونا». وأخذت بيد سُكَّريَّة وهبطت، قتل الفضول «نُصّ لسان»، وقف مع السائق في الجهة الأخرى من السيارة بظهريهما للمشهد، وكان يتنصَّت.

«اخلعي وأجلسي» وقادتها. أرخت الجدة سروالها كمن يقضي حاجة، وجلست بمؤخرتها الممتلئة في الرمل الحار. حركة سخيفة مراهقة أثارت شراسة سُكَّريَّة. ترددت، ثم وبتلقائية أخذ جسدها المراهق الزمام، حبيبات الرمل الساخن احتوت أعضاءها الحميمة، وأرسلت صعقة بطول عمودها الفقري، لذة حارّة مدوِّخة، لكأن جسدها مصنوع لتلك اللحظة من حسٍّ خالص، أدرك جسدها أن من المستحيل لجسد أن يمنحه ما يمنحه جسد الرمل.

«جسدك حسّيه الآن، لا مخلوق ينسّيك إياه». دويّ في أذنيّ سُكَّريَّة وبخار حار، اختلط لديها ما تقوله الجدة، «ننعجن بالأرض لا ننكسر». غاصت بساقَيها أعمق في جسد الكثيب تتلوى للمزيد، جسدها المراهق في ذروة تتضاعف، وتُبدِّدها.

حين نهضت الجدة رأت «نُصّ لسان» وقد انزوى يسار الكثيب، ودفن نفسه في الرمل ملبيًا حاجة فطرية في تركيبته المرهَفة والمتشوِّقة للعشق، وطفا ثوبه اللاس حول كتفيه، بينما جلس السائق مستندًا بظهره لعجلة السيارة الأمامية، لا يعي ولا يعنيه المشهد العبثي حوله.

في السيارة قبضت نازك على ذراع سُكَّريَّة:

«يا حبيبتي ما نحتاج نرمي بأرواحنا للسباع لأجل نتنفس الحرية، قدامك بلاد وعيون ناس تتملّاكِ وتقول لكِ أنتِ قمر، قدامك كلام يتوالد من كلام، ترا العِشْرَة حلوة، وعلى قولكم يا مَكَاكوة: جَنَّة من غير ناس ما تنداس. مصر بلد الناس الحلوة، بكرة تشوفي وتدعيلي على شم الهوا، نَذْرٌ عليَّ أطلقك طير في سما النيل، يا بنت أنتِ نار تحت رماد بكرة تشعللي لا يلمّك سجن ولا سجّان». ارتعد الهواء في العربة لانطلاق تلك النبوءة، يحفِّزها الخدر بجسد المراهقة.

«يا بنت أنا قلت لأكبر شنب في مكة: طُز! الرجال يخافوا يوقفوا بوجهه أنا وقفت، كويت قلبي بجمرة وقلت لجدِّك: طلّقني! بكي بين يدي، وأنا بكيت بدل الدمع دم، ولكنه لا يملك أمره، السوق حاكمته والجيران والقيل والقال، وكل وجع الدماغ ذاك، وأنا حاولت أساير لكن عجزت، وفضحتُه بناري، وهو راجل ولا كل الرجال، للآن حرقة فرقته آكلتني. لكن الست منا تحتاج توقف وقفة مع نفسها تنصرها، وإلا دخلت قبرها عار تحقيق لإرادة من وصموها. لا تخلّيهم يغسلوا دماغك بقولة الحرمة عار. احفريها في دماغك قرآن: الحرمة خالقة، والرجال من أميرهم لفقيرهم، أكبر وأصغر رأس خارج من هذا». وأشارت إلى عضوها. بوقاحة انطلقت قهقهة «نُصّ لسان» الرقيعة، حواسه في أقصى حالات التأهب، تجمع كل تلك المشاهد ليرجع بها لأسطح بنات السردار.

نُصّ لسان

1949

غياب سُكَّريَّة حَلَّ برودةً على البنات. لم تقشعه إلا البشارة التي انطلقت من الدهليز لتعصف بالمجالس والمبيتات والأسطح: «عمَّة شربتلية وَصَلَتْ».

بفرحة تَسابَق الصغارُ بالخبر ما إن لمحوا صبيانها يصعدون طَلْعَة المُدَّعَى يحملون البُقَج التي ضخت الأدرينالين في عروقهم. بلغتْ أصداء فرحتِهم حجرةَ الخدم بالدهليز، تَجمَّد «نُصّ لسان» المراهق أمام مرآته، كفَّ عن نتف حاجبيه، بأناقة نفخ الشعرات العالقة عن «المِشْقَرة» التي مثل فتّاحة رسائل أو خنجر بمقبض عقيق، وردّها إلى كيسها المُطَرَّز مع قارورة بودرة الفخّار، وطمر الكيس عميقًا في كيس مخدّته، يخبئها من رفاقه الذين يُعيِّرونه لاستعماله أداة النتف تلك، المخصَّصة للنساء.

توقَّف لحظةً لتأمُّل صورتِه، بخفَّة مَرَّر «مِرْوَد الكحل» وقرنِ حاجبيه، وخفَّف السواد الفاحم بلعابه ليُخفي لمساته الأخيرة، مسترجعًا تهديدَ مصطفى الكبير:

«المرَّة تِلْوَ المَرَّة أنذرك وتصهين، في يوم سوف أكوي أصابعك على تقرينك لحواجبك، يا ولد استحي ليقولوا عليك حرمة».

«يا عمِّي، عَسَى الله يسخطني حَجَر، أحلف لك بالله مَقْرونة طبيعي».

يتأمله السردار بغيظٍ، لدونة «نُصّ لسان» من المستحيل سخطها لحجر.

يندفع «نُصّ لسان» خارجًا بحزامه الأحمر الذي انتقاه خصيصًا لتلك المناسبة، لَفَّه عريضًا على ثوبه اللاس الصقيل ليضمنَ انتصابَ ظهره وبروز مؤخرته البديعة.

يتقدم شربتلية صاعدًا بها، والبنات يقفزن الدرجات لِتَلَقِّيها على باب المجلسِ في الدور الأول، تقوم نورية البنت الوسطى بدور المضيفة:

«أحلفك بالله تتفضلي بالمجلس»، وتشجبها شربتلية ضاحكة:

«بس يا بنت، خلِّينا من فَنْطَزْتك، ليه هو أنا ضيفة؟!! حبيبة مقبلة تِوِدّ حبيبة»، وتخترق حورية لِتَتَلَقَّى الضَمَّة الأولى كونها الصديقة الأثيرة لفيروزة شربتلية:

«آنَسْتونا، على بيتنا ألف نور. وي وي وي جِدَّة ولا كأنها اسطنبول تسرقك سنة مِنَّا».

«طَوَّلنا وما شفناكم حَلَّمتوا وزَمَّلتوا وقصدتونا». تتم المُعاتَبة بينما تُواكبها البناتُ صاعدات للأسطح «الخارجة»، وينسرب «نُصّ لسان» يكاد يرقص عاكسًا فرحة النساء.

«يا واد لا تدور علينا زَيِّ البَرَمَان». تمسكه شربتلية من كتفيه لتثبيته: «ترا أنا رأسي خفيفة خِلْقَة، هات البقج لا تِتْلَكَّع». تسوق فيروزة صبيانها بالبقج، ينتهون للجزء المسقوف من الخارجة والمُحَوَّط بطُوَّالات الدمسق الأحمر والمفروش بسجادة عجمية زرقاء من نسج قُم. يُسارع الصبيان تحت قيادة «نُصّ لسان» لبسط مفرش الدانتيل المربع ليتوسَّط الجلسة، ويرصّون عليه البُقَج الخمسة بألوانها الفرايحيّة (ساتان بمبي وفستقي وخربزي وأزرق سماوي وأحمر ناري)، تتمحوَر العيون على التطريزات وشَرَاشِر الخرز التي تُزَيِّنها، ما تحويه تلك البقج هي العجيبة التي يعيشون من العام للعام لتخيّلها.

«ياااااه تحفة، والله غَلَبَتْ بُقجنا».

«بقجكِ يا حورية بالقلب، وأنا فين أجي جنب ذوقك الأُبَّهة؟».

طقس البقَج ذاك هو طقس الودّ الجاري من مكة لجِدَّة بين البيتين، يتزاورنَ في كلِّ عام مَرَّة. تهبط حورية إلى جِدَّة أو تصعد فيروزة إلى مكة، يسقن أمامهن بقج الهدايا التي يقضين العام يخترعن لها الزينة والمفاجآت،

يتسخَّر أخوانهنّ والصبيان عيونًا تنتشر بين الحجيج للعثور على تُحف تليق ببقج العام التالي.

وبحِرْفَة تَتَمَهَّل فيروزة حتى يكتمل الجمهور مُصَعِّدَةً للتشويق، فلا تبقى جارية ولا صبي ولا ولد إلا ويجتمعون لطقس الفتح. تتركَّز العيونُ على يد فيروزة المُزَيَّنة بالمُرجان هذا العام، العام الماضي جاءت بخلاخل وأساور الزمرد، كل عام لفيروزة حَجَر كريم يوافق مزاجها ويشعله كما تؤمن. وببراعةٍ فَكَّتِ المِشْبَك المُزَيَّن بلؤلؤة، وبدأت في رفع أركان البقجة، كلما رفعت ركنًا شهق الجمهور لبديع تطريز الرُكن الذي يليه، حتى تنقشع الأركان الأربعة وتنحبس الأنفاس:

«هذه قوارير كولونيا فلورينا، وصلتنا مع الخواجات من إيطاليا». وتطلع الزجاجات الثلاث الحمراء الشفافة: «مجموعة زهور بريَّة يخلطونها مع صندل ومِسْك»، وتكمل ضاحكة: «شُطَّار، يخلطوا زهرهم على دُهننا الشرقي ويبيعوه علينا... لو عندنا ما عندهم من عِلم كنا بعناهم عطر جبال مكة». تناولها لحورية التي تُوَزِّعها على أخواتها المراهقات، تنفتح زجاجة وتَمرُّ على الأنوف المتشوقة:

«آخ ياعمري». تتبعها تنهيدات: «آآآخ يا مين يأخذني لإيطاليا وخواجاتها».

تتنهَّد بدريّة بحرقة: «خلينا من الخواجات دول دمهم بارد وزيادة مقرطسين بجلدة». إشارتها لعدم ختانهم تفجِّر الضحكات، ولا تسمح فيروزة بتراخي إيقاع التشويق فتُسفر عن عجيبتها الثانية:

«وهذه مشدّات». تبحلق العيون لتعي معنى تلك الكلمة، «مشدات بشَنَاشِن من بواخر تُركية تخسف البطن وتدوِّر الشقادف. ومُشنشنة بعيون تردّ العين اللي ما تصلّي على النبي»، وتَضجُّ الخَارِجة بشنشنة العيون الزرق الصغيرة، تنتقل من خصرٍ لخصر بين الجواري والبنات ومن «نُصّ لسان» للصُبيان الصغار يُجَرِّبونَ إيقاعاتهم، ويثيرون عاصفة من التهريج بينما تخرج هدايا الأقمشة بنقشاتها الجديدة، وشراشف الصلاة المزنَّرة

بالدانتيل، وبَخَانِق الصغار المشبوكة على النحر بالمَشَاخِص الفضة التي تردّ الحسد. تتلصّص البيوت المجاورة على نشوة الحَمَام الذي يطير في سُحُب حول بيت السردار، الكل يتناقل أن «ضيفتهم الجِدَّاوية وَصَلَتْ، يا بَختهم».

مراسيل الخارج تحمل من الغموض ما يُهَيِّج المخيّلات، تصير تلك البقج حديث المُدَّعى، من رأى ومَنْ لم يرَ، يتوسَّع في وصفها حتى تصير سيلًا يُحرِّض الأشواقَ للانفلات للبحر الذي يقف مثل حلم ليس ببعيد عن مكة.

تترقَّب الجاراتُ، بانتظار أن يُطِلَّ خيالٌ من بيت السردار ليقتنصنَه، بينما تتوسَّع عين مصطفى السردار على الدهليز، يرقب تَسَلُّل «نُصّ لسان»،

«يا واد لا تِزْبُق، شايفَك، خابزكَ وعاجنكَ خارج تِلَبْلِب[1]». يتراجع «نُصّ لسان» متلكئًا في الدهليز. «شايفك مُشَغِّل بَرَمَان التبتبة واللبلبة وخارج لفضاوة النسوان».

يبلع المراهق لسانه حماسةً، يجدّد رأس الشيشة لسيّده ويطوف يكنس مُتَقَلقِلًا بالأخبار، يتلذّذ السردار بتعذيبه، بينما كل شيء يأخذ يطقطق بحماسته المكتومة ابتداءً من جمر شيشته وانتهاءً بماء الأزيار. وفجأة يرحمه، فيتظاهر بإغماض عينيه، ويكتم ابتسامته لاندفاع «نُصّ لسان» للطريق كبرق. وللحال، ومن وراء روشنها، تندلع صَفَقَةُ جارتهم «عَيُّوشة كَشْكَش» لتسترعي انتباه الصَبِّي بحزامه الأحمر وكوفيّته المائلة:

«يا بو نص لسان لا ترمح، خِفْ، افقع بيضة الذهب، وطُجّها».

يُسارع ليقف تحت روشنها القريب من الطريق، ويقف لساعة يطُجّ بيضة الحكاية ويصبُّ لها القطفة الأولى من عجيبةِ البُقَج:

«يا عَمَّة كَشْكَش شَيّ وشُوَيَّات». يضرب بكفيه كأنثى، ويَتَخَلَّع: «شربتلية هذه السنة فُرجة، مُحَمَّلة ومُزَمَّلَة دخلت مَغَالِقهم تُحف سبع سنابيك[2]».

«يا ولد هات الزبدة».

---

(1) اللبلبة: الثرثرة – التَبْتَبَة: ترتيب الحكاية ونسج حبكتها.

(2) سبع سنابيك: سبع بواخر.

«عمَّتي شربتلية وِلْعَة، عَلَّمتنا عناق الواوات، بمشدات من حرملك قلاوون».

يخصُّ نُصّ لسان عيوشة كَشْكَش بأكثر الأخبار سخونة، لأنها تواظب طوال العام على رشوته بفطير العسل والمعمول والنواعم المعجونة بالسمن البلدي والمحشوة بالتمر والفستق، تُسَمِّنه لضمان مشاركة الدهشة التي تعمّ بيت السردار قادمة من جِدَّة البحر.

كلما مرَّ «نُصّ لسان» على بيتٍ نادتْه صَفَقَةٌ من روشنٍ أو من وراء بابِ دهليز: «يا ولد ما لك مُتْصَرْبع، هات الهَرْجَة».

يَتَقَصَّع ويُلَبِّي «خَدّوج دَنْدَش» التي تتواطأ مع عشقه السِرِّي للمطرَّزات، فترشوه في المواسم والأعياد بأحزمة وسراويل من أقمشة السواري الهندية المطرَّزة، يحشرها تحت سراويله البيضاء البالغة الحشمة، وتدغدغه مع كل خطوة:

«يا عَمَّة خَدّوج يا دَنْدَش عشرين صبي مختونين ومنقوشة حَمَامتهم بالحناء».

تُفرقع قهقهاتهما الصاخبة، وتُؤجِّج برأسه تروس التَبْتَبَة واللبلبة:

«ما وراء حَمَامَاتكم إلا الغُلب والكفّية على طست الغسيل، خلينا من الغم يا ولد وقل لي عن آخر تطريزات النغاري»[1].

«كل عقدة ملفوف لها المفتاح، أشكال وألوان، وتغنيجات يا دَنْدَش، يعني ما في مفتاح قايم، كلها بَرَمَانَات، تشاغب العين داخلة خارجة».

تقرص خَدّوج دَنْدَش حبيبتها «الخرَزية» في باطن الفخذ، «شفتي يا بنت كيف أنا فنّي سابق، قلت لك: موضة السنة عليَّ، سراويل بمفاتيح».

ينتشي «نُصّ لسان» بالضحكات المجلجلة «للخزرية» المواجهة لخدوج، ويتركهما تراجعان تصاميمهما، ويتحرك لروايته التالية.

عند بيتَ «الحَنتوش» بآخر المُدَّعى يهتف لنداء البنت الأثيرة «ست أبوها»:

---

(1) تقصد أعضاء المرأة التناسلية مقابل الحمامة، رمز أعضاء الذكورة.

«على كلّ يد بُقجة يا ست أبوها. ومَشَاخص الفضة عليها حِرْز لكل من تشتاق تِحْبَل بولد مليح زيِّي كده».

تكتمل تبتبة «نُصّ لسان» بالريال الفضة الّذي ترشوه به، فيجرؤ ويرسم لها ذلك الحِرْز المُخْتَرَع، الذي يُطَيِّره صَبيُّها لشيخ الصَاغَة يَصبُّه قبل طلعة الشمس لأخواتها المتشوّقات للولد.

«سِتْ أبوها» لا تقلّ حظًا عن «خَدّوج» رغم موقعها المتأخر في تلقّي الأخبار. إذ إن الحكاية التي ترتدّ بها على المُدَّعَى لم تفشل قط في إثارة غيرة «خَدّوج»، لأن «ست أبوها» اشتهرت بثرائها الفاحش الذي يمكّنها من تقليد تلك العجائب الجدّاوية التي ينقلها ويضيف عليها «نص لسان» بمخيلته العجيبة. لذا فمهما اجتهد «نُصّ لسان» لا ينجح في إطفاء غيرة «خدوج» وتحجيم انتصارات «ست أبوها»، إذ لا يملك التحكّم بآلة «التبتبة/ التأليف» التي تتوسَّع شهيتها بالرواية تلو الرواية، حتى يخرج الأمر من يده.

ذلك الغروب لم يبق حَمَام ولا عين جار إلا وتلملمت على البهجة بسطح السردار، من السطح هَطَلَتْ سُحُبُ البخور وقهقهاتُ البنات، ودخانُ سجائر كليوباترة الذي يُثيرُ حسرةَ الجارات، تنفخُه بأناقةٍ الخَيَّاطة دِيبة المصرية من أصول تركية، والتي تهادت بشعرها «آلاجارسون» الأحمر وجسدها المُدَوَّر في التفتا البرتقالية حول شربتلية، تَرْبُتُ على مؤخرتها مازحة:

«البطّانة اترحرحت عن السنة الماضية[1]!!».

«أكَل وراحة يِعْقِبْ ملاحة، زيدي عليها عجن وخميرة خَبَّازي اللي ما يهمد». تغمز لتفهّم «ديبة» إشارة شربتلية للعشق المتأجج مع عشيرها. تفرقع ضحكةُ «ديبة» حتى تُطَيِّر الحَمَام الراقد في الميازيب، وتنهمك في أخذ قياساتها كما ظَلَّتْ لأسبوع إقامتها ببيت السردار تأخذ قياسات البنات. وبخبثِها المرح واستماتتها في حماية تقاليد السِرِّية تخيط ثيابًا للجميع وتُضَلِّلهن عن المَغْنيَّة بثوب العروس!

---

(1) تقصد امتلاء مؤخِّرتها.

حين انسحبت الأم سكينة لصلاة العشاء تأجّجت سهرة البنات، وسَرَتِ الفوازير التي ينتظرنها بفراغ صبر، ولم تتأخر شربتلية:

«احزروا: شيء يدخل نايم ويخرج قايم». إعصار ضحكات ممزوج بإثم، شربتلية هي المرجع في تلك الفوازير، فاحشة في ظاهرها شديدة البراءة في حقيقتها:

«يا شيخة عيب». طفح الدم إلى وجه حورية، بينما تغصّ بدرية وتكاد تبتلع لسانها لفرط عجلتها في الإدلاء بدلوها:

«من غير اجتهاد طبعًا الـ...»، يُقاطعنها: «لا تنصّبي نفسكِ أبو العُرّيْف يا بدرية، والله أمك تحشي فمك بالشُطيطة التكروني».

«بصحيح يا فيروزة، قولي، أيش؟».

«يا ميادة خلِّيك من الرَجَّة».

«أيش؟ ترا غِلِبْنا».

«قُرْص العيش»، قالتها فيروزة ببرود فَجَّرَ المزيدَ من الضحكات.

«طيّب، عندكم هذه سهلة، ومن غير وساخة ولا يروح ذهنكم بعيد». يتحفَّز الليل وتتراقص الأتاريك بمجون، ويتسلل خيالُ «نص لسان» يُجَدِّد جمر شيشة شُربتلية، ويُمَرِّر خرطوم الشيشة الأخرى لديبة، يلتقط الألغاز والضحكات ويطفح الرُمان على خديه، تضربه شربتلية على مؤخرته، موجهة كلامها لديبة:

«وتقولي بطانتي؟! شوفي». مشيرة إلى مؤخرته، «يا واد يا نُص، ترا شَقَادفك يخلّوني أغار. أنا من عَمّتي سكينة ألبّسك قُنعة وما أخلِّيك تُطب المقاعد بين الرجال، لا تزوغ عليك العيون». تُعاجله بدرية:

«يا نص لسان هوَ إيه؟! ألف مَرَّة تِجدِّد الجمر، حرَقت صدورنا بالجُراك المُشعلل، يا فيروزة خليكِ معانا». يتراجع لكنه لا يغيب، يقف بركن الخارجة بابتسامةِ توْقٍ تنقلبُ إلى قهقهة تغلب قهقهةَ البنات.

«الشِفَّة على الشِفَّة والأُصباع في الخُرْق». إعصارٌ جاء بالأم سكينة،

«يا بنات عيب تسطيحكم لَمّ علينا الجيران[1]»، «أبوكم يطلعلكم يشَبْشِبْ لحمكم». وتلتفت إلى نُصّ لسان، «يا واد اتحرّك إلحقْ، اتحرّى لَنا دَبّة عمك الطالعة الدرج».

يُبدِّل «نُصّ لسان» موقعه ولا يهبط، يعرف أنها تُخَوِّفهم بالسردار الكبير الذي يتغاضى بمقعده عن الطوفان الجِدّاوي. تنتظر البنات أمّهن سكينة بفارغ صبر حتى تغادر الخارجة،

«تراكِ زَوَّدتيها يا فيروزة»، تهمس حورية معاتبة شربتلية. العتاب والضحكات تُحَرِّض التساؤل عن المرجعية التي تُثيرها تلك الألغاز في بنات يُفْتَرَض أنهن مكنونات في صندوق مختوم.

«يا فيروزة لا تلوّعينا. إيش؟ الله يخلِّيكِ قلبي حيوقف»، تدمع عينُ بدرية إثارة، ويتوقّف قلب «نُصّ لسان».

«فنجان الشاي بيد»، برود فيروزة قاتل ويفجّر نشوة البنات مع رغبات لا تتفسر:

«يا بنات حالكم زاد... إيش آخرة هذه الفزورة؟!»، للمرة الثانية جذبت الضحكاتُ سكينة لتقف ديدبان على باب الخارجة لإخماد الفورة، والعيون تتحرَّق لإزاحتها لتمضي فيروزة في اقتحامها لذاك الركود بعمر عام منذ زيارتها السابقة. تنشغل سكينةُ بالرَدِّ على فرح الجارية، وتُسَارِع البنَات لهمز فيروزة التي تهمس فَزّورتها:

«إيه هو الطويل اللي آخره في الفم وأصله مُوَلِّع». هذه المَرّة لم تتحرَّك سكينة حتى سحبت فيروزة معها لغرفتها، ولم تنطفئ لوعة البنات حتى اجتمعن تحت ناموسياتهن، وطالتْ غيبةُ فيروزة في حجرة سكينة، لكن وما إن التقطن دَبَّتها راجعة حتى اشرأبّت رؤوسهن، وفي طريقها لناموسية حورية ألقت بإجابة الفزّورة بصوت مسموع في الخارجة:

«الشِيشَة»، تقصد الأرجيلة، وانكتمت الضحكات في الوسائد.

لم يلَمح أحدٌ قبل ساعات الفجر الشبحَ الطويلَ الذي انسلّ من بين

---

(1) تقصد بالتسطيح الضحك المتناقل عبر الأسطح.



صفوف الناموسيات، انسحب من الخوارج ترافقه أول تسابيح الطير، على أطراف أصابعه هبط السلالم، وجاء الطَرْقُ خافتًا على باب المجلس الأوسط حيث تُعَسْكِر الخَيَّاطَة ديبة، بلمحة انشقَّ البابُ وظَهَرَ وجهُ ديبة. لم يغمض لها جفن تخيط آخر ثياب العرس:

«حبيبتي حورية!!»، أخذت البنت الملتاعة بين ذراعيها، «خير؟!»، وتَوَسَّعَتْ عيناها بلون رقبة الحَمَام،

«يا عمتي ديبة داخلة عليكِ قلبي حمامة على إيدي»، وطفرت دمعة لفتت ديبة للعين التي تُرَجِّع هديل الحمام:

«أنا خائفة، هو الدور عليَّ؟؟». تكتم البنات سِرَّ حورية، والحب السِرِّي الذي نشب بقلبها في العرس الذي حضرنه ببستان قنديل بالزاهر، كانت تبحث عن بيت الماء (الحَمَّام) حين اصطدمت بالشاب قنديل يُصْلِح الأتاريك. لم يتبادلا كلمة، تاه بعينيها اللّتين غطست زرقتُهما فجأة، غطستُه ابتعلتْ قلبَها قبل أن تَفِرَّ راجعة إلى ديوان النساء. لم يقم بينهما أيُّ وَصْلٍ لكن قلبَ حورية فَارَقَها.

عزيمة الخيّاطة على كتم اسم العروس صدعت قلب حورية:

«اعذريني يا روحي يا حورية، علّقوها في رقبتي أمانة ما أفضح اسم العروس».

«لو أقدر أقول لكِ يا ستنا ديبة، لكن الكلام عيب... أموت لو حان دوري».

«ويمكن لأ». تتشمّم البنات رائحة العرس الوشيكة، وباسم الحياء يُحجب عنهن اسم العروس المنتظرة، إذ لا بدّ أن تؤخذ البنت بغتة وتُلقى بين ذراعي الرجل قبل أن يتاح لها الحلم بالعشق، بلا فسحة للحُلم ودفعة واحدة تُفّضّ براءتها.

«ويمكن ما يطلع عليَّ الصبح، كلما قرب موعد العرس يموت فيَّ طرف». تأملتها ديبة بحيرة، وأمام لوعتها استسلمت:

«أقدر أقول كلمة واحدة ما أزيد: لا تخافي». أشرقتْ عينُ حورية بزُرقةٍ

من خيوط الفجر الذي شَقَّه الأذانُ على جبال مكة، تَسَابَق الدمعُ على وجنتيها،

«يعني، ما هو دوري؟». حياتها تعلَّقت بالإجابة.

«لأ»، وندمت دبية لفورها، «لكن دخيلكِ لا تقولي كلمة لأخواتكِ. مكة تقاطعني وأنا آكل عيشي من إبرتي وثقة البيوت في كتماني، صدري جُبّ ولا جُبّ سيدنا يوسف يرموا فيه أسرارهم». احتضنتها حورية بقوة وقبَّلَت رأسَها ويديها، منسحبة. بخِفَّةِ نور قطعت السلالم منسربة للطيرمة، فتحت ذراعيها للهواء بنشوة عميقة، وملأ صدرها عبقُ ورد أحمر يقطع المسافات إليها من بستان بعيد يسهر في ديوانه «قنديل» عاشقها.

تلك الليلة انشغل صبيانُ الشربتلي بتسليم «الرِّفْد» في الدهليز: أكياس من السُكَّر والشاي والأرزّ أحضرتها شربتلية هدايا العرس الذي بدأت بوصولها أولى ليالي احتفالاته. الليلة المعروفة بـ«ليلة الغُمرة»، بدرية وحدها لم تكن تعرف بأنها العروس المَعْنيَّة حتى مساء تلك الليلة، حين حجبوها وراء ستارة مطلسمة بطاووس طَرَّزته شربتلية بيدها في شهرٍ، مذ جاءهم رسولُ السردار بالدعوة:

«أقلَّها زكريا العريس تعرفوه، سنتين شريك لعَمِّي مصطفى في تجارة المراوح». في ناموسيتها لم يغمض لفيروزة جفن، تسترجع الحوارَ بينها وبين عَمَّتها سكينة،

«عَمّك مصطفى تساوره شكوك في هذا النسب، يقول الولد داخل على طمع، لكنهم قفلوا عليه، وآخرتها وَسَّطوا له المفتي المالكي، وتعرفي عَمّك عنده الله فوق والمفتي تحت. استحى يردّه، وخوفه من الله منعه يصرح بشكوكه ويطعن في الولد. والمصيبة أنّ زكريا دخل علينا خاطبًا لحورية، عَمّك مصطفى حلف يمين ما ينوِّله مُناه، وأن يدخّله على بدرية، لفّ له بدرية عناد، ليقهره».

«وي وي وي، وإيش جاب بدرية لحورية؟! أيش جاب الشرار للموية والنور؟؟!! بدرية حليب بشاي وعيون فحم تبلع الشمس ولا ترمش،

وحورية خضرة سلسبيل وسما، والله حرام لو انصدم زكريا ورَمَى على بدرية اليمين ورَدَّها لكم من ليلة دُخلتها».

«ما يجرؤ، لأنه هو كمان حاسب ألف حساب للمفتي، وكمان الولد لا شاف حورية ولا بدرية، لا هو ولا أحد من حريمهم وَقَعَتْ عينه على بنت من بناتنا، لكن جابتهم الإشاعات عن عيون حورية».

«ما شاء الله عليها حورية، ست القلوب، والله غلبت بحر جِدَّة بهذه العيون من الجَنَّة».

«أدعو الله يستر ويتمِّم على خير، لا الولد زكريا يحط حَرَّه في بدرية ويسقيها المُرّ».

«بدرية بُندق لما تفرقع تفرقع، وما أحد يدوس لها على طرف. لو طَبَقت على رقبته الله يخْلِف عليه».

«والله الحُرمة حُرمة وآخرتها مكسورة».

«الدنيا بتتغير يا عَمَّتي، ونحن بنات حواء لما نشم الهواء نِزَهْنن وتطلع لنا أشواك. شوفيني أنا عمَّرت مع زوجي وهو يوقف على العتبة ينشِّف الرقبة، ليلة أنام مكسورة وعشرة ينام راكبته بالمقلوب!».

«الله كريم، يجعلْ نجمها يغلبْ نجمه».

«بس حرام عليكم حورية، يعني عَمِّي شايلها تُحفة في دولاب؟! يعني جمالها نقمة عليها؟ أكيد نفسها تدخل في حضن حنيّن، وتحس برفسة الولد في بطنها».

«أنا كمان الله يغفر لي، عقدت بنتي حورية عُقدة لكفني، نذرتها تخدمني في عجزي وتسبقني وتتلملم على قبري. لكن أهل أوّل قالوها: لو لها نصيب صَكّ الحِجل في الرِجل وبَرْسَم عمك مصطفى وشق عقدة الكفن[1]».

تمَّ العرس بسلاسة، والصدمة التي تلقّاها الزوج المُنْتَظَر وأهله تمَّ امتصاصها بخبث، تركت ما يُشبه ستار الموسلين تتحرك في شفافيته ولا

---

(1) تقصد القَدَر سيُخرس أي معارضة لتزويج حورية.

واقعيته الأحداث. انتقلت بدرية بهدوء لعُهدة زكريا الذي توسَّعتْ ابتسامتُه وزادت في حيرة مصطفى السردار:

«الولد زكريا هذا تِلح بشكل، شرب المقلب وفاتح ضَبّه، سِن العقل ساطع من الانبساط!».

«بلا قلب ولا مقلب، يحمد رَبّه على بدرية، دي بنت دنيا، يمكن لو أخذ حورية كان صاح وناح وبردت لقمة الدنيا في حلقه، حورية على اسمها، حورية من بنات الآخرة».

احتفالات العرس استغرقت سبعة أيام بلياليها، لم ينغلق فيها باب السردار بوجه زائر أو متفرّج، ولم تُرْفَع الموائد المبسوطة. وفجأة في الليلة السابعة حدث الانقلاب الفاجع: كانت الخارجة غاصة بالبنات يُحِطْن بفيروزة التي لم تسكت، تَسترجع كل موضة وإشاعة ظهرت في العرس لتحزمها لرجعتها إلى جدة، فوضى أخبار وجذوع البنات تنحشر في المشدات بينما تطوف بينهن دبة تخلعها، منهمكات يخلعن ثياب الاحتفال ويفككن الضفائر والتسريحات، توقف الهواء بالأسطح حين خلعت حورية مشطها المُطَعَّم بالفيروز واللؤلؤ وتهاوت كعكتها لينسدل شعرها الفضي واصلًا لخاصرتها، وفجأة تلوَّت وسقطت للأرض! العيون التي ظَنَّتْها مازحة جَمدَتْ على الزرقة التي زحفت من حول الفم صاعدة بقتامة لتكسف الجبهة الشاهقة. سكتت الضحكات وتسارعت البنات بمَرَشَّات الورد:

«بسم الله عليك يا حورية، سلامٌ قولًا من رب رحيم».

«هاتوا زمزم في طاسة الفجعة... اسقوها آية الكرسي». اختلطت الاجتهادات، حين أفاقت حورية لم يكن بوسع يد لملمتها، تتهاوى، وبيمينها متشنّجة على مشطها الفيروز، تطرق بالمشط الأرض وتُرَدِّد:

«احفروا في الأرض... احفروا في الأرض...». بلا انقطاع أو تنويع تطرق بمشطها الأرض وتُعيد... وتخبَّطت البنات، يفتشن حولهن عن أرضٍ يحفرنها:

«أي أرض؟!»، يسألنها. ويملأ عينيها البياض: «احفروا في الأرض» تكرّر وتردّد.

في الأيام التي تَلَتْ تحوّلت حورية إلى ركام، زائغة العينين، كلما سقوها قطرة رجّعتها حتى لفظت أحشاءها، شاحبة لا تقوى على النهوض، تسندها أخواتها لتذهب إلى الحَمّام، وحين تتهاوى بين أيديهن يستنجدن بأخيها عبد الشكور الذي يحملها من مكان إلى مكان، يلفها في بطانيته ويصعد بها حتى الطيرمة يسهر بها بين يديه ليدفئها القمر، بينما لا تسمح ليدها بالتراخي وإطلاق سراح مشط الفيروز، تطرق به بلا انقطاع: «احفروا في الأرض».

تقولها كمن يتمسَّك بحبلٍ يهوي به إلى قاع سحيق، يصاب أخوتها بالذعر ينبشون حول البيت، لاَ يعرفون عَمَّ يبحثون، لم يبق سيد من السادة المبروكين لم يدخل مَقْعَد السردار، يتلو فتهيج حورية وتنهش أطرافها، ويُكرِّرالسيد ما كَرَّره سَابِقُه:

«البنت مسحورة، وسحرها أسود مُشَرَّش ما ينفك إلا بطلوع روحها. والدليل عذابها عند تلاوة القرآن ونفورها من ماء زمزم، لكن هذه حدود علمنا. العمل مخفي، عليه غطاء من الجِنِّ ومَرَدَتهم الشداد، لا يكشفه إلا قدرة الله، الذي يضع سِرّه في أضعف خلقه».

مزيد من الألغاز وحورية تذوي وتتحوَّل عيناها لبقعتي بياض بلا بؤبؤ.

حتى كان ذلك الغروب، وأختها الطفلة مائدة وأخوها عبد الصمد يلاعبان «نُصّ لسان» بمفاصل أقدام الخراف (الأكباش) التي تقوم مقام البليات، ينبشان أرض الخارجة السفلية المكسوة ترابًا لتثبيت أكباشهما، بضربة معجزة عَمَّقَتِ الطفلة مائدة حفرتها، وفجأة عثرت على تلك الصُرَّة مدفونة، انقرص قلب «نُصّ لسان» بشهقة:

«كأنها مِعْدَة حيوان محنَّطة، الله العالم بالمخفي فيها؟». حَمَلَها مرتعشًا إلى مصطفى السردار الذي حملها بنفسه للسيد التونسي، والذي أعلن البشارة: «أخذوا من أثر بنتكم حورية وسحروا. لكن إرادة الرحمن كشفتِ

المخفي، وفَارَق المَرَدَة وبَطُلَ سحرهم المنسوج من شَعْرها». نَفضَ التونسي الصُرَّة من معدة بعير، وفك خصلات شعرها من لفات السلك المطلسم، وللحال نهضت حورية. تَوَرَّدَت وجنتاها بأول شربة زمزم وفارقتها قِلَّة الروقة، واتجهت أصابع الاتهام إلى زكريا زوج بدرية. وتنطلق التعليقات:

«الله يكافيه زكريا ولد فتو، لا حَمْد ولا شُكْر، بيمينه يغوص في عسل بدرية وبيساره يطلسم أختها حورية. وكل هذا الوقت كان هو وأهله السحارين يتفرجون عليها وهي تذبل وتموت، لا خوف من ربّ ولا شفقة بالعباد».

«يقولوا لمَّا اكتشف زكريا المقلب أقسم: إنْ ما نلتها ما ينالها غيري».
إلا أن بدرية نفسها لم تسمح لتلك الإشاعة بالتمدُّد:

«الله يقص لسان اللي يعيد هذا الكلام يسحروها على أيه؟ على دمها الجالس حجر؟ ولا على غشامتها بالحياة؟ ما تسألوا نفسكم فين غاب زكريا عن السوق شهر؟ هذا معمي بحبي، ما يشوف طريقه من ناموسيتي».

قِصَّةُ الغرام بينها وزكريا نجحت حتى في تقويم علاقته بالأب، الذي غاظته فكرة الحب بين ابنته وزوجها:

«بلا حب بلا معجزات قلة الحياء، هذا ربنا رأف بأحفادي من زكريا وذمته الواسعة، شَبَّع عينه وقصَّر يده عن الحرام، لأننا السردارية أبًا عن جد لم ندخل على أولادنا قرش حرام، وبَرَكَتنا بإذن الله واصلة حتى لأصهارنا».

وبالطبع اتجهت أصابع الإتهام بالسحر لأهل زكريا الذين خسروا ملامح حورية الإسطنبولية التي تمنّوها لنسلهم.

طرطرة شوكة وسَكِّينة

مكة، 1950

«مين طَرْطَر السُفرة على الكرويتة؟!». وقف مصطفى السردار الكبير مصعوقًا بباب الخارجة يتأمل السفرة، من أركان الخارجة تضاحكت البنات وكتمت الجواري ابتساماتهن، منذ الغروب تابعت عيونُ نسوة البيت المَشْهَد من الأسطح المُتراكبة، نبَّهتهم الفوضى حين عَرَّتْ سُكَّرِيَّة الكرويتة الخشب وجرَّتها لتنصبها كمائدة في منتصف الخارجة الكبيرة، لم يتقدم أحد لمساعدتها غير «نُصّ لسان» الذي لم يحتج منها لتعليمات، جرَّ معها الكرويتات المفروشة بالدمقس للجلوس لتحوِّط بها طاولة المنتصف، وغطتها بمفرش دانتيل، وراحت وجاءت معه تُوَزِّع عليها الأطباق، وعلى يمين كل طبق سكّين وعن يساره تلك الأداة التي أثارت الكثير من الجدل والاهتمام: الشوكة! فالشوكة لم تكن رأتها معظم تلك العيون المُرَاقِبَة، وكان الطقم هدية الجدة نازك، بعثت به مع سُكَّرِيَّة خصيصًا لتنخس صرامة ابنها مصطفى السردار.

«ليه الأكل مرفوع تختبوش؟!». تغامزت البناتُ وتَرَكن لسُكَّرِيَّة مواجهة ذلك الاستجواب. انبثق «نُصّ لسان» بدورق الماء، يصب رافعًا الدورق في الهواء بمبالغة أمام السردار الكبير ليُصَرِّف عنها الهجمة. لم يطرف جفن سُكَّرِيَّة، أجابت ببساطة:

«لم لا؟ نكون على الموضة، نأكل على طاولة مثل أهل قصر عابدين».

جحظت عينُ الأب مصطفى في سُكَّرِيَّة. من الصعب تحديد ما إذا كانت تلك نوبة جنون أو نوبة تَحَضُّر:

«وإيش قال ربّنا في جلسة الأرض، وملائكتنا هاجدة؟!».

غابت سُكَّرِيَّة وأقبلتْ بصينية الأرز البخاريِّ يفوح بالخولنجان والهيل ورشَّه جريئه من اللوز والزبيب المُحَمَّر، «أكلك خامر يشوِّق لكن عقلك لَفَحَتْه الفرعنة». وضعت الصينية في منتصف الطاولة. سال لها اللعاب ولاحقتها العيون. فأضافت: «لازم يا بويا نكون مع الدنيا، الدنيا حلوة وماشية في مكان تاني».

«ونحن لازم نقطِّع مَصَارِيننا عشان نسابقها؟!». وجلس محتارًا للبقعة التي قادته إليها سُكَّرِيَّة، وتبعتْه البنات والأولاد مُصطفَّات حول اختراع طاولة الأكل.

«يعني نحن الآن موضة؟!». وتَجَاهَلَ الجميعُ الشوَكَ والأطباقَ مراضاة للأب، وامتدت الملاعق: الكل يأكل مباشرة من صينية الأرز بالمنتصف عدا سُكَّرِيَّة، بشوكتها وسكينها حاولت قَطْع قطعةٍ من اللحم، ولاحقتها الأعين والضحكات المكتومة، بينما حوَّم «نُصّ لسان» بباب الخارجة.

«وإيه خطاطيف الشيطان هذه؟ يا بنت إيش فنطزة الفراعنة هذه، خلينا على دَيْدَنّا. الأكل باليد بَرَكَة، حابة تتفنطزي كُلي بالملعقة بدل البهدلة».

«بدل أن نقطِّع الأكل بأصابعنا الشوكة والسكينة أنظف وأسهل».

أفلتت ضحكة نورية وفَصَدَت غيظَ الأب بابتسامةٍ. يصير من الصعب الاستمرار في الغضب وسط تلك الطُرفة التي اخترعتها سُكَّرِيَّة، راقب استقلالها بطبق تأكل منه:

«ما لك مثل الجربانة تاكلي لوحدك؟ هو أنتِ الجربانة أو نحن الجربانين؟!».

لم تتراجع، ردَّت بقوة شكيمة لا يجرؤ عليها أخوتها الذكور:

«يا بويا كده حُرِيَّة، كل واحد مستقل يأكل على قدر معدته».

قاطعها ساخرًا: «وَلْ وَلْ، حُرِيَّة واستقلال؟!! هي جَدَّتك الهانم نازك أخذت بنتنا وأرسلت لنا سعد زغلول نفسه؟!». لم يختلج لسُكَّرِيَّة طَرف،

أكملتْ: «وباقي الأكل نشيله نظيف». وبعناد لاحقت بشوكتها حبات اللوز المُحَمَّر. ولم يكتفِ الأب:

«ويعني أيدينا هي الوساخة وشوكتك هي المعقّمة؟!!». غصَّت باللقمة، وعَاجَلَها:

«هو يا بنت الكلام قرقعة قدور؟! يعني إيه استقلال وحرية؟!!». يرفع الشوكة بوجهها: «هذه حرية؟!!»، ويطرقها بالسكينة بغيظ: «وهذه استقلال؟!! الله لا يقلِّلنا في عيون خلقه. وآخرتها معاكِ كده كل يوم لنا معاك صَجَّة ورَجَّة وتاكلينا بالطافوح؟!».

لمعةُ الجنون التي وَمَضَتْ بعين سُكَّرِيَّة دَفَعَتِ الأم سكينة للتدخل:

«يا ناس اتركوا البنت في حالها، اللي يحب ياكل بإيده ما أحد رَدّه، وعلى العموم الجلسة كدة طرطرة أحسن للقومة، بدل ما تِنْدَهِك رُكَبنا من جلسة الأرض».

عبارتها حسمت الصراع لصالح سُكَّرِيَّة، وربما جاء تدخلها لمنع انتكاسة البنت النفسية والتي لم تلبث أن رجعت من رحلة علاجها في القاهرة، رحلة لم يعرف أحد تفاصيلها، لكن فكرة الاستقلال والحرية تجسَّدت في نصبة ظهرها، وفي نظرتها التي صارت تخترق رؤوسهم وتنفضها.

ورد بلدي وفرس حَمْراء

بدأت سُكَّرِيَّة تكتب لجدَّتها نازك رسائل لم يقيِّض لها أن تُرسَل قط، حيث إن كتابة رسالة تعد فضيحة، وإرسالها من سابع المستحيلات، وتواصل الإناث مع الخارج جريمة لم يُسمع بها من قبل.

خوف أو رغبة في الهرب هو ما دفع سُكَّرِيَّة لكتابة رسالتها الأولى:

يا نازك الألفية، لأنكِ حذَّرتيني أناديكِ جدتي، لأنه لقب من البادية.

قنديل هو السر مثل سِلّ يتآكل حورية، أهل قنديل من كُبارِيَّة الزاهر، ضمن أملاكهم بساتين ورد على مد البصر -على قول مِنْ قال- يتصل حَمارُها بحمرة الشمس الغاربة، لَمَحها ولَمَحَتْه بالصدفة في عرس ببستانهم، وانطبقت على قنديل أرض وسما من فَرْط الورد.

ويوم بعد يوم تولَّع قنديل بحب حورية، وروحه وكيس خَلاص أمه مقطوعة عندها، لأجل عيونها يرسل لبيتنا الورد البلدي بالزنابيل.

ورود تفوح بدم قلبه يتكوَّم أكوامًا، وصار الناس يشمّوا عشقه من آخر الحرم ومدخل مكة.

واصلت حورية عديات يس، تقرأها 41 مرة تقطع النفس ليل نهار، يس قوية حَرَّكتِ الكبارية وقفلوها على أبويا، وعقدوا لها على قنديل، وشَرَّعوا المُدَّعَى من أولها لآخرها للزَّفَّة.

وليلة دُخْلَتهم... كيف أوصف لك: فصّ ملح وذاب! ويمكن تفهمي من اسمها، هي تراجيديا أو كوميديا... وشيَّبت رؤوسنا، نَصَبنا الريكة، وشَرَّعنا حورية ونورها كسف القناديل كلها. وحَضَرَ كل أهله، عَمَّاته وأخواته، وبانتظار يطل قنديل مع أمه والوفد المرافق.

ولعبت اللعَّابات، وغَنَّت كيكا وتوحة كل لِسْتَة الأغاني، وأكلت الزّفافات الفُوفل وطَرْقَعوا باللبان، والمعازيم بدأوا يجوعوا والعريس قنديل لا حسّ ولا خبر، وقبل نص الليل بدأ الناس يتسحسبوا، وأهل العريس نَزَلَ عليهم سَهْم الله ساهمين ضائعين حائرين طاش سهمهم لايعرفوا هل يروحوا أم يكمّلوا؟ وحين جلجل صوتُ المؤذن بالحرم «الله أكبر» للفجر طلع المأذون «بَنْجَك» على الحرم يلحق الصلاة، وانفضّ معه آخر المعازيم، ولا يد امتدت للقمة، تَرَطْرَطَت الكَوَازي والحلويات، وحورية منصوبة في ريكتها. والله بيمين شهدنا: «الدُبّان الأزرق يزِنّ على طرحتها».

تيأس سُكَّريَّة من جدوى الكتابة، فتتوقف الرسالة عند هذا الحد، لا تجد الجرأة أو الكلمات المناسبة لتشرح كيف طلع صباح العرس، وكيف وجدت «نُصّ لسان» على بابها، فاجأها أن بَهَتَتْ تَقْرِينةُ حاجبيه، وبأنفاس مُتقطِّعة حكى لها سر ما تَمَّ فجر الأمس وليلة الدخلة اليتيمة.

للإعداد للعرس، كان «نُصّ لسان» في الخزانة أسفل الدرج منحنيًا على علبة الجراك، يغرف ويُوَزِّع على الجمر في رأس الشيشة الفُخَّار حين بلغته تلك الأنّة المكتومة، ألقى برأس الشيشة وسارع للدهليز، وفاجأه الخيالُ المعصورعلى الدرج،

«ساطور يشقّ في صدري». قالها السردار الكبير ضاربًا على قلبه. وكان بوسع «نص لسان» أن يعصر من ثوب سيِّده برابخ العرق البارد، تلك كانت الذبحة الصدرية الأولى لمصطفى السردار.

بيدٍ باردةٍ تشبّثَ الرجلُ المخيفُ بذراع «نُصّ لسان»، يمنعه من الإسراع لطلب العون. توكأ على كتفه مُغادرًا معه البيت، سارا صاعدين باتجاه حارة الباب، لم يقف إلا على بئر بازانها القديم، وتَنَفَّس:

«ما هان عليَّ». بالكاد يفهم «نُصّ لسان» تمتمة السردار لنفسه: «لا أحد يستحق لولوة عقلي حورية؟». الجهد الجبَّار الذي بَذَله السردار في مشواره

أحاط فمه بالأزرق، ارتفع حاجبا «نُصّ لسان» المشذّبَيْن ولم يجرؤ فينطق.

«خلاص روح كَمِّلْ شُغلك، ولا تِطْلَع من فَمَّك كلمة. ترى أَرِنَّك عَلْقَة أقطع النُصّ الباقي من لسانك».

رَكَضَ «نُصّ لسان» منسحبًا حين انفجرت على باب البازان تلك التحية: «حَيُّوا». وتمدَّد خيالٌ جسيم طافحًا في فراغ البازان، مُحَزَّمًا بحزام صوف عريض في ذلك الصهد.

بلا نظرةٍ إلى الوراء استمر «نُصّ لسان» يركض مسابقًا خوفه المفاجئ، حين وصل لأول المُدَّعَى وَقَفَ فجأة شاتمًا ذاته:

«يِطُرَّك يا نُص لسان، فَوَّت على نفسك فُلَّة البُقْشَة». وانْكَبَّ راجعًا أدراجه، تسلَّل بهدوء من البوابة الخلفية للبازان، ومِنْ وراء صفائح الماء المُكَوَّمة استرقَ النظرَ. كان السردار الكبير لا يزال في جلسته على المصطبة يمين الباب مواجهًا لذلك المارد. الكل يعرف «أبو حَنَش»، شيطان يابات حارة الباب، يترك الباعةُ ما بأيديهم ويسكت الكلام عند مروره بالأسواق كفاية لشَرِّه. نجح «نص لسان» في التقاط آخر الاتفاق:

«لا تنسى أنا عتقتكَ، اشتريتكَ من أبوك الله يرحمه بجنيه دَهَب جورج، وإلا كان زمانه خَصَاكَ وشَغَّلَك للأتراك آغَا».

«أستاهل المَعْيَرَة لو شَم هوا بَاكِر. لكَ عليَّ أرجِّعه لبطن أُمّه، رَوِّقْ ورُوقْ يا سيد راسنا، أبو حنش حزامك وشُوْمَتك بجنيه أو بكلمة».

«لا تحمِّلْني وزر ولا حتى رقبة، تراني بَأوصِّيكَ: لا تمسحه كله امسح من رأسه طريق بيتنا، لا أكثر ولا أقل».

بدا التردُّد على أبو حنش، وقال: «لكن هذا التصرّف، ألن يُعيب كريمة سيدنا؟».

اليد التي شدَّتْ على يد أبو حنش أرسلت صاعقة بصدره.

تمتم كمن يحدّث نفسه: «تِعِيبْ تِعِيبْ، لأجل لا أحد يوقف عليّ بعد اليوم ويطلبها. حورية ما كانت قط من أهل الأرض، تحفة أُودعت بيدي».

يتصرّف السردار في حورية التحفة كسلعة بين يديه يتحكم بحظوظها.

نظرة الخضوع بعين أبو حنش أرسلتْ رعدة لذة بجسد «نُصّ لسان»:

«تَمّ!»، قالها المارد مقبِّلًا رأس سيده، واجتاز السردار الكبير ذبحته الصدرية.

حين ظهر ببيته كان يأمر وينهى الطباخين بنشوة من أُطْلِق من عِقَال، ويُشرف على ذبح خراف وليمة العرس، وبعناية انتقى أكياس الأرز ماركة «عنْبَر بو» الفاخر لطبق «سليق» تلك الليلة.

في غمرة الفرحة لم ينتبه أحد لغياب «نص لسان» عن دربكة عرس حورية، كان لا يزال كامنًا ببُرج مراقبته بالبازان. حين حَطَّ الليلُ استقبلتْه قناديلُ «حارة الباب» بسكتة مريبة، اصطفَّت القناديلُ مطفأة من مَدْخَل الحارة إلى مَخْرَجِها لتلافيف أَزِقَّتِها، ولم يُلْمَح خيالُ لحِيٍّ يعبرُ خلفَ نوافذها وأبوابها مستشعرين الخطر القادم، حتى القمر غاب عن «حارة الباب» تلك الليلة. لم يعد «نصّ لسان» يرى موقع قدميه حتى لو فكَّر في الهرب. لم يلمح إلا ومضة حُمْرَة الفرس التي ظهرت محفوفة في الموكب المُضاء قادمًا ليعبر الحارة، فجأة ومن فحم الليل انبثقت أشباح مُحَزَّمة مُعْتَرِضَةً الموكب، لم يفهم «نُصّ لسان» شيئًا من الغمغمة والحمحمة التي دارت بين الأشباح وحَمَلَةَ المشاعل والمَعَاشر وبواخر البخور، لكنه لَمَحَ الشُومَةَ التي سقطتْ على تلك الرأس تحت المشعل وشقَّتها إلى نصفين.

«طلعت البطيخة حَمْرًا». يضيف «نُصّ لسان» ضحكة هنا ليفصد الرُعب الذي تُثيره تلك الذكرى.

«في لمحةِ انفتحتِ الأرض وبَلَعَتِ العريس قنديل بفرسه الحَمرا فِصّ مِلَحْ وذاب». مهما تنوعت روايات «نص لسان» للاتفاق الذي تم عقده حول البازان يحِلّها بفص الملح ذاك.

كلام في كلام

مأساة حورية تركت في البيت صمتًا لم تحتمله سُكَّريَّة. قرّرت أن تخرج الكتب الثلاثة التي رجعتْ بها من خزائن جَدَّتها في القاهرة، وكانت خبّأتها بحرصٍ شديد. أخوتها الذين قتلهم الفضول وهم يرون الكتب بين يديّ سكّرية طالبوها أن تقرأ لهم. وراحت رواياتُ «زينب»، و«سهيلة في الظلمة»، و«سِيَر حياة شخصيات مصرية وغربية»، لمحمد حسين هيكل تستقطب اهتمام أخوتها وانجذابهم ليس فقط للحكايات بل دهشتهم من قدرة سكريّة على القراءة ومن صوتها الذي يجعلهم يستمعون بشغف. اتسعت دائرة الحكواتي في الطيرمة، وبدا الجيران يلمحون أشباحَ البنات اللواتي لم يحلموا قط بشيء كهذا في بيت السردار، وبدأت الأشباح تظهر في ثيابٍ بعيدة عن الثوب المكّي الطويل، فساتين بخصور وقصيرة تُصمِّمها سُكَّريَّةٍ وفق الطرازات التي رأتها في سَفرتها، وتقصُّها حورية وتقصّ فيها حيرتها وآلامها، بينما تخيطها وتزيّنها نورية الشغوفة بفن «الشخلعة». صارت بنات السردار ينتهزن خلوتهن بعيدًا عن عين الأب لكي يلبسن ثياب ممثلات السينما المصرية، ليلى مراد وفاتن حمامة وشادية ونادية لطفي وماجدة ومريم فخر الدين. تقول لأخواتها:

«الناس هناك عندهم حياة. يعني تشوفي بنات في البلكونات تقرأ كتب أو تنشر غسيل، وتشوفي بنات في جروبّي، ترقص «سلو» في أحضان رجالها على موسيقى الساكسوفون. في الجنينة الخلفية لجروبي شفنا فيلم... مهما قلت وعدت، شيء لا يوصف... الناس أرواحها هوا مهفهف، يمكن النيل ليّنهم، ويمكن «المارّون جلاسّيه»، أو»الميل فوي»

التي هي عجبة تذوب على اللسان وتحلّي الكلام، أما «الكريم شانتيي» ينسيك طعم حليب أمك».

«يا فضيحة، ورقصتِ يا سُكَّريَّة يا بنت فرح الجارية؟!».

«جدتي دفعتني لذراع ذاك الحليوة الطويل. من كسوفي هرست رجله برجلي الغشيمة، قام شالني وطار».

«بلاشي فَشْر[1]... شكلك بتخترعي هذا الكلام عشان تحسّرينا». تعترضها بدرية بغيرة، وتتأملها سُكَّريَّة بشفقة:

«تظني الحياة كذبة، لأنك محرومتها؟!»، فتلجأ بدرية لتهديدها:

«لا تسمعكِ أمنا سكينة أو أبونا أبو الهول، والله يرسلوا من يُخرج هذا الفُجر من عين جدتك نازك».

يسري بينهن «نُصّ لسان»، يُهرّب لهنّ الأقمشة، ويساعدهن في الخياطة والتقصير، ويسرق القصاصات ليؤلف الصَداري والأحزمة التي يلبسها في خلوته.

تغيّر نورية مجرى الكلام: «يعني نحن محكوم علينا نبقى للأبد عصيدة مخنوقين؟!».

«أجل؟ كريم شانتييه يحمَض في حَرّ مكة؟».

بتلك الكتب الثلاثة التي تعيد قراءتها عليهم ليلة وراء ليلة تنصَّبت بصفتها (سُكَّريَّة راس)، كقارئة العائلة المثقفة: «عيني في عين الراجل منهم، ويتكلَّم معايا عن المَلِك وعن الأحزاب، دي ستي نازك بتعرف كثير وتنافح الرجال!».

«لا ينقصنا غُلب ونار رجالنا حتى نزيد عليه ونحط عيوننا في عيون الأغراب وننافحهم».

«الدنيا فيها سياسة، وناس تخرج الشارع وتقول: نبغى وما نبغى علينا حاكم، ويلعن أبو الحكام! جَدَّتي هذه الكركوبة نازك تخرج في تظاهرات، ويسمع كلامها الرجال».

---

(1) بلاش فشر: كفّي عن التبجّح.

«هي كل القضية الرجال؟!».

«لو شفتوا جدَّتي نازك، رأسها خزائن بطن خزائن كتب، لما تفتحها الكل يوقف ويضرب لها تعظيم سلام، وينادوها الحاجَّة الألفية. نَفَضَتْ في مخّي الحروف المحنّطة برؤوسنا لم تُستعمل بعد ختمنا لجزء عمَّ من القرآن. غرستْ رأسي في الكتب وفتحتْ عينيَّ على قصص ومسرحيات، وجعلتني أقرأ كتاب «تحرير المرأة» لقاسم أمين. أخذتْني مرة معاها لجبل المقطم وخَلَّتْني أصيح». سَرَتِ الحَمَاسَةُ في البنات:

«لعنتُ جَدّ جَدّهم... مين هم؟ والله للآن ما أعرف. ممكن الرأسماليين وممكن الاشتراكيين، ويمكن جَدُّكم الحادي عشر اللي حكم مكة ودخل التاريخ، ويمكن أبونا مصطفى وجبروته. صِحت وطَفح صدري براحة ما قبلها ولا بعدها راحة».

«خلاص ياسُكَّرِيَّة، ما كانت سفرة هذه سافرتيها، ورجعتي مُعَمَّرة مثل مدافع القلعة. فقّعتي قلوبنا بكلام غير مفهوم وأسماء، نحن ما لنا ومال كل هذا الصراخ». تناكفها بدرية. أعطتها نورية ظهرها، وتوجهت لسُكَّرِيَّة،

«والله نفسي أصيح». قالتها بحسرة، «أولاد على بنات نحن محبوسين بالحيا، لما أقول لأبويا أبغى أنزل الحرم يستصيب. على شُوْفة عيونكم، بيتنا هنا في المُدَّعَى، بابنا يفتح على طلعة المُدَّعَى الملاصقة للصفا والمروة اللي تطلعها الناس وتوقف هناك تشوف الحرم وتدعي... يعني لما أكون في الحرم كأنني في دهليزنا، ومع ذلك لما أقول لأبويا الله يغفر له: أبغى أروح الحرم! تطلع له قرون، ويقول: مو أنتِ كنتِ هناك السنة الماضية؟! يعني خرجة في السنة فضيحة، ويحَمِّر عيونه ويحسم الفضيحة: ما في خروج من البيت». وحدها حورية لا تتشكى ولا تساهم في الغليان، طافية مثل ريشة على موجة الظلم التي اجتاحتها.

«على قول جدتي ما لنا إلا هدى شعراوي، الحرمة القادرة اللي كشفت وجهها وحاربت عشان تدخِّل الحريم الجامعة، وجدتي تحفظ غيب نشرتها عن عصر الحريم. يعني اللي يحرق القلب أننا نحن في عصر أظرط

من عصر الحريم... تخيَّلوا لو نحن كلنا مع حريم الجيران خرجنا من غير القُنْعَة التركية، بس بالكُرَت والمَسَافع، وصرخنا في المُدَّعى. والله ما في راجل يقدر يرجّعنا البيوت... ويوئدنا في الحياة. تخيَّلي يا حورية لو نزلنا الآن المقعد، وصرخنا كلنا بوجه أبويا وقلنا له، ما نسمح له يعيد عملته في حـو...». وسكتت قبل أن تفضح السر، لكن النظرة بعين حورية فضحت أنها قد خمَّنت دور أبيها في مأساتها واختفاء معشوقها قنديل ليلة عرسها.

«كلامكِ حلو يا سُكَّريَّة لكن يقلب الراس، لا تحسَّرك هدى شعرواي وبرَمَاوي هذه، أنتِ فتحت عينك على الدنيا هاجَّة من ثيابك والبيت، يعني جاهزة للخراب!». وانشق صدر جليلة، الراضية دائمًا، بحسرة،

«يا نورية يا أختي أنا بلغت الخمسين بحسرتي، كل من يسأل والدك أو يتقدّم خاطبًا يقول له: ما عندنا بنات! سيدي الله يرحمه، والآن أبويا وأعمامي، لما تتولّد لهم بنت يتكتموا عليها، والبنات تموت والناس ما يعرفوا أن عندهم بنات. وأد في الحياة... تظنّونا على وجه الأرض؟ هذا البيت مقبرة واقفة أدوار ومجالس... وعلى قولك يا سكرية: نحن محنَّطين فيها».

تُشجعها سُكَّريَّة: «أنا مستغربة كيف أهل مكة ما انقرضوا وهم مُصَمِّمين على قولة: ما عندنا بنات للزواج؟! يعني لما يحبّوا يتزوجوا البنت لازم ينصبوا لأبوها كمين من الكبارية والشيوخ، لأجل يكسروا عينه ويجبروه يزوِّج».

«هذا داء العوائل المخلولة مثل عائلتنا»، تقول نورية، وتكمل: «لو خرجنا زَيِّ سُكَّريَّة كان على الأقل عرف الناس أن البيوت فيها بنات، وأننا موجودات، نشمّ الهوا ونحب ونكره وجسمنا ياكلنا عشان نسوي لنا حياة وأولاد... وخليهم ينصبوا لأبونا كمين».

«دي أفكار تخرّب بيوت». تتدخّل بدرية، «يا سُكَّريَّة أنت اتفرعنتِ وسكنك العفريت المصري الساكن جَدَّتك نازك. وراجعة من عند الفراعنة توزعيه علينا».

تستمر نورية في احتجاجها، «نحن حكاية تضحِّك، حريم على رجال

معقّدين، وننقل عقدنا لأولادنا، تذكروا لما جاتنا الخاطبة بلابل؟ طردناها وشتمناها: يا قليلة الحياء يا عايبة، أيه المصيبة اللي جبتيهالنا؟ ورمينا وراها الشباشب وهي بتتكركب على الدرج للدهليز؟ نحن مروّعين بسمعة الرجال أنهم بطالين ويصحُّوا الحريم بعلقة ويصالحوهم في الليل، عمالقة جبارين يشيلوا الحُرمة على كف يد واحدة ويهددوا يرموها من السطوح للزقاق لو ما طاوعتهم، مدري حقيقة ولّا خيال، صار الزواج لنا بعبع».

الكتب الثلاثة التي تسببت في تلقيبها بـ(سُكَّريَّة راس) تَوسَّعت لتُلاحقها وترسم أقدارها! ورغم افتتان الأخوات بحكايا سُكَّريَّة عن تجربتها في القاهرة وصرعات الثياب التي خطفت أنفاسهن، إلا أن طقم الشُوَك الذي رجعتْ به من القاهرة هديَّة من جَدَّتها ظلَّ نكتة العائلة، يلاحقها أخوتها وأخواتها ساخرين، ما إن تحين وجبة حتى يتغامزون:

«فين شوكة الحرية».

لا يخفف مقاطعتهم إلا «نُصّ لسان»، الذي يختبئ في المطبخ بعد كل وجبة مع أمها الجارية فرح، ويتدرَّب أمامها ويُدرِّب الجارية الأمّية على استعمال الشوكة والسكين.

«ولا تنسوا صحن الاستقلال».

«هذه الأكلة لازم لها مظاهرة زغلولية».

«وطَرْطَرة سُكَّريَّة الديموقراطية».

ويتحلّقون على السُفرة، بانتظار أن تمتد شوكة سُكَّريَّة للصينية لينفجروا ضاحكين، ويتناثر الرذاذ من أفوههم ويصيبها بالقرف:

«يا نَاسِ يا هُوه خلِّيكم موضة، لا تنسوا في كل عزيمة تحضروها تتطرطروا طَرْطَرَة الحرية، وتضربوا تعظيم سلام لأم المصريين».

حاصرتها الغمزات لتجعل منها النغمة النشاز في العائلة.

طرد: سقطة تتكرّر

مكة، 1950

الحدث العظيم جاء به ساعي البريد. لم تستطع سكريّة إرسال رسالة مما كتبته إلى جدّتها، لكن المنع لا يسري على الجدة. المظروف السميك الذي سلمه للأب مصطفى أثار زوبعة. على المظروف مكتوب: المطوِّف مصطفى السردار، ومنه لكريمته، وبالخط الأحمر: (سُكَّريَّة).

تَجلَّدَ الهواء في الدهليز. دخل الأب مصطفى إلى المجلس، وانضم إليه كل من دخل من أخوانه، وتشكّلت حلقة حول المظروف المُحَاصَر تحت الضوء على طاولة الشاي من الخشب المطهَّم بالصدف السوري، على حواشي الدائرة الأولاد من أخوة سُكَّريَّة وأبناء عمومتها، الكل يترقَّب في محاولةٍ لفهم كيف حصلت تلك الفضيحة:

«ومُوَزِّع البريد جاء حَطَّ عينه في عيني وقال: رسالة لسُكَّريَّة، وَقِّعْ بالاستلام! مَرَّغ خشمي في التراب، يقول اسم البنت كأنها أمه أو أخته... والله لولا ملكت نفسي كنت شربت من دمه».

لم يكن مُهِمًّا ما تحويه الرسالة بقدر أهمية الاسم على لسان ساعي البريد وتحت أَنظار الموردين لتلك الرسالة من القاهرة إلى مكة. إعلان اسم أنثى بهذه الطريقة وكتابته على مظروف! فضيحة.

«يا جماعة جَدَّتنا المصرية دي مُخَرِّفَة، وما عليها عتب، افتحوا خلينا نشوف كم من بلاوي مُحَمِّلَتْها ومُزَمِّلَتْها من القاهرة لمكة». قال أحد الأبناء.

«أقسمتُ يدي ما تلمسه». أشار مصطفى لأخيه عبد الكريم آذنًا له بالتصرف، راضخًا لإلحاح الفضول الذي يقتل الإخوة الأصغر سنًا. وَقَفَ الحمام مشلولًا في هواء الرواشين المُشْرَعَة يرقب مع العيون. خمسون

زوجًا من الأعين جحظت على يد عبد الكريم حين شَقَّت المظروف، وحين برز ذلك الكتاب يحمل عنوان:

«أوتيلّو تأليف شكسبير من ترجمة خليل مطران، عن الطبعة الملوكية».

جحظت الأعينُ على صورة الغلاف: العبد الأسود يقصم عنق المرأة الرهيفة في عناق شهواني أقرب للعشق منه للقتل. انتفضَ مصطفى السردار قائمًا، ضاربًا الكتاب بيده. لكن تلقّفه محسن، وبسطه للعيون ينخسهم بشهوانيته.

«ما هذه المسخرة! حسبيَ الله، أمي فقدت صوابها؟!».

لم يناقش أحد ما إذا كان لسُكَّرِيَّة أن تستلم ذلك الكتاب أم لا، من طوافه بالدهليز اندفع «نُصّ لسان» مغامرًا يقطع بخفَّته في ذلك الغضب:

«ياعمِّي ألحقنا. جمل انفلت مجنون في السوق وبركَ على بيّاع اللبن يطحنه والناس ملمومة عليه عاجزين يفكوه، يقولون غيرة على ناقته اللي نخسها اللبّان».

لم تنفع كذبة «نص لسان» مع السردار:

«انقلع ياواد بحكاياتك من هنا، لا عاد أشوف وجهك».

نَهَرَه بغيظ، ورجع لمصيبته: «لا بد نوقِّف أمي عند حدَّها. مُصَمِّمة تلاحق البنت بوِسواسها، وآخرتها تدخل عليها بعبد؟!».

«سَفْرَة سكّرية لمصر هذه من أوَّلها لآخرها مسخرة وفتح باب لكل هذه الشياطين. أيه تتوقعوا من حرمة قويَّة مستويَّة، شَابَتْ وعَابَتْ والآن تبغى تعَيِّب البنت اللي أرسلناها لها هدية في بقجة؟». بحركة مسرحية ربط الأخ الأكبر سالم رأسه بإحرامه كإنذار بصداع، وكان أكثرهم صرامة.

ولتخفيف الصداع وبلا تردُّد أرجع عبد الكريم المَسْخَرَة بعبدها المفتول العضلات لمظروفها ورَدَّها لبؤرتها على الطاولة.

«هذا المُوَزِّع بلوى، أنْسِفْه، لا يعود يوقف علينا ولا يجيب لنا مراسيل». قالها مصطفى غاضبًا.

«يا خويا هذا موظف ميري، رايح جاي علينا بمراسيل الحملدارية وبعثات الحجاج».

«قلْ له ما عندنا هذا الاسم سُكَّريَّة».

«يا خويا لا يروح يدور بها على الدكاكين يسأل عن صاحبها ويُوزِّع الاسم على كل من هبَّ ودَبَّ، الحكمة أنكَ تأخذها منه أول بأول وترميها في القُمَامَة».

بقي فضول الأولاد في المجلس عندما غادر الجميع. حين انتهى مصطفى وحيدًا تناول المظروف والقى به في الخزانة العميقة وراء كرويتته، وتَنَاسَى أمره.

المظروف الثاني ألقى به في البئر ذاته بلا إشعارٍ لرجال العائلة، إلا أن الأخبار وصلت لسُكَّريَّة،

لم يستطع «نُصّ لسان» كتم ما يحصل. وهو يحاول إدخال الخيط في إبرة ماكينة خياطة سكريّة. بلّل الخيط بلعابه ومرَّره في الثقب: «هذه ثالث رسالة صَفْرَا تصل»، وفضح لها سر المظاريف المُصَادَرَة. «اسمكِ مُطنطن عليها... والرسالة الأولى فتحوها في حفلة غضب يا لطيف الألطاف، وشفت بعيني، وبطن الرسالة عبد تتكحَّلي بطرفه».

«إنها جدتي نازك أحسَّت بغربتي هنا، وبالكلام، كتبته لها وعاجزة أوصِّله». وأشعلت بقلبها ثورة حرَّضتها للتسلل إلى مجلس أبيها المحظور على نساء البيت.

اختارت سُكَّريَّة الوقت الأخطر لكن الأكثر ضمانًا لخلوّ المجلس، وذلك بين الأذان والإقامة لصلاة الفجر، حين يسوق السردار كل رجال البيت أمامه إلى الحرم. في عتم دامس. تحسست طريقها إلى المجلس، في وقت كانت مكة ترتجف بنداء الإمام:

«قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة». حين غاصت قدما سُكَّريَّة الحافيتان في السجادة العجمية التي تغطي بحريرها المجلس. بلمحة انتشرت دغدغة الحرير من قدمَيْها لعمودها الفقري، تسمَّرَت بوسط المجلس وقد شلَّتها رائحة الجراك وأصداء حوارات الرجال الساكنة للجدران من عهد جدّها

الحادي عشر الذي حكم مكة. كانت ستقف هناك للأبد لولا أن تحرَّك ظِلٌّ بمكانٍ ما في الدهليز، لم يُفزعها ولا احتاجها أن تنظر للوراء، عرفت فيه «نُصّ لسان» من رائحة الحلاوة الطحينية التي لأنفاسه، نظرته اخترقتها في العتم وحرَّرتها من الرهبة المحيطة، في الظلام تحسَّست طريقها إلى كرويتة والدها، احتاجت وقتًا لتعتاد الظُلمةَ، تجسَّدتْ أمامها شقوقُ الروشن تُسَرِّبُ نورَ فوانيس سوق المُدَّعَى قبل أن يغلقها العسَّاس.

صعدت الكرويتة وجلست على مسندها. مهما غاصتْ بجذعها النحيل لم تبلغ قاع الخزانة بعمق متر ونصف حيث ترقد المظاريف الثلاثة الصفراء. دقات قلبها فاقت آيات سورة (الفجر وليال عشر) المتصاعدة من دائرة الحرم والجبال المحيطة. من عتم الدهليز راقبها «نُصّ لسان» حريصًا ألّا يتدخل. من تلقائه اتخذ موقف الحراسة، مستعدًا ليقوم بأي حركة بهلوانية فيما لو أطلّ أحد رجال العائلة بالصُدفة.

كاملُ جسدها يخفق يهيّجه العبدُ المحبوس في المظروف الأول. أملتْ أن يُطيلَ إمامُ الحرم في التلاوات والركعات ليمنحها وقتًا لإتمام غزوتها. كان عليها أن تُسرع، جرَّبت الهبوط بساقيها لكن مؤخرتها انحشرت ولم تبلغ قدماها القاع، بعد تفكير قفزت إلى الدهليز، تناولت محراك الجمر الذي تركه «نُصّ لسان» في طريقها مُسنَدًا لباب المجلس. بالمحراك المعقوف الرأس ناضلت لسحب المظروف المفتوح. كلما ارتفع إنشًا سقط، وهَدَّد بأن يتمزق تحت إلحاح الخطَّاف. خُتِمَت الصلاة بالمسجد الحرام، وتوقَّف قلبُها عن الدق. في أي لحظة ينفلت المُصلّون راجعين وينفرج باب البيت وتدب الأقدام في الدهليز والمجلس. بحركة يائسة غاصت بالمحراك إلى قلب عطيل ونجحت في رفع المظروف مسافة، وبقدميها قَبَضَتْه وجرَّتْه لمتناول يدها، تنفست الظلمة الصعداء برائحة الحلاوة الطحينية.

أخواتها لا يزلن غافيات في ناموسياتهن حين عبرت الخارجة. لَمَحَتْها سكينة في تسللها، لكنها واصلت تظاهرها بالنوم. على أطراف أصابعها انسلَّت سُكَّرِيَّة إلى المطبخ، مجتازة رقدة أمها الجارية أمام نافذته التي

تصعد منها درجات ثلاث تنفتح على الخارجة الخلفية، جلست أعلى الدرجات، جسدها يواجه المطبخ ملتوية بوجهها لليمين. بيديها الغارقتين لقلب مِرْكَن الزرع الفارغ، تُخفي الكتاب متنبهة لأقل حركة لكي تدسّه لجوف المِرْكَن. مضت تقرأ عطيل، وكلما تسارعت أنفاسها كتَمَتها لكيلا تسمع أمها تَقَلقل جسدها بين يدي العبد، والصوت الذي يرسم على وجهها تلك الخطورة:

«احذرِ الغيرةَ يا سيدي، إنها الوحش الذي يُسمِّم ساخرًا اللحمَ الذي يتغذّى عليه».

حين طلعت شمس ذلك اليوم كانت سكّريّة قد التهمت ثلاثة أرباع الكتاب، وبدأت أمها تتنحنح وتكحت القدور في المطبخ. اضطرت للتوقف، وحشرت عطيل تحت ثوبها على البطن مباشرة مدسوسًا تحت نهدة الصدر، وربطت عليه بشرشف صلاتها. في روحتها وجيئتها راقبت سكّريّة بصمت الكدمة التي بدأت تخضرّ على ركبتها اليمنى.

وطوال اليوم لم تجد سُكَّريَّة فرصة لإكمال قراءة ذلك العبد الحار أحرّ من شمس مكة. كلما دغدغها عطيل أسرعت إلى الحمّام، تُفْرِج عن الكتاب وينفتح على العبارة التي يخترق بها «إياقو» الشرير قوقعةَ روح عطيل، ليُسَمِّم أفكاره موحيًا بخيانة ديدمونة له مع كاسيو. يُحرِّضه على مراقبتها بقوله:

«أُنظرْ، صوِّبْ كلَّ بصيرتك في النظرة، لا تنظرْ بغباء وطمأنينة الغافلين أمثالي الذين لن يملكوا حدسك الحر وطبيعتك النبيلة، وإنما انظرْ بإرادة تعرية ما لا تُطاق رؤيته». عبارةٌ تُثير سُكَّريَّة بخطورة أكثر مما تفهمها، تتوسَّع عيناها على الأشياء والوجوه بجنون، بإرادة تعرية ما لا تُطاق رؤيته.

انتظرت حتى الفجر الثاني قبل أن تجد الفرصة لإكمال الكتاب، جالسة نفس الجلسة أعلى درجات المطبخ. انفجر الدمع على وجنتيها حين همد جسد ديدمونة. دمعة سقطت على الوجه المزجّج الحاجبين أمامها، انتبهت فجأة لوجه «نُصّ لسان» جالسًا على الدرجة الأولى مسندًا رأسه

للبسطة حيث استقرت قدماها، بدا وكأنه كان هناك من زمن مسنِدًا وجنته لقدمها الصغيرة يتأمل فيها تقرأ، لم تعرف متى ظهر وكيف لم تنتبه لظهوره أو تشعر بحرارة وجنته التي ربما كسفتها حرارة عطيل، وفي نفس الوقت بدا وجوده طبيعيًا ولا يُهَدِّد بفضحها. بصوت مرتجف مضت تقرأ له من موت ديدمونة، وصار «نص لسان» يرتجف وسقط مع نهاية عطيل في نوبةِ صرع خفيفة، لم تتدخل وتركته ملمومًا على الدرج أمامها بعينه مقلوبة للسماء. بقيا على تلك الهيئة حتى صَفَقَتْ فرح النافذة:

«يا واد لا تستموت، سيدكَ مصطفى سوف يولِّعك راس لشيشته».

في الفجر الثالث تسلَّلت سُكَّرِيَّة من جديد إلى مجلس أبيها لتعيد الكتاب إلى الخزانة وتنتشل الآخر، راقبها «نص لسان» حتى توارت في البسطة، وسارع يلتقط الكتاب، وبشهوة شقَّ الغلاف منتزعًا صورة عطيل، وأسرع بها إلى حجرته أسفل الدرج. لم يكن الغلاف فقط هو ما ينقص الكتاب العائد للخزانة، اختطفت منه سُكَّرِيَّة العبارة: «انظرْ بإرادة تعرية ما لا تُطاق رؤيته». بطفولية كتبتها بالزعفران على جدار جمجمتها الأمامي، جلست بها مواجهة لأبيها السردار على سُفرة الغداء. لأول مرة انتبهت لكونه هو الوحيد الذي يتكلم على السفرة، الوجبة الوحيدة التي يشاركهم إياها ما هي إلا مجلس حرب يُوَجِّه فيه أوامره وقناعاته للجميع، تلك الظهيرة صارت كلماته تعاني لاختراق عبارة إياقو على جبهة سُكَّرِيَّة، وملأ صدر سُكَّرِيَّة تشفٍّ عجيب ورسم على وجهها ابتسامة أغاظت السردار:

«قومي يا بنت جيبي ملح، أكللكِ ماسخ سَماط زي وجهكِ». قفزت إلى المطبخ وبدل أن يزعجها تعنيفه، توسَّعت ابتسامتها.

لم تعرف البنات بمغامرة سُكَّرِيَّة إلا حين بدأت تحكي في جلسات الليل عن عطيل. وتوبّخها أمّها:

«يا بنت عيب، لا تدخِّلي في رؤوس البنات الحب والمحبوب، والله تبوروا في حلق أبوكم مصطفى ما تلاقوا راجل يقنيكم؟». يفشل توبيخ الجارية فرح في تعكير دائرة الإثارة حول سُكَّرِيَّة.

لم تكفّ الجَدَّة المصرية تُرْسِل مظاريفها الملغومة، وصار مصطفى لا يراها، يُجَمِّد كبرياءه ويُوَقِّع بالاستلام ويُلقي بالمظروف في الخزانة من دون أن ينظر أين انتهى، ولكأنّ الرسالة لم تصل.

مع الوقت صار المُوَزِّعُ يُلْقِي بالمظروف في الدهليز، يعثر عليه مصطفى في خروجه لصلاة الظهر يتناوله ويلقيه في الخزانة، صارت المظاريف تتحداه أن يعترض على وصولها، وتصل بمُعَدَّلٍ أسرع، مظروف في الأسبوع، كأن هجرة تتم من رأس نازك لرأس سُكَّرِيَّة. وأبدًا لم يسأل لِمَ لمْ تطفح الخزانة، آثر أن يُقنع نفسه بان الأرض تبتلعها.

مع الوقت صارت سُكَّرِيَّة تكمن في بسطة الدرج المؤدية إلى الدهليز وتترقّب صوتَ سقطةِ المظروف وارتطامه بأرض الدهليز حين يُلقيه الموزِّع.

مثل تَرَقُّب سقوطِ ثمرة مُحَرَّمَة صار كاملُ البيت يرقبُ صوتَ سقوط المظروف بالدهليز، أرواحهم مُعَلَّقة بالإثارة التي يحملها ذلك الصوت، وتتسابق البنات على إحضار المظروف.

أكثرهنّ تأثرًا وحرصًا على عدم الغياب عن هذه الجلسات كانت نوريّة. بل إنّ نوريّة كانت كلما توقفت القراءة، أو توقّف الكلام، تلحّ على البنت سكريّة أن تتابع بمن حضر ولو كانت وحدها.

لم يشغل مصطفى الكبير نفسه في سبب عدم امتلاء خزانته، وكان واعيًا بالحَمَام الأصفر الذي يُحلّق في دهليزه باتجاه الدرج، لكنه لم يفكر أن يتحقّق. استراح وصَدَّق أن المُدَّعى قد نسيت الاسم سُكَّرِيَّة. بينما، وعَبْرَ السنين وحتى وفاة الجَدَّة الفرعونية، تَسَرَّبَ في غفلته لرأس ابنته رجالٌ بأساطيرهم من بؤساء فيكتور هوجو إلى أمّ غوركي إلى رومنسيّات جين أوستن والأختين برونتي، وصولًا إلى هتلر في ميزان العقاد، مرورًا بغاندي وبنيامين فرانكلين وبرنارد شو...عناوين غريبة يكفي واحدٌ منها لإصابته بالفالج.

زواج البنت سكتة قلبية

مكة، 1951

برأس سُكَّريَّة ازدحمت الحجرات بضجيج وملاحة وجرأة البطلات والأبطال الذين تقرأ عنهم، تَشَرَّبتْ من كلٍ بطلةٍ بموقف للثورة، وتخربش جدار جمجمتها بعبارات تخطفها من كل كتاب، صار وجهها مملكة خارج سيطرة السردار الكبير، تلعب فيه ابتسامات لا ينجح في تفسيرها.

لم تعد تكتفي بأي عبارة، صارت تمشي في البيت تختبر نبرة الكلمات، تنطقها مسموعة، لتكشف أيها أكثر شذوذًا عن جو تلك الأسطح المسكونة بالبشر الموقوفين خارج عصرهم؟

تختار بعناية عبارات، مثل عبارتها المفضلة عن أوديب وإليكترا: «الولد قتل أباه وتزوج أمه، والبنت أغرت والدها، أما الجنان عندنا فهو بالمقلوب. جنان ينقضّ علينا من فوق، الآباء والأمهات يربطوننا عُقدًا لأكفانهم، وينذروننا بيوت وَقْف، لخوفهم من الجنس». تقذف بكلمة «الجنس» فجأة في الحديث وتختبر فرقعتَها. ضحكات هنا، وغضب هناك وتحذيرات أمها فرح:

«يا بنت استحي، مين علّمك هذي البجاحة والبرطمة؟ والله ما في راجل يقْنيكِ بهذا اللسان، وآخرتها تفلجينا معاكِ».

لا يفهمون معظم كلماتها، ويلحقها إعجابُ الأخوات والإخوة الصغار: «جلستها لا تُمَلّ، تأخذكَ فوقْ تحتْ».

صار لصوت سكرية نفاذ ولنظرتها بُعد يُخْرج حتى أباها:

«مَنْ مِنكم ترك القُمريَّة تسرَح طول الليل؟». يسأل أبوها ناويًا معاقبة الفاعل، «سُكَّريَّة؟! لا، هذه مرفوع عنها القلم». يُلاحقها حسدُ أخوتها الكبار على تساهل أبيها معها.

«الجِنّ دخلوها في الكاز اللي صَبّته أمها عليها، تشعللهم الكتب اللي تقرأها ويحرقوا عقلها أول بأول بخرافاتهم، حتى أبونا مصطفى يتجنَّبها، راحت مصر مجنونة ورجعت أجنّ وأجنّ». تقول نورية.

لم يُنقذها من جِنّ الكاز إلا الزواج الذي انقضَّ على العائلة فجأة.

«صادوا مصطفى السردار الكبير في جلسته بعد صلاة الفجر في الحرم، صَكَّ عليه الشيخ البار والقَزّاز والباشا والقارئ والغزاوي، كُباريّة مكة، ورموا في عُبّه غترة عبد الجليل، وحَلَّفوه ما يرد نَسَبَ الإسطنبولي الكبير». طيَّرتْ عَيُوشة كَشْكَش عبر الأسطح لجاراتها الحكاية.

وكالعادة، أنكر سيدي مصطفى إن عنده بنات للزواج. لكنهم ضغطوا عليه، يقول «نص لسان»، «إن وجه سيدي حَمَّر مثل الكِبْدَة، وبرَّة وبعيد، كان حيروح فيها، لكن الكبارية أحرجوه، وعِجز لا يحيل ولا يميل، رَضَخَ لطلبهم. ومن البارحة ما دخلت جوفه لقمة، شوية يِلَقّوه للقِبْلَة ويشهِّدوه، كل بنت يزوّجها تطلع كأنما مع طلعة روحه».

«فَخْفَخوا له وطَبَّلوا عشان يبرِّدوا حرقته، وسَمَّعوا شيخ الحرم: نَسبكَ شَرَف، وما نقبل عنه بديل، أي بنتين من بناتك، اقسم القُرعة لأولادنا على كيفك، المهم تربط النسبَيْن».

عبد الصمد الولد الأكبر أشاح بوجهه عن دائرة الرجال، يرقب المؤخرة النافرة للآغا المَخْصيّ، يسيل لعابه لرشاقته الأنثوية بينما ينهمك الآغا برشّ أستار الكعبة بدهن العود. بطرف عينه راقب مصطفى كرْشَ عبد الصمد المُتبرعمة، والبَشَرَة الكامدة لا تشوبها حماسة، تلك الملامح الباردة التي سيصاهرها وترقد مع إحدى بناته، لم يجد برأسه مُرَشَّحَة غير سُكَّرِيَّة بنت الجارية والمُبَاحَة أصلًا منذ طفولتها.

حين انحنى عبد الجليل الإسطنبولي، المُرَشَّح الأصغر، وكاد يُقَبِّل ركبته فكَّر أن هذا الولد يستحقُّ قُرْعَةً أفضل، ولم يتخيَّل غير نورية المُفْتَرِيَّة الشَكَّاكة كمُرَشَّحة لفراشه. لا يعرف لِمَ؟ وكلما نظر للشابين لم ير غير الفراش الذي ستُضحى عليه ابنتاه! وفي السر، مُتَعلِّقًا ببصره بباب الكعبة، تمتم لملائكةَ الضُحى:

«أُشْهِد عليَّ الله، هذا آخر عَقد يُجْبروني أعقدُه لغريب وأضحي له حُرمة من محارمي». شاملًا إخوانه بالحظر.

حُسِمَت القُرعة، ومن دون علمهما تَمَّ إعداد نورية وسُكَّريَّة للزواج، الثياب التي خاطتها الخَيَّاطة ديبة لم تعرف البنتان الغرضَ منها،

«فروع الأخوات متقاربة في الطول والحجم، نأخذ قياس الكبيرة والصغيرة لتفصيل ثياب العيد لكل البنات». وانطلت عليهما الحيلة. لم تتوقَّعا بأنهما عروستان ستُنْقلان لبيت رَجُلين بين عشيَّةٍ وضُحاها. ولم تعرفا حتى ليلة الغُمرة السابقة للدُخلة، حين نَصَبَتِ العمَّاتُ الستارةَ وحجبنهما. وجاءت المُقَيِّنة بُشرى ونقشت كفوفهما بالحِناء، ولفَّتْهما في ثياب موسلين زهرية، نفس اللون ونفس الطراز لكلا البنتين، (دَبَش) جهاز عروس طِبْق الأصل للبنتين، كل قطعة قماش انقسمت للاثنتين لتعبئة السياسم التي سترافق البنتين لزوجيهما. تَطَابُقٌ مُدْهِش تَمَّ أيضًا في تأثيث الحجرتين في بيت الإسطنبولي الكبير بإجياد لاستقبال العروسين. الاختلاف الوحيد كان يختمر ببطء لكي يفقس في حظوظهما. طوالع ذلك الحَظِّ بَدَتْ في حماسة الشابين لمراسم العرس. المراسم التي نظَّمها بيت الإسطنبولي صارت أسطورة بفضل مُخَيِّلة المُرَشَّح الأصغر عبد الجليل.

«جارية من جواري الإسطنبولية استملحَتْني وصارت تِوَدْوِد لي». يتولى «نص لسان» نقل الأخبار المؤجِّجة للحكاية: «قالت إنهم حابسين عبد الصمد في مبيت بالسطح ما تدُبُّ فيه رِجِل صبيّ!»، بحيلةِ إيصالِ دعوةٍ أو توصيل رِفْدٍ راح «نص لسان» وجاء من إجياد يَتجسَّس على الاستعدادات ببيت الإسطنبولي، «وأبوه كل يوم يصَبِّحه بعَلْقَة ويمَسِّيه بعلقة، وحالف ما يفكه إلا ليلة الدُخْلة، يجبنا على تيّاره مفلوت من سلسلة». تجرُّه عَمَّتُه سكينة لمجلسها حريصة ألّا تتبعثر تلك الأخبار المُقبضة.

«يا «نُصّ لسان» عيب، ما أرسلناك داسوس تكشف لنا سِتْرَهم، أرسلناك تفتح عينك عَشَرَة عَشَرَة لا يسبقونا بفِنَّة، ويشيِّع الناس عنَّنا إننا أقل فنظرة من الإسطنبولية ودون المستوى».

«شُفت بعينيّ عبد الجليل يختار الطبَّاخين». تشجعه سكينة على تفريخ الأخبار المطمئنة، «تركي وسوري والأخير مصري، استأجرهم أساطين من حُجَّاجه، دَفَعَ لهم بالجنيهات الذهب وقال: أطبخوا لألف ليلة وليلة». أكدت حكايةَ «نص لسان» الأطايبَ التي فاحت حتى دخلت أروقة الحرم، وانشغلت مكة بالنوادر التي تمت في عرس زواج السردارية بالإسطنبولية:

«اللي ما حَضَر اتحسَّر واللي حَضَر انصرع، مِيزْ سلاطين، تختبوش عريض ممدود من أول المجلس لآخره، عليه ما لا عين شَافَت، زلابية من أزمير، وفطير من أسوان، وعيش سرايا، وخِرَاف محشية، وكُبَّة حلبي، أما الحلويات شِيرَتها تشرّ وتسيِّل الريق».

«مِيزْ فنظازِية، وَقَّف مكةَ على رِجلٍ واحدة».

«شفتوا فِتَّةَ الشُوَك والسكاكين الفضَّة؟! أخرجها عبد الجليل من تِرِكَة جَدَّته الإسطنبولية».

وليلتها أكلتِ المُدَّعَى بالشوكة والسكينة، واندسَّتِ الشُّوَك الإسطنبولية في الجيوب ورجعتْ بها المدعوات لبيوتهن في الحواري المتفرعة:

«هرَّبناها عجبَة من بيت الإسطنبولي».

«صفوف الجواري نحل يطوف بالمعازيم. وَظَّف الإسطنبولي طقم جواريهم خصيصًا للخدمة بليلته، للمُبَاشَرَة علينا، ما تنزل اللقمة في الحلق إلا ويلحقوك بالثانية، ويلَحِّقوا ويسقوك من هنا كيزان فضة بشراب ورد، ومن هنا فطير بعسل جبالَ الشَفا، أما مويّتهم باردة تكسِّر الأسنان، من دوارق فضة صاغها بدر شيخ الصاغة. أسبوع ما اغتسلنا، لا يروح بخور العُود الأصلي من شعورنا. والله فَنْجَرَة، كله على خاطر البنت الكبيرة نورية. الكبيرة أعطوها للصغير عبد الجليل والصغيرة السُكَّر المحروق للكبير صمدو الصَرَنْقَوه، يا حظها، متوَقع تركبه بالمقلوب لأنه ما له شخصية».

استفاضت الإشاعات، لَمَّت العيون ووقع حسدها على سُكَّرِيَّة التي طفحت خميرة حظوظها بعد ستة أشهر من تلك الوليمة...

فوفلة مُفَلْفَلة بليفة ميتين

مكة، 1951

خرجت سُكَّريَّة برفقة نورية في عربة مزخرفة تجرها الخيول المزيَّنة بلُجم الفضة، وبعد ستة أشهر بالتمام رجعت وحدها، رجعة مناقضة تمامًا:

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ساعة هَجَاج كما يسميها أهل مكة (لا يمشيها ولا المُطَلَّق مَرَته)، تمدّدت الأزقّة ككحل مسكوب لا يجرؤ على اختراقه إلا الانتحاريون. صمتٌ مطبق يُعَزِّزه نباحُ كلاب بعيدة من جهة جبل عمر وحي الحفائر. بخطواته الثقيلة أقبل صمدو صاعدًا طلعة المُدَّعى تتبعه سُكَّريَّة، يسوقها ماشية وراءه من بيت أبيه بإجياد. كلما مَرَّ تحت فانوس انضمَّ له خياله مثل وحش لا يلتفت يَمْنَةً ولا يَسرةً ولا للوراء ويتمدَّد كرشه أمامه، وتتعثر سُكَّريَّة وراءه في قُنْعَتها التركية.

كان «ولد كفن» ابن المرزا يَجْرُدُ محتويات حانوتهم حين لمح خياليهما يعبرانه، تَرَكَ ما بيده وتسلَّلَ خلفهما مُتَنَصِّتًا، حتى انتهيا إلى بيت أبيها، بإشارةٍ دَفَعَها صمدو للدهليز، انحشر خيالُ كرشه لعتبة الباب وبقي هو في الطريق، وبصوتٍ بالكاد مسموع عبر الباب وقبل أن يستدير ويتلاشى للأبد:

«أنا رميت عليك يمين الطلاق، ووَرَقَتك تلحقكِ».

عبارةٌ بقيتْ مُعَلَّقَة بفراغ رأسها لم تحطّ ولا تركت دَبَّة تسمعها.

صَدَمَت العبارةُ «ولد كفن» المستتر بركن الدار يفضحه ليمونُ ثوبه. خروجُ سُكَّريَّة عروسًا للإسطنبولي تَرَكَه يتيمًا، لستة أشهر مُدَّة غيبتها فَقَدَتِ المُدَّعَى سحرَها في وعيه، بَهَتَ ليمون ثوبه وانطبق عليه لقب «ولد كفن»، فصار يجلس ذاهلًا في الحانوت مثله مثل ربطات الليف المُجَهَّزَة لغسل الموتى.

بصمتٍ، ومن لا مكان، انقضَّ خيالٌ على صمدو، ولم يترك له فرصةَ أن يَشهق، هوى به للطريق مسحوقًا تحت ثقلٍ يفوقُ ثقلَ بعير. ثقلُ غضبٍ مكتوم، ولم يعرف من أين انقضَّ من داخلِ الدهليز أم من خارجه، أكانَ مُحَزَّمًا بالأحمرِ أم مُكَيَّسًا بالليموني؟!

ركبت كلمةُ الطلاق سُكَّرِيَّة بينما هي تستدير بظهرها لباب الطريق. انصعقت حيث هي، ثم فجأة نفضت جسدها واندفعت هاربة صوب الدرج، في محاولة لإسقاط تلك الكلمة المتشبثة كعنكبوت ضخم على كتفيها. الكل نيام ولا أحد هناك يتلقاها، فقط عين «نص لسان» التي لاحت مكحَّلة بمُبالَغة تتلصّص من تحت الدرج، شعرت به يكتم أنفاسه ويتتبَّعَها. كان الوقت مبكرًا على صلاة الفجر، لجأت إلى الطابق بعد الطابق وعلى كل بسطة شعرت بالأبواب تندفع مغلقة بوجهها ويشخر وراءها الأعمام وأولادهم مع زوجاتهم، أما أخواتها البنات فبدَوْن بعيدات في نومهن بالخوارج العلوية وسيستيقظن على العار الذي جلبته لنسَبِهنّ.

محمومة بكلمة الطلاق المُطبَقة على كتفيها راحت تقفز درجات السطح من دون وعي. أحسّت بأن روحها تنخلع من صدرها وتُسابقها على الدرج هربًا من خزيها، وأن جسدها سيبلغ الطيرمة ميتًا. كانت شاحبة عندما وصلت، وينتابها شعور بأن جسدها كان يبرد بسبب مفارقة الروح.

«بيض مشوي بيض مُفَقِّص فراريج، اطفحْ يا صمدو يا صرنقعوه».

صوت يُغَنِّي بآخر السوق مُعَنِّفًا. تجاوبه غمغمةُ صمدو الذي كان يستميت لمقاومة مهاجميه عبثًا:

«بس يا أولاد القحاب ما أكون صمدو لو ما مسكتكم واحد واحد نـ... كم وشرمـ... الفوفل، وخرَّجت الفراريج من مصارينكم».

تهديد صمدو المكتوم يُجَرْجَر لآخر السوق، طار الحمام عن الأفاريز يبحث عن مَأمَن. رغبةُ الموت تجمَّعت على الرؤوس الراقدة، ارتجفت الطيرمة، اندفع البرد هابطًا من جمجمة سُكَّرِيَّة منقضًّا على قلبها ليقبضه، قفز «نص لسان» بحركةٍ بلهوانية في الهواء، سَقَطَ ظِلُّه على كتفها اليُسرى

مُعترضًا البرد، تَلَقَّى الشحنة وسقط في نوبة صرع، خيط لعاب سال على جانب فمه برائحةٍ حادة جعلتْ سُكَّريَّة تشهق، في الشهقة ارتدَّتْ روحها من حلقها هابطة لقدميها، رأت روحها أمامها تنبت بين أصابع قدميها، ريحانة صغيرة بعروق بيضاء خيطية. انحنت للريحانة، تَنَاوَلَتْها بحنانٍ جارفٍ، وسارعتْ تهبط السلالم للمطبخ في السطح الثاني، وعضَّ «نص لسان» لسانَه على الموت الذي امتصه من جسدها، وتحول خيط لعابه إلى دمٍ أزرق.

مِنْ نافذة المطبخ نَفَذَتْ سُكَّريَّة للخارجة الخلفية، قَصَدَتِ المركن المهجور الذي قرأت فيه كل كُتُبها المُهَرَّبة. غَمَرَت التربةَ المُتَحَجِّرة بالماء، وخلخلتها بأصابعها، كانت تُمَشِّط الترابَ بالصفاء الذي حلَّ بروحها فجأة. تَأَمَّلَتْها أُمُّها الجارية فرح من فراشها بالمصطبة المُشْرِفَة على الخارجة، الحلم الذي تكرر للجارية في الليالي الثلاث السابقة أبلغَها بأن: «ابنتها سُكَّريَّة تحزم حقائبها راجعة من بيت زوجها لتموت بهذا البيت». وكانت تنتظر رجعتها بيقين وحسرة.

دمعةٌ حفرتْ جرفًا بوجه فرح وهي ترقب ابنتها. بحنانٍ غَمَرَتْ سُكَّريّة ساقَ الريحانة وعروقَها في التربة واستدارت راجعة إلى حجرتها. رقدتْ في فراشها ترتعد (ربي كما خلقتَني) وقد جرَّدها صمدو إلا من الثوب القطن الذي أخرجها به في تلك الليلة من بيته.

لم تُغمض عينيها ولا سكتت الرعدة حتى عثروا عليها في الضحى على غير موعد، وسَرَتْ مصيبتُها كالنار، مثل صفعة للعائلتين وكامل المُدَّعَى وإجياد.

أفاقت السوق والمسعى على فضيحةٍ. فقد عُثِرَ على صمدو مُلقى مُمَرَّغًا بالتراب مدقوقًا بأوتاد لأرض المُدَّعَى، مثل قُفَّةٍ مُقَيَّد اليدين للقدمين بحبل القُمْبَار الخشن، وقدعُرِّيَت مؤخرته، وسُدَّ فمه بعصابة وحُشي حلقه وشرجه بالليفة المستعملة لغسل الموتى ومُغَرَّقة في الشَّطَّة النيجيرية. ليفة تمر على جسد الميت تكشط وتجمع كل آثامه لتندسّ بمؤخرته وتلاحقه كسِجِلٍّ لجلساتِ الحساب بقبره.

نار تلك الشطيطة التي اتّقدتْ في جوف صمدو لم تنطفئ لأشهر، وصار فكاهةَ المُدَّعى وإجياد، أينما سار تلحقه من الأسطح والعطفات الصيحة ساخرة:

«فوفلة مُفَلْفَلَة»، يرمزون بالفوفلة لفتحة شرجه المشتعلة بالشطة الحرّاقة. وكلما سعل أو أطلق ريحًا لا إرادية انفجرتْ حوله الضحكات والغمزات وفَوَّحَتْ روائح آثامه وظلمه لسُكَّريَّة. ظلمٌ لم يعرف تفاصيله أحد.

انتقامًا، رفض صمدو تسليمهم ثيابها ومقتنياتها. صناديق سيسم لم تُفتح بعد طافحة بثياب لم تلمس جسدها أغلق عليها حتى ذهبت في الهدم بعد عقدين من الزمان. لم يبقَ لسُكَّريَّة من خيبة زواجها غير السيسم الذي يخزّن ثوب عرسها الذي بقي في بيت أبيها ولم يرافقها في رحلتها المبتورة.

نار الشَطَّة تَوَسَّعت بجوف صمدو الذي أشعلها بين السردارية والإسطنبولية، تحزَّبَ مع أعمامه وأخوته، ضيَّقوا على عبد الجليل لتطليق نورية، ورَدَّهم عبد الجليل بصيحته التي تحفظها مكة كعجيبة:

«رقبتي اقطعوها، لكن ما لكم على نورية حُكم، ما تشقّوا لحمها عن لحمي».

خرج من مجلسهم التأديبي، لَفَّ نورية في قُنْعتها، خرجا معًا كما ولدتهما أمَّاهما وطارا إلى بيروت.

ولم يَتَوَصَّل أحدٌ لحَلِّ لغز المُهَاجِم الخفي، الذي أهان الإسطنبولية،

«والله شكلها عملة واحد لَعَبَنجي مثل «نُصّ لسان»، كأني لمحت البارحة قبل الفجر حزامه الأحمر الحريمي مُلَعْلع في السوق».

«لا تستبعدوا تكون سُكَّريَّة، بنت مسكونة بفراعنة».

«الراجل محشي مُفلفَل بليفة من ليف المرزا، أسألوه مين اشتراها».

ولم يتبع أحد تلك الليفة. بينما لم تستثن الشكوكُ أيًا من أبناء السردار.

صمتٌ مُنْذِرٌ هبط على سُكَّريَّة، لا تتحاور إلا مع الريحان تزرعه على بلكونتها، تسقيه آخر حيويتها فيتكاثر بسرعة عجيبة، تمدد الريحان شبكة على قلبِها وعقلِها تحميها من الانهيار.

رفضت أن تُكْسى بأي ثوب سوى الذي رجعت به، بقيت في ذاك الثوب لما يزيد على الشهر، حتى استفاقت أخواتها ذلك الضحى على سُكَّريَّة عارية في المطبخ وقد قشرت الثوب عن جسدها وألقته في الفرن. وقفن يرقبنه، واقشعرّت جلودهن بما فاح منه من المأساة التي عاشتها بنت الجارية.

بعدها، وكلما مالت الشمس للغروب وأحاط الليل بدائرة الجبال، ينقلب استسلام سُكَّريَّة، وتكسو ملامحها شراسة. تنفلت بعد كل غروب بالطيرمة، تظهر جالسة تضع ساقًا على ساق وتُدَخِّن سجائرها اللَّف، تتناولها بحركة مسرحية من علبة ذهبية أهدتْها إياها نورية التي اكتشفت لَذَّةَ التدخين أول شهر عسلهما. لم تجد سُكَّريَّة سوى تلك العلبة ترسلها لأمها الجارية فرح هدية عند رجعتها من شهر العسل، لم تفتحها هي ولا أمها، ولم تُحْرَق منها ولا سيجارة قبل طلاق سُكَّريَّة.

تنفخ سُكَّريَّة الدخانَ غير عابئة بمن يصعد من أخوتها على غفلة ليفضحها، تشعل السيجارة من عقب السيجارة، وتُنصت لنميمة الزائرات في الخارجة السفلية.

«شوفوها، عَلَم على الطيرمة، وزهرة سيجارتها والعة ببجاحة في كل عين».

«أنا لو بمكان أمها كنت كويتها بالنار أنسّيها الدخان».

«يا حبيبتي أمها جارية لا تحِلّ ولا تربط، أنا من سيدي مصطفى أَمْزَعْ رقبتها».

«سُكَيْنة تداري عليها، عارفة أن عقل البنت واقف على شَعْرَة، تطق وتفضحهم فضيحة جديدة».

يرقبن اقتراب سُكينة وجاريتها فرح بصينية الشاي توزّعانها على الحاضرات، ويتحوّل الحوارُ للهمس:

«رأسها سبب بلاها، الرجَّال ما يحب مِنْ ينافحه».

«والله لا ما عرفنا ليه مستغربين، وكل الحكاية أن البنت على دَيْدَن جَدَّتها

الفرعونية، نازك سيِّلتْ ريق السردار الكبير لما جاته حاجَّة، وأخذها في ليلة طَبِينَة على حرمته، ولمَّا عَاشَرها جنَّنه الجنِّي اللي راكبها، حتى فارق الدنيا بحسرتها. والآن، مراقبينها رايحة جاية قال إيه تجيب عمرة وتحج وغرضها تطيِّر بنات البيت. البنت اللي تدور ما عليها نور، والسكرية هذه من أول طلعتها طارت من بلاد لبلاد، ما بقيت إلا فحمتها... قال إيه شربت من النيل!! ما غير الفُجر والمسخرة، يقولوا صمدو يخجل يقول إيش شاف منها».

«زِدتيني شوقًا، ياحبيبتي الراجل الحشيم يحب الدودة المُغَمَّضة».

«لا حشيم ولا رجيم، هُمَّ الرِجَال كده شَعر بَاط ما عليه رباط».

«صمدو ما غيره، جاب لأهله الصَرَحْرَح، غاوي فوفل، الناس في إجياد يشرِّدوا منه أولادهم».

انفجرت ضحكةُ النساء في الخارجة المجاورة لتلك الإشارة لمَيْل عبد الصمد للذكور،

«الله يغفر لي لو ظَلَمتُه، لكن يقولوا عينه على لِيَّة الطُّليان».

الإشارة لإلية الخرفان أوقدت الحماسة:

«ومين منعه يلم النعجة مع الطليان؟! حوش أهله كبير وخشخشاته على قَفَا مين يشيل». أمّا غمزة القفا فقد فَجّرت الصخب.

«لُمِّي لسانك، ترا فُجْرِك طَفَح يا بدرية».

«يتعذَّب كل ما شافها وعينه على صبيّها «نص لسان» وأخوها الشُطيطة محسن».

«لا تدخَّلوا في ذِمَّتكم. والله هذا الكلام ذنبه عظيم».

لا يجدي غصن السلام الذي تلوِّح به حورية. وتستمرّ التعليقات:

«خلينا من الطليان والنعاج. من يجرؤ يقول سُكَّريَّة نعجة مسكينة، البنت عينها قوية. ولا تنسوا العَلْقَة اللي أكلها صمدو على بابها، يقولوا من حرقتها جرَّتْه لدهليزهم وأخذته مع صبيِّها «نص لسان» على غفلة وفلفلوا له العُدَّة».

«تبغوا الصراحة؟ ما أعرف كيف هان على السردارية وأعطوه البنت،

وهو باين عليه نَيِّ كده وزَيِّ الرُزِّ المُفَشَّر. نظرته فيها مَتاقَة، وكلامه مِجغ، يستحي أبوه يجلسه في مجلس رجال، وسُكَّريَّة يِبْغَالَها راجل لُبُّه مُقَمَّرَة. جبروه يقول للمِمْلِك قبلتْ، عشان يقفِّلوا عليه ويستروا عيبه. وحيلة زواج البنتين دي عشان يلفوا بيت السردار ويقبلوهم بسمعة عبد الجليل البرلنط».

«الله يكافيه، حَطّ حَرَّه في البنت المسكينة يطلِّقها ويرميها على غفلة في ليل كأنه مُبيِّت لها ثأر، ما ضَرَّ لو خلّاها في عِصْمَته فَتَحَتْ له بيته وكَثَّرَتْ له الذرية».

تقاطع الخوارج الأربع صرخةُ سُكَّريَّة:

«لا تفجعوني». تنتفض واقفة وترمي من يديها علبة الكبريت أبو شُعلة لآخر الطيرمة، وتعيد صيحتها بلوثة: «لا تفجعوني، ترا أشخّ». بينما وبعماء تزحف من العلبة تلك الخنفساء السوداء، وتنفجر ضحكات أخواتها اللواتي غافلنها قبل قليل ونجحن في تبديل علبتها بتلك العلبة الحاوية للخنفساء الحية.

«يا دادة فرح حرام عليكِ، يا بنات بَسْ! جبتوا للبنت الصَمَرْقَع». يكبحهن عتابُ سكينة التي تنهر بناتها.

يسارع «نص لسان» فيُقدِّم لسُكَّريَّة علبة كبريت جديدة:

«هذه أمها الجارية فرح، تدسّ لها الخنافس في علب الكبريت عشان تفطمها. كل ليلة لا كلَّت ولا ملَّت».

لوثة تُلْمَح في وجه سُكَّريَّة وتبدو حقيقية في أحيان، ومصطعنة لتحقيق صدمة لجمهور الخوارج في أحيان أخرى، تسري ضحكات البنات مع حزن عميق وتشوّق لخُلْع سُكَّريَّة.

ما لا يعرفنه أنها ترى في تلك الخنفساء جعران يلحقها من ليلة دُخْلَتها بحُمَّى أهرامات الجيزة، تلاحق بعينيها الجعران بينما يتجسَّد «نص لسان» يجلس قريبًا عند قدميها يعطيها ظهره ساكتًا في أغلب الأحيان، ويحكي في أحيان. لا يعرفن ما يحكيه، لكنه لا يتورَّع يصبُّ في عُبِّها كلَّ فضائح المُدَّعَى وتفاعلها بأزِقَّةِ رأسه.

«يا ولد أنتَ رأسك كُلُّه أزقة وخَشَاخِش، يوم أَطَرْبِقْها على دماغك».
مهما وَبَّخه السردار الكبير لا يكف عن التفرُّع.
تتوهَّج زهرةُ سيجارة سُكَّريَّة في الطيرمة وتُؤَجِّج بدائرة الجيران المزيد من التكهّنات بأسباب طلاقها، ومع أذان العشاء تطفئ سُكَّريَّة آخر سيجارة، وتهبط لحجرتها، يتبعها «نص لسان» كظِلٍّ، يقف على الباب ويأمل أن تنطق، يحمل قناعة بأنها لو ختمت يومها بالسكوت ورقدت ليلة ساكتة فستُصاب بالخَرَس أو بسكتة قلبية.
بصوته الرقيق يستدرجها: «أنا لو بنت زَيّك وأنوي أعشق أعشق راجل زَيّ سيدي مصطفي الكبير».
تشهق سُكَّريَّة بلا تفكير: «هذا صوَّان، وأنتَ عارف يا 'نص لسان'».
«وعارف أن قلبه بفتا، وأنه جبل، شايل بيوت ورجال، لمَّا يِصُخّني ذاك الكَفّ يخرج دماغي من أذني. لو بيدي أصير جراك في شيشته». تتأمله سُكَّريَّة، بابتسامته السخية، يُعطيها ظهره منسحبًا، وقد استراح للأربع كلمات التي نَطَقَتْها.
يُزعجها ويسحرها هذا الافتتان العميق الذي يحمله هذا الصبي اليتيم لمصطفى السردار المرعب. تدرك أنه يرى ما لا يسمح لهم غضبهم من السردار الكبير برؤيته، هذا الصبي الذي رجع به السردار حين كان في السادسة، لا أحد يعرف ابن مَنْ ولا من أين التقطه، ومِنْ تلك السن المُبكِّرة استلم خدمة المَقَاعِد، يدور بمهارته المذهلة حول صلابة السردار الرهيب، يتبعه كظِلٍّ ولا يغمض له جفن إلا بين قدميه. تتمضمض سُكَّريَّة بماء الريحان وترقد، يتنفس البيتُ الصعداء أن مضى يوم ولم تتبول عليهم وتهجّ عارية في الطريق.
ولم تسكت حكايتها في الأسطح. بقيت حكايتها حاضرة في حوادث المُدَّعى، وبقيت لعقود، تُحَفِّز مخيلات العرائس في ليلة دخلتهن.

طرود وحظوظ

تلك الجمعة تخلَّف «نص لسان» عن الصلاة في الحرم بسبب إصابته بالحصبة. خطبة الإمام مسموعة في دهليز السردار تتحدّث عن القلب كمضغة إن صلُحت صلح الجسد كله.

في حجرته أسفل الدرج يروح «نص لسان» ويجيء عاجزًا عن الجلوس. جسده لا يزال نديًا من اغتساله المتلاحق لإطفاء حرقة الطفح، لا يطيق أن يمسّه شيء غير ثوب الشاش الأحمر، شقته حورية على الجانبين بتدويرة واسعة لفتحة العنق تاركة ساعديه وساقيه مكشوفة يرقطها طفح الحصبة، يبكي ويضحك متألمًا، لم تقهره الحُمَّى وإنما قهره تشويه بشرته المرمرية:

«يا خرابك يا «نص لسان»، لا يكون سِرّكَ طفح من قلبكَ على جسمك، جهنم انفتحت عليكَ».

تَرَدَّد أمام خزنته السرية والمدسوسة مثل نافذة عمياء بقلب الجدار، بيد مرتعشة فتح بابها، عرض الخزانة نصف متر ولا يزيد عمقها عن عشرين سنتميترًا، مباسم خراطيم الأرجيلات تصطف واقفة كعسكر بطول جدار قاعدتها، فوقها متصدِّرًا الجدار يتعلَّق ذلك السديري الرمادي، وتعلوه عمامة بيضاء ملفوفة كما لو كانت محيطة برأس رجل. التكوين يأخذ هيئة رَجُل واقف بجدار الخزانة. مغمضًا عينيه غاص «نص لسان» بوجهه في حرير البطانة المدموغ بتبغ ودهن عود، وسرَت فيه رعدة رغبة آثمة، لذا يحرص فيغلق على ذلك التكوين لكيلا يفضحه رفاقه، يغلق أيضًا رأسه فلا يواجه حقيقة أنه قد جرؤ فجمع مباسم أرجيلات السردار على مرّ السنين، وسرق سديري سيده من البقج المعدة للغسل، يؤجّج حُمَّى الحصبة وقوفه وجهًا لوجه هكذا مع دافعه وراء تلك السرقات وهذا المعبود المدسوس،

صورة عطيل بركن الخزنة تزيد تلذّذه بذاك الإثم وافتتانه السِرِّي بكبير البيت المرعب.

متضخم الرئتين بصلابة السردار تلقَّى ذلك الارتطام بأرض الدهليز كانفجار. مرتعدًا أغلق الخزانة وسَارَع، لَفَّ جسده في عباءة سوداء من عباءات السردار القديمة، متلصِّصًا من فرجة باب حجرته، فاجأته سُكَّرِيَّة، تمرق كبرق خاطف عن بُعد، بوسعه التقاط عَرَق خوفها ودربكة قلبها حين انحنت تلتقط المظروف. توقَّف قلبُه حين مَزَّقت المظروف لتطلع لها تلك الكلمات الملجلجة وبخَطٍّ كبير خائف:

«عَبدُكَ ولد كفن». لم يكن بوسع «نص لسان» قراءة ما وقع عليه بصرها، لكنه وَعَىَ العصفة القوية في أرواح البيت. لم يخيَّل إليه، لكنه رأى بأم عينيه. نعش كامل قفز من العبارة، تجَسَّد حيًّا وانفلت يسعى وراء سُكَّرِيَّة، التي قفزت السلالم عشرًا، وهو يلحقها عبر المجالس والأسطح، حتى اندسَّت في ناموسية حورية وفي أمان ذراعيها. وتوارى يتربّصها.

كلما قامت للحَمَّام بجوف الليل تنبعث دبَّة ذلك الهاتف، لا يسمع تلك الدَبَّة سواها، كلما التفتت يهمس برأسها: «عبدُكَ ولد كفن!». و«نُصّ لسان» على كل منعطف للدرج يَنصُت، يكاد يُفَسِّر شفرة تلك الوشوشة في عَرَقها الذي يأخذ نكهة قرنفل، والصداع الذي يشقّ جمجمتها كلما تَنَفَّس العبدُ: «أتمنّاكِ ألبسكِ وأشربكِ!» أحرف تُفَجِّر بصدرها بطلات الكتب التي قرأتها، يتقمَّصنها بكل مجونهنّ وشرودهن.

في خطبة الجمعة التالية سَقَطَ في دهليزهم طردٌ صغير، اختطفتْه سُكَّرِيَّة وقفزت الدرجات تلهث لمخلوان حورية المُوْصَد. توارت هناك، فتحت الطرد وانسكب منه الشال الأزرق الفيروزي، مرتعدة لَفَّتْه على كتفيها ودبَّت فيه الحياة، جسد من فيروز، يلبسها حين تأوي لناموسيتها وتحت شرشف صلاتها، يَلُمُّها بضَمَّتِه ويلعق بقبلاته الخاطفة مؤخرتَها، ولا يسمح لها بإغماض جفنيها، حتى لم تعد تنام، وتملّكها رعب أن يُفتضح أمرها. أينما التفتت قابلتها ابتسامة «نص لسان» المتآمرة والحامية. شيء

في تلك الضحكة يُذَكِّرها بوجه السردار الكبير فيما لو ابتسم، يدفعها «نص لسان» للتأمل في وجه أبيها وتُحزنها فكرة أن: هذا الوجه سيدخل قبره ويأكله الدود من دون أن يعرف لذة الابتسام!

لكن «نص لسان» يتسلل لما وراء قناع هيبته، ويومًا وراء يوم يتقمص سيده ويبتسم عنه، مخترقًا تلك التقطيبة التي تحفظ هيبة السردار ككبير للعائلة.

كانت سُكَّرِيَّة في الدَرَج بانتظار مظروف حين أطلَّتْ نورية،

«دستور طريق يا بنات، الإسطنبولي طالع سلالمكم». أطلّت قادمة مثل طاووس ينفشه الحب في زياراتها المتكررة لهم من مدينة جدة، وكانت قد رجعت من بيروت حين هدأت حرقة الإسطنبولية، وحرص عاشقها عبد الجليل أن يبقيها بمنأى عن أهله. بقيا في جدة ريثما بنى قصرًا باسمها في حي النزهة.

تراجعت سُكَّرِيَّة، راقبت من بسطة الدرج نورية تفتح مجلسَ الدور الأول لزوجها، وقبل أن يغيب وراء الباب يلتفت إليها يلمُّ وجهَها لشفتيه، يشرب بغرغرة من شفتيها وأهدابها، اختلج جسدُ سُكَّرِيَّة في مخبئها، واشتعلت بجوفها حرقةٌ لم يُسَكِّنها غيرُ فيروز الشال.

يخفق قلب نورية وهو يرتقي بها الدرجات. تتركُ نورية عَضَّةً على رقبته وتقفل عليه الباب بوعد: «كلمة ونازلة لكَ على تَيَّاري». ما إن تبلغ الخارجة حتى تستقبلها الضحكات:

«جرجرتيه كمان اليوم، يا شيخة خافي الله فيه». يلومونها على إحضارها للإسطنبولي كل عصر لجلستهنّ التي تطول ويُحَظَّر عليه حضورها، لم يكن العُرف بمكة ليسمح للبنات بالظهور أمام أزواج أخواتهن، حتى سُكَّرِيَّة التي رافقها عبد الجليل شهر عسلها حُجِبَتْ عنه فور رجعتهم إلى مكة.

ينتظر الإسطنبولي في المجلس على بُعْدِ ستة طوابق وحيدًا، يتذكَّرنه بصينية معمَّرة بالشاي بالنعناع والمعمول بالتمر، يرشف الشاي وينتظر بصبر يتحدَّى سُخريةَ البنات، وتأكيد نورية:

«ما جرجره إلا قلبه، هو أنا قليل؟ نورية وخَبَر، ما يطيق فراقي ساعة».
«إيه هذا، مثل لبخة الالتهاب الرئوي».
«إيه عَرَّفكم؟ مصيركم تجرِّبوا وتعرفوا الالتهاب الحقيقي». وتنظر إلى سكرية وتنسى الإسطنبولي المحبوس بانتظارها في المجلس:
«يا عمري على هذا الشال الفيروزي، من فين؟!». تُواريه سُكَّرِيَّة مُتَحَرِّجة، وتنهمك البنات في حكايا اليوم، مَرَّتْ ساعات والإسطنبولي لا يمل الانتظار، يعي أنها نسيته كما نسيته بالأمس وكما ستنساه في الغد، حقيقة لا تُعَكِّر تقديسه لنورية!

غابت الشمس وراء دائرة جبال مكة، تكاثف على الأسطح العتمَ وثرثرة البنات لا يخترقها غيرُ النداءِ لصلاة المغرب يتبعه أذان العشاء، وتنبَّهت نورية فجأة بعطشٍ لمذاق تبغ يفتح مجاري أنفاسها:
«دستور أطلّ على نور عيني وأرجع لكم». تقفز الدرجات هابطة، ما إن يتوارب باب المجلس حتى تتلقفها ذراعاه، لا ينبسان بكلمة، يشرب في ريق نورية ملوحة بذر البطيخ واللوز التكروني وحلاوة طبطاب الجَنَّة والإشاعات التي تبادلتها مع أخواتها. يقفان على بَسْطَةِ المَدْخَل، بين الأجداد الذين يرقبون في صمت هذا العشق الذي يتحدى جمودهم. يقبضها الإسطنبولي ويُرسلها، ترتقي الدرج تتعثر بدويّ قلبيهما ومذاق تبغه يشرخ برأسها يُشبع إدمانًا عميقًا. تنتابها نوبةُ كرم تجاه لوعة سُكَّرِيَّة:
«يا ألف نهار أبيض لو طَبَّلتيها على رؤوسهم بعاشق».
تخترق بنظرتها في رأس سُكَّرِيَّة، تُحرّضها:
«شوفي أنا خرجت من هذا البيت نكِرَة، لا أنطح ولا أقول إمباع، لكن علَّمني الإسطنبولي قال: لو شفتِ الدنيا مقبلة دوسي على ظهرها بكل قوتك واركبيها، لا تعطيها ظهركِ، بيعي بكرة بلحظة غي. وأنا عند كل كلمة أقولها، دلّيني عليه، وخلّيني أدسُّه في قُنْعَتي وأطلّعه بين قدميكِ. تعيشي ساعة هناء، أصلها خربانة خربانة». اختلطت ضحكات البنات بدمع لتلك

النكتة. صمت سُكَّريَّة يحرق قلوب أخواتها، منذ رجعتها لم تنطق بكلمة، غير تلك الصيحة الكوميدية: «لا تفجعوني، لا تفجعوني، ترا أشخ».

تلك الليلة تفاجأت نورية بـ«نُصّ لسان» يكمن لها ببسطة الدرج، «لكِ عندي اسم، أمانة، ما تفضحيه وتكوني عند كلمتكِ».

فقس ذلك الاسم فجر اليوم التالي، خيط أرجوان مخلوط ببنفسج يشقُّ سوادَ الأفق والمآذن، الحَمَام يهدل في دوائر حول مئذنة رُكن السطح، وولجت سُكَّريَّة الخارجة العليا، بيمناها دلو، يحوي شظايا فُخَّار جَلَبَتْها لِجَلي فُخَّار الشِراب، وبيسراها كيس ورق يحوي الرمادَ لتلميع أغطية الشِرَاب من النحاس. ما إن تَوَسَّطت الخارجة حتى هَبَّتْ زوبعة الحَمَام وانبثقَ ليُباغتها ذلك الخيال في سواد القُنعة التركية، طيَّرت الزوبعةَ الحريرة الشفافة الساقطة من نصف القنعة العلوي، وبان وجه «ولد كفن»:

«بسم الله الرحمن الرحيم». فَزَعُه فَاقَ فزعَها الذي أخرسَها تمامًا، للحظة كانت تتحرَّك في عالم طُمِسَتْ منه الأصوات، طمس يُثَبِّتُها فلا تركض فَارَّةً من الفَزَّاعة في قُنْعَة نورية. تحت السواد لم يكن ثمة أثر لثوبه الليموني، كان بوسعها رؤية جذعه الرجولي يتحدَّد، عاريًا يرتعد كشجرة في ريح تحت القُنْعَة، رعدتُه تستولي عليها، تذرو نسمةُ الفجر الشطرَ العلوي للقُنعة كَعَلَم على سطح السردار، بينما تَنْشَدُّ فوطةُ القُنْعَة لتنسبكَ على الساقَيْن الغليظتين. لو صعد أيُّ أحدٍ في تلك اللحظة للسطح لكانت فضيحة مدويَّة، إذ أيّ متسوّلة هذه التي تتسللِ للسطح بلا دستور وبهذا الجسد الفحل؟!

شَدَّتْ سُكَّريَّة الشالَ الفيروزي على رأسها وجذعها مستترة، ركعت في بقعتها أمام مِرْكَن الشِرَاب، بركبتَيْها المنسحقتين لحجر الأرض. بصمتٍ أفرغتْ مياهَ الشِرَاب في الدلو الذي أحضرته. وبشظيَّةِ فخَّارٍ مَضَتْ تكحتُ وتجلو بطون الشراب واحدة وراء الأخرى. ركع «ولد كفَن» بعباءته عن يمينها مُوَاجِهًا لها:

«جرَّأني الهوا يطيِّر ريحانكِ لدُكَّاني، والله ما ينوّمني». أنفاسه على صفحة خدها حارّة، وسال خيط ريحان على صدغها الأيمن: «جيتكِ

مستميت مغسول غسل ميت جاهز، أحييني أو ادفنيني». طحنت أضراسها على كلماته، صمتُها أجَّجَ كلماته: «آمريني أحفر قبر بين رجولكِ واندسّ فيه وأموت». شجّعه صمتها، فأكمل: «أنا وأبويا، لنا شهر نحاور عمي مصطفى ونداوره، نُقَدِّم رِجْلًا للخُطْبَة ونُؤخِّر عَشرَة، أبويا خوفه يُحَدِّد اسمكِ لوالدك حتى لا يثير شكوكه، ولو تركناها أدبًا عائمة أخاف يزوِّجني أي أخت من أخواتكِ. يا الله، ارحميني».

انكسرت الشَظيَّة بيدها فتناولت غيرَها بآلية غير عابئة بالحرقة على راحتها، ومَضَتْ تكْحَتُ مُطوَّلَة كَحْتَها الخَافِت على العُنقِ الرفيعة، بلا مُبرِّر انبثق بجمجمتها الجدار الذي حفرت عليه كل العبارات التي سرقتْها من العالم. في أعلى الجدار تتعلّقِ صورةُ البوصلة بصالون جَدَّتِها المصرية والتي كثيرًا ما تَمَحْوَرَ حولَها جدلُ المفكرين:

«إبرة البوصلة التي تشير برأسها للشمال دائمًا تقودها قوى خفية أكدت لأينشتاين أن هناك شيئًا وراء الأشياء الظاهرة، شيئًا مخفيًا في عمق». كانت على يقين أن «ولد كفن» يقرأ تلك العبارة التي ركَّبَها آينشتاين داخل رأسها. ولد كفن الذي لم يغادر مكة وحنوطات الموت قط.

في تلك اللحظة من خطرٍ لذيذ تشظَّتْ كامل حياتها ومخاوفها ونبتت العبارات التي أسقطتها في محاولاتها لترويض ذاتها لتصلح زوجةً لصمدو. تحت نظرة «ولد كفن»، وبكل معنى الكلمة، صارت جسدًا معجونًا بعفاريت تلك الجدارية أو اللوحِ. في لمحةِ ذهولٍ صارت تكْحَت بشظيّةِ الفَخّارِ جسمَها بينما شدَّت شالَ الفيروز على الشِرَاب لأنه ينظر إليها. لم تُحرِّكها نيَّتُه في أن يخطبها، التأجيل عن تلك اللحظة التي جمعتهما هناك غير وارد، أرادت في تلك اللحظة لقاءً بقوةِ جذب الخَفَاء لإبرة البوصلة. أرادت أن ينجذبَ لها ناطحًا برأسِه الجدرانَ حولَهما وكلَّ ما كَبُرَتْ على مخافته، وأن تَمتصَّه حائطًا لجمجمتها حتى لا يعود له من وجودٍ خارجها! وللحال أخجلَها الدم الذي انبجس من كاحلها حيث تكحت، والشِراب التي تدحرجتْ وتشظَّت في شالها، أدركت أن ما ينتابها ليس إلا رغبة شريرة،

«أمرّغ وجهي بقدم أمكِ أتوسّلها تدلنا على طريق؟ أختكِ نورية وَعَدَتْني». شقَّ صيحتَه بصدرها: «أي قَدَر عَقَدَ كلّ هذه العُقَد بيني وبينكِ؟!». فجأة، خَطَفَ يمناها من على بطن الشَرْبَةِ الفخَّار، وطَيَّرها وراءه، راح بها إلى آخر السطح متجاوزًا خطوتين في الهواء لولا أن تَمَسَّكتْ في آخر لحظة، أو أن يدًا طرية لكن مستميتة امتدَّت وأمسكتها من قلب منارة الزاوية القصيرة التي تُعَلِّم الحافة مشيرة للقِبْلَة: «موتي معايا».

انفجرت رغبةُ «ولد كفن» بجسدها:

«أنا لا أعرف الخوف، أبويا سقاني نبتة رأس العفريت في حليب أمي وهَنْدولي نَصَبه من نعش ولا الخوف يعرفني. طاوعيني أَقْبُر لعيونكِ بلد بكاملها». صار قلبها في الهواء ويتفجر إثارةً، بجناح القُنعة الأسود يرفرف وراءهما،

«الْحِمي يدكِ بيدي أصبّ لك عفريتي... اسمعيني، أنا عايش الموت، ترا بين الحيا والموت لا حَدّ، إلا لحظات، هي لحظات أُنسنا برفيق». أطبق كفَّيهما، تحولت بودرة الفخار بعرقه إلى طين يلحمُ أصابعَها في كفه، وفاحت رائحة الكتب المنفية بخزانة والدها: «فينا عفريت يصفِّدوه في قُمقم ويدفنوه في سابع بحر، أفرجي عنه واطلقيه من غرفته وخلِّيه يصيح صيحة تكسِّر الأختام».

شحذها بحكاية القُمم تلك التي سمعها من عشرات الحكواتية الذين يفترشون كل غروب رَحْبَة الحرم الرخامية أمام بيتهم، يُحَرِّضها بما هو أقرب للبهيمية،

«صيحي». ضَرَبَتْ صيحةٌ بقاع دماغها، واتحدت الكتب التي قرأتها مع الأحلام التي لم تجرؤ فتحلمها، وألَحَّتْ عبارة أراجون التي تُكَرِّرها جَدَّتها المصرية:

(نُولَد عراة ونصرخ، والمحظوظ هو من يستمر على ذلك!).

للمحةٍ رَاوَدَها دَفْعُ «ولد كفن» عن حافة السطح لتُجْبِرَ عفريتَه على التجسُّد من أجنحة القُنْعَة السوداء، أول أمنياتها التي ستُمليها عليه أن يفك

قبضتها اليسرى عن مَنَارَة السطح، لتركل حظوظها وتندفع في السماء! الأمنية الثانية أن تستدير كما استدارت الآن. شَقَّتْ بيسراها قُنعته وجرَّدته، وسرَّحتْ بَصَرَها بلذة وتملّك في جذع رجلٍ أجرد!

متأرجحة على حافة السطح حَشَرَتْ شالَها الفيروزي بين قدميها لكيلا يهوي للطريق، وبحركةٍ خاطفة تناثرت الأزرارُ وانشرختْ صديريتُها، فقط لتشعر بوقع نظراته عليها، تُبادِله العُري الذي حُرِمَتْه في زواجها. وكادت أن تقف كما وقفتْ لإخوتها يومًا عارية لولا أنَ اندفعت نورية، وكانت تتنصَّت ملفوفة بشرشف صلاتها من آخر السطح. طوَّحتِ الشرشف كشبكة ولَمَّتْهِا فيه، وسحبت ولد كفن، وعلا صوت تمزق لكشط قبضته عن قبضة سُكَّرِيَّة. ودَفَعَتْه إلى الطريق!

لَعَقَتْ سُكَّرِيَّة الكشطَ الدامي على كفها ولفظت بصوت مسموع أمنيتها الثالثة: «أن يموت فيَّ، يُغَطِّس كلَّ أجنحته السود في حوضي وأسمع حشرجة نزاعه في أنفاسي!». ارتجف الهواء مُرَجِّعًا تلك الأمنية السخيفة بموت العاشق مثل ذَكَرِ نَحْلٍ في المعشوقة!

قبل أن تتراجع عن أمنيتها أطبقت نورية على كتفيها تَرُجّها لتفيق من صعقتها:

«أخاطر وألعب ديدبانٍ بأمل تطلعي بساعة هَنَا، تقلبيها ساعة موت مع ولد كفن!!». لم تجزم سُكَّرِيَّة ما إذا كان ما جرى مجرد حلم، وأنها كانت على بعد خطوةٍ من التحوّل إلى حدأة.

طلب سماح متأخّر

لمحتْ سُكينة «ولد كفن» في طيرَمَتهم، وتيقَّظ في قلبها جرح قديم من زواجها الأول من سليمان السنفاري، حين تسبَّبت في طلاقها نفس القُنْعَة يتخفَّى فيها الذكر تطير على سطحها. يومها كان سليمان راجعًا من صلاة الفجر حين لمح المتسلل يقفز من على سطح بيته، اتجهت شكوكه لأخته مريم، هجم عليها فصاحت وأقسمت أن المتسلل كان في ناموسية سكينة. الغضب الأعمى لم يترك مجالًا للتحقق وكشف كذب مريم التي فتحت القرآن تقبِّل صفحاته وتُكرِّر القَسَم. تذكر سُكينة كيف كانت غارقة في النوم حين رفعها السنفاري في الهواء بقبضة واحدة يهدد بقذفها من نفس السطح. انتهت مطلَّقة وتهشَّم حظها إلى شظايا.

مشهد «ولد كفن» أيقظ على جسدها كل ركلات وصفعات السنفاري وإرسالها مطلقة كسيرة إلى أهلها. أيقظ الظلم الذي رافقها في زواجها الثاني من الحسنون، الذي نقلها إلى عزٍّ وعشق لا يوصفان إلا في الكتب. كتب فيها الأشعار وصَيَّغها بالذهب وحملها إلى العراق لزيارة أهل أبيها. كانت هي الوحيدة بين قريناتها التي وصلت بحر العرب ورجعت، ورجع بها ليقيما مع بقية أخوته في بيت أهله. وكان يخفي سبائك الذهب في تنكة تحت فراشهما وعَيَّنَها أمينة سره. حين مات احتال عليها أخوه الأكبر صالح:

«زوجكِ المرحوم عليه ديون، حقوق العباد ستحرقه في قبره». صادر التنكة مع حليها والأموال، وحَكَمَ على سُكينة لا تغادر بيت الأسرة، وحاصروها في مبيت بالسطح لتربّي أولادها الثلاثة. تُراجعها روائح الذبائح يذبحونها ويحتفلون في المجالس، بينما يقرص الجوع أولادها

في مبيتهم المنسيّ في السطح، عيدهم وسنتهم الجديدة مرقة الهوا: علبة صلصة محلولة بماء يغمسون فيها خبزهم الجاف.

يوم مات صالح غسلوه في دهليز بيت العائلة وكَفَّنوه، وحين أرادوا الخروج بجنازته عمَّ اضطراب. قيل إن الرجال صاحوا من الدهليز: «الجنازة باركة، رافضة تخرج من البيت». تناقلت مكة الفضيحة، ومهما حاول الرجال، رفضتِ الجنازة أن تتزحزح، وفشلوا في تحريكها خطوة، وتكرَّرتْ المحاولات عبثًا.

في السطح وأمام المشيّعات، ارتمت أخته على قدمي سُكينة، تبكي وترجوها،

«يا سكينة سامحية الله يرحمك، يا سكينة هذا خايف من عذاب القبر من ظلمه لكِ، الله يرحمك سامحيه عشان يتوكل لقبره». وسُكينة لا يطاوعها قلبها بمسامحته، موجوعة بتجويعه لأولادها، وفي نفس الوقت أشفقت على جنازته المثقلة بجبروته.

أخيرًا نطقت: «إن ما سامحته في الدنيا أسامحه في الآخرة». عندها تحرَّكت الجنازة وخرجت من الدهليز في طريقها إلى المقبرة.

تمسح سكينة عن جبهتها عَرَق تلك الذكرى، ويعاودها جسد «ولد كفن» يطير على سطحهم. للمحة خطر لها أن تفضحه لمصطفى السردار، وتنتقم من جرأة كل البنات أمثال مريم أخت زوجها الأول التي ظلمتها. لكن سُكَّريَّة كانت تتحول تحت بصرها إلى حدأة، لا تستقر، تنتقل بين الأسطح وقد أسودَّت ملامحها، وامتد منقارها بجذع «ولد كفن» مطبوعًا على جذعها.

«موتي معايا». لا يكفّ نداؤه يطاردها. غابت سُكَّرية عن إنسانيتها لأيام قبل أن تصحو على صوت أمها تهمس لأبيها في ناموسيتهما بالخَارِجة العلوية:

«جاتنا الخاطبة بُلبل تتوسط للحنوطي مرزا، طالبين سُكَّرية لولد كفن».

«إيه؟!!». سمعت صرخته، فارتعدت سكرية بغضبة السردار:
«بُكرة تسلقنا الألسنة الحداد يقولوا: دكانه تحت روشانها شاف منها وشافت منه! اقطعيها سِيْرَة يا سكينة، وقوليلها: ما عندنا حريم فوطة حَمَّام من راجل لراجل».
انتاب سُكَّرِيَّة غضب، لا تجاه السردار وإنما تجاه «نُصّ لسان»، ويده التي لا تزال تشعر بها تُطبق على كاحلها، كلما صعدت إلى منارة السطح لتقفز تمسكها، يده خطاف لا يتهاون رغم ليونتها.
نفس الغضب تسمعه مكتومًا بصوت سكينة:
«صحيح أن الدجاجة غسلتْ رجليها ونسيت اللي عليها. يا سيدي الله يسامحكَ، ها أنا بين يديك، تطلقت مرة وترمَّلت مرة، وجيتَك... صرت فوطة حمَّام؟!».
يعتذر السردار:
«أنتِ يا سكينة غير، أنتِ ست بحواسها كاملة، ربيتِ أيتام وصبرتِ على ظلم كبير في الزواجين، ربي شاء يجازيك لصبرك وينعم عليَّ بعِشْرَتك».
يُشفي تراجعه الذليل غليل سكرية: «كمان سكرية وقع عليها جَوْر».
«يا سُكينة عَقِّلِيها: سُكَّرِيَّة خاطبها حنوطي يعني نسب عزرائيل».
«فال الله ولا فالكَ. حنوطية يمكن لهم شهادة بأن تجارتهم ما تكسد وتحت عينكَ، لهم بالآخرة أكثر مما لهم بالدنيا، يعني شغلتهم تخريج من وسخ الدنيا. يمكن الشغلة فَتَّحَتْ مَدارِكَ الولد وخَلَّتْه قانع بها مُطَلَّقة ومكسور بَخْتها. ويمكن الله يمَكّنه يهنِّيها».
«لو القضية أصله وفصله وشَغْلَته القبورجية لهانت، لكن يا سكينة البنت بختها مايل يُمَيِّل بلاد، وبكرة يرميها في وجهنا ويشمتوا فينا الناس مرة ثانية. يقولوا فيها خراب حتى ولد كفن عَافَها وما قَنَاهَا عنده جارية. لا تقارنيها بكِ، هذه من أولها الرجل عافها من جِنّ هدى شعراوي المعششة برأسها، أنتِ عاشرتِ وأنجبت لكن لفَّقوا لكِ تهمة».

مرارةٌ تشوب ضحكةَ سُكَّريَّة من أوصاف بختها: الصيني المكسور والبُرج المائل!

لكن سُكينة تستمر في محاولتها: «على قولكَ: أخذتكَ مُعَدَّل مَيِّلَك بختي وأخذتكَ مايل عَدَّلَك بختي! لكن الله عالم يمكن يستر عليها حتى يدخِّلها قبرها، يقولوا الولد لابس كفنه ومُسَلِّم أمره لكَ، يا تزوّجه البنت يا تقبره».

«إيه عند ولد كفن إلا البَهْلَلَة، عنده فصول تضحِّك وتبكِّي، من جيل بلاه في رأسه وبين رجليه، قال يخوِّفني بكفنه! هذا ولد موسوس بحمامته، مرة يمرجحها في الليموني ومرة يفلتها في كفن، من صغره ما شفته مكتوم في سروال مثلنا».

يطبق بجسده الضخم على سكينة، وتنكتم ضحكتها، وتُذهل سُكَّريَّة سخريةُ السردار:

«الله يسامحك يا سيدي، يمكن لنا نسل طيب في هذه الحمامة، حاشاك يا تاج رؤوسنا تحكم على البنت بالحرمان من الذرية. لا تحسب صمدو الصَرَنْقَعوه عليها رجل، الحال مكشوف هذا لا دَخَلَ منها ولا خَرَج».

تغلق سُكَّريَّة أذنيها عن صوت سكينة المكتوم، يجاوبها صوت الديكتاتور المشحون بما أرسل الدم برؤوس قبيلة من جانها:

«تبارك الله أنشط ما في البيت الحَمَام، والمواليد تِرُخّ في كل موسم، خلي سكرية تِرَبِّي اللي تحب فيهم. إيه ناقصها؟ حركشة؟».

قيس بن المُلَوَّح مات حبًّا أم إنها كذبة؟

مع دخول شهر ذي الحجة انفتح بيت السردار وبدأت الخلخلة الموسمية، ككل بيوت مكة بدأ طقس تحويل الجواري لسيولة نقدية لرفد تجارة الموسم، راقب الصغار بينما حزمت جواري السردار الخمس ثيابهن، ومالك المراهق ابن مصطفى السردار الذي يدور حول جاريته جمانة النحيلة بمؤخرتها النافرة. حتى إنهم كانوا يتبارون في وضع كوب الشاي على تلك المؤخرة وهي واقفة ولا يسقط.

ترقب فرح إعداد الجواري للبيع وتحمد ربها أن إنجابها لسُكَّرِيَّة قد عصمها من تلك التنقلات الموسيمة بين سادة مكة. مشاعر مضطربة تتجمع على الأسطح المجاورة لجوارٍ يرحن ويجئن في حالة تَرَقُّبٍ لمستقبلٍ مجهول.

قلبُ «نص لسان» الرهيف لا يطاوعه، يلحق مع المراهقين بموكب جواري السردار عبر السوق إلى دكة العبيد، وتنضم للموكب زرافات من الجواري اللواتي تم ترحيلهن من مختلف بيوت مكة.

«يا واد بلا حشرية، روح شوف الشغل المُرَطْرَط في البيت». ينهرهم عمّهم عبد المجيد، وينسحبون بحسرة فلا يشهدون سخونة الصفقات. يُصَرِّفون قهرهم بمشاكسة مالك؛ الذي يكتم دمعه بنظرةٍ أخيرةٍ لمؤخرة جمانة، يقوّيه الكبار بخبرتهم:

«يا ولد خليك رجال، الراجل ما يربط قلبه بـــ...». ويشيرون إلى عضوه.

انسحاب الجواري يترك في البيوت شعورًا بالفراغ وبالتشويق، حرمانًا مؤقتًا للمراهقين وشوقًا لما ستأتي به موارد الحج من جَوارٍ جُدد لمتعة عامهم القادم.

يتوالى التفريغ للمجالس، وينتقل المكيون للسكن في الأسطح، ما لا يقل عن الخمسين سرداريًّا يرقدون جنبًا إلى جنب متوزِّعين في كل سطح وممر وصولًا إلى أرضية المطبخ بأعلى بيت السردار الأشبه بقلعة. بينما انفتحت رواشن الطوابق، وأنارت الحجرات المحجوبة، وطفحتْ بالإحرامات: للتركيات المكيَّسة صدورهن المهولة بالأبيض، على خصور محزَّمة بصرامة، تعلوها وَجَنَات تطفح بدم العافية. والأهم تجسيد المجالس للرجال المعروقين بكفوفهم الحمراء الشفافة، والذين تبعثهم الأذانات في حركة بندولية بين البيت والحرم، مشكّلين حقلًا مغناطيسيًا يغيّر مُعادلات الحَجْب في مكة. يسقط مفهوم الداخل والخارج، تصير البيوت كلها خارجٍ هو حرم الله، وتصدح فيه الأذانات مع الشمس والطيور وأنوار السوق المُلَغْلِعَة، واصلة لقلوب المخلوانات التي لم تر النور في عام كاملٍ، نور يسطع من موسم الحج للموسم القادم.

تَحَوَّلَ مَقْعَدُ السردار بالدَّور الأرضي إلى مُنتدى يستقطب أخبارَ حملات الحجيج، وما صادفها في البر والبحر والجو من أهوالٍ وطرائف حتى وصلت مكة. ليل نهار لا تسكت المَوَاقد والأتاريك. يدور الصبيان مع «نص لسان» يقدمون الشاي للقادمين، ويرسلون بمَعَاشِر الضيافة للواصلين المتوزّعين في البيوت المجاورة، لم يعد يرقد لا البيت ولا المدَّعى ولا رَحْبَات الحرم حوله. إثارةٌ تسري في كلِّ وجهٍ وترفد السهارى بأحلامٍ يقظةٍ لا تُضاهيها غرائبُ أحلامِ الرقاد.

فجأة خَرَجَتْ سُكَّرِيَّة من صمتها وصَدَحَت ضحكتها في اليوم الأول من ذي الحِجَّة، كان ضُحى حين اندفع ذلك الحَاجّ النحيل بالخوارج:

«وي وي وي، من هذا الحَاجِّي الداخل طويلْ طويلْ علينا؟!». عَلَتْ الضحكات ولم تحاول أي امرأة الاستتار، وسارعت البنات. أحطن به ليكتشفن وجه «ولد كفن» ابن المرزا. «الله يقطعك، فَجَعتَنا». قالتها بدرية ضاحكة ودفعتْه مع البنات إلى الدَرَج،

«يا بنات لا تجرجروا إحرامه، ترا باين، ما تحته إلا ثلاثته وعلى الله سلامته».

وتلقّاه «نص لسان» هابطًا به إلى الطريق، بينما لاحقتِ الأنظارُ المثارة جسدَه العاري إلا من خِرقَتي إحرامه كاشفًا كتفه اليمنى.

«ولد الحنوطي أصَابَه لُطْف»، قالتها سكينة متعاطفة ولم تفكر في شكوته للسردار، والتقط قلبُ سُكَّريَّة الخافق تلك السماحة.

«وي وي وي». تكرَّرت تلك الصيحة في الأيام التي تَلَت، يندفع «ولد كفن» حافيًا وسط النساء في إحرامه، يلبس حول عنقه مسبحة ألفية من الكهرمان كل حبة بحجم عين جمل، ويجر طرفها بيديه كلجام ليُسلِّمه إلى سُكَّريَّة، لا ينظر يسرة ولا يمنة، عيناه مثبتتان على سُكَّريَّة ويدهُ ترجوها أن تأخذ بالمسبحة لكي تشنقه أو تجرجره كبهيمة وتربطه تحت فراشها وتَتَملَّكه.

«يا ولْد الناس، عيب فَضَحتَنا». تقولها سكينة ضاحكة وقَدْ أسقطَ الحَجُّ مفهومَ العيب والحرملك.

لكن ولد كفن لم ينجح قط في الوصول للمس يد سُكَّريَّة، مع أنه وفي كل مرَّةٍ يندفع بجرأةٍ أكبر وتتقلَّص المسافة بينهما ذراعًا، لكن دائمًا وفي آخرِ لحظةٍ تعترضه البنات ويقدنه في إحرامه هبوطًا بينما تصدح ضحكة سُكَّريَّة.

حتى كان فجر التاسع من شهر ذي الحجة، يوم وقوف الحجيج بعَرَفات، مع الفجر خَلَتْ مكة كعادتها للإناث، فلم يبقَ رجل إلا وشَدَّ رحاله إلى عرفات خادمًا للحجيج مُتاجِرًا ومُتكسِّبًا لبقية عامه.

ذلك الضحى هَبَطَتِ البنات يتجوَّلن بفضولهن في طوابق البيت ومجالسه بين بقايا الحجاج، في البسطة المؤدية إلى الدور الأرضي فوجئن بـ«ولد كفن» جالسًا في إحرامه، مُغْمَض العينين بابتسامةٍ عذبة، مُسنِدًا رأسه للجدارية المتكوّنة من نقرات عشق شبّان مكة لسكرية، الجدارية المتوسعة التي قهرته كلُّ نقرةٍ فيها. اقترب منصور الصغير، هَزَّه بلطف فمال رأسه، وعَلَتْ شهقةُ البنات وصيحة الصغار وقد سقط أمامهن ميتًا، رأين روحه

طالعة في تلك اللحظة من بين شفتيه، تضرب قاتمة بجناحين، سُمع ارتطامها بالسلالم تخترق بين الأسطح لسُكَّريَّة، غارت بعنقها بموضع الوريد وانبثق دم، الشهقة التي شَهَقَتْها البنت شقَّت الحاجزَ بينها وبين عالم الموتى وكشفتْ لبصرها كلَّ من مات من أهلها. ظهروا حولها فجأة، بينما تجلَّطَ الدم على وريد عُنقها مُشَكِّلًا تلك الشامة البارزة، وللحال غادر قلبَها القهرُ الذي بكَّمَها.

في نفس اللحظة، في الخارج، سُمِعَتْ قرقعة سيل عظيم، برابخه انفتحت من أعلى سوق المُدَّعى والمسعى، وفي لمحة غطَّت صحن الحرم واصلة لإحرام الكعبة الأبيض، وتصدّع باب الكعبة واخترق السيل ليغسل جوفها، ويُقال نبش البئر المردومة بقلبها وأخرج رِقَاقًا وبرشمانات سِرّية طفت في طرقاتِ مكة بأدهانٍ بخورٍ وأحبارٍ علَّمتِ الأبواب، أبواب الأسر التي أكثر نسلها البنات.

لليلتين استمرت السماءُ ترعد وتحلب، ووصلت الأخبار الحجيج بـ«منى»، فترك الرجال العيد وراءهم وعادوا لإنقاذ مكة، واستقبلهم السيل يطفح من كل الطرق المؤدية إلى الحرم، ولم يجد الرجال وسيلة للنفاذ إلى البيوت المُحاصَرة. شوهدت النعوش تسبح على ظهر السيل ويتمسك بها السبّاحون، وتأخذهم معها. يقولون غادرت مكة في ذلك السيل كل النعوش مُحَمَّلَة بخيرة شباب مكة، وسرت الإشاعة بأن «ولد كفن» ناداها لتلحق به. ذاك الموسم لم تجِد الوفيات المتكاثرة في الحجيج ما يحملها، أُلقيت الجثث كالزكائب على ظهور الحمير والبغال لتُحمَل إلى المدافن.

توقفت الأمطار وظلَّت السيولُ تعلو وتُزْبد بصمتٍ، وظهرتْ سُكَّريَّة وراء تخريمات الأسطح ترقب. افترشت الأرض وسط كومة أوراق، وبدأت في استرجاع ما بقي في رأسها من عبارات الكتب التي أسقطتْها برمال الهرم، بصبر وبخطٍ بدائي أخذت تُسَجِّلها في القصاصات، وتخزّنها في صندوق السيسم الذي يدفن ثوب عرسها مع رسائلها إلى جدَّتها المصرية التي لم تُرسَل قط.

كنتُ أوَّل مَا شَافُه من دنياه

مكة، 1974

«صمدو، عُرسه الليلة بقصر ابن مختوم بجدة. يقولوا ناوي ينجب وريث!».

توقفت حبة الفستق بحلق سُكَّريَّة للخبر الذي فجَّرته نورية.

«وريث؟ كان رماه في بطن سكريّة لو كان يقدر يكون راجل».

«هو ممكن يلاقي فين زي سكرية، اللي ميَّل بختها ودمغها بدمغة: مطلَّقة».

لم تنطق سكرية بكلمة، فرَّت من الحوار الدائر بالمجلس بين نورية وأمها سكينة.

سقطتْ سكريّة فريسةً لحُمَّى لم يُجْدِ معها علاج ولا تبريد. استمرت الحمى شهرًا حتى أنضبَتْ خصوبتُها في تلك السن المبكرة. نضوب الطمث رمى سُكَّريَّة في هوَّة. أغلقت عليها حجرتها، ولم يفتح بابها غير صرخات بيقم زوجة أخيها سالم التي أوقفت الطير بسماء بيت السردار.

بيقم الصبورة معروفة، ما تسمع لها آهة ولا تِنِخّ لألم. خَبِرْنَاها العام الماضي حين مسكت النار طرف كُرْتَتها ووصل الحرق لركبتها. ما صرخت، ربطتْ حرقَها بلبخة العسل ولا اشتكت. لكن الآن صراخها يفجّر القلوب، والطَّلْق حامي على الفاضي، البِزْرَة عَالقة، وروحها تطلع مع كل طَلْقَة.

لم يسبق لآلام مخاض أن نشرتْ هذا القَدْر من الفزع وضياع الحيلة، البشر والظلال والأشباح والنور والروائح وفزع الجيران تتخبَّط ببيت

السرداد ببخور اللُّبان الشِحري لطرد العُسر، مختلطة بزرقة عين هذه وشَرَر عين تلك، والشعر الكستنائي الملفوف في كعكة كبيرة على رأس النفساء بيقم لكيلا يقف في طريق التوليد، وتنضح جدائل البنات بالعَرَق وأبخرة الماء الذي يُغْلَى ويُعَادُ غليه في المطبخ ولا أحد يعرف ما سيفعلن به.

سقطت القلوب للأرجل حين غادرت حورية مجلس الولادة، تائهة على رأس الدرج ملفوفة بشرشف صلاتها، قرآنها بيدها، تخلط آيات تحفظها من سورة يس بآيات من سورة الرحمن ومريم وتنفخها بشفتين مرتجفتين، وكان ذلك المؤشر للخطورة القصوى للوضع.

احتدم جَدَل بين سالم زوج بيقم وأبيه مصطفى الكبير حول انقاذ بيقم.

وللحال انتشرَ الصغارُ على السلالم منظومين بين مَقْعَد جَدِّهم ومجلس النُفَسَاء، يخطفون لمحاتٍ من الصراع بالأسفل.

«هاااا؟»، واقفة بقدم في مجلس النفساء والقدم الأخرى في بسطة الدرج، تستقصي بدرية آخر خيط الأولاد المنظوم على الدرج، وتبرق الإجابة من طفل لطفل صاعدة:

«مُصمم، ما زال يقول: لأ... قولوا له: بيقم، صرخة في الأرض وصرخة في السما... هااا؟ سامع؟؟ ما اتقطَّع قلبه عليها؟».

وتسري همهمة الجَدّ محمولة على الوجوه المُصْفَرَّة، فينقل الصغار عنه:

«بيقول: ما له لزوم»، ويتردَّد الصغار قبل أن ينطقوا عبارته التي هي في نظرهم منتهى العيب، «جَدِّي بيقول: بَجَاحَة».

«يعني إيه بَجَاحَة؟! هو دا وقته؟ يا أولاد شوفوا جَدَّكم أيش قال لعمكم سالم، ترا نَفَسها غاب».

بحزامه الأخضر وثوبه الأبيض ينسلّ «نص لسان» للمَقْعَد يتظاهر بتغيير رأس الشيشة، ويلتقط عبارةً كاملة، يخرج بها مسرعًا للدهليز:

«قال: ما له لزوم يتدخَّل بين رجليها الرجال، ويِتْكَشَّفوا علينا».

«رجال إيه؟!! دول دكاترة في مستشفى».

الحوار يتراخى ويسخن هابطًا صاعدًا من المقعد في الدور الأرضي

إلى الدور الرابع حيث ترقد بيقم تصارع الموت، أولًا بأول ينقلون عبارات مصطفى السردار:

«يقول: بدل الواحد عشرة... في فراشه عشرة بُزورة اتولدوا بسهولة العَطسة».

«صاح وطار من عينه شرر: الإسعاف فضيحة، وآخرتها رجال ينزِّلوها تحت عيون الجيران؟».

واصفرَّت الوجوه بتصاعد التقارير الفورية:

«عَمِّي سالم وجهه صار بسواد الكبدة، ويتهته وهو يقول: مو مهم كيف ننزِّلها، حتى لو نربطها في نعش».

«عَمِّي سالم على باب البيت يبكي». بلاغٌ انتقل همسًا ورجَّ البيت، كإعلانٍ لفشل محاولة اختراق صلابة الجَدِّ، وانفلت من الخَبَّاز كيس الملح في عجينة العيش الحَبّ، وفَرَمَتْ جارتُهم البُخارية أصابعَها مع لحم المَنْتو، اضطرابًا من صرخات بيقم.

ظهرت سُكينة ملفوفة في شرشف صلاتها، وشَقَّت طريقها بين وجوهٍ مصعوقة لتبلغ المَقْعَد. لم تنتظر أيًّا من أحفادها ليُغلق باب الطريق، لم تعبأ أن تنكشف للرجال المارقين على الطريق:

«يا سيدي مصطفى، ارخي صوتك الصغار يتنصَّتون، كل البيت مُلَهْوَج موج يِقْلِبْ يِقْلِبْ». ورغم حرصها على خصوصية وساطتها إلا أن كسفته لها وصلت مُلعلعة للأعلى:

«أيد كل مَنْ هَبَّ ودَبَّ تِعسّها». الجملةُ وصلتْ مقطوعة، الصعقة على وجه حورية دفعتْ ميَّادة للركض هابطة الدرج:

«مستشفى لأ. بيصيح ويكرر: مستشفى لأ، أهون عليَّ أرسلها الشَرْشورة».

«ماذا؟ الشرشورة[1]!؟».

---

(1) مكتب تكفين الموتى الذين لا أهل لهم.

سارعوا إلى «نص لسان» الذي خرج مطرودًا وقد هبَّ فيه مصطفى السردار صارخًا ما إن أطلَّ لتغيير جمر شيشته:

«يا واد حَوَلتنا، داخل خارج مثل المدوان، لا تِتْلَحْوَس وتلقَّط الكلام».

كانوا يأملون أن يسمعوا تصحيحًا للبلاغ. لكن «نص لسان» اندفع إلى الدهليز، ينفض أصابعه مفتونًا بصلابة السردار الكبير وفزعًا من صيحات الوجع:

«يقول: هي الآن في بيتها مستورة. لا تفضحونا، أصله لا ينام في المستشفيات إلا البنغالة والمُسَفَّرين اللي ما عندهم سقوف على رؤسهم».

حوقلات تنبعث مع كل بلاغٍ وارد، إلى أن شقَّت البيت تنهيدة ارتياح: «قَابْلَة، نعم».

«عَمِّي سالم خَطَفَ الإذن من جَدِّي ورَمَح بمداسه في يده على صِحّيَّة إجياد يجيب قَابِلَة».

«أنيسة القردة، أنيسة القردة»، سارع الصغارُ يزفّونها وبطول طَلْعَة المُدَّعى، لم يكن بوسع السيارة التي جاءت بها التقدُّم إلى ممر السوق المزدحمة، أهبطتها بجوار الحرم، واضطرت للتقدم ماشية. امرأة ممتلئة تتدحرج في معطف الأطباء الأبيض، تتكيَّس قدماها في جورب قطن أبيض وحذاء أسود مدرسي بلا كعب.

«أنيسة القردة، جُعْدها طافح لبان». يشيرون لنفخة وجنتيها، تتبسم لسخرية الصغار الذين وُلِدَ معظمهم على يديها:

«الحَقّ عليَّ إنّي جَرّيتك من بطن أمكَ من لسانك». تسخر من الذي يتجرأ للاقتراب للمس حقيبتها السوداء: «يا وَلَه حَمامتك أنا قَصَّيت جلدتها بإيدي».

تنظر إلى ولدٍ ينظر إليها: «أنت يا سماري خرجت جنّي مسلسل، حبلك السُرِّي معقود على رقبتك سبع عقد، أزرق وتفرفر، آه ليتني ما فكيتك».

القَابِلَة الشهيرة بمستشفى إجياد، والتي وُلِدَ على يديها أغلب مواليد

الستينات وجزء من السبعينات بمكة (أنيسة) المشهورة بالقردة قفزت سلالم السردار بخفة غزال مستجيبة لصرخات النفساء.

«بسم الله ما شاء الله البطن عامرة، واضح أنه توأم»، وحين تحسَّست البطن أكّدَتْ تشخيصَها بوجود توأم:

«واحد شُوْشَته فوق ورِجْليه تحت، والثاني عَاكِس، رأسه مُدَنْكَس. نصيحتي تنقلوها الصحيَّة، لازمها شق بطن».

انتقلت كلمة الشَقّ بقرقعة هابطة ترتج لها حجارة السلالم حتى وصلت السردار الكبير، وارتدَّتْ:

«ما عليكم منها».

«ما عليكم من مين يا الدلعدي؟!!»، اعترضت أنيسة غير مستوعبة: «يعني تموت بين إيدينا؟!».

«شق لأ». كرر «نص لسان» عبارة سيده وأضاف: «يقول ما عنده حريم تنشق بطونها، إذا ولا بُدّ تنشق فيكون في قبرها».

تتضخم البطنُ مع كلِّ طَلْقَةِ نِفَاسٍ وأَخْذٍ ورَدٍّ.

فاحتْ رائحةُ الزنجبيل وغَيَّرت مزاجَ البيت. اختلط الزنجبيل بمستطيلات شمس ضربت بوسط الحجرة تَمَسّ بالكاد الفراش الذي ترقد عليه بيقم. تشعر بالنسمة الصباحية على أطراف أصابعها، من نوافذ الرواشن التي تفتح سُكَّرِيَّة قلاليبها لأول مَرَّةٍ منذ عام. حركات في دوائر ترسمها يد أنيسة القردة، التي يقطر عَرَقها برائحة حُلْبَة على البطن المتعاظمة، بينما تُدلِّكها بلا كلل بأمل أن تَحْمَى عزائم التوأم ويقومان بتعديل وضعيتيهما المتعاكسة.

«قولوا بسم الله».

«أول ما بان منه حمامته». ضحكةٌ هستيرية سَرَتْ ونَفَّستْ توترَ الدار، وترجَّع الصدى الذي سيلاحق الوليد في رحلته بالدنيا:

«خرج مواجهًا للدنيا بحمامته».

لوهلةٍ كَتَمَ الوليدُ أنفاسَه وأنصتَ لقطرات الحُلْبَة والزنجبيل ولَمْسة

الشمس وكوكتيل رائحة صباحات المُدَّعى، وسُمِعَتْ دَقَّاتُ عصا مصطفى السردار، سبع دقات على حَجَر المَقْعَد تؤكد صلابة نسله، وحبس الجميعُ أنفاسَهم منتظرين من الوليد حركةً بهلوانية أخرى، بينما نكَّسَته أنيسة القردة، لم تحتج أن تضرب صدره، تمطت أذناه، ومضى يتنفّس بقوة، كأنما يتنفس عنهم جميعًا.

«ما شاء الله صدره سالك وأنفاسه جارية»، هَتَفَتْ أنيسة القردة وقد أعمتْها الحُلْبَة تجري بالصبغة السوداء على جبهتها، وبعجالة دفعت الوليد بين ذراعي سُكَّريَّة:

«قُصِّي حَبله، وخلِّينا نشوف الثاني».

بحركةٍ بهلوانية مباغته دَفَنَ مؤخرته الحارة بصدر سُكَّريَّة وأكملَ تكَوُّرَه. انشقَّتْ من صدرها ضحكة مجلجلة لَخَّصَتْ صيحةَ الولادة.

«أنا أوَّل من شافه من دُنْيته. يا حسرتي عليه شاف العيد وأنواره!!». رَبَطَتْ على مسافة ثلاثة أصابع من جَذر الحبل السُرِّي، وشَدَّتْ، شعرت بعين الوليد تتوسع وتطبق على وجهها. جاءت بالمقص، لم يُطاوعها قلبُها لِقَصِّ اللحم الحي، بلطف أطبقت على الحبل السُرِّي لكن صلابتَه فاجأتها، مهما ضغطت تملَّص، وقفت مبهورة تتأمل بربخ الحياة ذاك.

«قصِّي». جاءها أمرُ حورية، شعرتْ في الأمر بخطرٍ يَتَهَدَّدُ الوليدَ، بأنها ما لم تقص فسيُفَرِّغ حياته ذلك البربخ. حَجَّرت قلبهاً، وبكامل قواها أطبقت بشفرتي المقص، وقطعت الشفرة في نهرٍ حي، لم يكن مُجَرَّد حَبْلٍ وإنما جسد كامل الصلابة.

هي المَرَّة الأولى تُشارك سُكَّرِيَّة في توليدٍ. طقس لطالما شهدته كثيرًا في ولادات البيت. عَقَّمَت بالقطن المُشَرَّب بالكحول، نفخت يا بديع ودَفَعَتِ السُرَّة لجوف الوليد بالريال الفضة الملفوف في قطعة الشاش، شَدَّت بالحزام حول الريال لكيلا تنفر السُرَّة.

حين تلملم الوليدُ بقُمَاطِهِ لصدرها تنبَّهت للاضطراب خلفها، لم يظهر التوأم بعد، مع كل طَلْقَة كانت مياه مدمَّاة تتدفق من بطن بيقم. حيرةُ أنيسة

القردة استوقفت الجميعَ، وتمحورت أعينُ النساء على البطن التي تقلّصَتْ ولا تزال تجيش.

«تعالي أنتِ كمان شوفي معانا!»، مُوَجِّهةً حديثَها للجَدَّة سكينة، التي أخذتْ تتحسَّس بطنَ النفساء، وتَبِعَتْها سُكَّرِيَّة تتحسَّس: «ما في شيء!».

وبذهول أكّدت أنيسة القردة على كلامها:

«غريب، ما بقي للثاني من أثر. التوأم شرد».

سَرَتْ قشعريرةٌ في الأجساد، وتلفَّت الجميع يبحثون أين شرد ذلك التوأم.

شرود التوأم لم يكن نهاية المفاجآت، إذ أخذتْ سُرَّةُ المولود بالتورُّم، ظهرت مثل بيضة تحت كوفلته للمدعوّين الذي اجتمعوا يوم الاحتفال بسابع ولادته، بين صرخات وجعه ضاعت تكبيرة الجَدِّ بالاسم (عباس) في أذنه، ولقد تردد الجد هل يكبر الاسم «عباس» دليلًا على الولادة العابسة، أم الاسم نوري من تنوير الحفيد الذَكَر. كان من الصعب تحديد ما إذا كانت قِلّة حسم سُكَّرِيَّة هي التي تركتْ مَسْرَبًا للحياة تنفذ وتُفْرِغ الطفل أم إن شرود التوأم الثاني هو السبب، وثار هَمسٌ لم يتأكد بأن: «التوأم لبس أخوه وناوي ياخذه معاه».

ربما كان الشعور بالذنب أو بالحياة هو ما جَنَّد سُكَّرِيَّة للوليد، وتحوَّلت سُكَّرِيَّة لعسَّاس حول فراش عباس المحموم الآخذ في الزرقة، بينما أنيسة القردة تروح وتجيء من صحّية إجياد إلى بيت السردار، تُجَدِّد الغيارات والمراهم ومضادات الحياة. إلى أن، وبعد أسابيع من السهر ومِنْ قاع اليأس، انقشعتِ الزُرقةُ على صحن البطن، التأمت السُرَّة لتترك الفتق المُتَكوِّر حولها.

كل أصناف المروخ والدهانات فشلت في تعديل تلك الثغرة بالبطن، ودخلت الدارُ في نوبة جديدة من السهر، لا تهجع حتى يشقّ ليلَها صراخُ عباس، «يا بيقم رَضّعيه»، يتوسّلها سالم.

«يا بيقم شدي حبل الكوفلة يمكن رجله معوجّة». تقترح أمها، وقد بلغها عويله في بيتها بآخر المُدَّعَى.

«يا بيقم اسقيه مِلعقة موية غريب خليه ينخمد». تتتالى الاقتراحاتُ من الناموسيات في المجالس والخوارج المحيطة:

«يا بيقم أوقفي به، ساعديه يتكرَّع، الروح طالعة نازلة في حلقه».

«يا بيقم مَرِّخِي صدره بزيت سمسم لا يكون اتْمَشَع».

«يا ناس أنا اتهدَّيت، الولد رافض». تنهار بيقم باكية، ويستسلم سالم:

«أمرنا لله، ارسلوا جيبوا له سُكَّريَّة». ويتخاطف الصغارُ النداءَ.

يتدافعون لطلبها، ويصرخون دفعة واحدة حين تُفاجئهم على الدرج بقُنْعَتها.

«البُعْبُع». يتراجعون أمامها ويرقبون خَيَالَها الطويل يتلقَّف عباس:

«قبل أن تصلني مراسيلهم أحسّ بك وأعرف أنكَ طالبني». بصوتٍ رخيم تُحَدِّثه وتدور به، تُباغته نبرتها فيتوقف عن البكاء مُحَدِّقًا في وجهها:

«أصحو من عِزِّ نومي، ألبس كُرْتَتي هذه المُبَخَّرة اللي تحب ريحتها وأَلْبَد أعلى الدرج في البَسْطَة، يتوارب باب مجلسهم وأقفز الدرج، وأتْلَقَّفك». يتنصت لبرهة لهدهدتها، ويشعر بأعين الجيران تراقب. يملأ رئتيه بالهواء ويستأنف البكاء بنبرة غيظٍ. يصكّ صراخُه الآذان، بينما تُهدهده بين ذراعيها وتجوس بين الأسطح والمجالس لا تكلّ، وكما راقب الجيران خيالَ أمها يصعد بها رضيعة إلى الطيرمة لكي تحرقها، يراقبون خيالها حاملة عباس تُبَرِّد حرقته. يلاحقها خيالُ «نُصّ لسان»، يجلس على بسطة السطوح بكفه على خَدِّه يرقبها والليل يزحف منسحبًا ببطء، تظهر أول خيوط الفجر على المآذن وتَبرد النسماتُ النازلة من جبلِ الكعبة وتُطفئ نبرةَ الغيظ. يأخذ بكاء عباس نهنهة الشكوى الحزينة التي تُقَطِّع القلوب، تضرب الشمس بالخارجة العلوية فتصعد به، يتسلل الدفء إلى قماطه ويبدأ يتراخى، مع الضحى تَتَحبب قطراتُ العَرَق على جبهته وثدييها وتُسرِّب حيوياته، وتسقط أهدابه على صفحة خده الذهبية وتنتظم أنفاسه، ويتنفَّس البيتُ الصُعَدَاء.

«يا عيني، عباس لا ينام، وإنما يُغْشَى عليه». يهبط «نُصّ لسان» بالخبر للسردار الكبير. ويتهيأ البيتُ للنوبة التالية.

ما إن يعلو صراخه في نفس التوقيت بالليلة التالية حتى تتجسّد سُكَّريَّة بباب المجلس، وكلما حاولت أمه استرداده ينفجر من جديد، ولم تُعجب تلك الموشّحات السردار الكبير:

«استحضروا دَاية تمرّخه». ما إن شَعَرَ بالمُولِّدة الأندونيسية حتى ضرب بقدميه في الهواء وشَقَّ صراخُه المُدَّعَى، ملدوغًا بكل حركة ليديها على بطنه، لكأن زيتها يحرقه.

«إحدى وعشرون ليلة، ما نامتها عَمَّتي سُكَّريَّة». أحصاها «نص لسان» والمُدَّعَى. عينها صارت بحجم الفنجان.

«هذا وَلَد سُكَّريَّة الممروع، كأن الفُرش أشواك تحته ما يحلا له إلا صدرها، ولو صَقْرَقوه قارورة ماء غريب ما تسْطُلُه إلا ريحتها». ماء غريب، المعروف بخصائصه المخدرة، يفشل في تنويم عباس. رابطةٌ عميقةٌ عُمق الانحدار للموت والرِدَّة للحياة قامت بين المرأة المهجورة والرضيع أعطته ذاك اللقب: ولد سكريَّة!

ضُحى الليلة الحادية والعشرين انتهزتْ سُكَّريَّة إغفاءتَه العميقة، بحَذَرٍ وَضَعَتْه على ثوبها الذي يُحب رائحته ليهدهده فلا يفيق، ودخلت تغتسل، ما إن زحفت برغوة الصابون لشعرها حتى سمعتْه يتململ، شرعت متعجلة تشطف الصابون حين سكت، تراخت، أطالت اغتسالها، كَشَطَتْ سهرَ وتعبَ الساعات التي جاستْها مع صرخاته المحتجَّة، تَعَجَّبَت من سكوته الذي طال، لَفَّتْ شعرها في طاقيته الصوف وخرجت على أطراف أصابعها، وفوجئت بالمشهد أمامها: «نص لسان» ينحني على الرضيع، وهامسًا يُغَنِّي له:

«الوَاد الوَاد صاحبي لابس له تُوب تَتْرُن من الغالي وفَلِينة حمَّالي». وعباس ساكت سكتة عجيبة بعينيه على وجه «نُصّ لسان»، يُلَعِّب له حاجبيه المقرونين وينفخ وجنتيه المصبوغتين بالأحمر.

قاطعتْهما زهرةُ الريحان التي ضربت بها سُكَّرِيَّة «نُصّ لسان»:

«يا واد لا تِشرَّبه هَجَاج المزمار أحسن ما بدل ما يطلع رجّال يطلع نُصْ نُصْ». تقولها بين الضحك والغيرة من أن حيلة ثوبها لم تنطلِ على عباس.

«يا عَمَّة دا حيبقى محترف قتال بالشومة، تقولي حَوَنْشي صغير، يرفس ويضرب بيده قارورة الحليب، عَمَّتي بيقم أرسلَتْها وتُوصِّيك يرضعها كلها، حَارِقها أنه من أمس ما رِضع إلا الموية».

يلحظ البيت باستعجاب الرابطة الخفية بين سُكَّرِيَّة و«نُصّ لسان»، ملازمَته لها في سهرها بالطيرمة. مثل خاتم سليمان، يلبي طلباتها قبل أن تنطقها. الرحمة التي لم يُظهرها تجاهها السردار الكبير تجسَّدت في هذا الصبي، تُحيط طِراوتُه بقلبها المجروح بينما تحتويه بقوَّتها.

«يقولون: سُكَّرِيَّة حين قصت حبل عباس السري حَشَتْه بالشطيطة التكروني، طلع دمه مفلفل، وصوته يلعلع».

«الجسم دليل، يا ما لَاليت ونصحتهم: يا ناس لا تسقوه حليب تصَحِّي الغازاتُ فِتَاقَه، ولا أحد يسمعني». تُرَبِّيه على الألماسية بماء التفاح وموية الأرز بنكهة الريحان، حتى أدمنها وفاح جلده بعطرها.

«شوفوا للولد دَبرة». حين جاء ذلك الأمر من الجد تنقَّلوا بعباس بين أطباء من جدة لمكة للقاهرة، ما إن تجسّه يد الطبيب حتى يتلاشى الفتق كأن لم يكن.

«الواد من خوفه يبلع فتقه!» تُكَرِّر سُكَّرِيَّة شاجبة تعريضه لتلك الصدمات، بينما يتهامسون وراءها ساخرين: «تمامًا كما بَلَعَ توأمه».

يلاحقونه بغيرتهم، حيث انشغالها به حَرَمهم نفرتها الكوميدية:

«لا تفجعوني، ترا أشخّ».

فقدوا الإثارة الوحيدة بالبيت حين تلاشت زهرة السيجارة إلى الأبد من غروبات المُدَّعَى. تتأمل سُكَّرِيَّة في عين عباس وتفقد حاجتها للتحدي والاحتجاج بالتدخين والتقمُّص الساخر لنورية.

ولد فيه دَهَالَة

مكة، 1978

مُحَرَّم على صغار البيت التلكؤ في حجرات الصبيان بالدهليز، يتسلل عباس ابن الرابعة بجسده الرقيق وغُرَّته السوداء الفاحمة كالبنات، يشجعه «نص لسان» على اللحاق به إلى الحجرة المحظورة، والتي تجمع فيها حورية ثياب الصدَقة. بلذة راقب «نص لسان» رجفة الخوف والفضول التي انتابت الطفل، سبقه إلى الحجرة يشجعه، حتى دخل وأغلق عليهما، ودَعَّم البابَ بالبقج. أطبقت إثارةٌ مُدَغْدِغَة على حنجرة عباس ابن الرابعة، عرف أن عليه ألا ينطق لكيلا يفتضح أمرهما، وحولهما توزَّعت البقج، الخربزي والفستقي والبامبي والأحمر الساتان. أخذ «نص لسان» يفتح البقج وينثر ثيابها حولهما ويُمَرِّر أنسجتها بخفةٍ على أطرافه، تحوَّلت نشوة عباس لقرقرة عميقة، سمح لـ«نُصّ لسان» بتسريح شعره ونسجه بمشابك الورد الصغيرة، ثم صار يسابقه لفتح المزيد من البقج، خلعا ثيابهما الذكورية ليرتديا ما يطلع بين أيديهما: سراويل بنات مطرزة، وجونلات مكشكشة، وكوفيات صبيان أو بخانق مواليد. ويتقمص «نص لسان» الأدوار ويبدأ بالتَقَصُّع، بينما يدور عباس حول نفسه في محاولةٍ لاستيعاب تلك الفورة التي تُفَجِّرها الثياب الأنثوية في جسده، جسد تحت جلده انبعث طريًا خفيفًا فرحانَ بأنوثته وذكورته. نسي فتاقه، وثقله تحت ذلك الفتاق وخوفه من الغول الذي يسكن سرته.

«قبضنا عليك بعملتَكْ يا ابن الحرام». انشقّ الباب عليهما فجأة وفَجَّرَ زلزلة. صالح كان مَنْ راقب دخولهما لذاك المجلس ودَبَّرَ لهما الكمين.

«الحقوا، قَفَلَ على الولد يفتعل فيه». تَنادى رجالُ الدار للعثور على عباس مُغْلَقًا عليه مع «نص لسان» في حجرة ثياب الصدَقة. في زَفَّة أخرجوهما وساقوهما متلبسَين بطول الدهليز إلى مجلس السردار الكبير:

«هذا المُخَنَّث بلوى، ردّه للزقاق حيث جاء، يلاقي له شَغْلَة تصلّب عوده الخِرِع، بدل ما تعشش بجاحته في رؤوس أولادنا».

تشققت وجنتيْ «نص لسان» بالنظرة النارية التي وَجَّهها إليه السردار، لم يلتفت مصطفى الكبير إلى حفيده ولا إلى حليات الورد تضفر خصلاته الفاحمة، رَكَّزَ غضبه على جسد صبيِّه، الذي تعزَّزت تدويراته في ثياب الأنثى. بصعوبة تجاهل الخصلات الطويلة التي انفلتت على كتفيّ «نُصّ لسان».

«هذا آفة مفلوتة في أولادنا». تحشرجت أصواتُ الأعمام لتأجيج غضب السردار الكبير.

«عينكَ في عيني يا 'نُصّ لسان'». جاء صوتُ مصطفى المرعب عميقًا وشَقَّ في عموده الفقري. «عينكَ في عيني وقل لي: يدك مسَّت الولد بسوء؟».

جحظت عينا «نص لسان» في ولِيّ نعمته. نظرة الإنكار تلك كانت كافية،

«خلاص لا تعيدها مسخرة، تراني مُرَاقِبكَ، والله أسلخك بالكرباج».

سرى ذهول وهمهمات احتجاج، لكن لم يجرؤ أحد على التصعيد وتحدِّي كبير البيت. لإطفاء غيظهم لجأوا إلى تكرار سخريتهم من عباس «الطالع للعالم بـحمامته، فهي أول ما خرج منه للدنيا، لذا فلا عجب أن يقع فريسة لنزوات تلك الحمامة».

«لو عاد شَبَرت برِجْلك ذاك المجلس والله بيمين أدفنك فيه، وأكفّنك بكُرْتَة حُزْمَة». انطوى «نص لسان» ساجدًا يُقَبِّل قدمي سيده، الذي رفعه ورَدَّه بتكريم:

«يا ولد لا توطي رأسك ولا حتى للسيّاف، ما دمت مُخْلِصًا ما عليكَ.

أنتَ مكشوف لي وما لي عليك مأخذ إلا جِنِّي الشخلعة اللي راكبك وعقلك التَرَلِّلي».

والتفتَ للمجتمعين: «لاتنهنهوا وتفحفحوا وتطلعوا فيها وتسوّوا لي غيورين، هذا لعب عيال، لا أحد فيكم يفتح فمه بكلمة ويكبِّرها، والله أكرتن اللي يفحش فيكم وما يطلع له حِسّ». والتفت إلى عباس، «وأنتَ يا ولد فُكْ خزعبلات الحريم من رأسك». انتفض عباس يخلع المشابك منفجرًا في البكاء.

يومها، وفي وسط الدهليز، قام «نص لسان» بجَزِّ خصلاته، وكَنَسَ الخصلات اللامعة أمام باب سيده بطول الدهليز حتى ألقاها للطريق، وقَصَدَ الحلاق الأريتري برحبة باب السلام، وحَلَقَ شعره على الصفر، وبطاسة رأسه اللامعة دخل مجلس سيده حاسرًا يخدم الحضور بالشاي ورؤوس الشيشة العامرة بالجُرَاك كأن شيئًا لم يكن.

وفي الأيام التي تلت راقب مصطفى الكبير حاجبَي «نص لسان» يتكاثران فقد كفَّ «نص لسان» عن تشذيبهما، ولم يعد يتكحَّل أو يُحَمِّر شفتيه، كإعلان للتوبة عن أنوثته اعترافًا بجميل الرجل الذي احتواه بثقته.

بنفس صلابة السردار الكبير رفضت سُكَّرِيَّة التساهل مع تلك التهمة التي عزَّزت الحواجز بين عباس وأنداده:

«يكيدهم ويقولوا عليه بنت لأن عباس ولد حياة. حبيب عيني سَنَّن وهو ولد ثلاثة أشهر، ومَشَى في سبعة أشهر، وحنانه عليَّ ولا جَدّ عجوز. وهم يلاحقونه، عذَّبوه بحمامته اللي طلعت لهم، هذه كانت بشارة حياة لأمه بيقم، وبعدين يمكن اتهيأ لنا، وأنيسة القردة مصرية طلَّعتها نكتة. لكن، لما زاروا جدتي يبحثوا له عن علاج كتبتْ لي أنها، مهما قرأتْ واستقصيت من أطباء النساء والولادة سخروا: يمكن أن يخرج بمؤخرته، أما (وضعية الحَمَامة) فلا يمكن أن يَتَّخِذَها وليدٌ في خروجه من الرحم!».

جهيمان

20 نوفمبر 1979م /1 محرَّم 1400هـ

الحمى التي تلبَّسَته من ذلك الفتاق في سُرَّته جعلت الخيط الذي يربطه بالحياة رفيعًا يكاد ينقطع. الشيوخ الذين عُرِضَ عليهم اتفقوا على تشخيص حالته:

«التوأم الذي اختفى لا يزال يربطه لعالم الخفاء، ابنكم يرى ما وراء العالم المشهود، هو مكشوف كما قبل صب الروح في الجسد، واحتمال انزلاقه لذاك العالم وارد، عليكم بالأضاحي، لا بد وأن تضحّوا من الخراف بعدد سنوات عمره، حتى يبلغ السابعة، وإلا ذهبت به الحُمَّى».

من هنا بدأ طقس الذبح في ذكرى ميلاده، خروفان حين بلغ الثانية، وثلاثة وأربعة وستة خراف كان المفروض ذبحهم لبلوغه السادسة لولا تلك الحادثة التي شَلَّتْ مكةَ بأكملها.

فجر بداية العام الهجري 1400، كان عباس غارقًا في نوم عميق حين بلغه ذلك الهمس لا يعرف في حلم أم حقيقة:

«قاصدتك يا الله متعلّقة بأستارك، ضعيفة أنا على بابك». يعرف تمتمة تلك المرأة التي يتفادى تسميتها فيفكّر بأنها أمه الرابعة، كل العمات بذلك البيت أمهات له، تعوِّض فيه البنات المحجوبات عن حاجتهن للولد.

لا يعرف إن كان قد تبعها في حلم أم حقيقة، لكنه حرصَ أن لا تغيب عن عينيه وسط أجساد المصلين الذين كانوا يتوافدون على صحن الحرم، لسِعَته.

«تعال، نفتتح السنة الجديدة متعلّقين بأستار الله، أنا وأنتَ ضعاف على أبوابه». أيقظته تلك الليلة، المرأة التي يتفادى تسميتها فيفكر أنها أمه الثالثة أو ربما الرابعة، لا يهمّ.

قادته في صحن الحرم مثقلًا بالنعاس، لسَعته برودة حين هبطت به بئر زمزم، أحسّ في كاحليه بأنفاسِ امرأةٍ تنام على سلالم البئر ونبهته للذة أن يكون حافي القدمين، في الصمت توضأت أمه باستغراقٍ، سكبت الماء بين ثدييها الرقيقين وتحت إبطيها وأسفل بطنها بأمل أن تطرِّد نحسًا عن تلك البقعة بالذات! يتذكّر تلك القطرة معلقة برموشها حين نظرت باتجاهه، كأنها تستغرب وجوده. بصبرٍ أرشدتْه ليتوضأ بالماء المُقَدَّس. انساب الماءُ دافئًا على أطرافه ولم يُعَكِّر نعاسه، كلما سكب من الزمزم انبعث من الأرض بخورٌ فاتر وملأ حواسه بالحنين لشيء لا يعرفه، شوق بعمر البشرية يصحو بزمزم. لم يلمح أول خيوط النور على جبل الكعبة، لكنّ أنفه التقط رائحة الفجر، بخور بنفسجي ممزوج بمذاق جبال مكة يتسرّب للحواس.

«ثماني عيون جوفية، من جهات الأرض، ومن أكبر جبال مكة تروي بئر زمزم. من يشرب ماءها ينبني من صخر، لا جراثيم تمزّق قلبه». تُكَرِّر ذلك كلُّ أم من أمهاته تأخذه إلى الحرم فجرًا.

صعدا من بئر زمزم بينما الإقامة للصلاة تُرفع، لَفَحهما الهواءُ، فاقشعرَّ جسده. يعرف أن تلك ملائكة تهبُّ وتسبِّح في هواء الحرم وتمسح جلود المتهجّدين برهبة الله.

نداء الإمام أرسل قشعريرة خشوع في الجموع الغارقة في السجود أو تلاوة القرآن، فهبَّ الجميع واقفين. الرخام البارد يواصل قرص قدمَيه الحافيتين، فيستغرق في اللذة الغامضة التي يمنحها المشي في بيت الله. تبع أمه كما في حلم طويل، ومع كل خطوة يخطوها كان قلبه يشفّ حتى تحوَّل لكريستالة مثْل تلك التي على القُبَّة بموضع قدمي النبي إبراهيم وتعكسُ كلَّ الأنوار المحيطة بالصحن. توقّفت به أمه للصلاة في حِمَى قدمَي ابراهيم، ووقف هو يُقَلِّد تمتمات الألسن حوله بعينيه على القدمين. يشعر بأنهما قدماه هو، وأنه قديم ويمشي كل الأرض والأزمان لهذه البقعة. قاطعتْه التكبيرةُ الأولى للصلاة وأرجعتْه من غَوصِهِ في أجسادِ الأنبياء المدفونين بذاك الصحن، وإلا فلو واصل المشي مع إبراهيم لبلغ

آدم وما قبل الهبوط. ارتعش، حدسٌ غامض لم يكن بوسعه تفسيره أنذره بأنه كان سيفقد جسده ويرجع روحًا في الجنة. تلملم على جسده الطفل وواصل تقليد خشوع الصفوف حولهما هو وأمه.

مائة ألف مُصَلٍّ أو يزيد صلَّوا ذاك الفجر وراء الإمام «محمد السبيِّل»، لم يستشعروا الحركةَ الغريبة في الأروقة وعلى المنائر، وسيول الرشاشات الأتوماتيكية التي انسابت من مخابئها من الألف خلوة أسفل الحرم، والنعوش التي توافدت وحاصرت صحن الكعبة.

ما إن ختم الإمامُ الصلاة حتى اندفع ذلك المُسلَّح، يريد اختطاف مُكبِّر الصوت، وبلا تردّد نَهَرَه الإمام: «خاف ربك، وخلّينا نصلّي على الجنائز». ارتعد المسلَّح تاركًا مُكَبِّر الصوت. وبرباطة جأش قاد الإمام «السبيِّل» صلاة الجنازة، بعد أن ختم التكبيرة الرابعة بالتسليم ناول معاونه مُكبِّر الصوت: «خُذه للمكبّريَّة». وتوارى المعاون. على بعد خطوات من الطفل وأمه دار الحوار بين الإمام والجندي القائم على الحجر الأسود، «هل بلَّغتم؟».

«يا مولانا، هذا المهدي»، وتكرّرت الصيحات:

«المهدي المُنْتَظَر، محمد بن عبد الله... ظَهَر المهدي... بايعوه».

في تلك اللحظة دوَّت أول رصاصة، أفلت الزمام من مسلح مراهق، فأطلق الرصاص على الحارس الذي اعترضه.

«لا بد من تبليغ المسؤولين». سارع الإمام مبتعدًا إلى حجرته، وفاتت الطفل فرصة التعلّق به. ودبَّت الحياة في النعوش، تُذَكِّر بالنعوش التي غادرت في موت ولد كفن. رجعت لتتجسّد حول الكعبة، وخرجت منها الذخائر. دفعة واحدة شَبَّ رجالٌ من ظلال الأروقة، ما لا يقل عن الخمسمائة مسلح بقيادة ذلك الشاب الوسيم الملتحي الذي يتحرك مع صِهره المهدي بوجهه الصبوح. تسلّق المقتحمون المنائر، وانتشروا في الأروقة، وأوصدوا أبواب الحرم. مثل متاريس عملاقة انغلقت الأبوابُ التي لم تُوْصَدْ قَطُّ بوجه قادم.

لانغلاق أبواب الخارج اندفعت به أمه صوب الكعبة، ومباشرة لحِجْر

إسماعيل، الجزء المفتوح من الكعبة بسور مُدَوَّر. انحطّت به وتمامًا تحت ميزاب الكعبة حيث لاتُرَدُّ دعوة:

«نحن الآن تحت ميزاب رحمة الله، لا فزع ولا خوف، اسجدْ واطلب، منك الأمان يا رحمن يا رحيم». سجدت ملصقة جبهتها لبرودة الرخام ودفعته ليلصق جبهته.

حين سجد الطفل لم يعد هو الجسد الملتصق بالرخام، انفصلت روحه ورجعت إلى عمر الأرواح القديم، صارت روحه ترقب الحوادث ببصيرة لا يمكن تفسيرها لطفل، ترقب الحرم من علوها في الفضاء.

عبر الهاتف جاء الأمر للإمام السبيِّل بالمغادرة حتى لا يستغله المسلحون في تثبيت دعوى ظهور المهدي. كانت المغادرة مستحيلة ومحفوفة بالأخطار فقد وقف المسلحون على كل منفذ معروف للحرم، يترصّدون المعترضين بالقتل.

احتار الإمام محمد السبيِّل كيف يغادر، ثم من نافذة حجرته القصية انتبه الإمام لسيل حجاج إندونيسيين يتسربون من نفق وحيد، النفق الذي تسلكه عربات النظافة إلى خارج الحرم. أدرك الأمام أن المسلحين يسمحون فقط للحجيج بالمغادرة، ويستبقون أهل مكة كرهائن مُطالبينهم بتقديم البيعة للمهدي، ولاستعمالهم كدروع بشرية للضغط على الحكومة السعودية.

ألقى الإمام غترته على كتفيه، وترك كوفيته على رأسه، متماهيًا بقامته القصيرة وجسده النحيل مع الحُجَّاج الآسيويين، وغادر تحت أنظار المسلحين الحادة.

«دخيلكَ يا الله»، انشقّت التنهيدة بصدر الأم في سجدتها، ورجعت بروح الطفل لجسده وشدّت انتباهه، فكان الخوف أبعد ما يكون عن قلبه. كلما رَفَعَ رأسَه دَفَعَتْه أمه للسجود، ومن سجدته يسترق النظر ليكشف الملائكةَ والغزلان التي سمع أنها تهبط لتطوف حين يخلو الصحن من الطائفين. يتأمل في أقدام الحُجَّاج المضطربة وأقدام المسلحين وفوهات الرشاشات، متوقّعًا لؤلؤًا أو ريشًا مكان الأصابع: كيف هي أقدام الملائكة؟

أم لعلها تطوف بأجنحتها في الهواء؟ يستغلّ تطويل السجود ليغفو، لم يجرؤ فيُبلغ أمه بأنه لم يحافظ على وضوئه، هَبَّةٌ من دُهن العُودِ والعنبر خدَّرته.

«الله ينزل من سمائه ويجالس المريض والمكروب ويُخفِّف عنه، قل: يا الله جالسنا في هذا الفزع ونجِّنا». تهمس متمتمة في سجدتها ويرى عين الله تنظر إليهما.

لم تسمع أمه صوت الطلقات، فقد استقرّت الرصاصة الأولى في رأسها قبل أن يصلها صوتها. ارتفعَ رأسُ الطفل من سجدته، ارتعد حين وقعتْ عيناه على بقعة الأحمر تتوسع حول رأسها الساجد. في نصف انحناءةٍ تجمَّد الجسدُ الصغير، ليس في قاموسه ما يُفسِّر هذا الدم. ليس غير الذهول الفطري البارد الذي يشلّه عن الحركة، في نصف انحناءةٍ تسارعتْ كهرباءُ دماغه لاستيعاب المَشْهَد، زخَّةُ طلقاتٍ بعثرتْ سربَ حمامٍ حولَ الكعبة وفجَّرتِ المزيد من رؤوس الرهائن، وتعدّدت بِرَكُ الأحمرِ. شقَّ الفجرُ شريحةً من بياضٍ على خَطِّ الأفق، يخفيه سوادُ جسدِ الكعبة. خُيِّل للطفل أنه يحلم، كان من العسير على الطفل وقف ذلك الحلم الذي لم يكفّ يتمدّد. المرأة التي جاءت به للحرم لا تزال تُصلِّي كما ارتسمت في وعيه منذ ولادته العسيرة، حين خرج من الرحم لتستقبله في شرشف صلاتها ومصحفها تقرأ وتنفث. رويدًا رويدًا كانت عروقها تهمد وتبرد، أكملت نزعها، في مرحلةٍ وَمَضَتْ برأسه فكرةُ أن يعبرَ المسافةَ التي تُمطرُ رصاصًا ليرجع بحفنةٍ من ماءِ زمزم، يسقيها لأمه فيتلملم الأحمر ليضخ في عروقها من جديد.

من دون أن يستدير، برأسه مُتصلِّبًا في نصفِ سجدةٍ، تَأمَّلَ المسافةَ بين حِجْرِ إسماعيل والبئر، قَاسَها ألف مَرَّةٍ في رأسه، الكثير من الأجساد راقدة في بياض الرخام في بِرَكٍ من الأحمر، كم بِرْكَةً سيتخطَّى ليصل البئر؟ وحين يعبر بالماء كم رأسًا مثقوبة ستقاطعُ رحلتَه تطلبُ شربةً؟ أعاد القياس حين هبط ليلٌ آخر، فلم يغمض له جفنٌ ولا انحطَّ من نصف سجدته تلك.

ذهول إضافي لَفَحَه حين بدأ الدوي والمدرعات تحاول اقتحام الأبواب العملاقة. فكَّرَ أن يجرَّ جسدَ أمه، يرفع ثوب الكعبة الأسود ويُلْصِقُ رأسَها للحَجر الذي هبطت به الملائكة من الجَنَّة استرجع كلَّ معجزاتِ الكعبة -التي حَشَرَتها جَدَّتُه برأسه- ليعثر على معجزةٍ واحدةٍ صغيرة تلحم الأحمر ليجتمع لجمجمة أمه وقلبها تحت ميزاب الكعبة حيث لا تُرَدُّ صلاة. لكن يتذكّر بأنه على غير وضوء، فكيف يُصَلي.

لا يعرف كم من الزمن مَرَّ عليه، كم من ليل ونهار هبطا على المشهد، ودائما على خلفية من التأثيرات الصوتية، لزَخّاتِ رصاص لا تسكت. مر اسبوعان بطول دهر من الحصار وتعطّلت الصلوات بقبلة المسلمين وضج العالم الإسلامي بالاحتجاج. أخيرًا استصدرت فتوى بإباحة إخراج المسلحين بالقوة. المدرعات صارت حقيقة، هجمات بقنابل، أُحبط أكثر من هجوم لكسر شوكة المعتصمين، سقط جند الحرس الوطني مثل الذباب تحت رصاص القناصة المتمركزين في المنائر وأسطح الحرم. اسودَّ الأحمر حول رأس أمه، في ذلك السواد لم يعد الليلُ قاتمًا كفاية، رغمَ قَطْعِ التيارِ الكهربائي عن الحرم، صار لليل بياضٌ ينبعث من قلبه، وكان جسده يفرغ من حيوياته، الجوعُ بدأ كعضة تقصمه لنصفين، ولفرط الألم استحال لخدر. لم يعد جائعًا، صار خفيفًا، يطفو فوق الجوع.

لا شيء فيه ينبض أو يتوسَّع غير فكرة: «كيف يعبر إلى بئر زمزم ويرجع لأمه بحفنة ماء؟». قناعةٌ عمياء فطرية تفجَّرت فيه بأن شربةً واحدةً كفيلة بتبديد بقعة السواد حول سجدة أمه!

تمسَّكَ بتلك القناعة حتى حين كانت الرصاصات تمرقُ خلف أذنيه، وحتى حين أصمَّتْ قعقعةُ الرشاشات المآذنَ، وحين صار الليلُ يتطاول فلا يطلع من ذيله نهار. لم يفقد إيمانه بأن ما بينه والرجعة للحياة ليس إلا شربة ماء يسقيها المرأة التي جاءت به إلى هذا الميزاب، لكن ومهما نَظَرَ لم يعد لقدمي النبي إبراهيم من أثرٍ. لكأنه غَادَرَ تاركًا الحرم للمتحاربين يفضّون في صحنه خلافاتهم.

جَرَّبَ أن يركض إلى البئر مَرَّات.

المرَّة الأولى حَبَا حتى انتصب، في خطوته الأولى خارج الحِجْر أمسكت بكاحله ذراعٌ، وأدرك أنه قد داسَ في سجدةِ رَجُلٍ مُتَخَشِّب.

المرَّة الثانية لاحقتْه رَشَّةُ رصاصٍ وأسقطت من على الأستار صفوفَ أجسادٍ كانت متعلّقة تستجدي.

وفي مرَّةٍ شَعَرَ بيدٍ كبيرة، مثل يد الله التي تُحدِّثه بها أمه. يدٌ يُمنى ظلَّلتْه تحت مطر الرشاشات وأرجعته إلى الحِجْر، وبقيتْ فوق رأسه حين صارت وحشةُ أمه لا تُطاق.

آخرُ محاولاته لِجَلْبِ شَربةٍ من زمزم كانت أكثرها جرأة، لا يعرف متى انطلق، لكنه وَجَدَ نفسَه على سلالم البئر، وحين تَدَفَّقَ المسلحون بلحاهم الطويلة الشعثاء واعتصموا ببئر زمزم بصفته آخر جيوب المقاومة، دفعوه بين أقدامهم كجثةٍ ليتدحرج على سلالم البئر، وقامت أجسادُهم سدًا بينه وبين دخوله. تَنَاوَلَ طاسةً خاوية إلا من قطرة. زَحَفَ بها، لا لم يكن يزحف، كان أخف من أن يزحف، كان مثل ورقة تطيّرها مراوح الطائرات المروحية. ذراه الفزع الأكبر، وبعنادٍ تحت سُحُب قنابل الدخان التي أطلقها المهاجمون من الجند، والمظلّيون الذين بدأوا يهطلون من السماء، حوَّمتْ طائراتُ الهوليكوبتر مثل طيور خرافية ترسل من أجوافها بشرًا مُقَنَّعين تبرق عيونهم الزرق والخضر كعيون الشياطين عازمة على الانتصار ولو بالدمار، يغطّون الصحن بطلقات رشّاشاتهم قبل أن يلمسوا الأرض، ويطلقون أوامرهم برطانة فرنسية وباكستانية. انطلق يركض محلقًا على المشهد حين بدأ ضخ مياهٍ في الأروقة والألف خلوة أسفل الحرم. كان يقف على مرمر الصحن المُقَدس بينما يشعر بأحشاء الحرم تحت قدميه تتضخم بالمياه، والتقط جسدُه أولَ شرارةِ كهرباءٍ اندلعتْ في ذلك الماء، صعقات كهربائية مصحوبة بغاز سام ساقت المسلحين من اعتصامهم. مئات الجثث طفت فجأة تسبح حوله، وأمه لا تزال في مكانها تنتظر، وهو مصرّ يركض في ذلك الجحيم متمسكًا بالطاسة، حتى لم يبق

بين شفتي أمه والطاسة إلا أن ترفع رأسها وتتلقاها، عندها طارت الطاسة بتلك الطلقة، وسجد برأسه يأسًا ملامسًا رأس أمه.

يجزمُ بأنها لم تَمتْ إلا حين سكتتْ آخرُ رصاصةٍ للمحتلِّين، حين انفتحت الأبواب العملاقة واندفعَت المصفحات والجُندُ في الصحن لتطهيره من المحتلين. تضخَّمت في سمع الطفل قرقعة الأجساد المتحطِّبة والتي أخذت تتهشم بين أيدي الجند بينما قاموا بتقليب الجثث. لحظتها فقط انفصلت قلوبُ الموتى عن جثثها وتركتْها تتعفَّن، وكانت الأيدي تجمعُ الأجسادَ من عَظْمٍ ولحومٍ مهترئة وتُلقيها في شاحناتِ الجيش الكاكية.

لمح جسد أمه في مكانٍ بين تلك الأكداس. حين فاحت تلك الرائحة حارقة سَمَلَتْ قرنيّتاه وأخذ دمعه يسيل كاويًا. لا يعرف بمَ ارتطم جسده، وكم مَرّةً سَقَطَ، وكَمْ ليلًا ونهارًا قَطَعَ، لكنه انتهى ملتصقًا بجدار يفوح بريحان. مثل برغوث تشبَّث جسدُه بجفافِ حجارةِ الجدارِ ورائحةِ ذلك الريحان وغابَ عن الوعي وانقطع به الحلم.

على جدارِ دار السردار بالمُدَّعى وأسفل شرفة سُكَّرِيَّة عَثَرَ عليه عباسُ ابن السادسة وحفيد مصطفى السردار.

عباس الذي أقبل من جهة الحرم يركض حين سدوا عليه الطريق، وكان الصغار قد انفلتوا مستطلعين بعد أن خضعوا لأسبوعين لحصارٍ خانقٍ في البيوت خوفًا من رصاص القنّاصَة الذي استهدفَ دائرةَ الأحياءِ المُحِيطَةِ بالحرم.

طوال أسبوعَيِّ الحصار شحَّتِ الأرزاقُ في البيوت بما فيها بيت السردار بعشرات الأفواه التي يؤويها ويُطعمها. ولم يكن بوسع أحد الخروج لتأمين الأرزاق خوفًا من أن يلحقهم رصاص القناصة، فلم يكن أمامهم غير الفول والعدس التي كانت مخزونة لتُجّار الأرزاق بقبو خلف البيت. هريسة الفول بلا سمن للإفطار، وحساء العدس للغداء، وجبتان لليوم فقط. وتيبّست بطون الأولاد، وحرّضتهم الغازات المتجمّعة بأجوافهم على العنف،

وتصاعدت شجاراتهم، وصاروا يتصارعون في مخابئهم بحجرات البيت التي تحوّلت إلى قنبلة موقوتة بغازاتهم، وتفاقمت نوبات الفتاق على عباس، وكان يبكي ليل نهار وتُهدهده سُكَّريَّة بمسلوقة الريحان. يجأر ليل نهار ويسقط في غيبوبات ألم، يفيق منها بكوابيس تطارده حتى في صحوه، ويثير سخريةَ أنداده بهذيانٍ عن أسلحةٍ وجثثٍ تُحاصره.

يوم نهاية الحصار بَلَغَ تَوَرُّم الفتق ذُروته، وبَرَزَ في كيسٍ بموضع سُرَّته، وحين اندفع الصغارُ إلى الحَرَم للفرجة افاق من غيبوبته ورَكَلَ كيسَه واندفع خارجًا. لحقت به سُكَّريَّة للدهليز:

«الله يرضي عليك لا تخرج، لا ينفجر فتاقكَ ويقتلكَ».

لكنه تَمَلَّص من يديها وخَرَجَ يطلبُ مساحةً للتنفس وللفرار من ذلك الكائن المسخ الذي يتدلّى من سُرَّتِه، هزيلًا أقرب لشبح سَقَطَ أكثر من مَرَّة ولم يتراجع مُسَاقًا بقوى تفوق قواه للّحاق بأنداده. حرص على أن يتخفَّى في جَبَّته المصرية الفضفاضة لكيلا يلمح رفاقه فضيحة الفتق المتضخّم، فكان يمشي مُباعِدًا بين ساقيه كمختون، ولم يدرك الأولادُ سِرَّ مشيته تلك:

«علامك ماشي مشية الغراب؟».

للمحة سمَّرتْه صيحاتهم، وأمامه امتد المَسْعَى بالموت وروائح الجثث:

«هيا، سابقنا على المسعى، نستشكف، العسكر يلعبوا لعب بالجماجم والكراعين». لكنه رفض الاستجابة.

«هيا، قبل أن ينظّفوا الأروقة من الجثث وتفوتنا الفرجة».

تَصَاعَدَ غيظهم حين لم تنجح أوامرهم في تحريكه. رفعوا مستوى التحدي،

«الرجل مَنْ يدخل من دون أن يلف غترة على خشمه».

حين لم يستجب أحاط به الصغار ليصبّوا خوفَهم المكبوت في جسده، «طبعًا باهَبَل ميِّت في جِلده من الخوف. هيا أتحداكَ، لو دَخلتَ أوّلنا ننسى أنكَ باهبل».

ابن عمه يونس كان يقودُ العصابةَ، وأغاظَهم ذهوله. دَفَعَه الأولادُ فسقطَ

على الأرض وانكشفَ كيسُ الفتق القبيح. الفزعُ في أعين الأولاد لم يلبث أن انقلب لضحكات هستيرية يُؤجِّجها مشهدُ الموت يترقّبهم من بين أروقة بيت الله:

«باهَبَلَ حُرمة حُبلى، وعن قريب يدخل في وجع النفاس ويجيب لنا واحد هَبَل صغير على شكله، يلعن شكله».

«باهبل حُبلى، يلعن شكله».

زَعزعتْه السقطة وضَرَبَتْه نوبةُ ألم، شَعَرَ بروح تتفجَّرُ طالعة من سُرَّته.

«هيا، فَارِقْنا، الحرم والجثث للّرجال، وأنتَ روح تسعفك دَاية بين الحريم تُوَلِّدَكَ».

خلّوه وراءهم، وبدأت الأرض ترتج تحت جنازير السيارات المصفحة بينما تُقْلِعُ مبتعدةً مع نهايةِ الحصار. تَرَاجَعَ، في هذيانه، رأى البيوت القديمة حوله ترتج لتسقط على الرؤوس.

«قامت القيامة». صرخةٌ دوَّتْ وفجّرت برأسه فزعًا مهولًا، نسي معه ألمه الذي لا يُطاق، فانطلق يركض فرارًا من القيامة، ومن مقدماتها في تلك العفونة المُغَيِّمة مع الموت على الحرم. مصعوقًا يركض قادتْه قدماه نحو رائحة العطر. رائحة ريحان شُرفةِ عَمَّته سُكَّرِيَّة، خاف أن تُطْبقَ القيامةُ عليه في بيتهم فتجنّب الصعود. بتلقائيةٍ سار في الزقاق الذي تُطل عليه شُرْفة سُكَّرِيَّة، خطوة في الظِلِّ وضَرَبَتْه نوبةُ ألم أعنف، غشيتْ عيناه وشَعَرَ بماءٍ يتفجَّرُ من فتقه، وللمحةٍ غَيّبه الألمُ عن الوعي. مُتَرَنِّحًا تحت الشُرفة وَقَعَ مُرتطمًا بعنفٍ بجدار بيتهم، وانبثق شيءٌ من سُرَّته وملأ جمجمتَه بالدخان. لم يكن دخانًا بقدر ما هي فقاعة انشقَّتْ من سُرَّته وسَكَتَ الألمُ فجأة. أمامه مباشرة وتحت قدميه ارتمى منقشعًا له جسد ذلك الولد المُعَفَّر والذي يشبهه تمامًا، ولد هو نسخة منه تمثَّل له خارجًا من ورم الفتقِ الذي انفجر ملتصقًا بالجدار كجثةٍ لَفَظَتْ آخرَ أنفاسها. للوهلة الأولى فكَّر في الفرار، لكن ضعف الجسد الشديد وعجزه وسكينته استوقفَه، ولم يكن يتحرَّك أو حتى يتنفس.

«باهَبَل»، الصوتُ في رأسه دَفَعَه لِمَسِّ ذلك الرأس، انقلبتْ معدتُه للشَعْرِ المُلَبَّد بلزوجةٍ، تَرَكَ شعرُ الولد على إصبع عباس لونًا أحمر أوقف قلبه. لَوهلةٍ مَاتَ بسكتةٍ قلبية مع الولد الصغير، واستسلم للموت فزعًا. من الأعلى، من شُرفةِ عَمَّته جاءتْ هَبَّةُ ريحانٍ رَكَلَتْ بقلبه وانتشلتْه مع قلب الطفل الذي يشبهه. انشقَّتْ عينُ الطفل محدِّقةً بعباس، وبدا خفيفًا مرحًا لَا يهتمّ بالموت ولا بالفزع الطالع من أرض الحرم. لم يعرف عباس ما يفعل وكان واقفًا بين الجسد والنجاة. تلقائيًا استلمَ جسدُه الزمام، تقدَّمَ آخذًا نِدَّه الطفلَ بين ذراعيه كما تفعل عمَّاته بجسده، ضَمَّ رأسَه المُتَلَبِّد بالدماء لقلبه الذي تسارع بجنون مُدَوِّخ.

«لا تخاف، أنا لقيت فيك نفسي». لم تبلغْ الكلماتُ الطفلَ بِقَدْرِ ما بَلَغَه تَسَارُعُ قلب عباس الذي هو نسخة طبق الأصل عنه.

حين سَكَنَ فزعُ الجسدين وتراختْ دقَّاتُ القلب الواحد، هَمَسَ عباس: «أتعرف اسمكَ؟»، ولم ينطق الطفل. ومَرَّ عليهما وقتٌ، وتَأَكَّدَ لعباس أن الطفل أخرس.

«ما لك اسم؟!» ومَرَّ زمن.

«لا، لكَ اسم»، واختار له أحسن ما وقع في ضميره عن نفسه، أحسن الألقاب التي يحتمي بها من عسف رفاقه. «أنت نوري اللي أشوف به اللي أحبه».

وظهر «نص لسان»، انساقا له حين قادهما بحنانه إلى بيتهم. في الدهليز التقيا الإسطنبولي زوج عَمَّته نورية خارجًا. وَقَعَتْ عينُ الرجلِ على الطفل، وميَّزَ الدم في ملامحه، على الدم في ملابس عباس:

«أصابتك رصاصة طائشة من الحرم؟».

وانبعث للسؤال صوتُ جَدّه مصطفى من المجلس:

«خير؟! خلاص خرَّجوا الشياطين من الحرم؟ وطهَّروا بيت الله من الدم؟ الله يكافيهم ثلاثة أسابيع عطلوا بيت الله. ها؟ حرَّروا الرهائن أحياء؟ وبنتنا؟ في أخبار؟؟».

لم يُجبه أحد، لم يكن بوسع الإسطنبولي رَفْعَ بصره عن الطفل عباس. تَقدَّمَ مُتحسِّسًا رأسَه بحثًا عن إصابة، غير مدرك أنّ الدم ينبثق من موضع الفتق بسرّته. «مجروح؟». كان الفزع في عينيه، وبقي صامتًا.

«أظنه خائف، لا أظن أنه مجروح». لكن مداخلة «نص لسان» كأن لم تكن.

«موجوع؟ ورّيني، فين؟». واجهه خيالُ الطفل المصفرّ، مثل وجوه الجثث والأسرى الخارجين لتوهم من الحصار في الجوع والتعب. في شحوبه وتلاشيه بدا كوليد مُلَطَّخ بدم الولادة.

حين تبرع الإسطنبولي لحملِه إلى المستشفى للكشف عليه وَاجَه حيرةً أكبر.

«العسكر يقولوا: أولاد طلعوا من حصار الحرم أيتامًا مُقَطَّعة أطرافهم ومُسَمَّمة دماؤهم، وكل أهلهم الرهائن راحوا فطيسًا، وما في دليل مَنْ ابن مَنْ، ولا الدم دم مَنْ، الطاسة ضائعة».

خارت ساقا الطفل تحته لرؤية الزِيِّ العسكري الكاكي مخلوطًا برمادِ زِيِّ الأطباء بغُرفةِ العملياتِ وأخذ يهوي. والْتَقَطَه الإسطنبولي المهيب في ثيابه البيضاء، وغاصت وجنته المتلهبه في حريرِ الصديري اللاس. غاص ذلك البياض والحرير عميقًا بوعي الطفل، ثبتت سلامته الجسدية ولم يسمح ازدحام المستشفى بفحص سلامته العقلية. وقام الأطباء بلحم موضع الفتق كأن لم يكن.

كانت الشاحناتُ لا تزال تغرفُ الجُثثَ من الحرم وتسري إلى أسفل مكة، صوب بئر ياخور، ورجفةُ جنازيرِ المُصَفَّحات والدبابات تسري بالعظام وتُخلخلها،

«لا تلحّ وتكرِّرْ بأنكَ محبوس في الحرم، وقتلوا أمك؟». لا تطرف عينُ الطفل جاحظةً تُلاحقُ الشاحنات الزاحفة بأكوام الأجساد، هولٌ في نظرةِ الطفلِ شَكَّكَ الأسطنبولي بأن عقلَ الولد قد ذَهَبَ مع تلك الجثث.

«اَلله يرضى عليك، لا تكرِّر بأنك لا تعرف لكَ أبًا، هذا غير حقيقي، هو

خوفك يصور لك هذا الوهم». مُحَاولاتُ تذكيره بأبيه وأمه وأهله، طمأنة عباس استنزفت جهود عبد الجليل الإسطنبولي ونورية، اللذين عزلاه عن شفقة العائلة،

«الولد يرطن، ويقولون رطانة فرنسية. لبسه جِنِّي من الكوماندوس الفرنسيين الذين نَطّقوهم بشهادة لا إله إلا الله، لأجل يدخلوا الحرم ويضخوا الإرهابيين بالماء المكهرب والغاز مثل الفئران من الخلاوي».

سمح مصطفى السردار لنورية باستضافة الطفل المقجوع عباس في قصر نزهتها للنقاهة بعيدًا عن آخر فصول الموت حول الحرم، وعن شراهة صغار العائلة والجيران الذين حضروا للفرجة على القصاص بباب السلام وظلوا لأشهر يروون أدق التفاصيل عن الرؤوس التي تطايرت، ووقفت على ذقونها في التراب وتفجّرت عيونها مبحلقة فيهم بتحدٍ! يقلّدون بتلذذ شهقات الفزع والتشفّي التي ضربت جموع المتفرّجين، ولسان السياف الذي لعق الدم بعد قطع رأس جهيمان قائد المعتصمين. اللسان -مثل منديل- كما صورته أخيلتهم، والذي ظل يقطر دمًا حتى توارى السياف في سيارة الشرطة.

تفاصيل تتضخّم ويترقبون رجعة عباس لصب كوابيسها بقلبه المضطرب.

«الولد مقتنع بأنه يتيم، الولد يكلم نفسه، كلامه وكوابيسه في صحوه ومنامه عن أم اخترقوا رأسَها برصاصة في مجزرة الصحن، وعن ولد خفيف يطلع له ويرافقه. وأخاف إن حكاية الولد اللي طلع له تفقده عقله».

«حكمة من الله أنه وضع الولد في يد الإسطنبولي الذي غمره بحنانه».

«ويمكن نقمة، لأن نورية استلمت الولد. تبنّت خطرفته، جَسَّدتْ جُنَانه، أقنعته أنها تشوف معاه نوري وأنها تبنّته قرّة عين. شال نوري الكوابيس وخَفَّف عن عباسٍ، حتى استسلمت العائلة للعبة عباس ونوري، لأن في الالتحام بينهما تغلّب نوري على ضعفه وفجعة الحرم، وشُفِيَ عباس من فتاقه».

فضيحة بألوف وألوف

جذب زمّور السيارة النساء للنوافذ والرواشن، في الأسفل كانت مُظاهرة، أطفال ورجال المدَّعى يلحقون الرولز رويس الفخمة التي شقّت طريقها بين الزحام لتقف في أقرب نقطة لباب السردار. سدّت السوق ولم يعترض أحد، الكل يتحسّس جسد الرولز الصقيل وجناحيها المنفوخين كبطة:

«شوفوا الفاجرة نورية جالسة جنب عبد الجليل، والطرحة طبقة واحدة على وجهها، وحُمرة شفايفها كأنها آكلة كبدة، فاقعة في عيون الرجال».

انتبهت البنات لعبد الجليل في مقعد السائق يسوق بيسراه ويلف ذراعه اليمنى حول كتفي نورية فخورًا بجلستها إلى جواره.

ظهرت نورية في السطح متورّدة الخدَّين، متقطعة الأنفاس من قفزها السلالم:

«شفتوا، حبيب قلبي اشتراها باسمي، رولز سلاطين».

وقفت سُكَّريَّة ترقب بصمت، بينما مضت نورية تحكي لهم قصة ترحالها بين بيروت وإسطنبول:

«والله في بيروت البنات لوز مقشَّر»، وتعرض عليهن كومة صور، «لكن الإسطنبولي ما أزاح عينيه عني، يقول: أنت يا نورية سلطانة قلوب، تفتحي القلب وتتربعي. انت قلب وقالب».

تضحك البنات بين السخرية والغيرة، «يعني فاجرة».

تصدمهم بدرية بعباراتها الفَجَّة: «خليكِ كده رأسِك صخر، ولسانكِ زفر، يا بنت الغرام فَن، وأنا الله نَزَّله في قلبي، زي العود المُبْتَلَى بأوتار... ممكن تقولي للأوتار لا تنهزّي لدق الريشة؟»

«بس يا نورية شوفي زنودك وسيقانك وصدرك في الصور، دي موضة ولّا تقليعة؟ يقلّعوك الثياب». قَرَصَتْها نورية:

«اصبري لحين تشوفي الفستان هديّتك، كتف آه وكتف لأ».

ظهر السردار الكبير وسط الحماسة التي انفجرت حول حقيبة الهدايا التي وَضَعَها «نص لسان» أمامهنّ وبدأ ينثر منها الثياب. حماسته تفوق حماستهن للثياب الأنثوية:

«قَفِّلْ يا ولد هذه المسخرة ونزِّلها الدهليز ارميها في وجه الديوث الإسطنبولي».

وقف الهواء في الحلوق، وجحظت أعين البنات. بهدوء وحسرة لملم «نص لسان» الثياب مغلقًا الحقيبة.

دفع نورية بعيدًا حين اقتربت لتقبيل يده:

«وإنتِ، أنا أعرف أربيكِ. زوَّجناكِ نسترك رجعتي لنا بفضيحة، أنا طردته وحرَّمت عليه يوقف علينا». شَهَقَتْ نورية. فأضاف: «والله لو سمعتْ لكِ نَفَسَ أكسر وجهكِ، واحبسكِ في القبو ما تشوفي وجه رَبِّك».

تناثر الدمع من عيني نورية، وارتعدت البنات، وتململت سكينة لا تعرف كيف تصدُّ العنف المتجمِّع في الهواء.

تحرَّك السردار صوب السلالم: «قال عبد الجليل قال، هالجليل تيس ما يعرف يشكم حرمة، نَصَب بنتنا في سيارة وزنها ذهب يزغلل بيها عيوننا، إيه تتناقل عنا الناس، مناسبين مُحْدِث نعمة؟».

على باب الطريق وَقَفَ عبد الجليل بالكاد يحبس دمعه، حائرًا لا يعرف يستجيب للطرد أم يبقى، وقلبه لا يطاوعه. أقبل على السردار لتقبيل يده ما أجّج غضبه:

«لا تخلِّيني أحلف وأحرمك الوقفة على بابي بعد الآن، أنا يدي واصلة وبالكاد رَادَّها عنك، قادر أسلط عليكَ من يسيِّل دمك ويغسل نسبنا منكَ».

«دمي فدا رجولكَ يا عمي، سامحني والله ما قصدت».

تمالك السردار غضبه، خافضًا صوته: «قلت لكَ ما لك عندنا حريم،

خلاص ارسل لنا ورقتها كما المُخَنَّث أخوكَ، وخلِّصونا من هذا النسب المُرجرج».

لأيامٍ بقيت الرولز رويس واقفة أسفل بيت السردار تجمع العيون والحسدَ، بينما في الأعلى حبستْ نورية نفسَها في المخلوان وأضربت عن الطعام وذوَت:

«قولوا لها تظهر حالًا على السُفرة، وإلا تتشهَّد، أرسل الصبيان يشيلوها يرموها في القبو، تورّيها الجرذان معنى الإضراب».

معروف جُبن نورية أمام العتم والموت. راقبوها تذعن وتظهر على السفرة أمام السردار المكفهرّ، ولا تستطيع أن تكبح دمعها.

«أفردي وجهك واحترمي النعمة، الباكورة جاهزة تنزِّل اللي في رأسك لرجلك، هنا في السطوح وأمام خلق الله، قسمًا عَظَمًا أنسِّيكِ اسمِك وحركات المساواة والجلسة مع الراجل كتف بكتف». تظاهرت بدفع لقيمات لحلقها، بينما أشاح عنها.

اضطرَّت نورية للتحرّك بين أخوتها مُخفية لوعتها. علاقتها بسكرية كانت غريبة، ترقبها سُكَّريَّة عن بُعد وترقب هي سُكَّريَّة في قربها وعباس، يتبادلان بصمت مشاعر مختلطة بين الحسد والشفقة والتحدّي، لا ينتقل بينهما غير عباس، تأخذه نورية لصدرها:

«تعال ادخلْ في ضلوعي وحسِّسني بطعم الولد». بدلال يستسلم عباس لضمَّتها، وتتجاهلهما سُكَّريَّة غيرةً.

«والله أنا قلبي فحمة من فراقي لعبد الجليل، ما فيه سراج غيركَ، إنتَ نوري». وتناديه بنوري إغاظة لسُكَّريَّة، تندهش سُكَّريَّة لتأثير نورية على عباس، إذ ينتعش معها ويصير أقدر على تحدي مضطهديه.

«لا حريق إلا الإسطنبولية، سواد ونزل على قلوبنا». تكتمها سُكَّريَّة في نفسها، وتترقَّب ما ستنتهي إليه تلك المأساة. تقارن بطرف خفِيّ حالتَيْهما، وهل سيخذل الحظ نورية كما خذلها؟

«حين أروح بيتي، وَعْد آخذَك معايا يا عباس يا نور قلبي المحروق، تشم هوا، بعيد عن معسكر الهجّانة هذا».

تلوي سُكَّرِيَّة شفتَيْها ساخرة: «فَشَخَها الأسطنبولي ظنَّت الدنيا سائبة؟!».

تحرص سُكَّرِيَّة فتُسمع نورية اعتراضَها:

«إذا كان عباس ولدكِ فهو نوري، ما سواه شعشع غُمّتي، وبعدين الولد يحتاج ينفش ريشه بدل ما ينتفوه أول بأول، نور عيني الإسطنبولي قادر يفتِّح عينه للدنيا».

«ما في شك، على شوفة عيوننا، أهو عَرَفَ الدنيا على حقيقتها في وقفة الغلابا اللي واقفها تحت بيتنا». يطفح الدم لرأس نورية لسخرية سُكَّرِيَّة من عبد الجليل الأسطنبولي الواقف بالسوق حاسر الرأس كالأسير بانتظار أن يعفو عنه السردار ويرد له زوجته.

«لا تعيّروه بوقفته، حَكِّمي الكتب اللي طحنتيها سفوف وسفَّيتيها، وقولي لنفسك بأمانة، هذا رجل ولا كل الرجال لا يخجله أن له قلبًا».

«فهِّميها أبوكِ الديكتاتور. ما نحن إلا متفرجين لا رَبَطَنا ولا مَنَعَنا».

تتوزَّع البنات بين مفتونة بإضراب عبد الجليل وبين شاجبة بوحي من الغيرة، ما إن يفيق البيت حتى يُسرع ليُطل على وقفة عبد الجليل بآخر السوق:

«مازال مرابطًا؟».

«ولو تشوفوه عن قُرب، صار تحت الشمس عود حاشف ناشف». يؤكد لهن «نُصّ لسان»، وتفشل تهريبات التمر التي تُرسلها له نورية في جعله يفك إضرابه عن الطعام.

انشغلت به البنات، لا يأوين لفرشهن قبل أن يتأكدن أنه هناك لا يزال، وقفته تأكيد لهن بوجود خرافة ما يُسمى بالحب تتجسّد تحت نوافذهن، ويعمِّق حسرة سُكَّرِيَّة، التي تأججت غيرتها من تعلّق نورية بعباس. دخلت

عليها المطبخ تلك الليلة، وجدت نورية تتبخر من العين التي ضربت زواجها، ويخبث:

«يظهر أقدارنا مجموعة في ربطة، وعن قريب تلحقيني مطلقة».

ارتعشت نورية: «فالك في سروالك يا بعيدة، هذا حسدكِ ضرب بختي، لازم آخذ من طرفك وأبخِّر».

وقهرتها ابتسامة سُكَّرِيَّة الساخرة: «أنا هذا غرضي، اخترعي لنا حل يفصل البختين، وتفارقي». تلهفت نورية على الحل:

«خذيها من قصيرها يا سُكَّرِيَّة، ولا تلعبي بأعصابي بإجرام الكتب المسمِّمة دمكِ».

«هي كَيَّة، ونخلص».

كطفلة سلمت أمرها لسُكَّرِيَّة، بسكين محمّاة في النار كَوَتْ كعبيهما، وطشَّت السكينة في ماء زمزم. رشته في السطوح يتبخر بالحظين، فاحت رائحة غريبة، فيها من الحسرة والخبث والغيرة.

«إياكم والتوسّط لعبد الجليل، بلا إسطنبولية بلا إسطنبولية، عثمانيين نخوليَّة». رددت الأسطحُ صرخةَ السردار تلك.

وفشلت وساطات سكينة في الناموسية:

«ياسيدي الرجل حَفَظَها مبخِّرة مشمَّرة، أصبعها لا تغمسها في موية».

«هذي مرعة، وبعدين البنت عندنا آكلة شاربة لابسة. ناقصها مين يمص لها الورد ويلَعِّب لها الكُمْكُم؟!».

تنصَّتت سُكَّرِيَّة على الرموز الجنسية في ناموسية سكينة:

«وليه لأ، أنت أشطر مَنْ يفوِّح الورد، تشربه سكران، وتقول: الكُمْكُم أُسَّ الدنيا». تلتصق به، وتلتقط سُكَّرِيَّة ما يشبه الشهقة:

«يا سيدي ارحمْ، البنت بعد زواجها ما يهنى لها غير بيتها».

«يقولوا عقيم، طاف بها على حكماء مصر ولبنان، وكلهم أكدوا أن البلا فيه».

«لكنها راضية به، وكان مستعد يأخذ إبرة عشان تخصِّبه».

«وبنتكِ بعين قادرة قالت له: لا يا حبيبي قومتك عليّ أعز من الولد! قومة أيه؟؟ والله سوَّدت وجهي، هي ضبع ومصروعة للي يركبها؟! هذا كلام يشيع عن بنتنا؟ يقولوا بنت السردار غرام وانتقام مع زوجها؟».

«يخسوا، ما يقولوا عنها غير إنها بنت أصل، وكلامها يشرِّفنا، ما رمت الراجل لعجزه، وهو حفظ لها الجميل وعابدها».

«يا سكينة هذه سوسة تأكل عقول بناتنا بحكاية الحب والمحبوب».

«يعني إذا غرضك تستر، فتفريقهم جعل كل المدَّعى تقول طيط بالغرام والانتقام». فكرة العشق بين الزوجين أزعجت العائلتين. منذ البداية رفض الإسطنبولية التوسُّط لولدهم عند السردارية لرد زوجته:

«فضيحته سوَّدت وجوهنا. يدور ببنت الناس عَلَم في الشوارع؟!! خلي السردارية يربّوه، لو تركناه مبرطع راح يخترع لنا عُرْف خارج أعرافنا».

كل كبارية مكة رفضوا توسّل عبد الجليل لهم بالتوسّط، مما اضطره للوقوف بالسوق كاشفًا رأسه منتظرًا الموت، وحين شاع خبر اعتصامه مضربًا عن الطعام غسل أهلُه أيديهم منه وأعلنوا:

«إذا نفسه هانت عليه الموت أستر له».

ولم يبق غير سكينة له وسيط. وقاومها مصطفى السردار:

«يا سكينة هذا ديوث، يسمح لعاره ينكشف».

«يا سيدي جُهَّال وفرحانين بالنعمة، تذكّر لما اتفشخرت لأهلي وركَّبتني الحصان وخليته يرقص بي في بستان الزاهر؟». تلين ملامحه:

«كان بستان مستور ونحن بين أهلنا، لكن كل المدَّعى تشوف بنتي وجهها مكشوف وراكبة في سيارة والهواء يطيِّر شعرها».

«وي وي، كَذَبَ من نَقَل لكَ، أحلف لكَ على بزورتي، دخلَتْ علينا بطرحتها، خفيفة نعم، لكن، يشهد الله لا شَعْر طار ولا شافوا منها عيب. يا سيدي ارحمْها، هذه نقصت نص وزنها وشوية يجيها لُطف، تعرفها دماغها

خفيفة وفي الطالعة والنازلة تقول مسحورة. ارحمها لا يلمسوها أهل الأرض في قهرها وتروح علينا».

صمته كان دلالة تراجع. ولم تزد.

كان قد مضى ما يزيد على الأسبوع على عبد الجليل لم يغادر وقفته أسفل المدَّعى، مضربًا عن الأكل، وفشلت محاولات رفاقه لزحزحته. يمرّ الزمزمي ويسقيه من طاسات الزمزم، ويعيش على رشفات صغيرة من الماء المبروك.

في اليوم التاسع أقبل عليه «نص لسان» ولم يعرفه، غشاوة هبطت عليه من الإضراب الطويل:

«عمّي السردار يناديكَ». لم يتزحزح، وسكتت فوضى السوق فجأة تترقب نهاية تلك الوقفة، يتبادل الباعة الغمزات واللمزات:

«إحم إحم، ياسيدي خلّي بالك، هذا جيل آخر زمن، ينتحروا عشان حرمة».

«يا حبيبي ولفوا على المرعة، شوف السيارة ثمنها يأكِّل بلد، ويركبوها تسلية، أصلهم ما ضربوا في الفلوس مِشحَاة، لقوها ملعقة ذهب في حلوقهم. لكن لا تكره لهم، آخرة البطر ربي ينزع النعمة، ضربة شمس توزّيهم الثور بقرونه».

اضطر «نص لسان» لجرجرة عبد الجليل حتى مقعد السردار. حين واجه عبد الجليل الرجلَ المخيف استردّ وعيه، فاندفع منكبًا على قدم السردار،

«عبدك وخَدامك يا عمي». رفعه السردار بهدوء:

«أول شرط، تقلع هذه البلية من قدام بابي، لا ترجع توقف بها علينا».

«وعد عليَّ، تأمرني أصبّ على السيارة بنزين وأحرقها».

«ليه، قالوا لكَ بطران؟ أنت حر تبذِّر فلوسك وتركب الجن، لكن، تحب تتفشخر إتفشخر في جدة، بلد الفنجرة. لا تظنني ثورًا معمَّمًا عن

أفعالك، بلَّغوني، حتى أهلك ما أرضاهم حالك، طالع بالبنت ونازل في صَبخة البحر، عشنا ونموت بجذورنا مستورة في المدعى». ولم يمهله لينطق، بل أكمل:

«ثاني شرط، تلم البنت بلاش فضايح، هذه حَرَمنا سلَّمناه لكَ أمانة، خليك رجل، زوَّجناك قلنا جليل ويرسّيها من شعفتها بالحياة، كون راجل واحكمها بدل ما تركبك بالمقلوب».

«يا عمي أنا مُناي أسعدها، وتقرّ عينكَ عليها وهي في عصمتي».

«يا عجيب!! تسعدها بهبالة وطرطشة السمعة!! يعني يعجبك يقولوا السردار ما عرف يربّي، البنت ما إن شمت الحرية حتى رفعت الطوق لفوق».

بعدها لم تعد نورية تظهر في المدَّعى راكبة. تأتي ماشية مع عبد الجليل، وتراقبه المدَّعى ساخرة حين يسمح لها بالمشي إلى جواره،

«يغافلنا ويمسك يدها، يا هوووه يعني ما يصبر حتى تستره غرفة النوم؟! كأن الدنيا شاردة!!».

صارت نورية تكثر من زياراتها على الرغم من الشروط التي وضعها الديكتاتور، فقد بدأت رابطة خفية تشدّها إلى عباس، الذي تعلّق بها وصار يلحّ على والده أن يسمح له بقضاء بضعة أيام عند عمّته في جدّة كلما وجد فرصة لذلك. وكان هذا يتمّ بتحريضٍ من نوريّة، التي ربما وجدت فيه بديلًا عن فراغ حياتها من الوِلد.

أبراج وبخت

مكة، 1982

ككلِ يوم، تُرْفَع سفرة الغداء وتحين ساعة الرُوْقَة. تأخذ سُكَّريَّة بيد عباس وتُدخله على استراحة عمَّاته في المجلس الكبير، فيرخين قلاليب الرواشين وينعزل المجلس في فقاعةٍ كالخيال. تسترخي ملامحهنّ فتشع بضوء شاحب يُنَوِّر المكان، تخلع وجوههن أقنعة تماسكها وتكشف عن تعبها والغضب والفرح والتَّوْق الدفين. يتمطّين على الوسائد الساتان في سراويلهن الحلبية المزمومة بالأشعار، عريضة من الأعلى وضيّقة على الكاحل، وبصديرياتهن الشفافة المفتوحة الأزارير. بحدسٍ غامضٍ يشعر عباس الطفل بإثم ولذة التواجد في ذلك المحراب المؤنث.

«هيا، أخويا صادق توّه راجع من مصر وجاب لي الأمانة اللي وَصّيته عليها».

وتضع سُكَّريَّة أمامهن آخر أعداد مجلة الكواكب معلنة:«قلتُ اليوم نتسلَّى بالكواكب». بينما تحتفظ بأعداد مجلة آخر ساعة ومجلة حواء لجلسات أخرى.

يشيع بين البنات ترقُّب، ويتحلَّقن منبطحات حول آخر عدد من المجلة. تُقَلِّب سُكَّريَّة صفحاتها ويتبادلنها للتأمل في الصور، ويتوقفن كالعادة عند صفحة الأبراج، وتنشقّ حلقتهن لتسمح لعباس ابن الثامنة بالتقدُّم.

«تعال يا واد شوف لنا البخت». يزيد شحوب المجلس بحسٍّ غامض بالخطورة يتشكّل حولهنّ، حسٌّ بتغيير وشيك يمكن أن تجلبه نبوءة من تلك الأبراج.

وتفتتح حليمةُ بإنذارِ الجميع: «أنا السنبلة».

«وَلّ عليكِ حاسة بصهدِك يلفح».

تُؤَجِّج سخريةُ سُكَّرِيَّة ضحكات البنات على حليمة التي تتمسَّك في كل جلسة بذاك البرج وتحرص ألّا تسبقها له أخواتها.

«يكون في علمكم أنا اليوم ميزان». تُعلن ميادة، فتُقاطعها حفصة:

«لا والله، إنتِ العقرب، على الفضيحة اللي وَصَّلتيها لأمنا سكينة».

عاصفة أخرى من الضحك تنفح حر المجلس بنسمة منعشة. وتمضي سُكَّرِيَّة في مشاكستهن: «يعني كل واحدة مختارة البرج اللي على كيفها؟ هي أبراج ولّا شَخْتَك بختك؟!».

«يا أختي فَوِّتي، وخلِّينا نتسلَّى، الولد عباس هذا على قولك: كله لله، وكشفه لا يخيب».

لا تنتقدهنّ سُكَّرِيَّة، وإنما تتعاطف مع إيمانهن بتلك الرُّقع من الحظ، بصفتها خطفات من الغيب على لسان عباس، لا علاقة لها بالأفلاك ولا بعلم التنجيم ولا بتواريخ الميلاد التي لم تتسجل عند ولادتهن.

جلسة قراءة الإبراج تلك ما هي إلا مجرد كشوفات تنفتح لعباس وتفتح لهن النوافذ في ذلك الركود. تغمض الواحدة منهن عينيها وتُشير بإصبعها لتقع القُرعة على برج من الأبراج، «دخيلك الحقني ببشارة أو خلِّيني أيأس واستريح». أشارتْ فاطمة فوقع إصبعها على الدلو.

أخذ عباس يقرأ لا مما هو مكتوب بالبرج وإنما من رأسه: «شخص وجيه ذو شأن يدخل حياتكِ». يرقب فرحتها بنصف عين وتجري عيناه بين أجمل الأسطر في صفحة الأبراج لتعزيز بشارته في ما لواحتاج الأمر.

«يا سلام يا سلام على الغرام اللي جاي يطربق الرواشين عليكِ يا فَطّوم!». تلفح حسرةُ أخواتها المجلس بالحَرّ.

«الله يعطينا الحظ». تتنهَّد ميّادة بحسرة.

«عسى الله يسمع منَّكَ يا عباس يا حبيبي». يقاطعهن صوت فاطمة

مستجديًا الغيبَ ألّا يُبدِّل ذلك الحظ الذي طال انتظارها له: «والله لو حصل لكَ عندي الحلاوة».

لا ينسى عباس الطبلة التي اشترتها له هدية، وكان قد قضى الصباح يحفظ صفحة الأبراج غيبًا. وكنوعٍ من الشكر على الهدية انتقى لفاطمة تلك الأسطر التي من برج الجوزاء والتي يعرف أنها الإجابة لأحلامها.

«وأنا؟ افتح لي الحظ بالله عليك، نفسي أعرف أحمل من جديد ولّا لأ؟، ومتى؟ ترى مو بعيد صالح يدخِّل عليَّ طبينة[1] يِحَبِّلها بولد».

يتذكّر عباس جيدًا قرصة بدرية التي أرسلت صفيرًا بأذنيه حين أمسكت به يتحسّس ساق ابنتها مريم. يشير إصبع بدرية إلى برج الحمل. يتجاهل عباس الأسطر التي تقول: «بالإقدام تصل لمُبتغاك، ادرُسْ خطواتك فهي الفرصة التي طال انتظارها لتحقيق أحلامك». ومن دون أن يطرف له جفن يقرأ لها مما حفظه من برج الأسد:

«تأجيل للأحلام، الظروف غير ملائمة». تتنهّد بدرية بخيبة أمل، ويكمل عباس متشفيًا: «ابحث عن بدائل تملأ بها حياتك، في مجالات مساعدة الآخرين، والتسامح مع ضعفهم».

تراقبه سُكَّريَّة واعية للّعبة التي يلعبها، يكفي أن تقارن ما يقرأه بالمكتوب لتؤكد شكوكها في أنه يقرأ على هواه: «الواد اتعلَّم الفَرَاخَة». تقولها ضاحكة أقرب للتشجيع.

لم يحدث وأن قَاطَعَتْه أمامهن، أو حاولت قراءة البخت وراءه أو تصحيح ما يؤلّفه، لأنها صارت تؤمن أنه صوت أقدارهن ينطق عنهن.

«هذا الولد كله لله». تغرس سُكَّريَّة برؤوسهنّ ذلك اليقين، فلا يقبلن بسواه للقراءة. يتفاءلن بطلعته على طوالعهم.

وحين اعترف لها قائلًا: «أيوه أعترف، العمة التي أحبها وكانت طيبة

---

(1) يأتيني بزوجة ثانية (ضرّة).

معايا أقرأ لها من الكلام الحلو، واللي ما أدّتني حلاوة أو مَصَعَتْ أذني أقول لها من الكلام الأعوج».

تُدرك سكّرية أن تلك الشيطنة نابعة من زياراته المتكررة لنورية، التي تحرص فتستضيفه كل إجازة، ويرجع منها كائنًا آخر، يحتاج وقتًا ليرجع عباس الذي تعرفه. تفشل سُكَّرِيَّة في تحديد موقفها من دور نورية في حياة عباس، وفي تلك التغيرات، فمن جهة هي تعزز حيويته وابتكاره، ومن جهة تُغَرِّبه عنها، ومن طرف خفيّ تتمنَّى لو كانت هي سُكَّرِيَّة التي تبعث فيه تلك الحيوية والجرأة.

كَيّ ودَنْكَا زَنْبُورا

لا فناء لبناء مدرسة الفلاح العريقة في حارة الباب حيث يدرس أولاد مصطفى السردار، وكانوا قد أطلقوهم للفسحة في الشارع. فجأة تقمَّصتْ عباسَ الروحُ التي تُشجِّعها نورية،تجسّد أمامه نوري يحثه على أن يقوم بحركة انتحارية لو لزم الأمر ليستجيب لتحدّي البالونات التي تنتظره في بيتهم. فزاغ من المراقب، وانطلق يركض صوب الحرم. تلكأ في سوق الصغير مُحَوِّمًا من بعيد على دارهم بالمدَّعى، رأى الحلاق حين ولج لدهليزهم كعادته كل خميس. حين أغمض جده عينيه ليسمح للحلاق بتوزيع الصابون، أشار له «نص لسان»، فاندفع كالريح مخترقًا للسلالم. يعرف هو و«نص لسان» المجلس الذي طير النوم من عيون أولاد السردار ليلة البارحة، طَيَّرَ النومَ من أعينهم الحوار الذي دار البارحة بين عمّهم صادق والجد.

«الحمد لله تم تركيب المعدات، وشغَّلناها، وأحضرت لك أول عينة». وأخرج عمُّه تلك الجلدة الحمراء ونفخ فيها فتكوَّرت وسحرت أعينهم.

«البالونات هذه بيضة الذهب، باضها لنا هذا المصنع الأول من نوعه في الجزيرة، أصبر لحين تنزل السوق، سوف تخطف عقول الأولاد».

بين المكابر والمسحور جاء تعليق الجد:

«يا صادق والله مسخرة، رجال بشنبات تنشغل بتصنيع بالونات». انفجرت البالونة فجأة وانتفض البيت. راقب أطفالُ البيت الصبيانَ يحملون تلك الكراتين الحاوية على العينات التي يخطط عمه لتوزيعها على تجار

الألعاب، خزَّنوها في المجلس الأوسط، وأغلقوا عليها، ريثما يتم توزيعها على التجَّار.

لأول مرة يهرب عباس من المدرسة، يشجعه نوري هذا الذي يظهر كلما شعر عباس بالضعف أو القهر أو الإثارة، يظهر ليحمله مثل بالونة تنفجر غير عابئة بالعقاب ولا بسخرية رفاقه. لم يستطع البقاء في المدرسة وبرأسه بالونة تنتفخ وتطيّره على سطحها فهرب راجعًا لبيتهم خفية. بهدوء تسلل عباس، يدفعه نوري، إلى كراتين البالونات ولحق به «نُصّ لسان». لم يتركا كرتونًا لم يفتحاه، لساعات مضيا ينفخان البالونات، ويكدِّسانها حولهما في المجلس، ويغرقان في بهجتها.

بصعوبة انتزع «نص لسان» نفسَه من تلك الجَنَّة الملوَّنة، عندما سمع أذان الظهر. رسم على وجهه الجدية وأسرع لمرافقة السردار إلى الحرم، وخرج عباس مغلقًا المجلس على جبل البالونات. انتظر لوقت الانصراف ليتظاهر بالرجعة من المدرسة، استقبله جده على باب الدهليز بتلك النظرة التي ضرب برقُها من عموده الفقري لركبته. ارتعد، وفارقته حيويته، ولم يتنفس الجَدُّ بكلمة، ولم يفسِّر لسكّرية تلك النظرة غير «نص لسان»،

«احشي سراويله بالخيش وخلِّيه يجهّز جِتَّتَه للباكورة، ترا سيدي مصطفى قرونه طالعة». ويرفع لعباس إصبعه بإظفره المُلَمَّع مُهَدِّدًا، «يا ويلك يا ظلام ليلك. المراقِب فَضَحَكَ، قابلناه في طريقنا للحرم، وسمعته بإذني يشتكيك». طوال الليل ظل عباس يرتجف بين ذراعي سُكَّرِيَّة.

«يا حبيبي ما يقطع الرقاب إلا الذي ركَّبها، آخرتها تشويحة بالباكورة، عشان تحَرَّم تشرد من المدرسة، أيش لعب بعقلك تشرد، عمرك ما عملتها». لم يستطع عباس أن يتهم نوري بتحريضه، نوري الذي تلاشى كما ظهر فجأة، وتركه للعقاب.

لم تُفلح تطمينات سُكَّرِيَّة في تهدئة عباس، سكتة مصطفى السردار أكثر هولًا من أي عقاب، وتَوَقَّع عباس أن تنطبق السماء عليه في أيّ لحظة.

مع منتصف الليل وفي قمة رعبه، تجسَّد له قرينه نوري المجنون يُحَرِّضه على الفرار من ذلك البيت. أغرق عباس رأسه في صدر سُكَّريَّة متظاهرًا بالنوم. مع أول خيوط الفجر انتفض كطير، من خلال الناموسية نفذت قرصة أيقظته. أكان «نص لسان» الذي نَخَسَه ليفيق من نومه، أم هو نوري نخسه في راحة قدمه، وحَرَّضه للمزيد من العصيان، وانفلت به من ناموسية سُكَّريَّة، وقاده للتواري في سجادةٍ ملفوفة بركن الطيرمة؟

كان يختنق بوبر السجادة بينما في المقعد لم يفقد الجَد صبره: «نص ريال جائزة الذي يحضر لي عباس الفرخ من رقبته».

حافزٌ أطلقَ كلَّ صغار السردارية كالنسور إلى الأسطح، يُفزِعونه بصيحاتهم لكي يخرج من مخبئه فيصطادونه.

«باهَبَل باهَبَل...»، تعاونوا على عباس وجرجروه إلى الدهليز. هناك كان الحامل التكروني يقف متأهبًا بينما يقضم ثمرة «القورو الأفريقية» التي تحوِّل شفتيه إلى اللون البرتقالي.

«مُنصِّب نفسك زيبق؟ مو عاجبتكَ المدرسة يا أفندي؟».

تَحَجَّرَ لسان عباس بسقف حلقه. وبوسط الدهليز اجتمعت العيون ترقب طقس تكفيت عباس لإرساله إلى المدرسة، «إيش اللي ما عجبكَ فيها؟ إذا غاوي تطلع زبَّال أجمع لكَ قمائم البيت وأسرِّحكَ بحمار باجابر».

باجابر معروف، يملك حوشًا في حي المسفلة لتأجير الحمير، وبحس سادي عميق يتفنن في اختيار الحمير المصابة بالجرَب لإشباع حاجة الأهالي للتعزير، حيث يستأجر الآباءُ حميرَه الجرباء. يعلّقون المُدُس والأحذية ملضومة في حبل على رقبة الفاشل من أبنائهم ويربطونه على ظهر الحمار الأجرب بلا سرج، بوجهه لمؤخرة الحمار ويطلقونه في شوارع مكة، فلا يبقى في المدينة من لا يسخر منه ويقذفه بالفضلات.

«في الفصل يدرس معنا طَنَاجير، رجال بعمر أبويا، يزاحمونني على مقاعد الفصل الطويلة، وما ألاقي لي شق، أجلس بفَرْدَة قَعر على الخشب

وفَرْدَة في الهوا». صوت نوري وكلماته العارية أوقفتْ قلبَ عباس والهواء بالدهليز المعتم. صاح غراب من شِق النور الضارب من باب الطريق. انعقد لسان عباس ولم يعرف من أين ينبثق نوري هذا ليتكلم بلسانه ويُحرجه.

«الله الله الله تسخر من الأولاد الكبار؟! احمدْ ربَّك أن التعليم لحقكَ وأنتَ مفعوص صغير ولد سبعة، الطناجير اتحرموا من المدارس ما صدَّقوا على الله تقبلهم المدارس بعد ما شابوا، وأنتَ تتبطَّر».

«الأولاد الكبار يآذوني، يمدون يدهم لـ...». شهق جمهورُ الصغار الموقوفين للعبرة. لم يعد بإمكان عباس ولا الجد إسكات الجنون المتدفق من فم نوري.

«طبعًا لما يشوفوك كده لازم يبعبصوك عشان تجمد، وبعدين لا تنسى في رجعتك اليوم من المدرسة تروح لأمكَ فورًا، تحشي فمكَ بالشطيطة التكروني على قلة أدبك وبجاحتك وبئر ياخور المفتوح بفمك». ضحك الجمع من عبارة بئر ياخور، فهو مجمع مجاري في مكة.

«علومهم تفقّع المرارة لا تهمّني، وهم ما يهمّوني». لتمرّد نوري ومواجهته للجد لمعت عيون الصغار بإعجاب لم يحلم به عباس من قبل.

«الباكورة ستعلمك كيف تهمك، ورِجْلَك على رقبتكَ». وأشار لنُصّ لسان،

«كَفِّتْه». وقف الجد مصطفى الكبير مع الجمهور المُثَار يرقب، بينما انهمك «نص لسان» يربط عباس بحبل القُمبار، وبين الحين والحين وكلما تراخى في الربط يلسعه الجد بباكورته.

«شُدْ بلا زَناوة، لا تتركه يُفرك». يضطرّ «نص لسان» لشد يديّ عباس إلى جذعه:

«لاجل يِحَرِّم الفرخ يشرد من المدرسة، قَسَمًا بالله كل ما شردتَ رَدِّيتك في زنبيل التكروني وضَحَّكت عليك المُدَّعى. قال زيبق قال!».

يطوون رجلي عباس، يغافل «نص لسان»، سيده يحل العقدة عن يد عباس اليمنى ويتركها شبه طليقة، يتردّد الصغار في فضحه، بقبضةٍ واحدة

يحمله التكروني الأسود ويضعه في زنبيل من خوص النخل، وبلا عناءٍ يرفع الزنبيلَ إلى رأسه، يختبئ عباس خجلًا من المارّة في قاع الزنبيل، بينما يسعفه في فضيحته نوري، يدفعه ليطل برأسه من الزنبيل ويحدق في المتفرجين بوقاحة. يمد لسانه متحدّيًا النظارة، ويصيح بالكلمات الممنوعة والتي لا أحد يفهم معناها: «كَي ودَنْكَا زمبوري».

يلتقط المارّة كلمة «زنبوري» التي توحي بفحش ربما لا يمتّ لها بصلة.

«زمبوري». يكررها الطفل، بينما يتجاهل التكروني سفاهته، ويمشي متخايلًا موازنًا الزنبيل على رأسه رغم الحركات المَوْجية التي يصدرها عباس مدفوعًا بنوري لإرباكه. يعبر الحرم يتبعه صغار السردارية، جوقة تردد:

«كي ودنكا زمبوري». ينفذ من جهة حارة الباب متقدمًا نحو مدرسة الفلاح، وتتصاعد شيطنة نوري الذي يملأ عروق عباس بحرارة مدوخة، يشعر الحامل بالسكون المفاجئ في الزنبيل على رأسه، وبلا إنذار يباغته البلل، يُغرقه بولُ عباس وتباغته تلك الحركة الشقية. يُلقي بالزنبيل للأرض ويركض مذعورًا، ينفض البول من على شعره الأكرت وكتفيه، وتتبعه ضحكات الباعة في صَفّي الحوانيت بمدخل حارة الباب. يسارع الصغار لمعاونة عباس على فك رباطه ويركضون معه، ثيابه المبتلة بالبول مدعاة فخر لنوري، بينما يجمد الدم تدريجيًا في عروق عباس، يُوسوس بالباكورة التي ستنهب جسده هذا المساء والشطيطة والألم اللذين لا يعبأ بهما نوري.

تلك الظهيرة، وفي رجعة التلاميذ من المدارس، انفلت سيل البالونات، تعلّقت الأعين مذهولة برواشين السردار، من كل فتحة انطلقت تلك البالونات الزاهية وهطلت على الرؤوس. تعارك الصغار والكبار في السوق لالتقاطها، حتى البنات المحجوبات فتحن النوافذ في البيوت المحيطة وظهرن بضفائرهنّ مثارات يلتقطن البالونات الطائرة. وتعالت الانفجارات والضحكات والشتائم، فرحة لم يسبق لها مثيل هطلت على سوق المدَّعى.

صراخه في مجلس البيت أرسل سُكَّريَّة هابطة السلالم تركض، تطرق الباب الموصد: «بجاه النبي محمد يا أبويا ترحمه».

استغرق باب المجلس ربع ساعة ليفتح، ظَهَرَ عباس راقدًا يبكي بحرقة على الأرض، بقدميه مربوطتين في الفَلَكة. تفك الغترة الملفوفة على كاحليه لتثبيتهما لضربات الباكورة.

«حرام عليك فَلحت رِجْل الولد، فلحت وغرست الوجع». تحمِل عباس، الذي يصيح كلما مسَّت قدماه الأرض لا يقوى على المشي بسبب الشروخ التي تركتها الباكورة. وتصعد به السلالم، يلاحقها غضبُ أبيها:

«ما أفسده إلّا دلعك هذا. ضحكوا عليكِ بقولهم: ولد سُكَّريَّة. لو ولدِك صحيح أكسري رأسه وانفضي بلاه، في الصباح يشخّ على التكروني وفي المساء يسمح لكل من هَبَّ ودَبَّ يشخ عليه. ما أحد عارف له، يصحى إبليس ويمسي ولد فيه دَهَالَة... يمشي في الشارع قطة مغمَّضَة ويجاوبهم لما ينادوه باهَبَل... الملاعين دفعوه طيّر بضاعة عمه وقلب المُدَّعى، وما هي أول مرة، كل يوم مدفوع لعَمْلَة وآكل عَلْقَة. حَرَقك قلبكِ من فلكتي؟! شوفي الضرب اللي ينزل على جثته من أنداده البطرانين، ضرب بطَّال وهو لا ينطح ولا يقول لهم إمباع».

لا تُجيبه وتستمر بغضب صاعدة به السلالم، مما يغيظ أباها:

«إيوه، أمرعيه زيادة، لو لم يتمرجل سوف يبلغ ويركبوه».

غيرة الأولاد من استئثار عباس بالبالونات تدفعهم لإغاظته، يصرخون وراءه،

«باهبَل، عقله خَبَل».

تحمله سُكَّريَّة إلى حجرتها الصغيرة بشُرفتها الطافحة بالريحان، تجلس به في حِجرها تفرك قدميه بزهر الريحان، تلمّه لصدرها وتتلو عليه: «ألم نشرح لكَ صدركَ».

تنفثها في قلبه، وتُتَمْتِم: «يا رب قلبه بحر لا يصير حَجَر». تتلو حتى يجفّ دمعه. تمسح جسده، تهمس في أذنه وتُعيد:

«أنتَ حتكون أحسنهم، أنتَ يا عبّاس حتصير أحسن واحد فيهم».
تمسح على قلبه: «الحياة وجه جنة ووجه نار، وأنا سامعتها قوية فيك، تربد. لا تخليهم يخوفوك، تبغى تتقلّب اتقلّب، تحب تصحى إبليس وتنام إسماعيل برقبته تحت سكّين سيدنا إبراهيم، أنتَ حر. ما في عذاب مثل الحبس، لما تحسّ بجناح تحت جلدك ما تقدر تفرده. باهبل هذا مقصّ، يقصّوا به جناحك لأجل يكسّحوك، وأنتَ يا حبيبي فيك بَرَكَة، أنا صدري شقّوه ورموا قلبي للكلاب وبركتك رَبَّتْ لي قلب من جديد، وبكرة تشوف كيف الدنيا تجيك، وكل جماعة المُتجبِّرين يلحقوك طالبين منك نظرة رضا».

يمرّ معجَبوه ومضطهِدوه بباب سُكَّريَّة، يرقبونه بحسدٍ في جلسته تحت قدمَيْها، يكثران الريحانَ في المراكن الجديدة من كل الأحجام، ابتداءً من علبة حليب با مجلّي -بِقُطْر خمسة سنتيمترات- وانتهاءً بصفائح السمن بطول قدم،

«لو جاك غصن بمنقار حمامة لا تقول مقطوع، ازرَعْه. لا يقَسّوك، خلّي قلبك طينة طريّة تنبّتْ حتى عود الكبريت».

انغرست تلك العبارة بالألوان والأحجام في نسيج جسد عباس. ولم تكفّ تلاحقه دعوتها الغريبة:

«يا رب قلبه بحر لا يصير حَجَر».

دُقَّة ولُبَّه وزيت زيتون أبو لَسْعَة فى آخر الطعم

مكة، 1984

انتبهَ أهل البيت لبرودة وظلال تزحف بالدهليز من أسفل الدرج،

«أهل الآخرة حين يظهروا يتحجَّبوا بحجاب، والله لو صدق ظنِّي هذا ولد كفن كامن للسردار في الدهليز». سرَت رهبة، وتجنَّب الأطفال الدهليز، يركضون في مرورهم من الدرج إلى باب الطريق لكيلا تلفحهم أرواح الميت.

«لا تستبعدوا أنه حضر يطلب يد سكرية».

ظنّوها نكتة، لكن «نص لسان» صدَّقها ورابط في الدهليز للحراسة، وخصوصًا في الفجر مُحَوِّمًا حول سيده، يقف بينه وبين الظلال التي تتراجع أمام قوة حيويته، ريثما يتوضأ مصطفى السردار.

حتى كان ذلك الفجر، حَطَّ نومٌ ثقيل على «نُصّ لسان»، لم توقظه عصا السردار تطرق أرض الدهليز في طريقه إلى الحمّام، ولا حَرَّكته القطة التي قفزت لخزانته السرية التي نسيها ولأول مرة مفتوحة، وتحت هجمتها تناثرت مباسم الأرجيلة وسقطت العمامة. تدحرجت إلى جوار رأس «نص لسان» الراقد في فراشه على الأرض أسفل الخزانة. خدَّره عَرَقُ العمامة فغرق في نوم أعمق، بينما نبشتْ مخالبُ القطة السديري بموضع القلب. وللحال تثاقلت خطوات السردار، لم ينتبه لغياب «نص لسان» الذي من عادته أن يتبعه فور استيقاظه كظِلٍّ. تدحرجت القطة بالسديري تخترق فتحة الإبط تلبسه وتتمرَّغ به. فجأة انتشى السردار بحيوية عجيبة فكان يتوضّأ بنفس خفة حركات القطة، بل ونسي عصاه في الحَمَّام، كان

يجتاز الدهليز منتصبًا في طريقه إلى الحرم. تجسّد له «ولد كفن» في هيئة ثعبان برّاق، أحاط بجسده الذي تجمَّدَ في وقفته. اتكأ على جدار الدرج ولَفَظَ أنفاسَه، طلعت روحه في بُخارٍ ملأ عينَ «ولد كفن» بالدمع بلون الفضة.

وقف السردار ميتًا هناك حتى الضُحى حين انبعث «نص لسان» من خدره. بقفزةٍ واحدة كان في الدهليز، تَعَثَّرَ بعمامة سيده التي تدحرجت أمامه وسبقته للجسد الجامد متكئًا للجدار، ولم ينحنِ ليلتقطها. سقطت فوطة «نُصّ لسان»، الشيء الوحيد الذي يستره، ووقف عاريًا. وعن بُعد سرى لجسده برد جسد سيده المهيب، بلا نَفَسٍ دنا وأحاط بساقَيْ سيده، راقبت القطةُ جسدَ الصبي الحيوي يذوب، انحلَّ في ظلال تتعرق وتخترق في عروق ساق سيده الميت.

«أبونا مصطفى».

واحد وراء الآخر هَبَطَ أبناءُ السردار وأحفاده، كل من يعبر مصطفى الكبير ويُدْرِكُ موتَه، لا يجرؤ على الإبلاغ أو مُفارَقَة تلك الوقفة. اجتمع أبناء السردارالسبعة حوله، كان مخيفًا في موته كما في حياته، يخذلهم موتُ رجلٍ جبّارٍ مثله فيحوِّلون موتَه إلى أسطورة، وهناك من يَدَّعي أنهم ولفرط هيبته لم يتجرّأوا على تجريده من ثيابه لتكفينه:

«مات في طُهْر، في طريقه للحرم». يُبالِغ بعض أبنائه بالقول، ويضيفون: «مَشَى معنا مثل ظَلٍّ يحوِّطنا حتى الحرم، صَلَّينا عليه، وسَايَرَنا إلى المعلاة. رَقَدَ في قبره وقال: هيا سدّوا الطِبَاق، وإياكم، لا أحد ينوح ويحرقني بدمعه في رقدتي».

«سِرب حمام غطّى المقبرة، هذه أرواح الموتى الذين تعهّد تربية أيتامهم، حضرت ترافقه».

ولم يفتقدوا «نص لسان» الذي لاحقه في حياته كظِلٍّ.

موت مصطفى الكبير المفاجئ أحدثَ خلخلة في صفوف أولاده،

«الله يرحمه كان أكبر ديكتاتور، مُقَفِّل على كل شيء، لا أحد فينا يعرف كم له وكم عليه، كنا صبيان في دكاكينه، والآن خلّانا بلا كبير ولا دفاتر ولا سجلات ولا عقود، صفقاته بالملايين وكلها تَمَّت بكلمة رجل لرجل، ونحن الآن مكشوفون. كل من هَبَّ ودَبَّ يحضر يقول 'لِيَّ على المرحوم'، أو 'للمرحوم عليَّ'».

نَشَبَ الخلافُ بين ولديه الكبيرين، سالم ومحمد. سالم الذي خرج من نوبة إضراب ضد أبيه يتفاخر بأن مكة هي التي ربطته وحرمته البعثة، ومحمد الذي يحلم بتوسيع تجارة أبيه إلى جِدَّة ومدن أخرى.

شَلَّت أصواتُ الغضب كاملَ البيت، تجمعوا يَتَنَصَّتون على باب مخلوان حورية السِرِّي، حيث أغلقت حورية على أخويها محمد وسالم في اجتماع تصفية:

«قلنا نفرّق التجارة بدل أن يخنق واحدنا الآخر». علا صوت سالم، وتحدَّاه محمد:

«ما خَنَقَ التجارة إلا تصميمه الله يرحمه على مجاورة مكة. سَبَقَتْنا التُجَّارُ للأرزاق ونحن في تخلُّفنا. كأن الله مُرَابِط في مكة فقط».

أنصتتْ حوريةُ بوجهها الرائق، لا تعكِّر زرقةَ وخُضرةَ عينيها جذوةُ الغضب المتصاعد بين أخويها، تاركة لهما تنفيس الخوف والضياع الذي انتابهما بالموت المفاجئ للأب. تعرف أنها المرة الأولى من أعوام يتواجه فيها الأخَوان، الجفوة بدأت بينهما عقب إجبار سالم على ترك مدرسة تحضير البعثات والانقطاع عن الدراسة، واتهامه لمحمد بالتقاعس عن إقناع أبيه في إرساله للبعثة.

«أنتَ احمل مسؤولية محلات الذهب والصِرافة، وأنا أتكفل بمشاريع العَقَار والأسواق التجارية. هذه مشاريع كبيرة وتحتاج رجلًا بَحرُه أوسع من بحر مكة يُوَسِّعها إلى مدن أخرى». قالها محمد كشتيمة لسالم، وارتعدت القلوبُ في الخارج من احتمال انفجار.

«الدنيا ما كانت كده». بلغتْ عبارة حورية تلك المتنصِّتين في الخارج،

وكانت كفيلة بتجميد أخوتها وأولادهم في أماكنهم. حورية التي لا تُعاتب، تقولها بأسى حنون يشحذهم بندم حقيقي على تجاوزاتهم. وكان بوسع المتلصصين في الخارج استشعار نظرتها التي تخترق لتصل لهم عبر الباب. يسمّونها في ما بينهم الريموت كونترول، إذ كانت تملك القدرة على السيطرة والتوجيه فقط بنظرتها من دون أن تنبس بكلمة. مَسَحَتْهما عينُها التي تتبدَّل بين زرقة وخضرة أو بلون رقبة الحمام وتعكس تموّجات شعرها.

«اشبَعْ بالأسواق وخلينا نشهد السِعة التي تنتظركَ خارج بيت الله يا ابن بطوطة».

«الأهم العقار، أبونا يملك قلب جدَّة ومكة. الصكوك بلا عدد، وأنا يهمني استثمرها، وأورّيكم المكاسب وانَعْنِش العائلة وأغرقها في الذهب».

كل منٍ في البيت شَعَرَ بقبضة حورية التي أطبقت بسلامها على يمين سالم، تُخَفِّف وطأةَ إلحاح محمد. الانكسار المحتمل بين الأخوين يُهَدِّدُ كلَّ الواقفين في الخارج، مسَّدتْ غضب سالم فتحول إلى سخرية:

«يا سبحان الله، الآن ترجع لعقار مكة!! كلامك لم يبرد، من دقيقة قلتَ إن بحركَ أوسع من مكة».

«افهموها مثل ما تفهموها، أنا بحري يبلع بلاد، وإذا جئنا للجَدّ، أقدر أشيل التجارة لوحدي، ألبس عمامة أبويا ما بفقده».

«الآن في مماته شعللتكَ الحماسة؟! نسيت سلبيتك في حياته، لو وقفتوا معايا يوم عارض أبونا بعثتي كان تغيرت أمورنا كلها، كان فتحناها وكل واحد رسم مستقبله بإيده بدل ما ترسمه يد عجوز».

وتبلغهم السكينة في صوت حورية:

«يا حبيبي كلها مقسومة. يا هارب من قَضَايا مالك رب سوايا».

«إنتَ يا محمد ما هَمّك إلا المكسب... شايفها غنيمة». يمضي الجَدَلُ حتى تفرغ جعبتَاهما من الخيبة المُعَشِّشة بينهما، لا تحسمه حورية بانحيازٍ ولا بكلمة.

«المشكلة حِصَص البنات في التِرْكَة. الخوف من القسمة وتوكيل الأزواج وبعثرة الأملاك. ونحن دخلنا هذا المخلوان ولن نطلع منه إلا حين تحسم حورية هذه العقدة بحكمتها».

تململ المتلصصون في الخارج تحت ثقل الصمت الذي حلَّ فجأة بالمخلوان، والسؤال الذي ظلَّ مُعَلَّقًا في الهواء مُوَاجِهًا لهم جميعًا كَوَرَثَة.

وَجَدَتْها ميادةُ فرصةً للتدخُّل، وكان دورها في استلام المطبخ وإعداد وجبة الغداء لذلك اليوم، المهمة التي تتناوبها نسوة البيت بمن فيهن زوجات الإخوة. تَرَاجَعَ الإخوةُ بينما تقدَّمتْ ميادةُ تفوح ثيابها برائحة العيش مثيرةً لعاب الجميع الذين نهشهم الجوع. طرقت على باب المخلوان بحذر:

«يا جماعة الغَدَاء جاهز»، وتلاشى المتلصصون. تجمّعوا في المجلس العلوي حيث تنتظرهم السُّفْرَة العامرة.

كانت حورية أوَّل من دَلَف من الباب لتحتلَّ موقعها على رأس المائده، تبعها محمد وسالم، ليجلس الأول عن يمينها والثاني عن يسارها. تتجنَّب عيونُ الإخوة النظرَ لملامحهما المكفهرّة، يتعلقون بصفاء وجه حورية وعنقها الشامخة، يعرفون أن لا مصطفى ولا أمهم سكينة ولا الأخوة الذكور، وإنما حورية هي عمود البيت، تظلّلهم بسلامها وحكمتها.

ذلك اليوم تجمَّعت عوائل السردار للغداء الحاسم للإرث، حتى نورية حضرت وكانت خوفًا من الموت قد غابت عن تكفين وتشييع أبيها. اصطفَّ عشرات من أبناء الإخوة والأخوات حول السفرة الممتدة بطول المجلس. وقبل أن يسمّوا باسم الله ليبدأوا، تناولت حورية تُفَّاحةً من صحن الفاكهه الطارف وقالت:

«تمهلوا!»، والتفت الجميع إليها. بهدوء قامت بقسمة التفاحة إلى نصفين، وأعطت كلَّ نصفٍ لأخ. فَهِمَ الجميعُ الرسالةَ، كان في تلك التفاحة حسم توكيلات البنات وقسمة الوكالة بين الأخوين اللذين تهلَّلت أساريرهما، وانفرجت القلوب شيئا فشيئًا حتى عاد الجو لصفائه، وأطلقت بيقم عبارتها التي تتكرّر كلما حان دور ميّادة في الطبخ:

«ول ول ول إنتِ دائمًا أكلكِ ملحه زايد!!».

ويناوشها المراهقون:

«ما دام العائلة مجتمعة فرصة نطرح عليكم مشروعنا، قرَّرنا ننظم فرقة موسيقية تغنِّي في الأفراح، وممكن يضرب معانا الحظ ونطلع في التليفزيون ونشهركم».

تشرق خضرة عين حورية بابتسامة، لم تكن تحب الثرثرة، كلمات وجمل معدودة تحفظها عنها العائلة من صغيرها لكبيرها:

«ناقص على الشُخْنُق بُخْنُق وعلى الكلب صَرْمُوجَه! انتو جدكم الحادي عشر كان يحكم مكة». لصوتها فرحة وفخر بهم يمسّ قلوبهم، تُنَغِّم الأمثال المندثرة. لا أحد يدرك معنى الشخنق ولا البخنق ولا الصرموجة... لا يفهمون من كل تلك الألغاز إلا أن ما سيُقدِمون عليه يُعَدُّ نقيصةً بِحَقِّ العائلةِ التي حَكَمَ جَدُّها مكة.

يقول صادق: «أما أنا مُجَهِّز لكم مفاجأة. كل عائلة السردار حتقول طِيط». لتجاوبه ضحكة حورية:

«يا خبر اليوم بفلوس بكرة ببلاش. يا حبايبي أنتم اليوم بعد مصطفى الكبير طيور، كل واحد يختار سماه».

وبالفعل قد، انتهت بموت مصطفى المخيف الحقبة الذهبية من تاريخ السردارية. تَحَرَّر ذكورالعائلة، وتَنَصَّبَ سالم -أكثر ابنائه شبهًا به وتعرّضًا لقمعه- ديكتاتورًا ببيت المُدَّعى.

فاتن حمامة سِنْدروم

جدة، يناير 1985

يتضخَّم صوتُ فاتن حمامة ساقطًا للطريق والفيلات المحيطة من بيت العم الأصغر صادق السردار الذي انتقل ليعيش في جدة، بانتقاله أدخل العائلة في المرحلة التي يسمونها مازحين «مرحلة التنوير»، صمَّم سطح بيته ليُشَكِّل حديقةً مفتوحةً للسماء في تقليدٍ للطيرمة المكيَّة، تتعلَّق بذاك السطح أنظارُ حُرَّاس فيلات الجيران، يحلمون بقرمشة «البوب كورن» في الحُجرة التي تحضّرها لهم الخادمات الحبشيات شبيهةً بقاعةِ سينما مُصَغَّرَة، تتصدَّر القاعةَ ملاءةٌ بيضاء مبسوطة على الجدار كشاشةٍ للعرض، وبآخر القاعة تربضُ آلةُ عرض الأفلام المهيبة.

يرقب الحراس بحسرة بكرات الأفلام في أكياسها الكتان، يدخل بها ويخرج الحفيدَ مصطفى وهو الخبير في تشغيل تلك الآلة السحرية. تُهَرِّبُ لهم الخادماتُ صور ليلى مراد وفاتن حمامة، ويخفون عذوبة صوتها الذي يهطل من السطح تحت وسائدهم، يعون أن حياةً أخرى من جنة أرضية تدور في سطح السردار ولا ينجحون إلا في تَلَقّط أصواتها، ويشاركون عن بُعد في الحُمَّى التي تسبق ليالي العرض. بعطش يتلقفون المتناثر من أوراقِ الدعاية للفيلم المُخْتَار للعرض والتي يُصَنِّعها نوري يدويًا لتَتَوَزَّع على أحفاد السردار، وينصتون بحماسة للجدل الذي يدور أمامهم أحيانًا على الطريق بين الأحفاد لتنويع المعروضات. تدخل حياتهم كلمات مثل: تراجيديا، كوميديا، رومانس، آكشن، وساينس فيكشن، ويتناولون تلك الكلمات كمُحَفِّزات للحيوية.

نادي السينما المُصَغَّر هذا بقيادة مصطفى نَجَحَ في توفير عروضٍ سَبَقَتْ

توقعات المُلاحقين لآخر صيحات السينما في مدينة جدَّة، وصار العميل رقم واحد لمحلات البَلْجون التي لا يمكن منافستها في تأمين بكرات أحدث الأفلام الهندية والمصرية للأجرة، وحين تصير زبونًا معروفًا مثل مصطفى السردار يفتح لكَ العاملُ اللبناني أنطوان مكتبةَ الأفلام المُهَرَّبة، أو النسخ التي لم تخضع لمقص الرقيب.

ذلك الصباح كان أعضاء النادي العائلي قد يئسوا من قدرتهم على توفير المئة وخمسين ريالًا أجرة بَكَرة الفيلم، وكالعادة لجأ الأولادُ لحجرة العمّات مستنجدين. سارع عباس بالكاد يلتقط أنفاسه مخاطبًا عماته بدرية وحليمة، بينما تقف حورية منصتة بسَكينتها المعهودة:

«يا ناس الحقونا، فيلم الشهر والله يساعدنا نفوز ونحن مغمّضين».

يدفعه مصطفى: «يا واد لا تخطف الكَبَابَة من فَمّ القِدِر، خلّيني أشرح الورطة، يا عَمَّة هذا أسبوع أفلام فاتن حمامة القديمة، مسابقة في كل نوادي السينما العائلية بجِدَّة، ونحن سبقنا الكل ورَبَّطنا الكلام مع أنطوان في محلات البلّجون، حَجَز لنا فيلم دعاء الكروان بطولة فاتن حمامة وأمينة رزق إخراج بركات. يعني لو ما دفعنا واستلمنا الفيلم تسبقنا له النوادي المُنَافِسَة ويفوزوا بأهم أفلام فاتن حمامة».

كل أسبوع يبحثون عن مساهمين، عادة يتسابقون على الأفلام الحديثة وتكون حُجَّتهم أن الفيلم سيُسْتَهَلَك متنقلًا من بيتٍ لبيت ويكونون آخر من يراه، وهذا عيب في حق ناديهم.

«من مانعكم؟»، تُسايرهم بدرية ويعرفون أنها لن تدفع قرشًا.

«كل واحد دَفَعَ المطلوب منه عشرة ريالات، وسليمان وأخوانه مسافرين المدينة المنورة ويبغونا نأجّل حتى يرجعوا، يعني تروح علينا المسابقة. وبكده نَقَصَتْ علينا الفلوس».

«يعني كم جمعتوا حتى الآن؟»، تسأل حليمة بدافع الفضول.

«نفضنا حصّالاتنا ما طلع معانا غير مئة ريال. والفيلم مطلوب بسبب المسابقة وبمئة وخمسين».

هنا يأتي تدخل حورية الحاسم وبهدوء: «عليكم بالجيب، خذوا بقدر...». تلك كانت الإشارة التي ينتظرها الأولاد، يندفعون لدولاب الثياب بركن حجرة البنات، حيث ثوب حورية المُعَلَّق، يعثرون في الجيب على الخمسين ريالًا بالتمام والكمال، يقفز الأولاد فرحًا ويقبّلون طرف ثوبها، «والله عمّة حورية وثوبها أروع من كل بطلات الأفلام».

يعرف الصغار أنه في كل بيت من بيوتهم هناك ثوب لحورية مُعَلّق في دولاب البنات، تترك لهم في جيبه هدايا بين الحين والحين، وتترك الرواتب التي تُخَصّصها للأسر الفقيرة التي تتعهّدها. دائمًا وكلما احتاجوا وجدوا في ذلك الجيب ما ينقصهم، سواءً لأجرة أفلام الموسم أو لشراء بدلة رياضة أو نواقص ترفيهية يُحَرِّمها الآباء أو لا يعترفون بها.

تضحك لاقتراحهم المعهود: «لازم نرشّحها لمنصب الأب الروحي لنادي السينما».

«يا حورية الأولاد عقولهم ضائعة في هذه الشاشة الوهم». يلومها أخوها الأكبر محمد على تلك العطايا.

«ما ضرَّ لو من الأسبوع للأسبوع يحلموا بدنيا أوسع غير هذه الدنيا؟!».

«كل هذي البلاوي من أخويا صادق اللي تفَنَّن علينا بغُرفة السينما».

ليلة العرض طقطقت جدران فيلا العم صادق بالحماسة. ما إن تضع ميادة قصعات الفُشَار حتى تتناوشها الأيدي، ويُطقطق الظلامَ بالقرمشةِ ورائحةِ الذُرَة المُمَلَّحة. تدخل حورية لتأخذ مجلسَها بآخر الصفوف، أمامها تنبسط طوّالات يجلس عليها الأولاد في صفوف، من موقعها بآخر صف تُشرف حورية على الرؤوس التي تخرج من حبسها لتحيا في تلك العوالم. سينما حورية وجوهُ أولاد أخوتها المنهمكة في الفرجة، حبكاتها هي واستجاباتُهم والدموعُ التي تطفر على وجناتهم ويخفونها بأكمامهم أو بضحكة.

إلى يسارها، وقريبًا من باب الحجرة، آلة العرض، والبكرتان تدوران وترسلان ذلك الأزيز الذي أدمنته. أحيانًا حين تغمض عينيها في وحدتها ليلًا يعاودها صوتُ لَفِّ البكرات، تشعر بحياتها تَلفُّ وتعرض عليها

أسرار البيت وأهله. تصير تفهم مواقفَ مَرَّتْ في يومها، ومواقف مَرَّتْ في ماضيها. يصير المُحْزِن والمُفْرِح نسيجًا في قماشة، ومِنْ تناقض ذلك النسيج تنتقي لثيابها التي تخيطها ولإضافاتها على ثياب الموتى التي تُجَدِّدها للصدَقة، ولكلامها، ولمواقفها.

في الظلام تسري مَشَاهِدُ دعاء الكروان، وفي مَشَاهِد مُعَيَّنَة تتوقف قرقشة الفشار، وتتسمَّر العيون:

«يا مصطفى شيل إيدك». ينفجر الجميع دفعة واحدة، ويجبرون مصطفى على رفع يده التي غطَّت العدسة، قائمًا بدور الرقيب على مشهد الحب بين هنادي والمهندس.

اكتسب مصطفى منصب المراقب بتكليف من عمِّه صادق الذي رَشَّحه بناءً على خبرته في الرقابة، ولأنه المعروف بـ(الصَامِل) لشبهه الكبير بجَدِّه مصطفى الكبير. في بدء تجربتهم مع نِعمة السينما المنزلية خضع الجميع ليده تمتدّ لتحجب العَدَسَة، ويملأ السوادُ تلك الملاءة البيضاء المُسَمَّرَة للجدار فور أن يقترب ذَكَرٌ من أنثى. حتى تأصَّلَتْ عادةُ الفيلم أسبوعيًا وصار حَقًّا لا يُنَاقش، بعدها بدأ التمرّد على يده التي سمّوها بـ«المِرْزَبَّة» وهي المطرقة التي تنتظر المذنب في القبر لتهشيم عظامه، كلما جَرُؤ مصطفى فمَدَّ إصبع سوادٍ انفجرت ثورةٌ في الحجرة.

«ارفعْ مِرْزَبَّتَك، يا شيخ هَلَكتَنا». لم يعد مصطفى يجرؤ على مدّ يديه ما لم تكن هناك قبلة تحصل أو سرير.

في مشهد الحُبِّ الثاني بين فاتن حمامة وأحمد مظهر اضطر مصطفى للتغاضي، تَرَكَ البكرات تدور وتَظَاهَرَ بالذهاب إلى الحَمَّام لكي يسمح بتمرير المشهد، ولَمَحَتْه حورية يسترق النظر من المُنْعَطَف الذي يقود إلى الحمَّام. مهارة التغاضي هذه تقتضي أن يحفظ تلك الأفلام غيبًا، وكان يشاهدها المَرَّة بعد المَرَّة في بيوت أصدقائه ومنافسيه، وغالبًا ما كان أنطوان يُقَدِّم له تقريرًا عن المَشَاهِد الممنوعة ليعرف مصطفى متى يقوم بغلق العدسة اليدوي، فمثلًا من تقاريره خلال مسابقة شهر الأفلام القديمة:

«بَدَّك تكون منتبه فيلم المتوحشة لسعاد حسني، هيدا البَوس فيه قبل الكلام، بنصحك بالقاهرة 30 برأيي هيدا فيلم مهرجانات. أبي فوق الشجرة شو بدي أول يا عمّي، مستحيل الزلمة عبد الحليم 99 بَوْسِة، إيدك بدًّا تنشط متل مزلآن العباسية في فيلم نادية لإحسان عبد القدوس، ما بفتكر الصبيان يستحملوك. حَمَّام الملاطيلي لشمس البارودي هيدا دَخْل الله، فيه مَلْط وسرير جامد، بَلاش مِنّو أحسن».

«لأ... يا الله...»، هَتَفَ الجميعُ حين بدأت البكرة بالتعثُّر، وانقطع الشريط وتحوَّلت الشاشة لفراغ، ضَرَبَ عباسُ الأرضَ بقبضته مُحْتَجًّا:

«يقولوا نسخة ممتازة، شكلهم هلكوه فُرجة».

بحسٍّ متضخِّم بالأهمية يتهيأ مصطفى لمعالجة الشريط، من دُرْج في الطاولة التي تحمل آلة العرض يستخرج عُدَّةَ الترميم، الشريط اللاصِق، المِقَصّ، يشعلون الضوء وتبدو العيونُ مُبحلقة ضِعْفَ حجمها وقد شلَّها الضوءُ وبَتْرُ الحوادث المفاجئة، وتتعلَّق القلوبُ بأصابعه التي تَشْرَع في العَملية الجراحية المُتقنة،

«دخيلك انتبِه، لا تنقطع فتفوتة من المَشهَد».

«والآن»، ترتجف القلوبُ، يقف عباس بإصبعه متأهبًا على زِرِّ النور، بينما يقوم مصطفى بالتجربة:

«ارجعْ بالعرض للوراء، لا يفوتنا مشهد»، تأتيه التعليمات المسترحمة، يرجع بالفيلم للوراء.

«لا ترجع كثير ترا قلبي وَقَّف، خلينا نلحق نشوف إيه حصل للبنت». وتأتيه تعليمة مُضادة. مصطفى وحده يعرف كيف يوازن تلك المشاعر المشحونة، وحين ينتظم دوران البكرة وقبل أن تصل إلى نقطة القطع يطفئ عباس الضوء وترجع الوجوه للتسمُّر غائبة عن دنياها.

«حرام عليكَ»، يرتفع استرحامُ هنادي في دعاء الكروان، حين يتهيأ خالُها الصعيدي لقتلها غسلًا لعاره. وعن يمين حورية يرتفع نشيجٌ،

تلتفت لأمها سكينة التي انفجرت في بكاءٍ حارق تَصَاعَدَ حتى التفتت كل الرؤوس للوراء واضطر مصطفى لإيقاف العرض. اجتمعوا عليها مبهورين بالنور الذي اشتعل فجأة وبدمعها المنهمر بغزارة،

«يا ستِّي هذا فيلم، يعني تمثيل. ما أحد مات». لكن نشيجها تصاعد بشكل هستيري، وتعاضدت معها قلوبُ البنات المؤمنة بحقيقية الموقف.

«حرام البنت صغيرة ومثل الفَرْخَة»، تَهبُّ لها حورية لتساعدها على المغادرة، وتُقَاوِم مُتسمِّرة على باب الحجرة، تلتفت مسترحمة:

«دخيلك يا حبيبي يا مصطفى طَمِّنِّي عليها. حرِّك البكرة واستكشف، هل صحيح قتلها الرجل الجبار؟».

«يا ستي هذه فاتن حمامة ممثلة، صَنَانِي مَنَانِي، يعني يعني، مو حقيقة، يعني حكاية مُخْتَرَعَة».

بصعوبة تمكّنت حورية من أخذها إلى حجرتها، ولسانُ سكينة يلهج:

«حسبي الله عليه، حسبي الله»، ومضت تندب حظ البنت، وكلما غطست في النوم أيقظها كابوس: «يعني ما ذنبها؟ والله البنت دي تشرِّف، بنت بألف راجل». غفت أخيرًا والدموع لا تزال تَسِحّ على خدَّيها.

لثلاثة أيام لم تكف الجَدَّة سكينة تبكي:

«البنت مثل الفرحة، راحت، طَقَّ رقبتها مثل رقبة كتكوت».

«يا سِتِّي يا سِتِّي ارحمينا هذا تمثيل»، واعتكفت الجَدَّة بسريرها لا ينقطع دمعها حسرة.

«يا جماعة سِتِّي داخلة في موَّال: عندي ضِيْقَة! ترا العجائز لما يقولوا عندي ضِيْقَة معناه سكتة قلبية على الطريق. والله لو انفلجت تنطبق الدنيا على رؤوسنا وانسوا موضوع الفيلم كل أسبوع، أعمامي يقطعوا أبوازكم بسببها، شوفوا لكم دِبْرَة».

«يعني نفتح دماغها وندخِّل فيه معنى السينما والتمثيل والفنتازيا؟! لا أمل».

«عندي فكرة. هاتوا كل واحد عشرة ريال وأنا أحلَّها. نكمل المئة

وخمسين»، ويأتي تدخّل حورية: «عليكم بالجيب، فيه النِّصاب». ويعثرون في جيب ثوبها المُعَلَّق على المبلغ المطلوب.

جلبَ عباس فيلم (عائشة) من بطولة فاتن حمامة وزكي رستم إخراج جمال مدكور.

تلك الظهيرة عقدوا جلسة فُرْجة طارئة، اجتمع الجميع وجاؤوا بالجَدَّة سكينة،

«تحبي تطمئني على البنت اللي مثل الفرحة؟».

«برضاي عليك لا تقول راحت في شَرْبَة موية، لا تعرض جنازتها».

«تعالي شوفي بنفسكِ».

ولم تحتج الجَدَّة لمن يسندها، تبعوها ترمح إلى حجرة السينما:

«شوفيها يظهر أن خالها المجرم راح فيها. وشوفيها حية وتحب وتلوّع قلوب الشُبَّان وتجري مثل العفريتة».

«الله يبرِّد قلبك يا حبيبي يا عباس». ضَمَّتْه وانتحبت فرِحة. جلسة الفُرْجَة الطارئة تلك امتدت لما بعد منتصف الليل،ساير فيها عباس رغبة جَدَّته للاستزادة من البنت اللي مثل الفَرحة، عَرَضَ الفيلمَ المَرَّة بَعد المَرَّة. غادرَ الذكورُ بعد العرض الأول ولم تصمد البناتُ للعرض الثالث، بينما جلس عباس كتفًا لكتف مع جَدَّته التي تغفو بعذوبة وتصحو. في أحيان لم يعد يرقب الشاشة وإنما الطريقة التي تغفو بها جَدَّته، يأتيها النوم من اليسار، يهبّ كنسمةٍ رقيقة تنفح وجهها لليمين، وبينما وجهها يميل، يشعر به خفيفًا ويعلو في الهواء بابتسامة عذبة، وترجع تفيق تلتقط من ضحكة عائشة، وتستحلفه:

«بالله، دَاري ضحكتها في المخلوان لا يسمعها سيدي مصطفى يحبسها ما تشوف النور». تُخفي سكينة بطلة الفيلم عائشةَ كبنتٍ من بناتها من تَعَسُّفِ زوجها مصطفى الميِّت منذ أعوام. يقشعِّر عباس برهبةِ وجودِ جَدِّه مصطفى في القاعة، تُعَدِّل الجَدَّة رأسها على مسند المقعد، لتعاودها هَبَّةٌ أخرى من النوم، يميل رأسُ جَدَّته مثل قوس كمان يعزفُ لحن الموتى للقاعة.

تَقَدَّمَ الليل وتأكد عباس أنه ليس نومًا وإنما موت أو وجود آخر يهبُّ على جَدَّته بأهلها الأموات ويخلطهم بعائشة وبوجهه هو. هذه المرأة السبعينية، بذاكرتها التي أسقطت تسلسل وحبكة اللحظات والوجوه الماضية، الذاكرة العاجزة عن حمل أيّ سلسلة متّصلة من اللحظات. شَعَرَ بذاكرة جَدَّتِه تبيَضّ كالشاشة أمامه في مَسْقَط بروجيكتورات ثلاثة: أولها يرسل صورًا من فيلم عائشة، وثانيها يرسل صورًا مِنْ عَالَم الموتى، وثالثها من وجهه هو وتعليقاته المُوَضِّحة. مع كل غفوةٍ تضخُّ البروجيكتوراتُ الثلاثة صَوَرَها برأس جَدَّتِه، مُكَوِّنَة مزيجًا هو عالم ما بعد الموت، الذي يستدرج جَدَّتَه ليصير انتقالها من الدنيا تدريجيًا.

ولوهلةٍ أقنعتْه جَدَّتُه سُكينة بحقيقية ذلك العالم السوبر: يندغم فيه عالمه المكّي بعالَم السينما وبالدنيا والآخرة. صيغة للوجود لا يفصله عنها غير ستارة رقيقة هي الوعي، حين يتخطاه إلى العقل الباطن يصير في «الوجود السوبر»، يتحركُ في اللاموت واللاحَدّ، الخلود الذي يتضاءل أمامه عالم الأحياء الذي يعيشه.

استمرت نوبة فاتن حمامة تعاود الجدة سكينة مَرَّةً كلَّ عام أو كُلَّ شهر، واتفق الأولادُ ساخرين بأن الجَدَّة تعاني «اضطراب صبغَات» عاطفيّ أطلقوا عليها اسم (فاتن حمامة سندروم)، اسم مرتبط بتذبذب صبغات الأمان، فتحتاج جرعةً فيلم عائشة لتخفيض نسبة دعاء الكروان بدمها. وقد اضطر عباس لاقتناء نسخة من فيلم عائشة يعرضها على جَدَّته العام تلو العام ليُخرجها من كل نوبة. وفشلت عروض الفيديو في الاستحواذ على اهتمام الجَدَّة، فلا يُقنعها إلا العرض على شاشة السينما، التي تُوهِمها بكونها تتفرج من سطحها على أسطح بيوت جيرانها كما اعتادت في سوق المُدَّعى بمكة قبل انتقالها إلى مدينة جدة، بينما اشتهر موقفها المُعادي لجهاز التليفزيون، فهي لا تعرف التنقل بين القنوات وتختلط النقلات في حبكة واحدة مبعثرة تصيبها عبثيتها باضطراب.

مازيراتي بجِلْد جَمَل برتقالي محروق

لم يقص عليها الحلم، بتفاصيله:

«عرضوا عليَّ في المنام الرحلةَ، مع أذان الفجر ينادوا، ولا بد ألبِّي، واحلِّفكِ بالله يا نورية لا تخافي، الرايح خيال لكن الباقي معاكِ روحي وقلبي».

ولم تسمح نورية لكلماته بتعتيم فراشهما، نَقَّطتْ من عطرها الأوبيوم خلف أذنيها واندسَّت في عنقه.

تلك الليلة لم ينم الإسطنبولي، اللمحة التي أغمض فيها عينيه فاح فيها بخور المصطكى وطلع في الرؤيا جَدُّه، وَقَفَ على رأسه يحفر بصدره ويناديه ليقوم ويلحق به. حين فتح عينيه بجوف الليل سَكَتَ الألم بصدره فجأة، وانقشعت الغمامة عن رئتيه. لأول مَرَّة منذ شهر كان بوسعه أن يأخذ نَفَسًا عميقًا، وسَرَت فيه حيويةٌ عجيبة:

«أنا الليلة تمام التمام»، قالها لنورية حين تململت بين ذراعيه. طوال الليل لم يغمض له جفن، يشرب أنفاسَها، لم يتناول أيضًا الجرعة الليلية لتنظيم ضغط الدم، ولا مذيب الشحوم، حين قام يتوضأ. بدأ، فأغرق وجهه بين ركبتي نورية، في رقدتها انفرجت شفتاها بابتسامة للمحة ثم اختلج جسدها كما لو انشقَّت منها قطعة. تراجع الإسطنبولي مُسابقًا الفجر، اغتسل مُطَوَّلًا بماء السدر المنقوع في الزير خلف باب الحمّام بأرضيته الشطرنج بالأسود والأبيض. عادة قديمة أن يُبرِّدَ الماءَ بتلك الطريقة التقليدية التي تجعل للماء نكهة طين حي. بالليفة من لحاء النخل فَرَكَ جسده.

«لا فزع ولا خوف، نُزُلًا من غفور رحيم». باغتته تلك التمتمة المستعملة في غسل الموتى. تَمضمض بالشهادتين ومسح بهما على

كل عضو من أعضائه وهو يتوضأ. أتمَّ ركعتي صلاة الفجر أمام سريرها وعلى سجادتها التي تحمل عطرها الأوبيوم، تظاهرت بالنوم بينما على أطراف أصابعه تحرَّك في الحجرة مُحَوِّمًا حول السرير العثماني الفخم، بأطراف أنامله تَحَسَّس أصابعَ قدمها اليمنى التي اعتادت أن تتركها خارج الغطاء. ما إن تتغطَّى تلك القدم حتى ينقطع حلمها وتصحو. بالكاد فَصَل جسدَه عن لذَّةِ ملمس تلك الأظافر المُلَمَّعَة. أفرغ جارور أدويته في كيس وحملها في خروجه مع أول خيوط الفجر، بهدوء تَحَرَّك في المطبخ مُعِدًّا لنورية صينية إفطارها: مفرش الدانتيل المُطَرَّز بخيوط الفضة، كوب عصير البرتقال الذي عصره بيديه، خبز القمح المُقَمَّر المطلي بالعسل، كوب اللبن الرائب، وحفنة اللوز البَجَلي بالزبيب والمشمش المُجَفَّف. ترك الصينية أمام مقعدها الطويل في الشُرفة، وفتح نافذة الشرفة الشرقية لتتلقّى منها أول خيوط الشمس فور إشراقها، وعلى طاولتها الجانبية جهَّز علبة سجائرها اللف التوتياء الزرقاء. لَفَّ عَدَدًا من السجائر ولَحَمَها بريقه وقَبَّل طرفيّ كل سيجارة.

حمل كيس أدويته هابطًا للظِلَّة حيث جراج سياراته في الحديقة، تَنَقَّل بين تُحَف مجموعته النادرة من السيارات التي لم يعد لها مكان على الطرقات وتليق بمتحف. توقَّف مُوَاجِهًا سيارته المازيراتي The Maserati 5000 GT sports car، السيارة التي تليق بالملوك، والتي صُنِعَتْ خصيصًا لشاه إيران. مثل طلقة رصاص رمقتْه مقدّمتُها من رفرافين منتفخين بفخامة، وجَحَظَ فيه مصباحاها المدوَّران تتوسطهما فتحةُ تهوية المُحَرِّك بشبكها المعدني مثل فم ينطق بآهة. بفخر استرجع تاريخ انتصارات هذه السيارة وفوزها بالبطولة الدولية لسباق الفورمولا ون Formula One عام 1957.

أخذ موقعه في مقعد السائق مغلقًا باب المازيراتي بهدوء وغاب لبرهة. أيقظته قطراتُ عَرَق تفصَّدت على صدغيه وبرَّدتها هَبَّةٌ من عَبَق شجيرات الحِنَّاء. تأمَّلَ في المقاعد من جِلْد الجَمَل البرتقالي المحروق، فَكَّر في فخامته ككفن، وكما تَحَسَّس ساق نورية قبل لحظات تحسَّسَ عجلة

القيادة من الخشب الصقيل المائل للأحمر. استجاب المُحَرِّك للمسته الخفيفة وهَدَرَ كحيوان، هدير المُحَرِّك ورائحة البنزين الممزوج بعبق الجَوافة أرسل نورية المتظاهرة بالنوم في إغماءة. قادَ بهدوء مُغَادِرًا بوابةَ القصر، لم يوقظ ولا حتى الحارس لفتحها كالعادة، راقبه صالحُ اليَمَني بغصَّةٍ في القلب، لا يعرف ما الذي أثار تلك الغصَّة لكنه اندفع معترضًا السيارة حين صارت في الطريق، اضطر الإسطنبولي للتوقف:

«وصيّتك عَمَّتك، أمانة يا صالح!». عن قُرب كان بوسع صالح رؤية هالة الزرقة المائلة للخضرة على جبهة سيِّده، يعرف شارات الذبحة الصدرية،

«يا عمِّي أنا أوصِّلك». قرصت قلبه برودة من نصاعة ثوب سيده والسديري والمداس المدني من بياض كامل، الكوفية البيضاء تعكس بياض فودَيْه، والمصنف اللاس المُلقَى على كتفه، لوحة من شفافية تتناقض ودنيوية السيارة.

«أنا في مشوار لا يتوصَّل له. لا بد أسوق له بنفسي».

بحسم تحرَّكت المازيراتي الفضيَّة مبتعدة، مُبَدِّلًا سُرعةً خفيٍّ تَنَاوَلَ الزمامَ، طَفَر دمعٌ لا إراديّ بعيني صالح بَلَّلَ لحيتَه. مَسَحَ وجهَه خجلًا، مؤنبًا نفسه بسخرية.

«فالك في سروالك يا عجوز يا خَرْفَان والباقي في إسْت خَالَك».

في آخر صَفِّ الفيلات تمهَّلت المازيراتي بأول صندوق زبالة، من نافذة السيارة مَدَّ الإسطنبولي يده بكيس أدويته، عَلَّقه بركن صندوق الزبالة وأكمل طريقه. ركض صالح لذلك الكيس، حَمَلَه مدسوسًا بصدره، ورجع إلى حجرته، كان ذلك آخر ما رأى من سيده.

لم يعثروا من الإسطنبولي على أثر، مثل حَاجٍّ مُعْتَمِرٍ جَعَلَ طريقَه لعرفات، ربما كان بِنِيَّتِه أن يسوق لآخر الأرض، لكن في فراغ صحراء عرفات فاجأته النوبةُ القلبية، انطبقت السماءُ على الأرض أمامه، تشنَّجت قدمه على دواسة البنزين فاندفعت المازيراتي كطلقة في السماء مرتطمة بمقدمتها الفخمة بعمود كهرباء وانفجرت مشتعلة. انحنى عليها العمودُ

وأكملَ اشتعالها، فاحت رائحةُ جلد الجمل البرتقالي، لم يترك من السائق ولا ذَرَّة رمادٍ تصدُم نوريةَ بجنازة، فقط هيكل الحديد الذي لن تعترف نورية أبدًا بوجوده.

ارتفع أذان ظُهر ذلك اليوم على نورية في رقدتها. على غير عادتها تأخرت في فراشها، جاؤوا لإيقاظها بالخبر الذي لم يجرؤ أحد على التلفظ به أمامها.

«الإسطنبولي». كلمة واحدة قالها عباس بوجهٍ مُسْودٍّ جَعَلَتْها تقفز من سريرها. لم تسمح له بزيادة كلمة، أدركت وحدتَها القادمة في تلك الكلمة. لبست ثوبها الذي يُحِبُّه: أرجواني بأقحوانة على الصدر، ويكشف الكتفين، وينشقّ من جانبيه حتى الركبتين. طافت مع نوري وفتحت السبع وأربعين نافذة. السبع الشاهقة على شرفتها العلوية والأربعون نافذة في المجالس السفلية. اندفعت كميةٌ خارقة من الضوء في قصر النزهة، مثل ضوء كشافات سينمائية كشفتْ مساحات من زرقة السجاد والجدران بالدور العلوي، ومساحات من الأحمر العجمي بالمَقَاعِد السفلية. تَنَقَّلَت نورية بِخِفَّةٍ في أرجاء القصر بين الأحمر والأزرق تمسح آخر آثاره بكفيِّها وتُجَهِّز لحفل.

طقسُ العزاء الذي أقامته نورية كان أقرب إلى احتفالٍ بالمولد النبوي، ازدحمت مجالس قصر النزهة بالرجال وعَبَق الحِنَّاء والجَوَافة. طيور وحَمَام انفلتت في سماء المجالس مع أناشيد وقصائد في مديح المصطفى وقراءات مكية لسورتي الكهف ويوسف. بين الأقدام، وفي بياض ثياب المُعَزّين، رَكَضَ صِغارُ الأفارقة في ثياب وزَّعتها نورية بلون جلد الجَمَل البرتقالي المحروق، يرددون صدى المدائح في جوٍّ طافح بالبهجة

«الإسطنبولي راح روحة، ومصيري أقابله يومًا». استغرقت زمنًا لتتقبّل الإشارة لموته، لكن بلا تفاصيل،

«نور عيني طائف الكون بسيارته، مسافر الدهر، طول عمره غرامه

الحركة، لا توقفوه على طريق يتبعه لآخر الدنيا، شوفوا كيف تَبَعَني». ميتته على تراجيديتها أثارتْ حسدَ النساء:

«الإسطنبولي مُدَلِّعها حتى في موتِه، ما حَبّ يفجعها بدفن ولا جنازة».

«حَس بالنوبة القلبية، ويقولون بلَّغته الملائكة بموته مع صلاة الفجر، بدل ما يرقد في فراشه ويغمض عينيه بين يديها وتُقَطِّر في حلقه شهادة لا إله إلا الله خرج للطريق حتى يصير دفنه في رماد بسيارة!».

هيكل المازيراتي ذاك لم تنغلق أقداره بعد، حيث كانت تنتظره بطولة أخرى، فلقد قام نوري بجَرِّه في غفلة من عباس في ما بعد بِنِيَّةِ توظيفه في فيلمه التسجيلي، أوقف الهيكل في الظِلَّة بقصر النزهة جنبًا إلى جنب مع السيارات التي ورثَ عشقَها من دون عباس مُنَافِسِه على حبكةِ نورية والإسطنبولي.

متحف آهات

قصر النزهة مكة، 1993

تأجّجت الحياة بذهاب الإسطنبولي من قصر نورية بحي النزهة، وتزايد حضور عباس في ضيافة عمّته. هشاشتها شجّعت على تجسد نوري، الذي تمدّد حضوره مُهَمِّشًا عباس حتى بات حضوره أقرب للحقيقة. واستمدت نورية من ذلك الحضور الخارج عن كل القوانين القوة على تجاهل الموت الذي صار أقرب إليها.

يقف نوري ابن التاسعة عشرة في مخلوانه أمام الميكروفون، بصوتٍ رخيم يحمل جزالةَ صوت أم كلثوم ويُغنّي متنقلًا بين أغاني كوكب الشرق، يُغَنِّيها منفردًا أو بمصاحبة من غنائها، بلا حرَج يرفع صوته مُقَلِّدًا حركات أم كلثوم وتمزيقها لمنديلها، وفي الخلفية يعرض تليفزيونه تسجيلات لحفلاتها. بروح خفيفة يتحرك نوري بقلب ذلك الأعصار الأم كلثوميّ. في اقتراب الموت وقرب رحيل نورية طرأ تغير حاسم على حضور نوري في حياة عباس، سمح عباس لنفسه بأن يسترخي في تقبل حضور نوري. استرخى داخلًا في تفاعلات وحوارات مع هذا الحضور. يرقب عباس نوري كما يرقب ذاتَه تتحقّق في حلم، كمن يخوض حلم يقظة، يسمح للحلم بأن يأخذه لمبالغات لا يسمح بها الواقع المتجلط في بُعد واحد. يرقب عباس نوري كمن يرقب ذاته من بُعد ثان، كما من وراء ستار من الذهول أو ستار من إغماءة. يستسلم منصتًا لحماسة نوري لمجموعته من التحف التي يعرضها كاشفًا عن قِطَعٍ جديدةٍ ضَمَّها إلى تلك المجموعة:

«حلمي أعمِّر قصر حلزوني مندفَع للسماء، وأبتكر ديكوراته بسلطنة».

يشف نوري مُحَلّقًا بذاك الحلم، ويلهج: «لا تظن الديكور هواية من هواياتي، هذه رغبة قوية داخلي لأن أعيد خلق العالم، أنا خبير مخلوق لأجل أغيّر العالم. تعرف فكرة القصر الموسوعي الذي تخيَّله من نصف قرن الإيطالي مارينو أوريتي، ويشمل الإنجازات العبقرية للبشرية من العجلة إلى الساتلايت؟ أنا نفسي أجسِّد هذا المتحف الموسوعة، تستقبلك فيه الفرعونيات بالشمعدانات، وتركع تحت سريرك الجواري بطسوت الورد. وفي قمته يتصاعد الصوت، مثل الأذان، من أصوات كلّ المغنين الخرافيين، ابتداءً من التراتيل السومرية حتى إيديث بياف وماريا كالاس وبافاروتي، وبقلب هذا المعبد أم كلثوم، أم كلثوم لم تكن ظاهرة اعتباطية، إنها التنامي للحضارة الفرعونية، للروح التي حفرت في الصخر لكي تبلغ الخلود».

بلا خوفٍ من رقيب أو حكم بالجنون ينساق عباس للحوار. يطوف بتماثيل الفرعونيات التي يُوَزِّعها نوري في الحجرة وأرجاء القصر: «يا نوري، رحلاتك رحلات الشتاء والصيف، أنتَ ضيَّعت ثروة على تماثيل ممكن تكون بلا أية قيمة أثرية».

«المهم القيمة الجمالية، اللحظة الجمالية المقبوضة فيها، أنا شايفها روعة، هذه روح النيل اللي تنفَّسها الفراعنة».

«تُجَّار التُحَف استغلوك وما زالوا».

«أنا لا أتعامل مع غريب. ممكن تعتبرني صديق شخصي لكبار التُجَّار والمهربين». يضحك بفخر: «يكلموني شخصيًا فور أن يستلموا تحفة، أطير إلى القاهرة أو الأقصر وأسوان. ألُفَّها وأخفيها في ثيابي. أسافر عادة بخمس شنط. أربكهم في التفتيش، وأحيانًا أسافر بالبَرِّ لأبو دهب وأركب مراكب صيادين لمدينة ينبع. أُهَرِّبها من بلد لبلد، وأشرِّع بها البيت، وأمنيتي أشرِّع بها بيوت مكة كلها».

«ختمت أغاني أم كلثوم؟». يعجب عباس ذلك المونولوج السوريالي بينه وبين شخصية أحلامه.

«حفظتُ كل كلمات أغانيها».

«كلها؟!». نبرة عباس التشكيكية بثّت الحماسة في نوري فأكمل، «ومنهمك الآن أشتغل على الألحان، يقتلني تشويه الأغنية، إما أن أحفظها تمام التمام، وإلّا بلاش. وناوي في يوم استأجر مسرح صغير، وأعزم جمهورًا من محبّي الست، وأغني لهم أم كلثوم على أصولها».

«تستأجر مسرح في بلدنا؟!».

«أو أي بلد». يقود نوري عباس ليعرض له كتابه السِرِّي، لَفَّةُ جُوخ أحمر رابضة على مكتبه، منها يُخرِج مخطوطًا ذهبيًا ضخمًا من الورق الفاخر، يفتحه لعباس:

«هذا كتاب ألَّفتُه بخط يدي، فيه فهرس للأغاني، ويحوي معلومات عن كل أغنية لأم كلثوم: سنة كام غَنَّتْها وفين غَنَّتْها، وكم مرة غَنَّتها وفي كم بلد؟». «هذا توقيع لأم كلثوم، كان محفوظًا عند الشاعر أحمد رامي، سَرَقه واحد من عشّاقها ووصل لي. لا بد أم كلثوم راضية عني وشاعرة بولعي. من كل شق وطَرَف ترسل لي نوادرها». تتوسّع الابتسامة المُشَكِّكَة على وجه عباس.

«طبعًا من حقّكَ تشكّك في أصالة هذه الآثار، لكن المهم عندي هو الإحساس الذي تخلقه هنا، أنا هنا في شبه معبد كلثومي. شُمّ، الهواء بطَعْم آهاتها».

«ونهاية هذه الفهرسة والتجميع، ستبقى في قصرك الموسوعي؟».

«ليه لأ؟ خصوصًا وأن هذا الألبوم الضخم، يصلح نواة للموسوعة»، ويفتح الألبوم الذي يعرفانه جيدًا: «أنت عارف دي الصور النادرة لأم كلثوم، كلها انتهت عندي. ولو شككت في التوقيعات شوف، انتظر، شوف هذا القسم الأخير، كنت أضنّ به حتى على نفسي، وعمري ما عرضته، شوف: صور ما وَقَعَتْ عليها عين. انظر، ها هو فستان الياقوت الأحمر الذي دَفَعت فيه ثروة ورفع ضغط العائلة، عَمَّتي نورية نَشَرَتْ أخباره، لم يبقَ أحد إلّا ويحلم يشوفه، حقيقة ولّا خيال».

يُقَلِّب نوري الألبوم ويفتحه على صورة لأم كلثوم: «شفت فستانها في

هذه الصورة؟ تعال»، ويقوده إلى صندوق مُطَهَّم بحجم تابوت، يفتحه بمفتاح مُذَهَّب، في الداخل يتمدَّد ثوب أحمر، مُطَرَّز.

«طِبْق الأصل عن الصورة؟ هه؟». تنتقل عينا عباس بين نظرة التشفِّي على وجه نوري والثوب الأحمر والصورة في الألبوم بالأسود والأبيض.

«هذا ثوبها. برائحة عَرَقِها. شُمّ». بعُمق يَتَنَشَّق نوري رائحةَ العَرَق المُعَتَّق، تبرق عيناه وينتعش كمدمن يتلقَّي جُرعةَ هيروين.

«خُذْ لك نَفَس...». يستسلم وجهُ عباس لتلك الهلوسة وينحني ليأخذ نَفَسًا هو الآخر، ضحكته لم تحمل نفس نشوة نوري، لكنه يُسايره حين يكمل مسحورًا:

«أنا حين اسمعها أحس أن روحها تتنسَّل نَفَسًا وراء نَفَس في كل آهة، وهي مستمرة تتنسَّل وتدخل خيوطها في أنفاسنا وأنفاس سامعيها... خيوطها في قماشة روحنا».

تملأ المخلوانَ أنفاسُ أم كلثوم وآهاتها في أغنية (هو صحيح الهوى غلّاب). منساقًا للهلوسة يشعر عباس بكل آهة تُطلقها تتحوَّل لخيطٍ يدخل رُقعةَ النسيج التي هي جسده. حين تغلب خيوطها خيوطه يشعر برقعة جسده تعلو وتروح مع موجة صوتها كبساط الريح. يَتَمَسَّك بكاميراه، يحاول أن يكسر الموجة بسؤال:

«ترا هَوَسكَ بأم كلثوم سوف يستحوذ عليك ويعجزك عن أن تحب البشر العاديين. فاكر صديقتنا نورزاد التي قاطعتَك بسبب أم كلثوم وأرسلت لك أغنية: عايز جواباتك يعني انتهينا خلاص؟ الكلام اللي أنتَ قلته من سنة بعتُه أنتَ وصَدَّقته أنا».

«هذا شيء وهذا شيء. بعدين أنا ممكن اسمِّي هذا الجزء من متحفي الموسوعي: المصريَّة المُعْجِزَة! ويتخصَّص في القمم الفنية على ضفاف النيل، وأضم له الرومنسيات المصرية، وخاصة الممثلات، ومكتبة الأفلام هذه».

يتأمل عباس في المكتبة التي تحوي الأفلام القديمة لسعاد حسني وشمس البارودي ونجلاء فتحي.

«رومنسيات شمس البارودي؟!». سخر عباس مستفزًا.

«شمس البارودي! لا نُنكر أنها ظاهرة، ومتحفي سيتخصص بالظواهر. يا أخي تكفينا نجلاء فتحي، هذه ملاك سَقَطَ صُدفة على الأرض. لا يعادله في التاريخ إلا سقوط حواء. صُدْفَة لا تتكرَّر».

«أنتَ متأكد بأن أصلك ما هو لبناني ورضعت موية النيل».

«أنا رضعت موية الله جميل يحب الجمال».

«أنتَ ولد حبك للشيء القديم غير طبيعي. الآن عمرك تحت العشرين لكنك في ذوقك عجوز، فوق المِئة! اتخيَّل والدك جامع تُحف لبناني، أو مؤرخًا، وورثت عنه هذا الحُبّ».

«خلينا من الهلوسة الضاحكين بها على العائلة، لا لبناني ولا مصري، أنا أبويا وأمي وكل أهلي همَّ نورية، هي موتور وجودي، تبنّتني لما الدنيا انصكت علي بالسخرية والتشكيك بأن عبقريتي نقص رجولة، نورية نبشت عن الجزء العبقري في، ضخت فيه أكسجين إيمانها، خلتني أؤمن بأن نوري يستحق أن يُعلن عن وجوده بفخر».

نوري شيخ قبيلة انترناشيونال

قصر النزهة، مكة، 1993

مَخْلَوَان نوري غارق في المخمل الأحمر، الستائر التي لم تُرْفَع قَطّ تُضفي هيبةً على حُمرة نور الثريا، بعض مصابيح الثريا مطليٌّ بالأحمر الشفّاف، مما يُعَزِّز دموية المَشْهَد.

حيوية نوري ابن العشرين تُطقطق في المخلوان، صور لأطفال أفارقة تُغطّي الجدران، ترقبه أعينهم اللامعة فرحين بأزيائهم الصارخة التي خاطها لهم، وتعرقل حَرَكَتَه على الأرض الفتياتُ الفرعونيات بدَلَالهن، متزاحمات مع العبيد الحاملين للشمعدانات. يلمع شَعْرُ نوري الأصفر المزأبر ويفوح بكريم عطري. يجلس مُوَاجِهًا لمرآةٍ عريضة وُضِعَت بشكل مُرْتَجَل على طاولة جانبية، في المرآة يظهر له عباس، يحشر نفسَه في المشهد، يُلاحق أصابع نوري الطويلة التي تتحرَّك بخفة خبيرة تجميل تصبغ وجهه:

«كريم الأساس، هذا الفاونديشن، خاص لإخفاء العيوب وتلطيف تعبيرات الوجه الحادة، يستعمله خبراء التجميل بهوليوود للممثلات والمغنيات مثل كلوديا كاردينالي وصوفيا لورين ومادونا وباربرا سترايسند...».

بقلم بُنّي قاتم حَبَّرَ حاجبيه الباهتين والمُشَذَّبين بعناية. بالأزرق أضاف ظلالًا لامعة للجفنين وحَدَّدهما بِجَرَّةِ قلم أسود وذَنَّبَه سَاحِبًا الخَطّ للأعلى. بعنايةٍ أضفى ضربات من قلم المَاسكرا مُعْطِيًا لأهدابة كثافة. يُحدِّث نفسَه في المرآة:

«أنت يا نوري شعرك كِرْكِتْ». يخاطب نوري ذاته متأملًا وجهه في المرآة بافتتان، «لما تخترع قرينة مُؤنثة لا بد تتفنَّن. مش بالضرورة قرينتك تكون بشعر كِرْكِتْ».

يعارضه عباس:

«في تصوّري حتمًا تكون شقراء».

«أي شيء، حتى لو يابانية بشعر بلاستيك. أمي نورية عارفة إنها تمثيلية وتتوقّع مني أطيّر عقلها بغرابتها. تعرف التبرُّع بالدم؟ أنا وأمي نورية بيننا عملية نقل دم ليل نهار ودخَّلتني في أنيميا حادة. وأنا عاجبني ضَخُّ الدم، لكن في النهاية أنا بَنِي آدم، ولمَّا تحطّني وتِزَنِّق عليَّ أحب أنفكّ من الحبس وأشرد شوية، غصبًا عني أعمل لها القصص، قلت لها: أنتِ تبنَّيتيني صحيح، لكن أنا لي قبيلة قُرَناء، ولحسن الحظ لقيت واحدة من قريناتي لبنانية مولودة في جدّة، ولازم نتزاور وتشاركنا جزءًا من حياتي. قالت: أبدًا لا أصدِّقكَ، لازم تصوِّرها لي، ولا توسّع على رأسي سُلطانية الجنان. قلت: أخليها تجي تشوفكِ! وكنتُ مستعد أستأجر أي بنت وأجيبها، قالت: لا، ما تدخل عليَّ، إذا ولا بُدّ صوِّرها لي».

قاطعه عباس: «لكن أنت بهذه الخطوة وإعلانك عن عثورك على قرينة لبنانية من لحم ودم، تراك توسعت كثيرًا في حكاية القرناء هذه».

«يا حبيبي يا عباس أنا روح، صدّقني، هذا اعتقاد قديم للقبائل بأنحاء الأرض، اعتقاد بأنّ الروح يمكن أن تتجسّد في أكثر من جسد في نفس الوقت وفي أكثر من مكان، أنا حاسس، بل ومتيقّن، أن روحي مبعثرة في أكثر من جسد».

«أنت ممكن تخطرف وتهذي وتقول إن روحك حتى متجسّدة في مريخيّ من أهل المريخ، لكن حكاية مقابلة قرينة ما أظن نورية تقدر تبلعها».

«أوك، عندك أوزيريس، أنا حين أسكن لذاتي تجيني لمحات من حياة

عشتها في زمن الفراعنة وبالذات أعتقد بأني كنت أوزيريس ذات نفسه ابن السما والأرض ومتمكن من العالم المخفي».

«آاااه، كدة فتقت الحكاية، وفتحت علينا سلطان الجنان».

«صحيح، لكن الواقع أخطر من أي حكاية مؤلفة، وأحيانًا يعجز العقل يصدق الواقع. صدقني حين أسكن لنفسي يتحول جلدي للأخضر».

«والنهاية؟». يقع عباس في عجز كامل، لكن النظرة في عين نوري لا تدع مجالًا للشك في تيقّنه مما يقول، وتدفع عباس لمسايرته: «أوك، إذا سلمت لك بكونك أوزيريس الأخضر يتجسد لتتبنّاه نورية، أنت ناوي تسوقنا لفين، إيش غايتك؟».

«تعرف كيف قطعوا أوزيريس إلى قطع وزَّعوها في أنحاء الأرض وطافت إيزيس تجمعها قطعة قطعة؟ أنا كذلك، أشعر بأني لازم أجمع كل أشلائي الموزعة بالأرض. أحيانًا أحسّ بروحي ساكنة كاوبوي في أمريكا، وأحيانًا أشعر بأن روحي ساكنة شجرة، غايتي ألملم كل هذه القطع وأتدفأ في تجاربها وجمالها».

«والله حكايتك ما لها آخر... هاجمة من زمن الفراعنة. والأنكى أنها واصلة مكة... سلطنة حقيقية».

«أحب نومي، أحيانًا في الحلم أُلملم أرواحي، نتجمّع ونحكي حكايا الأجساد اللي عمرناها».

«ارحمني، يكفيني هذا الحد من هلوسة اليوم... أعتقد نكمل التصوير لأن عقلي لف ألف لفة في الثانية».

«أنا قلت لأمي نورية: أحيانًا أشتاق أزور روحي البعيدة. وهي فاهمة تمامًا، وزدت واستعطفتها وقلت إنه نادر ما تلتقي في الصحو الأجساد الحاملة لنفس الروح، وظهور هذه القرينة معجزة لا بد أستوفيها لآخر قطرة».

«أنت يا نوري كاهن كهين بحق».

«ونورية واسعة بسِعة بحور وبفطرتها تحب الملاعبة وكسر الحدود.

لم تعارض تجسّد هذه القرينة المكاوية، فقط اشترطت أعطيها دليل على وجودها. أنا وهي نفهم بعض مما وراء الكلام، نورية تلاعبني للآخر، لأجل ترفع درجة التحدي أمامي».

«لكن كيف لو طلبت نورية تقابلها، ستنتهي يا نوري في ورطة وتورّطني. كيف ستجسّد قرينة من لحم ودم أنا وأنت الآن بصدد اختراعها في الصورة؟».

«لا تخاف، نورية حلفت لا أدخل عليها طبينة ولا قرينة، لا فعلية ولا مُزيَّفة. أمي نورية غيورة وفي الحُبّ ما تحب الشَريك والبعثرة. كل شيء عندها حوت وممكن يبلعها، الحب والموت والشك، إما أن يبلعها وإما أن تبلعه، لا يوجد خَيار ثالث».

«وتظن عمَّتي لن تعرفك في الصورة وتحت هذا المكياج؟».

«الأمر لَصْمَقَة. هي جاهزة تصدِّق أي شيء. أمي نورية في قَرَارة قلبها عارفة إني أحتاج أشرد. تعرف أن عندي فقر دم يقتلني لو ما شردت».

تُكبِّر المرآةُ رِقَّةَ بَشَرة نوري، وتفاصيل وجهه الذي أخذ يتحوَّل وبسرعةٍ عجيبةٍ وتحت مساحيق التجميل إلى هيئة امرأة. قلم الحمرة الفاقع أضفى لمسة الأنوثة الأخيرة على اللوحة:

«عَرِّضْ جَرَّة قلم الكُحل ووَسِّعْ، لا تفضحنا عينكَ الدُقَّة».

«خصوصًا وأن أمي نورية حافظة عيوني غيب، دائمًا تتغزَّل فيها وتقول: العيون الدُقَّة فيها الحَلا بالأوقَّة».

اهتزَّتِ الشمعدانات حين تناول عباس باروكة الشعرالمستعار وساعد نوري في تثبيتها على رأسه، خصلات شقراء بلاستيكية طويلة انسدلت على كتفيه تصل إلى خاصرته. ملأت الحجرة صباحةُ تلك الأنثى التي قامت بدلال، نَضَت ثوبها الأبيض الذكوري، ارتجَّت المرآة بضحكتها حين انهمكت لتمنح صدرها المُسَطَّح نهدًا. أعطى المشد جسدَ نوري التدويرات المطلوبة وانسدل عليه الثوب الأحمر بناريته وعَزَّزَ الكريستال رشاقةَ العنق وتدوير الشفة المُغَمَّسَة بالأحمر.

تعمّقت قتامة حُمرة المخلوان حين شخصت تلك الأنثى للكاميرا البولارويد، قام عباس بتوجيه أضواء المصابيح الجانبية بشكل يعطي ظلالًا تضفي غموضًا على وجه الأنثى، مما يجعل من المستحيل ملاحظة نوري في ذلك القناع التنكّري.

توالت لقطات البولارويد، وقال: «هذه كفيلة بأن تقنع نورية».

«لحظة. لغبائنا نسينا أن نُبدِّل الخلفيَّة، ستعرف عَمَّتي نورية أنها صور ملتقطة هنا في مخلوانكَ ببيتها».

بنى عباس خلفيةً تجريدية من قصاصات أوراق مثبته على طَرْحة سوداء من طرَح نورية. وقام عباس بحصره في لقطة مأخوذة من الأسفل، تُظْهِر نوري المؤنث مثل خفاش مشنوق ومحترق في النور.

«صُوَر مُحْتَرِف، يخلف الله على عمَّتي نورية، أراهنك ما لها إلّا تصديق أنها موجودة وتتنفّس».

مشاعر متضاربة تُحَرِّك عباس، فمن ناحية يستمتع بالتمثيلية وبعبثية نوري المدوِّخة، ومِنْ ناحية يتمنَّى أن يُفْتَضَح أمر نوري وتقذف به نورية إلى الطريق تخلصه منه إلى الأبد. يشعر عباس بصدمة من مشاعره تلك.

«نسمِّيها مريم اللبنانية». ثقة نوري تُشْعِر عباس بالذنب، يُبادر:

«على الله تقنعها، لو تسمع كلامي تخليك من حكاية اختراع قرينة وصارحها برغبتك في التنفس. ما حاجتك بالقرناء وعندك السردارية ما لهم أول ولا آخر».

«المُصارحة جُرح، وأمي نورية أعرفها متملكة، سوف تلعب لنا لعبة الميت. لأجل تنسِّيني آخذ نَفَس واحد. وبعدين، ليه ما نلعب لعبة القرينة؟ تعرف ليه أنا محتاج قبيلة كوكتيل: لبنانية وفراعنة وأمريكان وفرنسيين؟ لأجل نفتحها على البحري. نبدأ تدريجيًا باللبنانيين لأنهم نعنشة، دول يا حبيبي فينيق، تصبّ عليهم الكاز وتحرقهم يطلعوا من الرماد، يعجبوني الناس المتسلطنين يسكروا بكاز».

لم يجتهد عباس لفهم تلك الفذلكة التي تفضح افتتان نوري بعَمَّته سُكَّريَّة والكاز الذي انعجنت به خلاياها.

صورة القرينة مريم نجحتْ في إحداث انقلاب في العائلة. أولئك الذين لاحظوا الشبَه وشكّوا في التزوير كتموا شكوكهم في حضرة نورية، التي تَبَنَّت الصورة فورًا وحذّرت الجميعَ: «إياكم أي منكم يفتح فمه ويجادل وينْحَل قلب ربيبي. ما ضَرَّكم لو قال إنه طرف من قبيلة أرواح، كل واحد فينا له أول وما له آخر. ونور عيني باحث مشتاق لروحه». لم تسمح لأحد بالتشكيك في نيات نور عينيها وراء اختراع تلك القرينة، تتبنّى تلك التهويمات لكيلا تواجه حقيقة حاجة عباس للهرب من تملّكها له، ولقد جَرَّبَ الهرب مرات ومرات من حصارها، وفي كل مرة ينجح دمعها ولوعتها في ترويضه.

في الأيام التي تلت تذبذب المشهد، في البداية تقبّلت نورية غياب نوري بحجة زيارة مريم، قريبته اللبنانية، بينما ثار فريق العائلةِ -الذين انطلت عليهم حيلة الصورة- وقرّروا مُقاطعة مريم في ما لو جرؤ نوري على إحضارها:

«بكرا يقول روحه تجسَّدت في حمار ويدخّله علينا، وتجبرنا نورية نضرب له تعظيم سلام». اتفقوا على سريَّة قرارهم بحيث لا يبلغ نورية، لأنهم يعرفون أنها الوحيدة المسموح لها بتكذيب أو مقاومة صرعات ربيبها. إخوتها الذين تبسَّموا -مُجَرَّد ابتسامة- حين رأوا صورة القرينة، ثارت في وجوههم:

«نور عينيَّ حارق رُزّكم، تشكّكوني فيه لأنه حَجَر واقف في حلوقكم، أنتم متأهبين تورَثوني، ما فيكم من أحبّني قدر حبه». وطَرَدَتْهم: «يللا قوموا امشوا. لا أشوفكم في بيتي».

ولم تمض الأيام الثلاثة حتى ظهرت نورية في بيت السردار بسوق المُدَّعى واتجهت مباشرة إلى حجرة أختها سُكَّريَّة، تبكي وتتمسَّح وتستسمح:

«هذا إبليس يجيني يوسوس لي. ويِوزِّني أزعِّلكم. دخيلك صالحيني مع بدرية وميادة ومحسن، والله غصبًا عني طردتهم، يجنّنوني لمَّا يحطوا نِقْرَهم من نِقْر نور عينيَّ!».

مضى أسبوع لم يبت نوري فيه تحت سقفها، وتلبّدَ صمتٌ كثيف على مَخمل حجرته الأحمر. شقّت المخمل في غرفته ذلك الصباح. ليستيقظ البيت فجأةً على سباب نورية:

«بلا نوري بلا كلام فارغ، إنتَ نَوَري الهَمّ، الله أعلم أي قحبة رَمَتك علينا، حِسَّك عينك تنط لي كل صباح وتِتْلَسْلس وتناديني: أمي. طلعت للملاعين اللي عيّروك وأهانوك. انقلعْ الله لا يرجعك، ما ناقصني جَبَرْتِي زَيَّك قليل أصل يكذب ويتفرعن على نورية حُرمة الباشا اللي رَبَّته من لحمها ودمها».

توقفت في نصف رشفة للشاي، وقَذَفَتْه بالكأس الرقيق المُخَنْصَر والمُزَنَّر بالذهب، وألحقتْه بكل ما وقع تحت يديها من وسائد وطفّايات سجائر.

«وإنتَ يا عباس لا عاد أشوفك توقف عليَّ، إنتَ تشجعه وتُجَبِّره عليَّ».

صياحها وهجومها شَرَّدَ نوري لأيام لا يجرؤ أن يظهر في قصر النزهة، وحين أيقنتْ من إفلاته استيقظ البيت على دمعها:

«نور عينيَّ، هذا حَسَد الحُسَّاد، حسدوني على نوره وكماله. إبليس دخل بيني وبينه، كلكم بمن فيكم أقرب أخواتي سحرتوني أكرهه. جيبوا لي نور عينيَّ. أو قطِّروا لي ولَقِّنوني الشهادة، أنا ما لي حياة بعده».

يعرفون تلك الرقدة، حين تستلقي حرم الباشا بكامل أُبَّهتها على السرير المهاجوني العثماني، وتأمر بإرخاء الستائر وتربط على جبهتها عصابة المنديل الأحمر، وتُضرب عن الأكل وتحتسي رشفات من البابونج، وتستحضر نوبة مَرَض. كانت قادرة على تخليق الداء الذي يُذهلهم، لذا ولإيقاف تلك المهزلَة سارعوا في إحضار ربيبها الشارد.

ما إن لاح ببابها حتى وقعت مغشيًا عليها، هذا المشهد هو الأثير لنوري

بما فيه من إخراج فنّي. المُبَالَغة في تلك السقطة تُذَكِّره ببطلات السينما المصرية، خاصة تلك الرقيقة نجلاء فتحي، إغماءة نورية المصطنَعة تنجح في محو طوَفان التمرّد في جوفه. تلاحقه عينُ عباس حين ينكبُّ عليها، تَرِفُّ أهدابُها بمُبَالَغَة، تتحوَّل رعدتها إلى تيار ملاريا يعصف بهما معًا، يغرق بين ذراعيها ويسمح لدمعها أن يغسله بعبق زهر الفاغية.

«سامحني يا نور عينيَّ، أمّك فِدَاك. كيف هانت عليك أمك وكَنْكَنْتها؟!».

لا يُطيق عباس ذلك التقارب بينهما:

«يشهد الله، لا يهون. سامحيني». يركع لتقبيل قدميها، تتريث لترقب تلك الحركة بسلطنة، ترتعد أطراف عباس لنظرة الانتصار التي ترفعها نحوه.

«قبيلة أرواحك عليَّ أجيب لك خبرها. لا تحمل هَم. خَلِّي الهم لأمك نورية». لم يأخذ أيٌّ منهما وعدَ البحث عن قبيلته على مَحْمَل الجد، يتلذّذ بقلبها الذي يدق في صدره عِوَضًا عن قلبه.

تناولت من تحت وسادتها عُلبةَ مَخمل، «خُذْ يا عينيَّ... هديتك».

يفتح العلبة ويشهق، «يا الله!!» يشتعلُ زرّ الكمِ بفِصّه الأحمر المائل للبرتقالي في الضوء الخافت لحجرتها، تسأله بتشفٍ:

«هاا؟ قُلْ لي، إيه رأيكَ باللون؟».

«فاجر!». ضحكتُها الرنانة مَسَحتْ كلَّ أثرٍ للجفوة بينهما، انسحب عباس بخذلان، يقهره أن نوري كائن متعدد، فيه المَهْبَل والقضيب الذكري، فيه العجوز والطفل، فيه السكران واليقِظ، ويتواصل بسلاسة بكل تلك التناقضات، ويفاجئه بمواقف وتعليقات فاجرة كتلك التي تخلب لبّ نورية،

«لكِ عليَّ يا أمي نورية: باكر أروح للخيَّاط أفصّل ثوب خاص، رمادي، وللكُمّ بطانة بُنّي محروق، كرمى لهذا الفِصّ الفاجر».

جنرال موتورز

واشنطن، 1994

يتصبَّب عباس عرَقًا رغم برد فبراير وتخفيف التدفئة في حجرته ببيت العائلة الأميركية التي استضافته عند وصوله مُبْتَعَثًا لدارسة الهندسة المعمارية، يحاول أن يستجمع قواه ليخرج من الكوابيس التي تتجسَّد من الدخان الذي يملأ الحجرة. حين انتصف الليل أدرك أنه الوقت الذي يُدخّن فيه أبوه بمكة شيشة العصرية ويضبط مزاجه.

كل ما في عباس هامد مستنفد، يحتسي فناجين القهوة في محاولة لبعث نوري ليسعفه لمواجهة الموقف، حوله لا تزال بقايا السهرة الصاخبة. سُحُب الحشيش وأصناف أعشاب الهلوسة التي تخونه أسماؤها. دائمًا وبأعجوبة ينجح نوري في جرجرته للتجريب الذي يبرِّره بحُجَج ليس لها آخر، مثل: (استدراج عبقرية الأحلام في اليقظة/ أو فتح قنوات اللاوعي/ أو الاتصال بأطراف الروح البعيدة/ أو الغوص لله في طبقات الوعي العميقة)، نظريات وهلوسات يُبَرِّر بها نوري شراهته لتلك العقاقير، بينما داخل عباس شيخٌ أو إمام مسجد هو نسخة مُصَغَّرَة من جَدّه السردار مصطفى الكبير وصرامته تجاه ذاته، لكن سُحب الدخان تُدخله في هلوسة يستجمعها لتحقيق إبداعات أو اختراقات في الضعف المهيمن عليه.

كانت قد مضت ساعة على إطفاء أنوار البيت، استجمع جرأته لمهاتفة أبيه بالخبر،

«اليوم نجحت في مقابلة مهمة، وباعتقادي أنه سوف يعتمد عليها مستقبلي». لم يعد يتحكم في رعدة أصابعه، وكان بوسعه أن يسمع صوت أسنانه تُطقطق بالسماعة. أكمل بصوت مرتجف: «مندوب جنرال موتورز اطّلَعَ على رسوماتي للسيارات وخَطَفَتْ عقله، عرضوا عليَّ بعثة على

حسابهم لدراسة تصميم هياكل». امتد صوتُه مُسَطَّحًا جافًا يتكسَّر ولم يحمل شحنة الفخر وأهمية الذات التي أراد أن يصعق بها أباه. خَلْخَلَه الصمتُ على الطرف الثاني للخط، خلطت طقطقة أسنانه بقرقرة شيشة أبيه، تَوَقَّع أيَّ شيء إلا تلك النبرة الهادئة:

«أنت خليك رجل وتعال السعودية مع إجازة الكريسمس، العائلة عندها مشاريع». تعمَّقتِ النبرة كقبر، «استثمارات في نفس مجال السيارات، ادرسها إذا تصلح تعرضها عليهم».

اضطر للموافقة رغم لا منطقية العرض، هدوء أبيه أرعبه أكثر من أقسى نوبات غضبه، وضع السماعة بينما كامل جسده يرتجف. حوله يطقطق البيت الخشبيّ، يلطم رأسَه إن خَالَفَ اقتراحَ نوري حين نصحه: «لا تستشير ولا تُفْصِح، اقبَلْ عرض جنرال موتورز، وكَمِّل دراستك في تصميم الهياكل وباغته بالشهادة بعد أربع سنوات، صدِّقني سيكون الأمر سيّانًا لديه، وعلى الله يقدّروها بعد أربع سنوات».

على الباب، بدأ الهرش متزامنًا مع موجة الغثيان بأحشائه، من فراشه فتح نوري عينيه وهمس بابتسامة ملتوية:

«البنت الثلاجة 12 قدمًا حضرت على الباب!».

جيسيكا المراهقة ابنة العائلة تدفع باب الحجرة لتدخل. يتفصَّد العرق من جسد عباس، بينما يتعمق التواء الابتسامة على وجه نوري في نومه. في الظلام تتجمَّد عينُ عباس على مقبض الباب، يشعر بالضغط الجبار الذي يتلقَّاه، تحاول البنت الضخمة الجثة كسر المقبض، يسمع تمزق الحديد، بلمحةٍ يُلقي نوري بجسده مختبئًا وراء السرير بينما اندفعت البنت الثلاجة 12 قدمًا في الحجرة، وأوصدت وراءها الباب وانقضَّت على عباس، انسحق جسده بينها وبين الباب، حين شعر نوري باختناق عباس بين طبقات شحم البنت الثلاجة أطلق تلك الصرخة الحيوانية التي شقَّتْ هواءَ الليل المثلج. تراكضَ أهلُ البيت للنجدة، ليقفوا عاجزين أمام الباب الموصد، مهما دفعوا لم يكن بوسعهم تحريك ابنتهم الثلاجة التي تقف وراءه: «أطلبوا 911».

استغرقت فرقةُ الإسعاف ثلاث دقائق بالضبط لتكون على باب الحجرة، والبنت ماضية تنشب أنيابها في صدر عباس وعنقه، ونوري يُنَوِّع صرخاته الكوميدية. لبرهةٍ كاد عباس ينفجر مقهقهًا لولا إدراكه لحرَج الموقف. فرقة الإطفائية وَصَلَتْ بعدها بدقيقتين واقتحم رجالُها الحجرة من خلال النافذة:

«هل حاول هذا العربي اغتصابكِ؟». الكل عَرَفَ صوت نوري في صرخات الاستنجاد، لكنهم يُلحّون لكي تتبنى جيسيكا الاتهام:

«I want to die, I want to die, oh father, oh God, I love him»

تشهق البنت بالبكاء، وتُكَرِّر بغباء يستدّرُّ شفقةَ حلقة الرجال حولهم.

«اضطرابات نفسية». بذلك شخصوا صراخه طلبًا للنجدة، وحملوه في الإسعاف عِوضًا عن حمل الثلاجة 12 قدمًا. كانت سيارة الإسعاف تشقّ في رأسه لا في طبقات الثلج الكثيفة المُغَطِّية للطُرقات.

نبرةُ أبيه الباردة هي التي خَدَّرَتْه لا العقاقير المختلفة. حبوب بيضاء، بيضاء بلا لمحة لون، يخطفها منه ويلتهمها نوري لكيلا يفيق من ذاك الكابوس الذي انتهى به في الطائرة العائدة: واشنطن - نيويورك - جِدَّة.

«إذا وقعت يا فصيح لا تصيح». صاح نوري بوجهه شامتًا، وانفجر في قهقهة هيَّجت شكوكَ طاقم الطائرة، بينما حطَّ على عباس ذهول: «رَجْعَتك هذه ما لها إلا مُسَمَّى واحد: باهَبَل». وتَجَاهَلَه بعدها تمامًا عقابًا له على عناده وانفراده باتخاذ قرار الرجعة.

«عباس باهَبَل». كرَّر شتيمته همسًا.

انهمك نوري طوال ساعات الطيران في الرسم، راحت المضيفةُ وجاءت له بالأقلام. عباس قرّر أن يترَكَ كلَّ ثيابه خلفه مرساة ترجعه لأميركا، حيلة سخيفة. بينما قرّر نوري أن يشَحَن حقيبتين ويجرجر حقيبتي يد تطفحان بكاتالوجات السيارات وتصاميمه وأوراقه.

كلما راحت المضيفةُ وجاءت تَوَسَّعتْ ابتسامتُها، مستجيبة لاهتمام الشاب بوسامته الإيطالية. نوري يستطيع دائمًا أن يسحر النساء بمظهره

المسرحي: شعره الطويل يغطي ياقة قميص فالنتينو، والغُرَّة التي تُغَطِّي جبهتَه على طراز فرقة Pink Floyd.

مع اقتراب الوصول تقلَّصتْ ملامح عباس، لم يعد بوسعه الاحتفاظ بتلك الابتسامة الملتوية والمُصَوَّبَة لكسر عنق نوري وردعه عن التباهي بتصاميمهما المشتركة التي تجعل عباس يخجل منها الآن ويتوتّر من معرفته بأن الطائرة ستحطُّ به في قبضة أبيه. للمحةٍ شكَّ بأن العالم يُبلِّغه رسالة ويركله في مؤخرته:

«خذْ رسومك وفَارِقْنا».

«نعم وألف نعم، أنا قراقوش بطران». بَلَغَتْ صيحةُ أبيه عمَّاته في المجالس العليا، ورَجَّعَها كوْرَسُ الصغار: «أنا بطران». وهم يطاردون بها القطة العوراء لتتخبط هابطة الدَرَج. واختلط مواؤها المذعور بغضب سالم السردار الذي زاد حِدَّة:

«كلمتي سيف أوقِّف عليه البيت وكل بيوتكم».

وانفجر عباس:

«خُذْ رسومك وفارقني يا نوري البلا، لا تورِّيني وجهك بعد اليوم، دي آخرة ما بيني وبينك».

انصَفَقَ بعدها بابُ المجلس بالطابق الأول، وتأكَّدَ لنساء البيت أن عباس قد سُجِنَ.

بنهاية اليوم الثاني لحبسه فقدت سُكَّرِيَّة خوفها ودخلت على أخيها سالم. ذَكَّرته باعتصامه في مخلوان حورية السِرِّي ببيت أبيه لا يخرج لمدة عامين، بعد أن حَرَمَه مصطفى السردار من الالتحاق بمدرسة القلعة العزيزية والمعروفة بمدرسة تحضير البعثات:

«حرام عليك يا خويا سالم تعمل في الولد ذات العَمْلَة اللي عملها أبونا فيك أول طلعتكَ وطيَّرتْ عقلكَ. يا خويا إنتَ ما شفت النور حَوْلَين إلى أن نَوَّرَتْكَ طَلَّة بيقم على حياتك. أنا وسوست بعقل بيقم واستدرجتها من بيت أهلها، ودخَّلتها عليك وقعت عليها عينك وارتدَّت فيك الروح، إنتَ

حَلَفتْ تحفظها لي جميل، هذا حفظك لجميلي؟؟ تحرق قلبي على نور عينيّ عباس؟».

«يا أختي لا تكبِّري القضية، أرسلناه يدرس هندسة أو تجارة، راح انفلت فلتة أعمى في ظُلْمَة على الفن! بكرا الناس يعيِّرونا، ويقولوا ولدهم فاشل، يحمد ربَّه إني رجَّعته يشد عَصَبَه في محلاتنا».

كيوم ولادة عباس يصطف الصغار والكبار على الدرج، يُتابعون وينقلون مجريات المبارزة بين سُكَّريَّة وسالم.

«يا خويا هذه بعثة من جنرال موتورز. يقولون إنها أكبر شركة سيارات في أمريكا، شافوا تصاميمه وقالوا له: إنتَ عبقري! الأغراب شافوه وإنت عينك ما ترضى تشوفو».

«مِنْ متى نحن في حاجة لجنرال زفت هذه تدرِّس ولدنا على حسابها؟! أنا سمّيته عباس على اسم جدنا الأكبر الذي كان أوّل من وضع الأوقاف بمكة؟! ووَقَفَ أحسن بيوت مكة لله، يعني أعطى عطية للزمان ما تفنى. يخبط يِرْقَع البزنس اللي يحب، لكن تحت إيدي. أما آخرتها يوقف مُخّه واسم العائلة على شركة سيارات وخزعبلات أجانب تُطَبِّل له ويشخمط لها، لأ يعني لأ».

تتأمله بيأس، غير مُصَدِّقة: «إنتَ شفت السيارات اللي يرسمها، شَيْ يطيِّر العقل. يا خويا هذا الولد بيخلق شَي لم يُوجَد من قبل، ولا خَطَرَ لأحد على بال».

«يا سُكَّريَّة الولد عقله طاقق ومحشي صرعات، لو سيَّبناه والله يفضحنا فضيحة نعجز نرفع رؤوسنا بين الناس بعدها».

تطرف عين سُكَّريَّة، تذكر حوارها مع نورية التي أبلغتها منذ شهر بفخر عرض جنرال موتورز، «حبيبي ونور عينيّ هاتفني مثل الطير الفرحان يختلج، وقال: روحي يا عمة، اكتشفت مؤخرًا طرفًا لروحي متجسِّدًا في مصمم السيارات الأشهر الإيطالي جيورجيتو جيوجيارو، المصمم الأكثر عبقرية لكل الأزمان». يومها، ورغم فخر نوريَّة، انتاب سُكرية خوفٌ على عباس، وتمكّن الأوهام منه في الغربة.

طردت سكرية الذكرى وواصلت محاولتها إقناع أخيها:

«يا سالم وَلَدك عقله في السما، عكس إخوانه المصفَّدين في الأرض، وصَدِّقْني عباس ذكي ووَازِنها. يكفي أنه حامل لبكالوريوس معمار إسلامي».

يضرب سالم خرطوم الشيشة بالأرض مُجسِّدًا أعتى ديكتاتورات السردارية، ويتطاير جمر الشيشة. يسرع الصبي الباكستاني يجمع الجمر عن السجاد.

«أيّ معمار هذا الذي ضحك به على ذقوننا؟ قال إيه...»، يتقطَّع كلامه غيظًا، «نَقْش وشَخْلَعة مكة! ينسى البيت بأركانه ويغرق في عباءته. يا سُكَّرِيَّة عينه تتبع نَقش الحِنَّة، أنتِ حاسة بمصيبته ولّا لأ؟! رجل شَنَبُه خَطّ والحياة عنده حريرة مُطَرَّزة، يُفني نظره يدرس تطريزها، والآن فَنّ علينا بتطريز السيارات؟ خلِّي الواحد ساكت على خيبته، تظنيه مهندس؟ هذا خيَّاطة بثوب».

تفقد القدرة على الرد، تلين لهجتها في محاولة لتهدئته:

«ولدكَ كان ناوي يحضِّر ماجستير تصميم هياكل -ماشاء الله- لكنك حَرَمته، جرَّك له على خشمه كسر قلبه، كسر روحه».

«مَنْ سَمِعك يظن: كان بسبيله يصمِّم هيكل سليمان. يا سُكَّريَّة ما يليق به كلام النسوان وقلبه وروحه والصيني اللي يتكسَّر في صدور الرجال! الرجل لازم يمشِّي حياته بعقله. القلب ما وراه إلا الوجع».

«القلب طلَّعك مِن وجع راح بعقلك».

«لا تحاولي، ما له رجعة لأمريكا، مسحناها من الخريطة. فهّميه هذا. هو يعزِّكِ ويسمع منك».

«يا خويا لا تتجبَّر معتمد أن الولد محترم كلمتك، هذا يقدر يقبل البعثة ولا يحتاج منكَ قرش».

«والله بيمين لو عَصَاني أجيبه من آخر الدنيا. فهّميه كده، أرسل وراه اللي يجيبه في كيس، وأرميه في مخازني. لا يظن كونه شَمّ صُمَاخ بَاطه يقدر يتحدَّاني».

«كأنه أمس يوم سمعتكَ تتكلَّم عن توسيع المخ والتجارة من مكة لخارجها؟! وآخرتها عقلَك موديلِ سنة ما حفروا البحر».

يكتم الابتسامة التي يُثيرها وصفُها ذاك:

«الله الغني عن أمريكا وغُربتها، دول ليلهم نهارنا ونهارهم ليلنا، يعني إنتِ وهو يفصلكم ليل لسنوات. سبع سنوات يا سُكَّرِيَّة يهدر دماغه في خرابيط ورسم سيارات، يعني بزرة باهَبل ويبقى باهَبل. والله يستاهل يضحكوا عليه وعلينا».

«مَنْ ضَحك يضحك على نفسه، عبّاس فيه شيء من الله ما حط يده في شيء إلا انقلب ذهب».

«ما خرابه إلّا من عقلكِ البرّاني هذا، فكِّري بعقل ناسنا. مثلًا لو جينا نخطب له بنت ناس وسألونا: ما شغلة ولدكم؟ نردّ يرسم سيارات؟ شغلته الشخبطة؟ والله يطردونا ولو حَكَم جَدّنا مكة ومَلَكنا مال قارون وسُمعة الصحابة».

«يا خويا الشخبطة هذه أنتوا بتركَبوها وبتدفعوا فيها ذهب أحمر. السيارات موضة وسوف تأكل الدنيا. بكرة تشوف. وولدك عباس مُصَمِّم سيارات، يعني يجي يوم نركب وتركب الدنيا من شرق وغرب تصميماته، ويرفع راسك. لا تحاول تصغِّره وتقول شخبطة، وما لها الشخبطة؟ خليه يشخبط ويكسب ذهب، أشطر مِنَّك ومن أجدادنا اللي داهكين نفسهم ورا القرش. تكره له يكون حُرّ ومتمتّع، عشان إنت انسجنت معانا في سجن أبونا؟ تحب تصير صورة عن مصطفى الهول وتدفَع أولادك ثمن شبابك المندمل في بيت المُدَّعى؟ يا ما شُحْت ونُحت يا سالم بأن أصحابك راحوا بعثات ورجعوا أطباء ومهندسين وطيارين».

قاطعها نافد الصَبر: «الله يرحم من بَكّاني وبَكّى الناس عليَّ، ويلعن من ضَحّكني وضَحّكَ الناس عليَّ. بعثتي لم تعطلها خيرةُ أبويا، إنما مكة اختارتني لا أفارقها. شوفيني في أحسن حال، يعني المتخرّجين من بعثات رجعوا بإيه؟ أطباء ومهندسين وطيارين. شوفيهم اللي موظف كحيان واللي غارق في الديون، وحتى اللي عيّنوه وزير، ما هو إلا أبو طَقَّة، يعني

شُخْشِيْخَة بمشْلَح وعقَال. وولدِك دا باهَبَل جايب بكالوريوس معمار بامتياز ولا وجد وظيفة، يعني تَعَب أربع سنين ضاع بلاش. أنا توسَّطت له عشان يقبلوه مُدرِّس بجامعة الملك عبد العزيز، تبرَّعت أرمِّم لهم الأقسام المنخورة حتى قبلوه والوظيفه تنتظره وهو رافض ومستهين بالوظيفة بسبب وهم مُعَشِّش برأسه وعَمَى بصيرته».

«حبسك لعب بعقلكَ، صار حكمكَ على الناس الفلوس؟ إذا عباس أعمى مين المُفَتَّح؟!! انتوا ضَنَّيتوا عمركم تكثروا في أموال أجدادنا، إنتَ شَاطح وناطح بأموال ميتين، وصَدَق اللي قال مال الميت ميت، يعني انتوا بتكثروا في مَيِّت، بينما عباس فتح لنا بابًا جديدًا، ابتكار يبيض ذهب، وتجازونه بأن تقهروه».

«خلاص يا سُكَّرِيَّة، لا تلوِّعي قلوبنا، هو يؤمر وأنا جاهز، لكن أمريكا لأ. نجوم السما أقرب له».

«لا تتفشخَر وتضحك عليَّ وتقول هو يؤمر، وإنتَ ناشف مع أولادك، تتبرع بملايين لبناء مسجد، وتقطِّر لهم بالقطارة، تظنّ المساجد هي التي تبني لكم البيوت في الجنة؟».

«غرضي يصيروا رجال ويعرفوا قيمة القرش، وبعدين الرزق هذا كله لمين؟ كل شيء راجع لهم. عسى يستاهلوه».

«يرجع لهم بعد موتك يا خويا؟! تريدهم ينامون ويحلمون بموتك. وَسِّعْ عليهم ومَوِّل أحلامهم بالرزق الذي سقط في عُبّك بارد مبرَّد؟».

«ما فتحها علينا إلا رضى والدينا، لا بارد ولا مبرَّد، طلبنا رضاهم ولو على رقابنا؟».

«و الله ما طلبتوا غير رضى ملايينهم. تخافوا تقولوا بُم، يتبرّوا منكم ويحرموكم الورثة».

يتأمَّلها بعجب: «تعرفي يا سُكَّرِيَّة؟ أنتِ من صغرك تكْرُونِيَّة بِيِضا، تبربري وتكسِّري رقاب الكلام وتخلطي عَالِيه سَافله. من رَوْحتك للفراعنة رَكَّبوا لك مكان راسك موسوعة كلها شعارات، وما ينوبنا من فتحها إلا

وجع الرأس...». ينظر في عينيها ويكمل بهدوء محاولاً ترويضها: «إذا تحبيه نسّيه أمريكا. وكمان قولي له يتمرجل شوية، وَجَعْ في وجهه، وَاجِع لنا قلوبنا».

«المَرْجَلَة عندكَ هي القسوة؟».

«أيوه». تَرِنُّ كلمتُه في المَقْعَد والدهليز ورؤوس المتنصّتين وتُدهشه حتى هو، يُصمّم: «و اللي ما عاجبه يدق رأسه في الجدار». يدفعها الحجرُ في صوته للاستعطاف:

«شوف يا خويا». وتَعرض سكّرية عليه رسوم عباس، هياكل سيارات عجيبة. ينظر لها بلا مبالاة ولا يمد يده لأي منها.

«جسمي يقشعِّر حين أدقِّق في رسومه، عالم غير عالمنا يعشش بعقل الولد خلّيه يطلّعه على وجه الدنيا. الفن يا خويا باب ما له أول ولا آخر. شوف الأقوام الماضية، أمم راحت ما بقي منها غير فَنّها».

«الفن ما له غير معنى واحد: مسخرة وبَطَر وبَهْدَلَة. هذه نتيجة فلتته في بيت الإسطنبولي، من صغره لحس عقله بخزعبلات سيّاراته».

صارت نورية تحضر لبيت العائلة تحوّم، تتشمم أخبار نور عينيها إلى أن قرّرت أن تدخل لتقف إلى جانب سكّرية. دخلت تنهمر من عينيها دموع حارّة وتنظر في عينَيْ أخيها. بمجرّد أن رآها انفجر فيها: «إذا قلبك محروق عليه الزمي بيتك مستورة، ولا ترجعي تدخلي علينا وتقلبي البيت جلسة عزاء ومناحة».

«سبحان الله في سماواتكم المطبوقة، القلب الذي لا ينوِّره الفن جيفة ميتة، حبيبي ونور عينيّ روحه في أشتات الأرض، وفنّه يدفعه يطوف يجمعها. الإنسان منا شتات حتى يجمعه النور المودعه الرحمن فينا، وأخويا سالم ورث عشق أبونا للظلمة. يعمى، وأول ما يقع ظلمه على فلذة كبده، بينما عباس مُلهَم بالنور، أنا لو من السِرداية طيّرته يدخّلنا التاريخ، والله لو قال لي حابّ يروح الصين طيرته لها وتبعته».

عيون قِطَط

1994

غيابه لأربع سنوات جعله يغيب عن كثير من التطوّرات في العائلة. خاصة تطورات الأولاد الذين كبروا. وخاصة بنات الأعمام اللواتي كنّ معزولات عن نظره، حتى في زياراته القصيرة.

القرار الحاسم الذي نقلته سُكَّريَّة أرسل عباس في نوبة جنون. استغلَّ اجتماع العائلة ظُهر الخميس حول سفرة سُكينة وصدمهم بمسرحيته التي صَبَّ فيها جامَ غضبه على نوري لصواب نصيحته له بعدم الرجوع. أراد أن يمحو آخر ملامح نوري من سجل حياته. بتشفٍّ أحرق عباس محتويات الحقائب من كتالوجات وصور للسيارات وآخر موديلاتها، أحرق حتى التصاميم التي تشاركا في إعدادها وتُظهر عبقرية نوري، أغاظته تلك التصاميم بالذات.

لم تنجح سُكَّريَّة إلا في إنقاذ القليل منها أخفتْها في سِيْسَمها الجاوي حتى لا تأكلها عثّة.

«خَلِّيه يظنّني عصيته وهَجِّيت على أمريكا، وخلِّيه يرسل البلطجية يبحثون عني هناك، وبالذات نوري لا يعرف طريقي». استحلف عمَّته سُكَّريَّة فأخفته بنفس المخلوان الذي اعتصم فيه أبوه سالم من قبله. كل من تنتابه نوبة جنون أو قهر من أهل البيت يعتكف بهذا المخلوان حيث علَّقت حورية ثوب عرسها، وحوله أكداس الورد تُثير مخيِّلات الأجيال التي تتالت على البيت.

في الضوء الشحيح وَاجَهتْه تلك المرأة بثوب عرسها. فَكَّرَ أن نوري

يلاحقه بتلك الهلوسات، أغمض عينيه بقوة، وحين غَطَّ في النوم انحنى رأسُه مستندًا لقدميها ومضى الليل. تركت الكشاكشُ على جبهته خطوطَ بَخْتٍ متضاربة، وغاصت صلابةُ الأرض بجمجمته وفاقت وَقْعَ كلمات أبيه!

يشعر عباس بخيال نوري يجوس حول جثته، يَجسُّ أنفاسه ليطمئن أنه لم يمت، ويتمنَّى أن يموت فعلًا لكي يغيظ نوري.

بعد أسبوع جرؤت سُكَّرِيَّة، وبحذر ففتحت الباب وأطلَّت، شَعَرَ بحضورها ولم يلتفت، خافَ أن يصدمها انقلابُه، ولحيته التي تطول والأوراق التي تتكوَّم حوله من تلقائها. لم يجرؤ أن يثبِّت عينيه في عينيها لكي لا ترى أن انقلابه ذاك ما هو إلا نكاية بنوري.

مع اليوم العشرين جرؤت سُكَّرِيَّة مرة أخرى ففتحت الباب تتلصَّص، وأيضًا لم يلتفت إليها مُنْكَبًا يكتب. حصر في كتابته كل أساليب القمع التي يريد أن يخمد بها عبقرية نوري.

في يومِه السبعين في تلك العزلة، جاءت سُكَّرِيَّة. كان كأنه ينتظرها، فهي التي أدخلت عوالم الكتب إلى مخيّلته. سلَّمَها مخطوطة كتاب عجيب بعنوان: العلم والإيمان.

انهمكت سُكَّرِيَّة لأيام تقرأ تلك المخطوطة، ولم يعرف أحد قيمة ما تحويه، لكن المخطوطة انتهت في صندوق سيسم سُكَّرِيَّة، ولم تطلع قط أو يسأل عنها عباس بعدها.

«بركان في صدره، طفحت حُمَمُه واستراح».

في اليوم المائة دار المفتاح في القفل على غير موعد. تَلَفَّتَ عباس مُتَوَجِّسًا وأطلَّت تلك البنت، بوجهٍ على شكل قلبٍ مُحَوَّط بعُرْفٍ أسود ويتموَّج في خصلات تصل إلى ركبتيها.

«أنتَ باهَبَل؟»، سألت بخفَّة دغدغت جسده، بينما جَفَّ ريقه والتصق لسانه بسقف حلقه، ولم تنتظر جوابه: «أنا بدور، بنت عمَّك سليمان. يقولون عقلك كله شخابيط أمريكاني، يعني ممكن تكون سبور وتعلِّمني الحُبّ على أصوله».

أرخى عينيه حياءً. اقتربت منه فتراجع، تَمَنَّى في تلك اللحظة أن يَتَلَبَّسه ظُرْف نوري وذلاقة لسانه، هل تَخَلَّص في تلك العزلة من نوري نهائيًا؟ ارتعد للفكرة،

«هاا؟». تدور عارضة عليه ثوبَها الضيّق القصير فوق الركبة، وفتحة الصدر التي يطفح صدرها منها: «ناقصني شَيْ؟ ولّا على مزاجكَ؟». شَدَّتْ يده لخصرها فانتفض متراجعًا: «ما أخون عَمِّي في عِرْضه».

انفجر جوابُه ذاك مبحوحًا وكان فيه حتفه. شَعَرَ بثقلٍ، وقَدْ فارقه نوري بمواجهة أهم اختبار.

«لا سبور ولا عبقري ولا شخابيط يا عباس باهَبَل، رُحْت وجيت مَكّاوِي، مكّاوي دَقَّة قديمة».

الوجه على شكل قلب أخرج عباس من اعتصامه:

«يا عَمَّتي سُكَّرِيَّة لا أمريكا ولا سيارات. لا يُسعفني غير هذه الفيراري أركبها». ضحكت عمَّته.

سَبَقَه لأبيه خبرُ مغادرته لاعتصامه فعلّق: «والله؟! أخيرًا تنفستْ جَهنّم؟!».

شَعَرَ عباس بعُري وهو يقف أمام سخرية أبيه وقد فارقه نوري: «مَا لَك واقف على بابي زي بنت مكسور خاطرها؟!».

«إنتَ سبق ووَعَدتَ وقلت: عباس يؤمر وأنا حاضر. اخطب لي بدور بنت عمي سليمان».

لكن اللطمة وجَّهتها له بدور نفسها، وكانت أثقل من أن يتفاداها:

«مش ناقصني مَكّاوي دقة قديمة؟!». ورفضَته.

وكرَّرت رفضها أمُّها الهانم السنديَّة، وأضافت التحذير:

«لا تقولوا ولد عمها وتضغطوا عليها، بنتي آلاجار. مودرن وتحلم بمن يطلِّعها على وجه الدنيا، مش يردَّها للبلدي».

تحوّل عباسٍ إلى «قيس القرن العشرين». هام على وجهه، وترك حيرةً وألماً بقلب سُكَّرِيَّة: «الولد جاله لُطف. يلاقيها من فين ولّا من فين؟ يجيكم يمين تجوا له شمال».

مشى عباس الطريق الصحراوي من مكة إلى جِدَّة على قدميه. سبعة وأربعون كيلومترًا من صحراء لا يمشيها أحد، لم يرافقه ولا حتى نوري بخِفّته. يسير مترنِّحًا في حَرِّ الظهيرة على حواف الطريق السريع الذي يخترق في رمال وجبال بركانية سوداء، وتلاحقه سخريةُ أبواق السيارات المارقة. وعندما رجع ظهر مثل حطبة جافة في بيت عَمِّه سليمان يرجوه ألّا يردَّه:

«خلِّيني أشوفها، كلمة ممكن تِحَنِّنها عليَّ وتقبلني».

وحين انفرد ببدور في صالون فيلتهم بجِدَّة، راح لسانه وجاء في محاولة يائسة لترطيب شقوق شفتيه، ولم تكف أطرافه ترتعد. ركع أمامها، حين امتدَّت يده متمسّحة بركبتيها تركتْ خشونةً. الجنونُ بعينيه قَدَحَ قسوةَ بدور:

«لا تذلَّ نفسكَ أكثر، أنا جئتكَ لِحَدِّك ورفضت. أنتهى، راحتْ عليك. قلبي اللي رفضته أعطيتُه لغيرك».

«ما كان رفضًا».

قَاطَعَتْه بشراسة: «كان هَبَل، رُحت وجيت باهَبَل».

ليلة أُعْلِنَتْ خِطبةُ بدور لابن السلحاني قطع عباس الخمسمائة كيلومتر من جِدَّة إلى المدينة المنوَّرة سائرًا على قدمَيه مسافات أو راكبًا مع أغراب، يعتاش على لقَيْمات يتفضّل بها الأغراب عليه شفقةً، اخترق المسجد النبوي كشبح وانحطَّ في الروضة متعلقًا بحاجز قبر المصطفى:

«داخل عَلَيك تجبرني. سلام عليك يا حبيبنا، قلبي مرمي على بابك مع القلوب المكسورة لملمها بسلامك».

وغَفَا مُسْنِدًا رأسَه لحاجز الحجرة النبوية، وحَلِمَ بالحاجز يتحوَّل

لنسيج أعين تُرَطِّبه بدمعها، غَرَفَ في الحلم من دمع المصطفى ومَسَحَ كامل جسده، حين أفاق كان الثقب بصدره قد التأم.

لا أحد يصدِّق الدافع الذي جعله يقوم بهذه الرحلة راجعًا إلى مكة بعزيمة المصطفى، دخل على أبيه ويُقال إن سالم السردار شَعَرَ بقلبه يبكي دمًا، لكنه لم يُظهر تأثّره من هزال ابنه الذي وقف أمامه قائلًا:

«صبي في محلاتك لن أكون. خَصِّصْ لي مشروعًا باسمي استثمر فيه عَرَقي وأحلامي. وإلا قَسَمًا بالله أطير على أمريكا وخَلِّي الإنتربول يجيبوني لك جثة في تابوت. أعمل في نفسي مصيبة وأحسِّرك عمركَ. ترى ما بيني وبين النهاية غير شَعْرة».

«أخيرًا بيَّنت الجنَان اللي شربته من سُكَّريَّة؟! لا تهدِّدني وتقول أطير، بتليفون أسجِّلك في القائمة السودة يرجّعوك من المطار ويرموك في السجن، ما تلحق تِحيل ولا تميل». اختلج عِرْق بصدغ سالم السردار الذي لا تهزّه مصيبة، وأكمل: «وبعدين اللي عمره خلَّص يتوكَّل، الله لا يرده. على العموم بجنانك أنا معتبرك ميِّت بالحيا».

«أنتَ وَعَدتَ أمي سُكَّريَّة وقلت: عباس يؤمر وأنا حاضر». يقاطعه بنفاد صبر:

«أووه... ها أنت تكرّرها! ليتها ما كانت كلمة قلناها».

«أنا طالب رُقعة من رُقعِ ثيابك التي لا يأكلها حطب ولا نار، أرتقها وأستر عورتي، أنا وثقت فيكَ واستشرتكَ في بعثة جنرال موتورز، وأنتَ ضحكت عليَّ قلت: تعال نتفاهم... جبتني وقفلت عليَّ مثل كلب».

تأمَّلَ الأبُ في اليأس الذي تَرَكَ ظلالَه على وسامة ابنه الأثير:

«لا تحلم أكتب لكَ قِشَّة من التجارة، ولا حتى دُكَّان ذهب وصيرفة، هذا حقّك وأخوانك، بعد موتي يُقسم بينكم بحُكم الشرع. لا تظن لأجل عيونك أحرم وارث من إرثه فيحرمني ربي رائحة الجنة».

«ما طلبت منَّك جَنَّتك. اعطيني أخَسّ ما في ممتلكاتك، وأنا أبدأ من الزيرو».

بعد تفكير قال الأب: «عندك ورشة الحِدادة بالمدينة الصناعية بجِدَّة، هذه أُسّ المشاكل، العمَّال اليمنيون والسوريون أكلوني وكَلْكَلوني. وما عندي وقت أنزل لهم كل يوم والتاني أشرف على حساباتها. ولا أغشَّك يمكن ديونها ثلاثة أضعاف ثمنها، ولست مستعدًا لتسديدها. تريد أن تتولاها الله يبارك لكَ فيها، تتصرّف في بلاويها. أقلَّها ما أظلم أخوانك وأَخُصَّكَ بعطية. تحب تصنِّع قضبان نوافذ وأبواب حديد اتفضّلْ. حدَّاد أشرف لكَ من فَنَّان تِمَسْخرَك جنرال بلاوي».

«اتفقنا، آخذ الورشة. انقلْ ملكيتها باسمي واشطبْها واشطبْني من حساباتكَ».

«لا تظن يِعْوَجّ حالكَ وأسكت لكَ، كلمة حُرّ هذه امسحها من راسك ومن كل الكتب اللي تقراها، لا تظن نفسكَ حُرّ وأنت ولد السردار، اسم السردار قيد على رقبتك لو حاولت تكسره تنكسر رقبتكَ».

أدار عباسُ ظهرَه لأبيه مغادرًا، فاستوقفه على باب المجلس: «آخر نصيحة، خذْها وارميها في البحر، بدل الحِدادة والبهدلة، اسمع كلامي واستلم وظيفة الجامعة. كَرَبتنا وطَفَحَتْ حوصلتنا ومخازننا ببقايا الهَدَد الذي طفت إنت والجني اللي راكبك ولملمتوها من كل دمار. راكبك جِنِّي لافحك بالكركبة على كل باب وطاقة. يعني ما عرضنا عليك وظيفة عكس هواك».

«الجامعة يجي وقتها، الآن أحتاج أتنفس وألاقي نفسي لوحدي من غير وساطاتكَ».

«شهادتكَ وساطتك، يا ولد لا تِحْرن زَيِّ الحريم وتخليك كده نَيّ. اجمدْ! طول عمرك لما يِرِنّكَ العيال عَلْقَة تلاقي سلوتك مع الصنايعية، وكل ما غطست لقيناك مع البَنَّا باوزير الكبير تنبش راسه عن حِرْفَتْه».

أمام عناده تحجَّر صوتُ أبيه: «تقول دارس معمار يللا أثبت ودَرِّس هندستك، وإلّا والله بيمين مالك عندي إلا ماكينة سِنْجر وافتح لك مَشْغَل، واربط على راسك طرحة وألبّسك على كل إصبع كشتبان لولي تخيّط

للحريم». ويكمل رافعًا من نبرة صوته: «ترا لو غضبت عليك ما تربح، تعال شُخْ على قبري لو فَلَحْت».

واصل عباس الرحيل، قَطَعَ الصحراءَ من مكة إلى جِدَّة حيث الورشة بحيِّ الصناعية، وَقَفَ في وسط الورشة وبأعين العُمَّال على هاتفه الجوال سيمنز الضخم اتصل بأبيه:

«أنا طردت المدير السوري وأنتظر منك أوراق الملكية».

بصقَ المديرُ المطرود على الأرض. حمل أغراضه وغادر. مشى عباس كلَّ مشاويره على قدميه ولم يجرؤ أحد من العائلة على اعتراضه.

«ولدكِ يا سُكَّرِيَّة الجِنّ يمشّونه على أخفافهم، حاشا ما هذا مَشي بَشَر. مستقوي بحليبهم. أصله من صُغره رَضَّعوه وصار واحد من أولادهم، تظنِّي موية رُزِّكِ يا سُكَّريَّة هي اللي كَبَّرته؟». قالها والده وقرّر أن يمنحه أوراق ملكية الورشة.

الجِنّ، أو موجة الجنون، ظلَّتْ تحمل عباس على قرنها وتتنقل به من مكة إلى المدينة إلى جِدَّة، وتُرقده في العراء وفي بطانية الحارس تحت سقيفة الورشة. موجة لم تنحسر حتى انتقلت الورشة إلى مِلْكِيَّته. ومِنْ يومها صار يصحو مع أول خيوط الفجر، يلمح خيال نوري بآخر الورشة، يتحرَّكان بصمت، يجيئان للأنبوب الذي يصرِّف العوادم، ذلك (الشَكمَان) المنزوع من سيارة معدة للتشليح، يتبولان عليه ويتشاركان الشعور العميق بالارتياح، يجمعهما طقس التبول ذاك كل صباح، يفتتحان به يومهما. هذا الطقس كان تعبيرًا عن الهدنة بعد الفجوة الكبيرة بينهما.

على مدى سنة لم يعرف أحد ماذا يعمل عباس في تلك الورشة. أغلقها بوجه العيون المبعوثة من قِبَل أبيه للاطمئنان أو للشماتة. انتشار خبر تلك الصفقة أثار المزيد من السخرية في لقاء لإبناء العائلة، وعلّق ابن عمّه صادق:

«ماذا نتوقع من باهَبَل، استبسل أمام أبيه الديكتاتور سالم واستشهد للحصول على دجاجة ميتة يحلم يِبَيِّضها ذهب».

بعد عام خَرَجَتِ الورشةُ من حجاب السِريَّة الذي أحاطها، وتَفَاجَأ الجميع بأنَّه قد حوَّلَها لتصنيع أغطيِة عَدَّادات الكهرباء، وباع بالملايين لشركة الكهرباء. وفي عامه الثاني تَمَكَّن من استغلال أرباحه في بناء مصنع لتجميع وتصنيع عيون القطط التي تُثَبَّتُ بأرضية الطُرُق السريعة لتحديد المَسَارات، وتضيئها بضوء فسفوري ليلًا.

«الله الله على ولدي عباس، دَخْلَتُه على النبي ما رَدَّه، فتح عليه رزق ولا المطر. حَكَى لي كيف حلم على قبر الحبيب بالورشة وحديدها والعيون، وفي الرؤيا قرأ المصطفى على قلبه آية: وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ...».

وَزَّعَتْ سُكَّرِيَّةَ القهوةَ الحلوة بكل المُدَّعى وحي الصناعية بجِدَّة، وتفجَّرت بفخرها وعَيَّرت الجميع:

«ما يقصِّر عنه الكبار الطَحَاطِيح هو يُوصلّه. بكرم يُحسن ويجزل حتى لمن عيَّره بـ باهَبَل. سدَّد لهم ديونًا وفَتَحَ لهم أعمالًا، وشَغَّل كل الصايعين الضايعين في العائلة».

الثروة التي كَوَّنها عباس سريعًا أربكت كاملَ العائلة، ولم ترحمهم سُكَّرِيَّة، «صحيح أنكم أولاد دُنيا، اللي شويتوه بألسنتكم، أكلتوه وكَلْكَلْتوه تُعيّرونه: باهَبَل باهَبَل، الآن تتلحوسوا حوله، تكَبّروا له وتنادوه: يا عمدة؟!». تضحك ضحكتها القوية: «عباس شُغْلُه ومَشْغَلَتُه كهربا في أنوار، على أبوابكم ظِلَّة لعدَّاداتكم، من حرائق الكهربا اللي مع كل مَطَرَة والتَمَاس أكلتْ بيوت البلد. وزَاد وفتح لكم عيون القطط دليلًا لطرقاتكم ورَشَّها بحَذاقته في طريقكم. فين تروحوا منّه؟ الله يرضى عليه، قَفَّل ورشة القضبان. ما عاد نبغى قضبان حديد لا على عيوننا ولا على شبابيكنا. هذه عيون حبيبي عباس وعيوننا انفلتت من حبسها وعماها ترفض أي شيء يغمّها ويحجبها عن الأرض والسماء».

ويتغَامزون وراءها حسدًا: «هذه عيون الجِنّ اللي شالته وسافرت بيه، الآن عَمَّمَها تسافر بخلق الله».

تبلغ الأخبارُ الأب سالم الذي يكتم فخره: «صحيح أن آخرة العيد طراطيع».

تلتفت إليه سُكَّرِيَّة: «أنتَ بالذات يا سالم، شَايلها لكَ شَخَّة على قبرك».

يبتسم ساخرًا من جرأتها: «إذا، إذا فَلَح أَحَبُّ ما على قلبي شَخَّتُه».

يتقوَّس حاجباها دلالة الغيظ لتصميمه على التشكيك: «إذا هو استحى على شيبتك أنا مستعدة أعملها. أنتَ بس ودِّعْ من هنا وأنا نذر عليَّ أدخل مقبرة المَعْلاة وراك مخصوص أسلّمَك الأمانة».

لا تتبدَّل ابتسامته الساخرة، تتدخل نورية: «يا ناس مين عمل لنا شُخْطَة ونُقْطَة نصير كده زَيِّ كلاب شَرْمَة. يا ناس افرحوا اليوم واتمزَّزوا بخيره، وبُكرة على الله». تَتَوَجَّه لها العيونُ باتهامٍ. يشكّون بأنها مصدر رأس المال. يتداولون بينهم:

«عباس لاحس عيونها بحكاية أنه نور عينيها، لا تستبعدوا ضحك عليها وكَتَّبها مليون».

«حرام بالله ما كتبت له مليون ولا نُص، كلها ألفين ريال عيدية نور عينيّ».

نوري هو الذي صَمَّم على رحلة (فينيسيا) بدعوى الاحتفال ببلوغ ثروتهما عشرات الملايين. ليلة وصول عباس للبندقية أوحى له نوري بكل خطوات الرحلة. بدأ بأن أخفى وجهَه بقناع أبيض كقناع شبح الأوبرا، استأجرا مُغَنيًا على الجيتار، تجوَّلا بالجندول في كل قنوات فينيسيا، بينما ارتفع مع حماستهما الماء للكواحل. وبشطحٍ من نوري وقفَ بحذائه اللامع غوتشي غارقًا في الماء على مرسى فندقِ جراند كانال. أحرق قناعه وألقاه للماء مشتعلًا وفاحت رائحة شوش الشياطين.

في الصباح شجّع عباس على التوجّه إلى مصنع مورانو للزجاج، وفاجأه يفتح الحقيبة الطويلة التي تشبه حقائب الآلات الموسيقية ورافقتْه من مدينة جِدَّة، وأفرج عن ذلك الشكمان القديم، ما إن فَكَّ لَفَّتَه من البلاستيك حتى فاحتْ رائحةُ بولٍ نفَّاذة مخلوطة بشحوم. تَبَسَّمَ المُعَلِّم

ماسّيمو، وتوسّعت الابتسامةُ حين صبَّ المعلم الزجاج الأزرق الثقيل في القالب الحاوي للشكمان، وفوّحت حرارتُه أبخرةَ الشحوم والبول، عندها انفجر عباس بالبكاء.

رجع عباس بتلك الجدارية الحديثة، الشكمان المصبوب في زجاج مورانو الأزرق، محوَّطًا بقالب حديد بعرض 150 سم، وطول 50 سم، وسماكة 12 سم. عَلَّق الجدارية وراء مكتبه في وسط مدينة جدة، سمّاها: (مشنقة رضى الوالدين). وتكتَّم على اسم الفنان، ولم تفشل اللوحة في إثارة اهتمام زبائن المكتب مهما كانت خلفياتهم. كلما تأمَّلها تدمع عيناه.

عندما عاد من زيارته لوالده قبل يوم، نظر في الوحة وقال لنفسه:

«لا خطاب جنرال موتورز، ولا شهادات التقدير والتفوّق الصناعي. ما علَّقت بمكتبي إلا هذا الشكمان، عَلَّقتُه أمانة رافعها لأبويا. عَمَّة سُكَّريَّة ممكن تسبقنا كلنا وتموت وما تلحق توَفِّيها، ولأني ولد مُتْرَبِّي ما ممكن أعمل بوصيّتها. كنتُ ناوي أرقِّد هذه اللوحة جنبه في قبره، لكن كسر قلبي ضَعفُه في شيبته، بعد حاسس بيده ترتجف على يدي أعَكِّزُه في المعلاة ونحن ندفن أعز أصحابه الواحد ورا الواحد».



قصر نزهة الأسحار

مكة، 1994

«خير يا صالح؟». تتجمَّد قطعةُ الجوخ الأصفر بيد السائق اليمني وترتعش لحية الحارس الباكستاني محمد أمين.

يتوقَّف صالح عن تلميع حُمْرَة وبياض السيارة الرولز رويس العتيقة الواقفة معترضة للبوابة. بحَرَج تنتقل عيناه من عباس إلى حقيبةَ ثيابه المحزومة على باب حجرة الحارس المُغلقة يمين البوابة. يَتَمَنَّى ألّا يلمحها عباس.

«الله أرسلك يا عَمِّي عباس»، يهتف الباكستاني العجوز من مكانه حيث يفترش ظِلَّ السور المتآكل. مُنهمكًا يُراجع ويعيد مُراجعة محتويات حقيبته الطافحة، لم تُغْلَقْ بانتظار تأكيد الحكم بالطرد.

«أبدًا»، يهبُّ السائقُ مُعترضًا، ثم يتراجعُ مُتحرِّجًا أمام الكاميرا التي يستقبله بها عباس. لا يجد مَنَاصًا من الاعتراف «على عادة عَمَّتي نورية الله ينوِّر عليها، سحبتْ منّا مفاتيح البيت والسيارة، وطَرَدَتْنا».

«وبَرْضَك مُرابط تلمِّع الرولز وتضرب لها سلام بجُوخَك الأصفر؟!!». يحمرُّ وجه السائق. بحضرة العدسة كان على اليمني صالح أن ينتقي كلماته لمواجهة تلك السخرية:

«أنا دخلت عليها وَلَد بقرون سبعة وقمل سارح، في أذني ريحانة وريحتي طالعة، قَشَّرَتْني وبَنَتْ عظمي بخير فَتَحَ بيوت أهل أهلي في اليمن، في خُبْرَكَ لما اتوحَّدَتْ أَتْنَمَّر عليها؟! أنا عبدها ما عشت».

تأمّل عباس في الرولز صناعة 1956، والتي تشجعه عَمَّتُه على قيادتها وتُنَاضل لتُبقيها حَيَّة على الطريق، تُحيي فيها جثمانَ زوجِها الإسطنبولي

الذي اقتحم بفخامتها تاريخَ مكة، يجوبُ بحُمرتها شوارعَ بداية الستينات المُتْرَبَة!

«لا يا خَبِيري ما قلنا أتنمَّر. لكن لا تِعَوِّم فِشَّتي وتقول إن السبب في الطرد هوَّ هوَّ».

يُزَرِّر صالح أزرار ياقة ثوبه اللاس الضيقة، ويعتدل مختنقًا ليليق بمقابلة الكاميرا، ويتنحنح:

«عمَّتي شكَّتْ أن البنت الحبشية حَفَرَتْ ودَفَنَتْ لها حجاب تحت الدَرَج. نادتني أنبشه، ولمَّا ما بان له أثر قالت إننا كلنا غربان على جيفة، عاملين رُبَّاطِية عليها. وقالت ما تِشْتِي غريب حولها حتى الشايب محمد أمين». وأشار إلى الحارس العجوز.

«تستاهل، كأنها اشترتكَ من دَكَّة عبيد! عشرين سنة طَرْد ورا طرد، جئتك جَبَنتْ. على العموم هي مُؤَمِّنَتْكَ على خير كثير، لا تكون بتسَمْسِر من وارها؟». مع أنه يعرف أن عبّاس يمازحه، يسحُّ العَرَقُ مما تحت كوفية صالح البيضاء الضيِّقة وتلمع شعراتُ فودَيه بيضاء: «الله يسامحك يا عمي عباس».

يكف عن تلميع السيارة ويُسارع ليدفع لعباس الباب الموارب للحديقة، ينفتح أمامه الممر المُحَوَّط بشجر الحِنَّاء المُشَذَّب.

انجذبَ عباس للجسد الفارع للمرأة المُنحنية بآخر الممر، بخاصرتها الرهيفة على مؤخرة كاملة التدوير ملفوفة في طرحتها السوداء، تغوص بين شجيرات الحناء تقطف من ورقها وتجمع في طرف الطرحة، تشعر بحضوره، بنظرة خاطفة تقرأ في وجهه اعتراضه على الموقفَ في الخارج، لغة جسدها تُحذِّره من التدخُّل، وتستدرجه لحديقتها:

«بدل أن تصوِّرني صَوِّرْ ومَتِّع عينيك بالحِنَّة». تُداعب بأصابعها خَضَار زهرة الحناء الفاتح المُتْجَمِّع في خَمَاخم، وتضيف: «يا حبيبي شفنا أسنانك اللَبَن كلها، وغَنَّينا للشمس الشَمّوسة وطلبنا سن الغزال ورمينا لها

سن الجاموسة في هذه البَخْشَة، ومُخَّك مُعَشِّش بزهر فَاغْيتها. كنت تسميها فتافيت السُكَّر الفستقي، منثورة وسط حلاوة قُطن، طافحة بعطر. كل أربع شهور أو مرتين في السنة تطرح الفاغية حلوة حلوة تطوف الحوش والبيت وتفوح من نومنا، ما تعرف هي ريحة الفاغية ولا ريحة أحلامنا. أَقُصّها وأدُسّها في ثيابك تِزَهْنِن قلبك ويهيج جنَانك اللي تسمّيه فن. وآخرتها طلعت لنا بفِتَّة الكاميرا، تدور تصوّرونا فيلم تسجيلي، والله السردارية يقطعوا خَبَرَك إنت يا نور عينيّ». يفوح صوتها رخيمًا بحنين الفاغية، تشبك له فاغية في جيب صدر ثوبه، تَتيقَّظ حواسُ عباسَ بشوقٍ لا يمكنه تفسيره.

«أتمناكِ تقوليلي سِرّ ما قلتيه ولا حتى لنفسك، دليل حُبّك لي». يُعَرِّيه ذلك الطَلَب السخيف، لكن تلك النوبات تُراجعه، حين يشعر بأن العالم يتجاهله، يأتيها لتكرّر له أنه أثيرُها. «خبريني عن السِرّ الباتع اللي رَبَطَ الإسطنبولي لكِ؟ عَلِّميني خَلطة أخلطها لحياتي مع النسوان تصير قهوة حلوة بلوز وهيل. أهو السر في الجسد؟ ولّا عندك فن ولّا حركة أكلتْ عقله؟ ولّا قوايتك ولسانك اللي يِكْنُس ويِرُشّ وتمدّيه في كل شيء؟ نجمك غَلَب نجمه؟ كيف؟ وَعِّيني: يعني مِنْ قِلَّة الحريم في الدنيا يختارك شيخ مطوّفين مكة الباشا الإسطنبولي عشان يغندرِك ربع قرن؟ لا يكون كل ذاك الدَلال لأجل منعتيه ياخذ الإبرة، وضحكتي عليه بقولكِ: إنتَ أهم عندي من الولد؟ وقبلتيه عقيم؟».

ترفع سبَّابتها بوجهه محذرة: «عَلَامَك داخل عليَّ مُعَمَّر مثل البُنْدق تِتْسوطَر وتتمسخر؟ إيه هذا الكلام الدَبْش؟ لا تقول عقيم، سحروه حتى يفرِّقوا بيننا، رَدِّينا كيدهم في نحورهم».

يسعده تحريضه لحِدَّتها: «الله الله لا تدوس لنوريَة السردارية على طَرَف تبرقعَك بخَلَاص أُمَّك. سَمّعْينا يا عَمَّة أدعيتكِ المُلَحَّنة».

لا تلتفت. تتصنَّع الغضب وتفضحها ضحكة: «يا واد لا تحَسّبني أسطوانة تدوِّرها، كنت أقول له: أنت أهم عندي... حين أشتهيه وما أقدر أصرِّح».

«قوليلي، ترا أموري مهزوزة! الحب في الفراش؟ أو في الكهربا العالية ولّا في التيار المتردد حبة فوق وحبة تحت، ونمشّي الأيام بلُبَّة وملح؟ الحب نِيَّة مبيتة؟ ولّا قَدَر ينزل نزلة السيف يطيِّر الراس؟».

«الحب؟؟ يمكن اللي جهلتُه فيه أكثر من اللي عرفتُه، لكن كانت لنا لحظات من الجنة». تفكر بحنين: «يمكن الحب هو أن يكون لك رفيق، يقصع معاك قملة الدقيقة الحلوة وتمصّوا دمها، في الفراش وفي الطاس والقرطاس».

«لكن قِرِّي على قرار، أنت مع فريق الإسطنبولية ولّا السردارية؟».

«أنا حُرْمَة اَتْوَحَّدَت وضاع بصَرْها. لكن أنت يا عباس الزيبق قاري وكاتب، ومَصَانعي وفنّان وسيد العارفين أن بيت السردار أحسن ناس، الله فوق والفلتة اللي مثلك ومثلي تحت. نحن أول بيت دخلتْه الكهرباء في مكة بعد الحرم، بلا اسطنبولية بلا نخاولة أتراك، ما في بين الإسطنبولية غير حبيبي عبد الجليل».

يضحكان لتعصّبها لعائلتها، أرخَتْ نورية طرحتَها على درجات المدخل، بَسَطَتْ عليها ورقَ الحِنَّاء للظِلِّ:

«الله الله على الطاووس الكريب دوشيه الأحمر، ورقبته المُطَرَّزَة بالزُمُرّد». تشدُّ ثوبَها القصير لستر ساقيها. يتملَّقها إعجابُه، تغيمُ عيناها بشوقٍ للغائب، وتغوص بأصابعها في سواد خصلاتها القصيرة المتداخلة بتطريزات الياقة. تتنهّد وتعود إلى الإسطنبولي:

«أيش أقول وأيش أعيد، ما في كلام يترجم الذي كان، أَحَبَّني مِنَ الله لله، كده من دون سبب». تتنهّد مرة أخرى: «تعرف يعني إيه رجل أركان حياته أربعة: نورية ونوري والفن والسيارات؟ رجل عاش مُكَيِّف وكَيِّفنِي، فشخني حتى أخذت الدنيا طول بعرض، وهو العَطّال على البَطّال مني يخلبه، قُبَّة وحسبها مَزَار. يا حبيبي نحن فينا شيء لله، اللي يحبنا يموت بحبنا».

تتقدّمه متوغِّلة في الحديقة، يلحقها متلهفًا ويقول: «وأنا؟ فيَّ هذا الشيء لله؟».

«يمكن في حضور نوري أكثر».

تكمل كأنها لم تسمع: «سُكَّرِيَّة تظنّهم بلا سبب لاحقونا نحن السردارية بالأسحار؟ السبب حظوظنا. هيَّجت الحُسّاد نفخوا وعَقَدوا تعمى بصائر أولادنا يعقدوا عُقَدَهم على رجال وحريم ما يسووا أظافر رجولهم. ما نجا من سحرهم حتى الآن غيري، لأن عيوني عَشَرَة عَشَرَة عليهم. أنا بالذات حَظِّي مَنَارَة، في طلعتي بالدنيا لَعْلَعَتْ منارتي ولَمَّت عليَّ الحُسَّاد».

كتم عباس خيبته، بينما يستمع لعمَّته.

«يا حليلك يا عباس إنت الوحيد الغاوي، تغطس لقعر الدنيا وتطلع ما يفوتك تتمشَّى معايا تَمْشِية العصريَّة. قلبك الحِنيِّن مشخّص زمرّد لابستُه ضِدَّ الهَمّ».

يمسح مديحُها شيئًا من خيبتَه:

«بيتِك حَنون مثلك، من كل مشاغلي أطلع وأتلملم فيه وآخذ نَفَس».

«هذا قصر حيّ لا يموت، أَبْهة قصور نُزهة مكة. وجِنِينَة الجوافة اللي حاضنته هي عَمَّك الإسطنبولي». تتناول العصا الطويلة من جريد النخل بالسلك المعقوف على رأسها كخطّاف، «ما كنت أستَقِل لا المُحَضْرِم ولا كان يِعَجِّزني البعيد من جَوافته. كان يشاركني الأخضر ويضحك بحنان: يا نورية لا تكوني مستعجلة. يرفع إيدي ويدفعها تحت المخدة ويقول: حِسِّيني، خَلِّي لمستي عليك تستوي وتتشرَّبيها لآخر حلاوتها ومزازتها! وأنا كنتُ أَهُبّ عليه، يسلِّمني نَفْسه ويعاتب فرحان بيَّ يقول: الجوافة الخضرة تجيب لنا دود في بطننا، والدود يسابقنا على كل لقمة ولِذَّتها».

تظهر الأرض تحت الأشجار مغطاة بالثمار التي نقرتها الطيور وتركت بقاياها تَصْفَرّ في حَرِّ مكة. تنتقل نورية لظِلَّة أكبر الأشجار المُعَمِّرة. بالعصا المعقوفة تصل إلى غصن مُحَمَّل، تهزُّه فتسقط الثمار، تتلقّف من الهواء ثمرة جوافة ذهبية ناضجة، تمسحها بين كفيها، وتُقَدِّمها لعباس:

«جَرِّبْ، سبحان الله، رغم أنها في جو مكة الحار، لكن حلاها غير عادي، من سر ماء زمزم مِزَّة وحلوة، فيها حلاوة التفاح الأخضر من غير الحموضة، بطعمة الجوافة. هذا الكوكتيل الباقي على لساني من عَمَّك الإسطنبولي».

تتباهى بأشجار ونباتات حديقتها وهي ترجع به إلى الممر المؤدي للقصر.

ترتقي درجات المصطبَة العريضة وتتقدَّمه إلى باب القصر. تدخل ويقابلهما الدهليزُ الطويل بين مجلسَيْن، والمنتهي إلى سلالم عريضة تقود بفخامة إلى الأعلى. يعود لتحريضها:

«لكن قصركِ يا عَمَّة ما نقدر نقول عنّه عَمارَة مَكيَّة قديمة، إنه على الطراز المصري الإيطالي».

توبّخه: «يعني عمارة مكة صَلَّى الله عليها وسلم؟!».

ترقبهما العشرون نافذةٍ بمجلس الرجال عن يمينٍ مُشْرَعَة بشمسٍ من الأرض للسماء على شجر الحديقة، تقابلها العشرون نافذة بمجلس النساء عن يسارٍ مُغْلَقَة وتُسَرِّب أشرطةً من النور من قَلاليبها، تُخطِّط السجادة العجمية بلون الرمّان بطول المجلس.

«أقصد للتوثيق في الفيلم، لا بد نوضِّح».

تُسايره شارحة: «أوائل الخمسينات وصلنا هذا الـ style. مثل قصور جاردن سيتي، زارنا مهندسون مصريون وسودانيون تخرّجوا من إيطاليا، صَمَّموا لنا قصور آلافرانكا، بين المكّاوي والإيطالي، وأنا على علمك لا تفوتني الموضة، وافقت فنطزَتي هوى عَمَّك، قال: لا أغنّجك بصُفَّة ولا أقفِّل بوجهكِ روشان، أبغى أنسِّيكِ حتى بيت أهلكِ».

يشعر عباس بعينٍ ترقبه في طبعات التيجان المنقوشة في الستائر البيضاء الثقيلة بمجلس الإسطنبولي، يعرف أن هذا الذي يسمعه من عَمَّتِه يصلح مادة لتصعيد سيناريو توأمه الروحي نوري، بينما ينتهز هو غيابَه لينتزعَ منها سِرًّا أو حكاية سخيفة تُقَرِّبهما. يُدرك أنه أبدًا لم يُشاركها الأشياءَ الصغيرة التي يَتَلَقَّفها نوري ببساطة ويحوِّلها إلى فَنٍّ ويصير موضع سرها وضعفها. معه هو عباس تصير أرملة باشا كسيرة، بينما مع نوري تصير مَبْعَثَ وَحي، وهذا يُشعره بالفشل، يريد أن يحل محل نوري.

«يقولوا زارتِك في مجلسك واحدة من زوجات الملك فاروق، يمكن الملكة ناريمان... هل هذا صحيح؟». تلمع عيناها لسؤاله، وينعكس

اللمعان على الأرائك المُذَهَّبة من طراز لويس الرابع عشر، يلمع قَصَبُ الستائر يُرَقِّقُ اتساع الجدران.

«دَخَلوا علينا أشكال وطرازات، أميرات تركيات، وحريم كولونيلات. كانت لعَمِّك عبد الجليل الإسطنبولي شَنَّة ورَنَّة».

تُوْقِفُه بالبلاطة المقلوعة تحت السلالم، تسارع عمته للشرح:

«الحبشية السَحّارة الله يكافيها، مسكتها في الفجر بِعَمْلَتها، ترشّ الملح حول البلاطة. وقال إيه تخوّفني، بأنها تجري على لقمة ثلاثة أيتام».

ينتبه عباس أنه لمح البنت الحبشية، بكيس ثيابها البلاستيك. كانت جالسة عند وصوله بلا مبالاة في ركن السور واضعة رأسها بين ركبتيها ترقب الطريق بكسل، ما إن لمحتْه حتى نَظَرَتْه شزرًا وأشاحت بغطرسة.

«لو ما نفتح عينينا عليهم يتمكّنوا ويقلبونا تحتهم حمير تنهق وتطلب رضاهم».

يفشل أيضًا أمام وسواس عمته. يسخر منها بينما يتماهى نوري في وسواسها، فيشاركها الشك في الخدم وطَرْدهم بانتظام. لكم يتوق عباس لِشَقِّ الوحدة بين عمته ونوري.

«يا عَمَّة، يمكن لم تقصد البنت الحبشية أن تسحركِ. باعتقادهم الملح يطرد الشياطين».

«ما شيطان غيرها، أنا لي كام يوم رَنْقِي مُعَكَّر، وأنتظر يروق ولا يروق. وقلبي يحدِّثني أنها بتكنس وتمسح بموية مطلسمة للأرض بعد ما تمسحها فوحة شُوشَة شياطين محروقة».

ليرضيها يستسلم لحكم طرد الحبشية. «أمرِك لله، شاكّة في الحبشية مَشِّيها، لكن الشيبان اللي تحت إيدك؟».

«الشيبان لَمّا يتساهلوا يصيروا نقمة. قل لصالح يحط آية الكرسي في هذه الحفرة قبل ما يلحم البلاطة، عساها تطمس السحر المحلول في التراب».

يماشيها حين تقف به أمام نافذةٍ بصدرِ السلالم مطموسة برقعة زجاج مُعَشَّق ملون. كأنها تسترجع اللحظة: «الشُبّاك غَسَلَتْه النيجيرية بماء جِيف.

سلَّطوها علينا، بعيدْ عنَّك، كلما هبّت نسمة تسري في البيت حشرات، كانت سوف تأكلنا أحياء. طمسناه بهذا الزجاج، عَشَّقه لنا شيخ قَزَّاز مُعَمِّر بإسطنبول، في تاريخه عَشَّق زجاج كنائس ومعابد وبيوت دين ويحفظ في التعشيق تلاوات من كلِّ دِيْن قطرة، كلها تُوَحِّد الله وتصَفِّي حتى ضربة الشمس، تنزل بردًا وسلامًا على البيت ووجوهنا».

يتعاطف معها، وفي الوقت نفسه يحاول أن يليّن موقفها من البنت عن طريق تنبيهها للعبثية في تكرار حبكة الشَكّ:

«بيتك يا عمتي رُقَع شَكّ». ويُشير إلى رقعة زرقاء ضمن خضرة جدارية الموزاييك يمين الدهليز:

«لوحة الموزاييك هذه نقبتيها وقلتِ انكتبت على حجارتها طلاسم بحبر سِرِّي، وما شفى غليلك إلا قلع قلبها وتبديله بهذه الفسيفساء الزرقاء!».

من دون أن تلتفت لمرامه، ردّت: «زُرْقتها وَصّى عليها الإسطنبولي من فاس، صَفّوها قطرة قطرة من دم حَبَّار ما يظهر إلا في آبار أطلس المعششة على زوايا مدافن شيوخهم المبروكين. فسيفساء طبخوها وقرأ عليها شيخ القادرية هناك قراءة تفك الطلاسم، وصَدَّرنا بها اللوحة». تتبعُ نورية عينَه اللائمة على السجادة العجمية الحمراء بوسط المجلس: «دخيلك لا تنبش لي هذه السُجَّادة، دَسّوا لنا في نسيجها غُرَز صُفر تفرّق الأحبة! عَمّك الإسطنبولي جاب بنات من قُم بمُعَلِّم، فتقوا الأطراف ونسجوها من جديد بحرير اختاره طالع من شرانقهِ ما مسّته يد ولا نَجَّسه حاسد».

أينما نَظَرَ كانت رُقعُ نَقْب ونَقْض وإعادةِ إبداع. حُفَرٌ تحت الدواليب، أحواضُ زرع منبوشة وتغيّرت كاملَ تربتها بمزروعاتها:

«ممكن هَذا سِرّ عجيبة بيتِك، هذه الرُقَع المنبوشة بإيمان والملحومة بإيمان أقوى. ممكن نسمّيها كتاب النَبْش عن الأسحار».

استسلامه لعبثيتها جعلها تتنهّد حسرة: «الله يكافيهم، كل ما ثَبَتَتْ عندي خَدّامة أغروها لأجل تتعاون معهم وتدخل عليّ أسحارهم...».

يقاطعها ضاحكًا: «ثَبَتَتْ؟! المدة القياسية التي دامتها خادمة عندك لا تتجاوز الشهر. وبعدين من هم الذين يغروها؟».

«لله في الله، من سطح الأرض وباطنها، كل من يَنْظُرنا ممكن نصحِّي غيرته وسوء حظه يسعى يسحرنا».

«هو السحر لعِب يا عمتي؟!».

«طبعًا. ناس غايتها اللعب بعقول وحظوظ ناس. هذه حال الدنيا، حتى قابيل حسد هابيل، وهو أخوه من دمه ولحمه، وقَتَلَه. وسيدي المصطفى عليه السلام هو نفسه سحروه ورموا السحر في بئر، وقالها: آخر الزمان أغلب قبوركم من عيونكم».

«يا عَمَّتي الدنيا تغيَّرت، والناس لاهية وقلوبها مفقوعة بالطفرة والحياة السريعة والغِنَى السريع، من هو هذا الفاضي يجعل همّو يسحرك؟».

«تتغيَّر الدنيا وتركب صاروخ والناس هُمَّ الناس، المَلْعَنة والحسد ما يموت حتى بعد فَنَاء بني آدم، آخر من يَرِث الأرض الشياطين. خلِّيك صاحي حتى لا يلعب بك كل من هَبَّ ودَبَّ».

«خلاص لعبوا وانتهوا. يمكن يا عَمَّة معك حق».

تُلقي له بحزمة مفاتيح: «بالله عليكَ نادي على صالح وخلِّيه يرجِّع السيارة للجراج». في إعلان لنهاية نوبة تشكيكها في ولاء سائقها، تراجعاتها الدائمة هذه مُؤرخة بالسخرية في العائلة، «خلّهم يسخرون ويقولون: نورية قلبها خفيف. شكَّاكة وتخاف من الموت وتخاف من السحر وتخاف من الحرامية، لكن شَكَّها زوابع في فنجان ولا لها آخر».

«تعرفي كيف أشوفكِ؟ أشوفك جالسة بين مرآتين متقابلتين: عين الولد الذي ربِّيتيه وتشرَّبكِ، وعين الرجل الذي عشقك وطيَّركِ، وأنت بلا آخر، في شكِّك وضحكك العالي وخوفك ووسواسك النابع من حُبِّك المجنون للحياة».

يستغلّ لينها أمام مديحه: «صَدِّقيني الملح طارد شرّ، البنت الحبشية مسكينة وتسعى على أيتام، لأجل خاطري رَجِّعيها».

مَنْدَليون

مكة، 1994

~~قلب مستوحش تسقط منه كل التابوهات~~

~~فينك ياجدتي وفين هدى شعرواي~~

دخل على سُكَّرِيَّة وهي في مقعدها المُوَاجِه لتسريحتها، تُطِلُّ عليها باقاتُ الريحان من يمين ويسار المرآة. يحوّم عباس حولها يُراقبها تتزين للخروج لعرس، راقبها لا بعينيه هو وإنما بعينيّ نوري الخبيرة بالماكياج حين قَرَنَتْ حاجبيها بالكحل، وعَزَّزت لمعة البندق القديمة:

«نارك للأبد حامية يا سُكَّرِيَّة».

«يا ولد بلاش بَكَش، ناري ما ولعت في عمري كله. ما أعطوني فرصة. فتحت عينيّ مدعوسة، وإلا كنتُ حَرَقتُ بلاد وعباد»، تضحك: «رَبِّي عَرَفَ الشوكة وسَوَّدَ رأسَها». تقشع عن رأسها طاقيَّة الكروشيه المشهورة بحياكتها وتوزيعها هدايا على بنات وأولاد العائلة.

يتشمّم عباس شَعْرَها مُتلذذًا: «حتى الشامبو تخلطيه بالريحان يا عمَّة!».

«والله لا أعرف، هل أنا التي تخلط الريحان أم الريحان هو الذي يخالطني! أقول لكَ سِرًّا؟ أنا في الحلم وراء الحلم أشوف نفسي ريحانة في الجَنَّة خالصة مُخَلَّصَة. بني آدم ثقيل ويزيد أثقاله بالخِرَق».

«يعني أنتِ كل مشكلة تِحِلِّيها بقشع الخِرَق؟ هي الملابس اللي حابستنا؟!».

«مداخل في حياة بني آدم: ولادته وموته، لا ينفذ منَّها إلا عارٍ بَلْبوص».

بِحُبٍّ وحزن تأمَّلَ في رأسها، عَلَقَات شعر ملفوفة شَابَتْ وتحوّلت إلى

لونٍ بَصَلّي، يتخلَّل بأصابعه ذلك الشَّعْر الأكرت الممحوق، تُخفيه تحت الطاقيَّة ولم تسمح لأحد ولا حتى لأخواتها البنات قط برؤيته، ثم وفجأة وبلا إنذار أباحته لعباس، بل وسَمَحَتْ له بتصويره. يكاد يتخيل ما يمكن أن يقدّمه نوري من الحُبّ والتدليل لهذا الشَّعْر. يطرد شبح نوري مستعيضًا بعرضٍ سخيف:

«والله لو تطاوعيني، أطيِّرك على باريس، يختارون لك قَصَة شَعر «آلا جارسون» تعطيه دراماتيكية، وبالجِلِ يلمّعوه ولا فرانك سيناترا».

«لا دراما ولا سيناترا، راحت علينا. وبعد، أعاذنا الله من الاسترجال، يا ولد الشعر نُصْف زينة الحُرمة، وسترها في كفنها».

بيدها المرتعشة تُجَفِّف شَعرَها بمُجَفِّف الشعر الكهربائي، ينخسه شبحُ نوري.

«هاتي عنّك»، يسلّط الحرارة على علقات الشعر الأكرت في محاولة لفردها، وتُفلت منه، ينفد صبرها، تسترد المُجَفِّف:

«هات عنَّك. يا حبيبي إنتَ عباس، نوري ينفع لطراوة نورية. شعري ما يحتاج، كلها نفختين، ربّنا يريِّح العُريان مِنْ تَعَب الغسيل».

دخيلتُه كتابٌ مفتوح أمامها، هي الوحيدة التي تقرأ المنافسة الخفية بينه وبين نوري وحاجته السِرّية للتخلص منه والانفراد بحب العمّات، ولا تصدمها تلك الحاجة وربما تتواطأ معه عليها. يتحدّى معرفتها، يمعن في تقمّص نوري ويتطوَّع لتثبيت الباروكة الكستنائية الواصلة بخصلاتها لكتفيها:

«لا بد في سفرتي على أمريكا أجيب لكِ باروكة شكل تاني، غير باروكة سعاد حسني هذه. أختارها بتسريحة مُعاصرة».

«يكفينا عصر ومعاصرة، هذا الشعر بقايا حريق الروح يا حبيبي، تحزن أكثر لو عاينت الخرابة اللي تحته». وتشير إلى جسدها، «عصروه في عصَّارة، لا يرعش ولا يرهز. أحزنكَ الشَّعر تبغى تداويه؟!».

كلما ضعفت سُكَّريَّة يشعر بأن نوري أصلح منه لمرافقتها. يطرد فكرة نوري بغيظٍ، نوري الذي طوال عمره خاف سكرية وشجَّع عباس هذا الخوف لكيلا ينافسه على حبها.

«لا عليك يا حبيبي، أنا نفسي في المُعَاصَرَة، لكننا ما نملك إلا نخاف من ناسنا، بعدين يقولون الحُرمة شَابَتْ وعَابَتْ».

تكتمل زينتها، تفتح دُرْج تسريحتها المُغْلَق بالمفتاح وتُخْرِج عُلبةَ مَصَاغها الوحيدة، يهتف عباس بدهشة: «أوووه الليلة ليلة المندليون؟!».

«من غير كلام، الفرح الليلة فرح بيت المُفتي وشيخ الحرم، والناس تتبختر بالمصاغ أشكال وألوان».

من عُلبة قطيفة حمراء تُخرِج الحلية على شكل هلال. يندهش: «بروش ألماس فَلَمَنْك، هلاله يزغلل العين يا عمة، ويصلح يكون محور فيلمي التسجيلي».

تُناوله الحلية، «خذْ، لَبِّسني». تمرّ أختها حليمة وتلمح خروج المندليون، تغمز عباس وتمر على غرف بنات الأخ والأخوات تعلن: «أوووه اليوم سُكَّريَّة لابسة المندليون».

وتسري في البيت نكتة (المندليون) يخرج في المناسبات العظيمة ويثير قدرًا من الغمزات والبهجة وشتيمة عمَّته نورية الشهيرة، «في كل عرس يطلع لنا أثر ذاك السَرْسَري السَرْبوت».

انتهزَ عباسُ لحظةَ صفاء سُكَّريَّة وسألها:

«العجيب إنكِ رفضتِ تشتري مصاغ بعده، يعني عاجبكِ؟ لا تكوني ما زلتِ تحبي المضروب صمدو؟».

ضحكتْ. «هذا حافظته عِبْرَة وذِكرى، ألبسه في الأفراح يذكِّرني حتى لا أغلط وأحسد عروسة، الشي الوحيد الذي نفذت به من زواجي المهزلة من النَذل، سمِّيتها المندليون حتى يذكرني أنه ميدالية النذل صمدو. فهمنا هو اختلف مع ذباب وجهه ومع أهله وأخواني، لكن أنا يطلِّقني بأي ذنب؟!».

«يعني ما تعرفي؟ عمَّاتي، وبالذات عمتي نورية، لها رأي... يمكن ما يعجبكِ».

تستسلم لدفء اللحظة، «بالله لا تحشر لي نورية تفلسِف مأساتي». تستجيب لضحكته، «تحب أحكيلكَ وبلا حيا عن الليلة رقم واحد من زواجي؟». يهز رأسه لكيلا يُعَكِّر صوتُه اندفاعها للكشف، تنهض، «خَلِّيني أولِّع لكَ هذه القُمْرِيَّة».

من رَفٍّ في حمَّامها ترجع سُكَّرِيَّة بذلك المصباح! لا يُشبه الفوانيس ولا الأتاريك المكّية، كُرَة لها قاعدة تحوي الفتيلة المُغَرَّقة في الكاز.

يعلّق: «بَعدكِ تستعملي الكاز يا عَمَّة؟! ممكن أجيب لكِ كحول يولِّعها؟».

«لأ، خليني على الريحة المتعوّدة تِسَكَّرْني».

يضحك، «يعني صَدَقوا اللي قالوا حشيشتك مُغَرَّقَة في كاز!».

تُشعل الفتيلة، وتبدأ القُمرية في التكتكة مثل الساعة، تهتف سُكَّرِيَّة مُحَذِّرة:

«القمرية صَبرها زَي صبري، قليل. تتكتك ساعتين، وشوية شوية تحرق كازها وبعدين تنطفي. عشان كده غيَّروا اسمي يمكن يطوِّلوا صبري على قساوتهم».

يجلسان في ذلك الضوء الأبيض الذي يُعطي لملامحهما شحوبًا أسطوريًا، وينبعث صوت سُكَّرِيَّة كما من شحوبه هو عباس، تنسرب فيه ذاكرتها:

«عام 1951 كُنَّا الدود المُغَمَّض. الأب الإسطنبولي خَطَّط حتى شهر العسل لي ولنورية، فتَّحنا عيوننا ولقينا أنفسنا في القاهرة في جناح طويل عريض بفندق الميناهاوس، قصر ولا قصر الحميدية. نورية وعبد الجليل في الجناح المُطِلّ على البِرْكَة غطسوا وما بان لهما أثر، وأنا حَظِّي حطَّني مع صمدو بوجه أبوالهول».

تقطع حبل الذكريات وتقوم لصندوقها السيسم المحفور والمُطَهَّم بالمسامير، تفتحه ويفوح خشبه العطري المدبوغ برائحة قرنفل وأعواد قرفة. من حجرة الجدة سكينة يأتيهما حفيف أسطوانة تحت إبرة الجرامو فون القديم الذي تحتفظ به جَدَّتُه مع مجموعة نادرة من أسطوانات الغناء العَدَني، وينبعث غناء تُوْحَة على العود:

«ترى حركاتكم زادت،

يا ساري الليل فين رايح،

تراك مقروع بالواجب في هذه الحارة خِلَّاني...».

تُنصت سُكَّرِيَّة مع عباس إلى صوت تلك المرأة الأسطورة.

تخطر ببالها أخبار عن مغنّيات تجرّأن على كسر حاجز المنع:

«تُوْحَة أبوها أغنى أغنياء جِدَّة، الله البديع شَرَّب روحها بحب الغُنى، وصارت مُغَنِّية محترفة، لها مجالس طرب، تقابل المُلحّنين وكُتّاب الأغاني. صالون فني حقيقي في جدة القديمة في الستينات، وكتبت 3000 قصيدة من عام 64 حتى الآن».

«يعني أهل جِدَّة ما كان عندهم الغُنَى عيب؟».

«ثريا قابل كانت تجيب في مجلسها فوزي محسون وتُوْحَة، فيُطربون الناس».

يُغَنِّي عباس ساخرًا بصوت نوري:

«الوَاد الوَاد صاحبي لابس له تُوب تَتْرُن من الغالي وفَلِينة حمَّالي...».

تضربه سُكَّرِيَّة ضاحكة: «يا واد تغيب تغيب وترجع لأغاني الحواري وأولاد المزمار! الله يسامحه «نص لسان» هو أول من فَتَّح عينيكَ عليها وإنتَ في الكوفلة. طاهر كتالوج الله يغفر له كانوا يمنعونا نسمعه، وهو ينصب النارَ ويحلّق الشومات ويغنِّي تحت رواشيننا وقلوبنا تِزْبِد وتخفق مثل الحَمَام الحيران، ومين يجرؤ يِسَكِّته. تفهم ساعتها ليه كل خيانات مَلِكات ألف ليلة كانت مع عبيد».

فجأة تسكن حركتها أمام صندوقها السيسم. يلحظ عباس تردّدها، برجفة تمتد يدها لشريط الكاسيت الملفوف بعناية، تتحسّسه بوجوم، يشعر بها تنسرب من عالم إلى عالمٍ ما لم ينتشلها.

«اقولك شيء عيب؟».

يضحك مشجِّعًا: «ولا أحلى من العيب».

«هذا شريط عمري لم أجرؤ أسمعه، هرَّبَته لي صديقة عزيزة، فيه أغنية واحدة هزت الحجاز في زمانها».

يتحمّس عباس لسماع تلك الأغنية. يفكّر بها لفيلمه التسجيلي. يسألها عمّن غنّاها.

«أغنية لطلال مداح. أعذر بجاحتي، إذ تقول الأغنية:

حُبّك سباني وأنا جسمي نَحَل

والشعر الأسود يغطي عانتي.

يا لطيف هيَّجت نار في الرجال، منهم من أقسم بضرورة مقاطعة طلال وتأديبه، ومنهم من استمر يعيد ويزيد يسمع الأغنية وتهيج الدنيا سوادًا في عينيه».

«و الله فلتة! وفي ذاك الزمان؟».

«يقولون طلال غناها في مجلس خاص وسجّلوها له بالسر وانتشرت نارًا في الهشيم. من كل القصيدة خطفوا بالذات كلمتين شعر أسود وعانتي، سبحان الله، شيء بين رجلينا ويحوّل الدنيا لسواد».

تفتنه جرأة عمته، «والله يا عمة كلامك لا أجرؤ أكتبه ولا حتى في يومنا هذا».

«الخوف من العيب قتلنا». تشرد في عالم آخر، ويأتي صوتها عميقًا، «في أيامي بالقاهرة تحت يد جدتي نازك أنا حسيت بذاتي، عرفت المحرَّم، عرفت غوامض رغباتي، أنا لي علاقة رهيبة بالسواد، يعشقني وأعشقه، رغمًا عنا السواد يدخل في النور والنور يدخل في السواد، دنيانا كلها قائمة على قصيدة اللونين هذه. لكننا مدرَّبون نخاف من الحياة».

يدهشه كلام عمّته، «معك حق يا عمة، وسجّاننا كلمة: عيب».

«حارق قلبي أن سوادي خمدوه، لم أهنأ بتسويده لحياتي».

«والله يا سكرية أنت بركان متأهب لآخر قطرة من دمك». يأتي تعليقه كقطعة بلاستيك متجلدة، فتغيب في سحابة حزن.

يشعر بأنها ترغب بالمضيّ في تلك المصارحة، أن تلفظ كل تلك الحسرة وتتخفّف. يحثّها هامسًا: «نرجع لدُخْلَتِك يا عمة. ما الذي حصل وحيّر الجميع».

«سَياسمي جابوها من جَاوَة لا يأكلها عث ولا زمان. تحسدني عليها بنات الجيران اللي دَخْلَتهم على رجالهم بصناديق توتياء. كلها حَبَسها النذل وما بقي لي منها غير هذا الصندوق. بالصُدفة تركت فيه بدلة عرسي ببيت أهلي، شوف قوارير الكولونيا، شوف القُنعة التركية بياقة اللؤلؤ الأسود، والبخور صندل وعود».

من أركان الصندوق تظهر العطور في زجاجاتها المُلوَّنة، الأخضر والكحلي والزهري: «هذه القوارير حَنَّيتُ بها على نفسي مع السنين، لكن، يا سلام لو شفت قوارير دَبشي. شي وشُويَّات حَطوا في صناديقي، إلا البَخْت. هو إيه دا البخت؟ نفسي أعرف، يمكن دَخَلَ ألف صندوق توتياء من صناديق بنات جبل الكعبة الضعاف، لكن أنا ما غويته حتى يرافقني. يا حبيبي عَمَّتك زَيِّ القَعْقَعْ ما يتاكل حتى يتْفَقَّع».

يطفح السيسم لا يزال بثوب عرس سُكَّرِيَّة، تنبش تحته عن تلك الرزمة من الكُتب المصفرَّة الأوراق، وبين ضفَّتي كتاب دعاء الكروان لطه حسين استخلصت رسالةً مكتوبة على ورق يحمل شارة فندق المينا هاوس:

«شوف، هذه الرسالة كَتَبْتها لجَدَّتي نازك المصرية أيامها وما قدرت أرسلها، رَافعتْها ليومك هذا».

يتأمل الرسالةَ بخط يدها البدائي، فتقول: «لا تضحك على خَطِّي، كلنا أنا وعمَّاتك تتلمذنا على يد كبيرتنا حورية، كانت فاتحة في سطوحنا كُتَّاب

لتعليم بنات الجيران بالمجّان حسنة لله، وأنا كنت أخطف الكُبِيبَة من فم القِدِر، بنت جارية أروح وأجي أمسح وأكنس وأغسل وأسرق حرف من هنا وآية من هنا، وأكتب في الليل على أرض الخارجة بالفحم، وأتهجّى، وعَمّي عبد الشكور يساعدني، حتى فكّيت الحرف. أخواتي حفظوا جزء عمَّ من القرآن وبطّلوا، وأنا على رأي عَمّك عبد الشكور، يضحك لما يشوف عيني منفوخة من السهر ويقول: أنت يا سُكَّريَّة انطلت عليكِ كذبة القِرَاية». وتُكمل كأنها تُحدِّث نفسها: «لأن القراءة كذبة كبيرة. أووف بلاش فلسفة. ثم تعلمت القراية بسهولة ولم أتعلم الكتابة كما يعلّمونها لكم في المدارس الإفرنجية».

يعود لقراءة رسالتها لجَدَّتها، من أوّل عبارة صَدَمَتْه:

يا جَدَّتي نازك أنا لَسَّة تَكْروتِيَّة بيِضا، وأَكْلُج[1] في الهَرْج،
لو ما فهمتيني ما يبقى لي أحد. وإنتِ السبب التي فتحتِ عينيّ على الدنيا وما لقيت لي فيها مكان، وخلّيتي كلامي كَلَجَة رطانة ما يفهمها غيركِ.
أنا يا هَمّ لَيْلِي في شهر عسل نقضيه هنا في الميناهاوس.
لا سمعت ولا شفت ولا قلت للمِمْلِك قبلِت. وزوَّجوني عبد الصمد الإسطنبولي.
ما أعرف هو حَظّي سبب البلاوي ولّا أهله. لحظة أكلت التفاحه فى بيت أخته زين هنا في الزمالك بالقاهرة حسّيت أسناني بتتكسّر ومن ساعتها ما حَصَّلت خير.
تقول نورية عملوا لنا في التفاح سحر خلَّى الدنيا تنقلب بوجهي.
ثالث ليلة أطلع فيها للجناح قِردة لحالي ودابر ما يدور جَعَارين

(1) لا يتقن اللغة، يتكلم بعجمة.

على الجدران تِوَايِق[1] لي وتِشْمَتْ. صمدو كأنه طالع من بحر مالح عطشان يُرابط ما يِتْعَتَع من البار لآخر الليل. وأدخل السرير الكبير مع أبو الهول والفراعنة المُحَنَّطين يحفروا في جسمي مقابرهم.
وفي الصباح يصحّيني شخيرُه ونَفَسُه غمامة حامضة في الصالون على الكنبة الكبيرة. لم ينم في فراشي ولا حتى ليلة، ترك لي السرير الفرعوني أستوحش في أمتاره، تظنّي كم متر أوسع سرير في الدنيا. سريري أوسع.
الوحدة قَتَلَتْني رجولي وقلبي تورَّموا وبَقْبَقوا. كل نهاري أقضيه إما لوحدي وإما نازلين دَرَج في الصخر ونزور مقابر فراعنة قلوبهم في برطمانات محفوظة ومومياتهم معانا تمشي في الفندق.
نورية تخاف تخرج لوحدها. دَخَلَتْ في ضلع عبد الجليل. وأنا أخرج لوحدي ما يلحقني ولا حتى كلب جربان ولا حتى شحّاذ يسألني قرش.
أطلع التلة للأهرام وأمشي في الرمل ويقابلوني الفراعنة يخلّوني حيرانة في معابدهم. هم اتوالفوا مع الموت وصاروا يدخلوا منه ويخرجوا نزهة مرسومة بالذهب على الجدران خفيفين ظريفين في موتهم وأنا حاسّة نفسي في حياتي ثقيلة وهَجرُه يزيد يثقِّلني. يا عجب، أنا الميتة وخوفو وخفرَع ومَنْقرع هما الحيين!
اليوم الرابع...

تعثَّرَ عباس بتلك الأسطر والصفحات المشطوبة، رَفَعَ رأسه مُستفسرًا وانتبه لشرود عَمَّته. لم يجرؤ على ملاحقة تلك النظرة أين انتهت وغاصت

(1) تنظر إليّ، تراقبني...

بذاك اليوم الرابع من عرسها، والذي رغم بعده لا يزال يسكنها ويلوِّن سواد عينيها بالرمادي القاتم.

اليوم الرابع من شهر عسل سكرية بدأ غريبًا، اصطبغت سماء أهرام الجيزة بالخردل. من موقعه على بوابة الحدائق راقبها الحارسُ في ثوبها الأزرق وقُبَّعتها الكروشيه البيضاء تمشي بخفَّة، أقرب ما تكون لورقة تذروها رغبة داخلية. قال الحارس:

«صباح الفُل والياسمين يا ست الهانم، شكلها حتمطَّر اليوم».

«على الله... يخفّ الصهد».

ما إن هبطت سكرية من العربة التي يجرها الحصان -أمام خوفو- حتى بدأت الرمال تتحرَّك من تحت قدميها بصمت.

«عاوزة أنتظركِ يا مدام بالكاريتة؟ عشان شكلها حتمطَّر».

«لأ، شكرًا». ولم تنظر للوراء.

حين صارت على رأس الكثيّب التقط سمعُها المرهف صوتَ انهيارات الرمل. التفتتْ ولَمَحَتْه يتبعها، ذلك الطفل في الرابعة ربما أو أصغر، في ثوب لا يزيد على قطعة كتَّان أبيض مشقوقة عند العنق والكمَّين. توقَّف ما إن نَظرت صوبه، عن بُعْد لَفَتَ نظرَها نحوله وسمرته المدبوغة بالشمس، راودها أن ترجع لتسأله عما يفعله هناك بينما عاصفة على وشك الهبوب. لكن وما إن أخذت الخطوة الأولى تجاهه حتى بدأ يتراجع. توقَّفتْ، وتَجَمَّدَ في بقعته.

حين عاودت المسير رجع يتبعها عن كثَب ولا يدنو منها. يضع قدمه تمامًا موضع قدمها، ينهار الرمل حول قدمه الحافية ويُحَوِّل آثارَها لآثار طفل، أينما سارت لحق بها، لا يُقَلِّص ولا يزيد المسافة بينهما. أمامها كانت الشمس، لحظتها لَفَتَ نظرَها أن الجسد الذي يتبعها لا يترك وراءه أيَّ ظلٍّ. حتى جسدها لا يترك ظلًا.

الخوف الذي نهش قلبَها لم يكن مُبَرَّرًا، فما الخطر الذي يُشَكِّله طفلٌ لم يجرِّب حتى الاقتراب أو لفت نظرها بإشارة؟!

في صمته واستغراقه شَكَّتْ أنه يتبعها أو يعي وجودها. دارت راجعة إلى الهرم الأكبر، ولا تزال سماء الجيزة تحبس أنفاسها المصبوغة بالخردل. مع كل خطوةٍ يتضخَّم برأسها الخوف من غياب ظِلِّ الولد مع ظلها. تضخَّم الخوف ولم تعد تسمع، لم تلفت نظرَها الجَلَبَةُ التي يُحْدِثها رحيل آخر دفعة زُوَّار، ولا الجِمَال التي تُبعبع مستشعرة العاصفة والسياط التي تطرقع على ظهور الخيول لتندفع بالعربات المُحَمَّلة.

كلما زاد خوفها تجنَّبت طريق الرجعة، وتوارت بخلفية الهرم. فجأة لم يعد بوسع قدمَيْها حملها لصعود الصف الأول من الحجارة الضخمة. لم تُناقش ذلك العجز، فالخوف داخلها يُثقلُ كلَّ شيء، انحطَّتْ جالسة.

سَرَتْ في جذعها سخونةُ الحجر القديم ولُهاثُ العبيد الذين جرّوه لهذا الهرم. هبطت السماءُ بلون الخردل فصارت على جبهتها مباشرة. بهدوء حَوَّطتْ جمجمتَها بكفَّيها وضغطت بقوة. أفرغتْ رأسَها من كل العبارات التي سَرَقَتْها من الكتب.

وللحال انتبهتْ لظِلِّ الحجر الساقط يمينها في الوقت الذي لم يكن لظِلِّها من أثر.

من لا مكان ظَهَرَ ذلك الإصبع الصغير يُشير إليها. فجأة وجدت الولد واقفًا على بُعد ذراعَين منها، ويشير بإصبعه إلى جيْب ثوبها الجانبي، دسَّتْ أصابعها الثقيلة في الجيب وأخرجت مكعبَيّ السُكّر، مَدّتهما أمامه متسائلة بلا كلام. صار وجه الولد على كفّها، ويحدق بِشَرَهٍ لمُكعَّبي السُكَّر.

اعتادت سُكَّرِيَّة حين تخرجِ للمشي أن تحمل في جيبها الشيء الوحيد الذي يفيض حولها، بقايا مُكعَّبات السُكَّر التي تأتيها مع شاي الإفطار، مكعَّبان لا تزيد، وحين يطول بها المشي والعطش تُخرِج مُكَعَّبًا وتلوكه. متعتُها السِريّة ذاك المُكَعَّب في رَوْحتها، والآخر في رَجعتها، تستحلب فيه الفضاءَ المفتوح والرمل.

انسلَّتْ روحها فجأة بتشقُّق شفتيه على راحة يدها، بشفتيه التقم المكعَّبَيْن ودسَّ كل واحد في تجويفِ خَدٍّ.

حين أفاقت لم يكن للطفل من أثر.

«يا هانم ما هان عليَّ أسيبك». داس الخيالُ الطويل خيالَ الحجر.

راقب عباسُ سكتةَ سُكَّريَّة، بينما تهرشُ راحةَ يمناها. بعد كل تلك السنوات لا تزال تشعر بشفتيّ الطفل تلتقمان السكرتين، بينما يمر اللسان الجاف على خطوط الكف ويمحوها بأسيد لعابه، لا يترك لا خَطّ راس ولا صحة، والأهم لا خط قلب. حين تنظر الآن إلى وجه عباس ترى فيه ذلك الطفل. تشيح بوجهها لكيلا تتأكد تلك التهيوءات.

شعورٌ غامضٌ بفداحة ما التقمه الطفل دَفَعَها لشطب تلك الواقعة وبقوة، ولم تترك لعباس فرصة سؤالها عن المشطوب والاستزادة من تفاصيل ولد الهرم ذاك وملامحه.

كمن يحسم ترددًا اندفعت سكرية تسرد له ما كان من أسرار عرسها المجهض:

«الليلة الرابعة دَخَلتُها مُعَمَّرَة مثل مِدْفَع السَحور، رجعت من تيه ولا تيه موسى في سيناء. انفتحت السماء فجأة وجَرَفَتْنا من رأس الهرم الأكبر، مطر أصفر ثقيل. رجعت مُقَزْقِزَة برملي وأنقّط زيتًا من أول صالة الفندق لآخرها. في الاستقبال شموا زَنَخة العربية الكارو في ثيابي الغرقانة، وشافوا طاقيتي الكروشيه ودَلّوني على كوافيرة صالون: بِسْبِسْ وبُوسي. تستقبل زبائنها في غرفة من غُرف الفندق. دخلت عليها والغرفة فايحة صابون، لَفّوني في منشفة وجلست على كرسي ورَقَّدوا رأسي في حوض وغسلوا فلافله، ولساعات حَاس صبيّها بِسْبِسْ في كَدَشي، الولد المفعوص يحمّي المكواة ويفرد شعري فلفلة فلفلة على فوطة ويكويها، ويغافلني ويحسحس بأصابعه على شفتي ورقبتي. وأنا أتجاهل وأحس لأول مرة أنني مسروقة ومُزهننة بلمسات بِسْبس الشُطيطة الصغير، ما أعرف يمكن غلطانة، لكن فجأة، لمحة في عينه ذَكَّرتْني بولد الهرم».

كان عباس صامتًا مسحورًا بمشهد عمّته التي تتكلم كأنها تعيش تلك اللحظات.

لما وقف كلُّ شَعْر رأسي جات الكوافيرة بوسي تتمخطر وعَكَفتْ أطرافه المُمدَّدة ولَفَّتها في مشبك ذهبي وثبّتتها بمشبك ياسمين خلف رأسي. أيوه، كشفت رأسي مثل نورية، وفي كل مرايا الفندق شفت نفسي حلوة، ولأول مرة أشوف لون شعري: عسلي على بَصَلي! ولبست له ثوب قَصَب على ذوقكِ سَبْرينا مَحْرود على الكتف ومُحَزَّق على القعور، موضة دِيبة خَيَّاطَة المَصَافي.

كان صمدو على عادته يُرَابط في البار. بالباب وقفتُ وبالسر قرأت عليه ونفخت الدعوة اللي سمعت أمي فرح الجارية تنفخها في دخلتها وخرجتها على أبويا مصطفى: «دخلت عليكَ وعجبتكَ بالحجر الأسود لَجَّمتكَ، سيدي النبي غَلَبَ الكفار غلبتكَ غلبتكَ غلبتكَ...». أقبلت عليه ونفخت النفخة الثالثة وما رماني بنظرة، بطَاقيَّة أو بمشبك ياسمين ما فَرَقَت معاه، وحَرَّكني قدامه، وجلسنا نتعشَّى في المطعم ويراقبنا الهرم الكبير من القزاز المفتوح على الخلا، وحولنا ضُبَّاط وباشوات وحريم برلنط، وأنا اللقمة طالعة نازلة بحلقي وقلبي مقلوب بشوق ليد على صدري. وصمدو عينه على الجراسين المشغولين يخدمونا، أولاد نوبيّة محمَّصين بالشمس وقعور حبحب بلدي، كان خاشع يراقبهم ويمص مَحَارَة لما أخذتُه على غفلة، انحنيت وحطيت عيني في عينه وقلت:

«لو خلّيت لي الفُراش مع أبو الهول الليلة كمان راح أوقف الآن وسط الناس وأصيح بقلاقل راسي وأقول: زوجي هذا آغا، وأنا راقدة لحالي مهجورة في سريري».

عيناه صارتا بيضتين من غير صَفَار وسَاحت لصدره، لأول مرَّة شفته مرعوب مني، لأول مرة دخلت في عينه وشافني.

ليلتها كَرَع كأسين وسبقني للفراش ونام. يمكن تَظَاهَر ويمكن خَمَده البَلا القوي الذي كَرَعَه! أنا خلعت، ربي كما خلقتني، ودخلت ولَبَدت له في الفراش، أهي جِثة جنب جُثتي.

في الصباح فتحت عيني عليه متكوّم قُفَّة. جِنِّي ركبني، تشعبطت لظهر أبو الهول، في البداية حشرجت روحه في حلقه، وقلت مات واترمَّلت من أولها، وبعدين دَبّت فيه الروح، رفع ذيله وراق له الحال...

وصَدَق اللي قال: «صَاحِك ما يقلِّي وأنا جيتك من قِلَّة عقلي».

طلع ما عنده دِيك الهَرْجَة، لما كشفنا الناموسية لا طارت حمامتُه ولا حَطَّتْ، على قِلّته. حمامة من عصر من الفراعنة المُلفلفة في تصبيرة.

صمتت سكرية كمن في سكتة قلبية، لا تصدّق ما أفصحت به.

يتأكد لعباس أن عمَّته سُكَّرِيَّة تُوَاجه كلَّ مشكلاتها بالتعرِّي. بدأت بالتعرِّي من الثياب والآن تتعرى بالكلمات!

طال صمت سكّرية. كان الدمع منحبسًا في عينيها. تنهّدت وأكملت:

«رجعنا لمكة لبيت أهله بإجياد، ولم أعد أشوف خياله. خمسة أشهر رَامح في المَقَاعِد مع الصبيان الزيود. لا يطيق يقابلني على سفرة أو يسمع منِّي كلمة. وفي يوم عصدتُه في الدَرَج وسألته: ليه تستثقل كلمتي؟ لما أكلمك كم شخص معايا يِزْبِد ويتكلم في رأسكَ؟» وبأبرد ما عنده قال: «مئة!».

مئة، كانت الكلمة الوحيدة اللي وَجَّهها ليَّ وقفل كل كلام بيننا. أبوه كان يضربه كل عَلْقَة وعَلْقَة زَيِّ البزرة، ويرسله مغصوب للمجلس الذي فرشوه لعرسي وسكَّنوني فيه. يخلِّيهم يناموا ويتسحَّب للمَقَاعِد ينام على الكرويتات بين الشِيَشْ وريحة الجُراك، حتى انفلج الإسطنبولي الكبير بغيظه. خَزَنه صمدو في مجلسه واتربَّع أسد للبيت.

وفي يوم، مع الضحى، سمعنا صيحة، نقزت للروشان المكشوف على

الحوش، شُفت «نُصّ لسان»، ومن شوقي لأمي رفعت قلاليب الروشان وطلَّعت له رأسي، في نفس اللحظة رفع رأسه وعينه جات في عيني. في السواد تحت عيني وجمر عينه وأصابعه المحروقة كل اللي ما طاوعني الكلامُ أقوله صار فيلم يتعرض قُدَّامي. شفت اللي صار لـ«نص لسان» ذاك الضحى على يد صمدو.

تتكلم عمّته وكأنّ شريط ما جرى ذلك الصباح يجري أمام عينيها:

«بين التَقَصُّع والتَرَدُّد تَقَدَّم «نص لسان» ذلك الضحى في دهليز بيت الإسطنبولي. أرسلته الأم سكينة يتقصّى سكتة سُكَّريَّة بعد رجعتها من شهر العسل. تتأرجح البقجة المشمشي في يسراه، صار بوسط الدهليز حين انبعث الصبيانُ: ثلاثة يسدون أمامه السلالمَ، وثلاثة يسدون بابَ الخروج،

«كدا زَابِق للحرملك، لا إحِمْ ولا دستور».

زاغتْ عينُه الكحيلة مستشعرًا الخطر: «مرسول بِرسالة لعَمَّتي سُـكـ...».

قبل أن يكمل دفعوه للوراء، ساقوه للمقاعد الخلفية، صار أمام باب مفتوح، لَمَعَتْ أمامه لوحةُ الشطرنج بالأحمر والأسود، زاغت عيناه لم يعرف هل تُغَطّي تلك المربعات أرضَ المجلس أم اللوحة بين صمدو ومُلَاعِبه الصبي. بدهشةٍ لَمَحَ البيادق أجساد ولدان عارية ربي كما خلقتني، ومُحَزَّمَةً بخَطٍّ رفيع من الزُمُرّد الأخضر،

«كشّ الملكة والقلعة وأنا عليَّ الجنود»، فرقعتْ كلماتُ صمدو مع ضحكته الرفيعة. ما إن لَمَحَ «نص لسان» حتى رفع رأسه عن لوحة الشطرنج،

«يا ألف مرحبا، زارنا زغلول بَطْرَان». وارتدَّ صمدو بجذعه إلى الوراء، يتأمل «نص لسان» بتطويلٍ لزج. يُجري خرطوم شيشته عن بُعد كقلم من رأس «نص لسان» لقدميه، وقال بلهجة تشفّي: «حُط البقجة على راسك يا بَشْبُوش».

صار قلب «نص لسان» في إبطيه المكشوفين لتلك العين بينما يوازن البقجة على رأسه.

وصاح صمدو: «وَلِّعوا شِيْشَته». بحماسةٍ تَلَقَّى صبيانَه الأمرَ، من لا مكان صار بيد كل صبي مِنَشَّة سوداء من ذيول الخيول، وقفز ذلك الصبيُّ بوعاء الجمر المُتَدَلِّي من سلسلةٍ بطول ذراع، وبحركات بهلوانية طاف يُطَوِّحُ الوعاءَ حول «نص لسان» يُخَوِّفه بالجمر. مَسَّتْه المِنَشَّة الأولى بخِفَّة، للوهلة الأولى خُيِّلَ إليه أنها تدغدغ أكثر مما تؤذي، لكن حين طافت المنشّات تلسع رقبته، ومؤخرته، صار يتقافز. نارٌ تلسعه من كلِّ شَعْرَةِ خَيلٍ، وضحكة صمدو الرفيعة تلسع أعمق. صار هو البيدق الوحيد وتتفجر تحت قدميه رُقَع من الأسود والأحمر. فجأة، ومن فرط قهره، تقمَّصه سديري مصطفى السّردار وعمامته المُعَلَّقة في خزانته السرية ورائحة عَرَق الرجل الكبير. مستجيبًا لتلك الرائحة، وبلا وعي، رَكَلَ «نص لسان» وعاءَ الجمر من اليد الطائفة حوله. طار الوعاء في الهواء مُبعثرًا بجمره دائرة الصبيان، وبَاغَتَهم حين قفز وصار ببقجته على الباب.

الطريق إلى الدهليز والسلالم موصدة بالضحكة الشَبِقَة على وجوه الصبيان، فلم يكن أمامه إلا التوغُّل في ذاك الجناح المهجور. قادتْه الضحكةُ الرفيعة إلى غرفة الكوانين، حيث تُجَهَّز النارجيلات. رائحةُ جُرَاكٍ عميقة مخلوطة بوهجٍ ما تحت الرماد، ذكَّرَتْه بعنفوان السردار الكبير. سمع باب الحجرة ينغلق عليه وخطوات صمدو وراءه، وتوبيخه اللزج:

«من أوّلها وأنتَ داخل خارج زَيِّ المَلَوِينَة، زيبق مُزغلل العيون». انصفاقُ الباب عليهما فَجَّر عِرْقًا بصدغ «نص لسان» وطغا برأسه الأحمر على السواد. انتهز صمدو تلك الرجفة ليدفعه على لَفَّات الخراطيم المُكَوَّمَة بالرُكن، مقبض خرطوم انحشر بين أضلع «نص لسان» وآخر في عموده، وبعماءٍ دَفَعَ البُقْجَةَ بين السّاقين المُطْبقَتين عليه، وبنَفَاد صَبر شَدَّتها اليد الرطبة ورَمَتْها لكانون الرماد، وفاحتْ رائحةُ صُرَّة المَحْلَبْ المدسوسة

من سكينة لسُكَّريَّة لتعزيز الخصوبة، تنضج ببطءٍ على الجمر المنسي تحت الرماد. انقلبت أمعاءُ «نُصّ لسان»، شَعَرَ بالجمر في دِكَّته الحرير، لا يعرف كيف صارت حَفنة الجمر بيديه الناعمتين، وبلا تفكير دَسَّهما بين الساقين المطبقتين عليه. صيحة صمدو التي رَجَّتْ البيت انتهت بقدميّ «نص لسان» على كرش صمدو المكوَّمة أمامه على الأرض. داس فيها وانفلت كرَفَّاص، وصار «نص لسان» على كومة كراتين الجُرَاك ومنها للمِنْوَر المفتوح على نور الخارج، قفز ليقع في الفناء الخلفي مُعفَّرًا في رمادٍ وبقايا الخراف المربوطة هناك. سَقَطَ حزامُه اللاس في تلك القفزة، انفتح فوقه روشانٌ، نَظَرَ إلى الأعلى ومباشرةً لعين سُكَّرِيَّة. زوجان من الأعين انصبَّتْ عليه بفهمٍ عميق: نظرتُها ونظرةُ الطَبَّاخ الهندي الذي لم ينبس بكلمةٍ وتقدَّم أمامه يقودُه للطريق. حين بَلَغَ آخر إجياد صار على يقين بأن البيادق كانت ولدانًا حيَّة عارية وتكتسي فقط حُزَم زمرّد، وهو أحدها، ورقعة الشطرنج هي أرض الغرفة التي يلعب فيها صمدو الشطرنج بالصبيان المليحين.

صار صمدو محطّ أنظار المُدَّعَى، حين ظهر بعد احتجاب شهر يمشي مُبَاعدًا ما بين ساقيه لاحقوه: «صمدو الصرنقعوه على كَبَر ختنوه».

كلما سمع «نص لسان» تلك السخرية، أو وَقَعَتْ عينُه في عين سكينة أو السردار الكبير تصير حكاية البقجة والشطرنج الأحمر بالأسود على طرف لسانه، يعضُّه ويختنق بكتمانه.

تتنهَّد سُكَّرِيَّة بحُرقة، وتُكمل حكايتها مع صمدو:

«احتار دليلي فيه، ما هنَّاني بجسم يدخل جسمي ويحييني».

«يا عَمَّتي على رأيكِ: اللي بَاعِك بالفول بيعيه بقشره». لا تستجيب لنكتته.

«ما أعرف ليه كرهني؟ هل أنا وحشة؟».

ركع عباس أمامها غمر وجهه بركبتها يعبُّ خلاصة الريحان:

«أنت فتنة المُدَّعى وسوق الليل ومكة وحرمها. الواد بِسْبِسْ الفرعوني

كُلُّه نَظَر». تمسح شَعرَه الكثيف الأسود: «يا واد البياض فُرْجَة ولو كان على عَرْجَة».

يغنّي عباس ويشعر أنّ نوري يُغَنِّي الأغنية التي يسمِّيها «النشيد الوطني لهذه المملكة المخيفة اللي اسمها سُكَّريَّة»:

«أسمر عَبَر متل القمر. طَرْفُه كحيل وخصره نحيل عالي سماه».

تضرب سكرية كتفه ضاحكة:

«أنت اللي أسمر وكحيل وعالي سماكَ»، تُمَرِّر سبَّابتها على حاجبيه الكثيفين، وخَطّ الوجنة العريض، «ولا ممثلين السينما الإيطالية، أنت يا واد شغَّال تِدُكّ قلوب البنات ولّا لأ؟».

«والله يا عَمَّة قلبي هو اللي في الأول والآخر يندكّ. مع الأسف البنات المشرَّبات بالكاز مثلك خلصوا، للآن ما شفت بنت مثلك والعة قلب وقالب».

«يا واد لكل وقت أذانه. مساكين البنات، انتبه لما تمسك قلب بنت، سايسها تخرج لك من حنوطها، حيّة مقمَّرة. تظن الحنوط سر فرعوني؟ بيوتنا المكّاوية شغلتها تحنيط البنات أمثالي».

حطَّ بشرفتها زوج قماري، ذكر يطارد الأنثى بين الريحان، يقوم الذكر ببضع خطوات متخايلة حتى يقابل الأنثى، عندها ينحني بصدره المنفوخ كاملًا يغمره في الأرض بينما يرفع ذيله عاليًا، وفي اللحظة التي يلتحم فيها صدره بالأرض يطلق غرغرة واحدة عميقة، وترتعش سُكَّريَّة، يشعر عباس برعشتها، تهتف:

«شفت؟! يالله». تنهَّدت كلمةَ (الله) بتمديدٍ كأنها مُنْتَزَعَة من جذورها، «هذا سجود، والله هذا سجود يخشع لها، يتعبَّدها، هذه الغرغرة كأنها رجفة روح طالعة من كل كيانه!».

تتسارع خطوات أنثى الحمام باضطراب لتلك السجدة، ويلحقها الذكر يهم بركوبها فتفرّ، تقول سكّريّة: «لا في حيوان ولا بَشَر عمري ما شفت

هذا السجود!». يناضل الذكر ليواجه الأنثى ويعاوِد السجود والابتهال، ويُجَرِّب أن يمتطيها فتطير مغادرة الشرفة إلى إفريز بعيد، ويقف الذكر حائرًا، فيقول عباس، «طيب هي ليه شاردة؟! مُكَابَرَة؟».

«تتمنَّع عشان تزيده شَعْلَلَة». تتأمل سكّريّة القُمري بحسرة: «شفت الابتهال وطَلَب القُرب؟».

«يا عمتي يسجد لها حتى يركب، وبعدين ممكن يِصَفْرِقْها المُرّ».

«يا حبيبي نحن لا سجدوا لنا في الأوِل ولا في الآخر، ولا حتى في الحلم. دخلناها صَفْرَقَة على طول، كان أَحَب ما على قلبي يهنيني بقطرة حلا وبعدين مو مهم يصفرقني العلقم». لايعرف عباس ما يقول، فتكمل: «أمانة عليكَ نَقْنِقْ من الحب والهوى أصنافه. كلامي ممكن يصدمك ويناقض فكرك عني، لكن، أنا ما يهمني. لا تضيّع قلبك وتوقفه على قبور وأطلال. كَبّرونا على أن قيس هام مع الوحش ومات عشقًا، ودرَّبونا على إذا فاتتنا فرصة نموت حصر. هذه خرابيط ناس اندفنوا في الصحرا، وتركوا أوهامهم لنا سجون، والحياة أبسط، شوف الرُسل، كثّروا وعدَّدوا، والكلام عن الجنة حُور عين بالآلاف، لا تأخذها جد، الحياة نزهة، الظل اللي يجيك اسكنه، وطالما فيك سراج وَلِّعه».

«تعرفيني أكثر من نفسي يا عَمَّتي أنا هذا القُمري: جناحي كبير لكن بيقصقصوه».

«يا واد أنتَ الآن بنجاحك حُرّ، الحُريَّة هذه ما عرفناها في عمرنا، ولمَّا نجيب سيرتها يُحوِّلوها نكتة ويضحكوا عليها. اشربْها، حِلّها مع قهوتك وأطبخْها في إدامكَ، وخليها قطرة لعينكَ ضد الموية البيضا والزرقا اللي عامیتنا وعادمتنا».

بإعجاب أخذ يُقَبِّل نهايات أصابعها، ورفع قدمها الصغيرة وقَبَّلَها، مسحت شعره بحنان، «لا تظنني نورية وتِبْلِفني بحركاتك هذه اللي تاكل القلب. يا عباس أنت قلب مفلوت في هذي الدنيا، وعشان لا يكون فضيحة رَكّبوا له ملامح بني آدمين. آآآه لو كل الرِجال زَيّك».

«أنا مش بس رجل، أنا داخلي من كل زوجين اثنين، وخَلَقنا من كلٍّ نَفْس زوجَها، أنا فيِّ الذكر والأنثى». لأول مرة يعترف أمامها بشبهه لنوري، وماً أدهشه هو تَقَبُّلها له.

«بهذا عارف قيمة الحُبّ والنسوان. أنت ما تعرف الظلم، صنف من البني آدمين غير صنف النذل صمَدو».

بعد ذلك الحوار بفترة، توفي صمدو، بعد صراع مع السرطان.

عندما سمعت سُكَّريَّة بالخبر قالت:

«لا أسامحه لا دنيا ولا آخرة، لا هو ولا أبويا ولا إخواني».

أقفلت على المندليون في السيسم القديم، وأرسلت السيسم إلى القبو ولن تقع عليه عينٌ بعد ذلك.

مدَّتْ يدها لعباس وقامت: «يللا نسقي الريحان».

المجنونة مُبهَّرة بالزعفران

1993

عارية وقفت نورية مذعورة وقد ناداها صوت: «الحقي أمة محمد».

تتلفت حولها، لا ترى غير الظلام وحشرجة أنفاس النائمين. ثم يعود الصوّت:

«اتبعي الغرّ المحجّلين بالنور، يخترقون ظلمات يوم الحشر المهولة إلى ضفاف نهر الكوثر الممنوح لحبيب الله».

كانت تتخبّط في ظلمة عظيمة، وحولها الحشود تحتشد. آلاف من وجوه الأطفال صارت سيلًا حَمَلَها وبدأ يشق بها الجموع المتجهة للكوثر. حين بدأت الجموع تهرول أخذ جسدها يصيح بأن ليس بوسعه أن يركض. رفعها سيلُ الوجوه فلم تكن بحاجة لأن تمسَّ الهول بقدميها، صار السيل تحتها يتدفق بسرعة حصان، ثم تسارع ليصبح كالريح، ثم تسارع ليصير كخطفة برق. راكبة البرق أخذ ينبت لها منه وجهُ طفلٍ من هنا، ويلحقه وجهٌ من هناك، ووجهٌ من بين يديها يلتفت لها بعزيمة ويطّمئنها بأنها واصلة حتمًا للكوثر. فجأة اندغمت الوجوه في قطرة برّاقة، صارت الوجوه هي الماء، وأدركتْ نورية أنها في الكوثر، ووجوه الأطفال هي الكوثر.

ما إن رنّ نوري الجرس حتى عرف صالح في الرنين أمر سيدته. ركض السائق العجوز من حُجْرته إلى طرف البوابة، ليجد الحاجَّة النيجيرية في شرشفها المشجّر بالبرتقالي والأخضر الفاقع، تربط على ظهرها الرضيع برأسه المتدلِّي للوراء متأرجحًا يمنة ويسرى. تتلكَّأ عارفة بأنهم سينادونها من قصر النزهة بسيدته الغريبة:

«يا حَاجّة»، تلمع عيناها للنداء، وبكسل تجرجر خلفها بنتًا لا تتجاوز الرابعة وولدًا في الثالثة من عمره.

يقودهم صالح إلى الحديقة ويغادر إلى حجرته، تظهر الخادمة الحبشيّة من باب القصر لترافقهم إلى الركن الخلفي للحديقة حيث الديوان والحوض! يبدأ طقسٌ من طقوس نورية التي تتفنّن في اختراعها مع نوري. ترمق الخادمة الأنيقة باستعلاءٍ ثيابَ الطفلين المدبوغة بالأوساخ والتي لم تُغسَل منذ أن لبساها منذ شهر في هذا الديوان. صديرية البنت تمزّقت في أكثر من موضع وتُظهر سرَّتها، ولطخات من البراز المعتّق على حواف سروال الصبي.

على المصطبة ترمي الخادمة للأم قطعة (صابون كامي) الجديدة الملفوفة بورقتها، والمناشف البنفسجية. تغلق أنفها بأصبعيها وعن بعد ترشّ رأس الطفلين برذاذ برائحة الكاز لإبادة القمل، وتنسحب بعد إتمام المهمّة.

تجلس الأم على المصطبة بانتظار أن يسكت الهرش برأس طفليها معلنًا موت آخر قملة. من النافذة يطلّ عباس بنفاد صبر:

«صدّقيني يا نوريّة المساكين يتحكموا بعقلك عن بُعد بالريموت كونترول. يشغّلون براسك الحلم عن الكوثر، ولما تصحي منه يكونوا منتظرينك على البوابة».

تسفيهه لتكرار حلمها عن الكوثر يزعج نورية: «تقصد يسحروني لأجل أكسيهم؟». يتدخّل نوري مدافعًا: «يا شيخ لا تتدخل بينها وبين رَبّها. نورية نَذَرَتْ ما تترك طفل عريان، ما يدريك يوم الحشر تخرج أمّنا من بطن الحوت، ويحملها الأطفال المساكين للكوثر».

يغيظ عباسَ هذا الاتفاق بين نورية ونوري.

في ظلال الديوان، وبلا حسّ بالخجل، يبدأ الطفلان بخلع أسمالهما، ويكوّمانها، ويترك منظر الأوساخ والعرق طبعات على أرضية جمجمة عباس. تصل الأم الخرطوم بالصنبور في صدر الحوض، وتُغرِق ولديها في رشّاش المياه، تترطّب أوساخُ الشهر، تسيل وتحفر مسارب في دماغ

عباس. في الضوء الصباحي المعطّر برائحة الجوافة ينطلق الطفلان بنشوة تحت رذاذ الماء الذي تسخّنه شمس مكة. تمسك الأم بالصابونة التي تفكّها من ورقتها محتفظة بها ككنز. الرضيع المربوط في الشرشف على ظهرها أثارته المياه، يبدأ الركل بقدميه المحشورتين على جنبيها. تفكه من ربطة ظهرها وتجرّده من الخرقة التي تستره وتطلقه على أرضية الحوض.

يخبط الطفل بكفَّيْه مرسلًا أكبرَ قَدْرٍ من الرذاذ حول وجهه، تدلك الأم الصابونة باقتصاد في الليفة وتفرك طَبقة الأوساخ عن جسد الولد ابن الثالثة. البنتُ وأخوها يغافلان الأمَّ ويلعقان الصابونَ بنكهة الورد بتلذُّذٍ عن جسديهما. رفاهٌ لا يتوفَّر لهما إلا ربما كل شهر، وحين تجد أمهما فراغًا للحضور إلى هذا القصر بسيدته المحرومة من الذُرِيَّة، والتي يتسامع بها الفقراء فيحضرون بصغارهم للحصول على صابون مجاني وأطعمة وثياب وحلوى للأعياد.

أخيرًا ظهرتْ نورية في ثوبها الفضفاض من القطن الأخضر الزاهي تحملُ بُقجةً تتركها على المصطبة. يتخبط الطفلان واحدهما في الآخر بخجل، فرحَيْن تحت نظرات نورية المُعْجَبَة:

«يا عمري يا حاجّة حواء، أولادك لولو أسود».

يلمع سوادُ الأجساد بينما تُتَوِّجُ الرغوة رأسي الطفلين، ويتجمَّع ماءُ الصابون ببياضه مُغَطِّيًا أقدامهما واصلًا حتى الكاحل، وتبرق أعينهما ببياض يذكّرها برقرقة الكوثر في حلمها المتكرّر. تشعر بالكوثر على وجهها يجلبه أولئك الأطفال الذين يظهرون في بيتها، يركضون بحُريَّة بين المجالس والمخلوانات، يتسلقون شجرَ الحديقة ويلتهمون الجوافة قبل أن تنضج ويبثون تلك الحيوية الحيوانية. قوى بدائية تتجمَّع فيها وتُعيدها شَابَّة لم تُعكِر وجهَها الستيني تجعيدةٌ.

«جَمَاعَة فِي بَابْ صَفَا يقول: يا الله كَلِّي أَمَّتي نورية، يا الله كَبِّر ولد حق أَمَّة نورية». تقولها الحاجّة حواء مُلَحّنة، مُفَجِّرَةً كلمتي «خَلِّي» و«كَبِّر». وتجلجل ضحكتها.

«خلّي جماعتكِ يقولوا: يا ألله ما في قبر عَمَّة نورية».

«هيبيي ي ي!!» تنطلق من الحاجّة النيجيرية صيحة التعجب تلك، تتجمّد يدها عن فرك كتفَيْ ولدها غير مُصَدِّقَة، ثم تُجلجل ضحكتُها التي ترفع كتفيها وتدفعهما للوراء بينما ينغرس الذقن في النحر وتُغمض العينين بقوة، ويتقلقل ولداها في تلك الضحكة، ينقران بأطراف أصابعهما في الصابون. سكتت الضحكة فجأة كإثم،

«لااا إله إلا الله». تُطيل اللا وتَفجر بـ إله، نَفَخَتْها في كفها اليمنى ومسحتْ بها وجهَها بادئة من الأعلى، جارفة كلَّ ملامحها لتنفضها عن يمينها إلى الوراء بمحاذاة الخصر، متسائلة غير مُصَدِّقة:

«نورية ما في دُقِّي دُقِّي؟!».

«نورية ما في دُقِّي دُقِّي». أعادت الحاجَّة حواء النظرَ للمرأة التي لا تريد الدَقَّ في القبر والسحق بمرزبات الحساب.

«إإإن شاااا الله»، تشدُّ ضفيرة ابنتها الدودية وتشطفها وتكرر «إن شا الله». تشد أُذُنَ الولد وتفرك صيوانها وما وراءه، «إإإن شاااااء الله نورية ما في دقّي دقّي».

منسيًا بين الأقدام يبدأ الرضيع في دسِّ راحته بفمه مبتلعًا حفنات من الرغوة. نوبةُ سعاله تُنَبِّه له نورية:

«حرامٍ عليكِ يا حَاجَّة حواء تجلِّسيه في الموية الوسخة».

«في كُويِّس مويا دنيا». تقولها النجيرية بإيمانٍ بحتميةِ أن يكبر في ماء الدنيا والذي تراه مُقَدَّسًا في كل حالاته.

تتجه نورية إليه، تنحني وتبدأ في غسله، يتملَّص منها ضاربًا المياه ويُغْرِقها في الرَشَّاش فتختلط أصواتُ النشوة التي يصدرها بضحكات نوريةِ الصاخبة. بطرف عينيها ترقبها الأمُ بعجب.

تترك طفليها عاريين يجفّان في شمس الحديقة، وتجلس الحَاجَّة حواء مبلّلة تفترش الأرض وتطوي الملابس المُمَزَّقة. تشمُّ كلَّ قطعةٍ بعمقٍ قبل أن تدسّها في الكيس البلاستيكيّ المعتّق بالاستعمال، بينما تلفُّ الصابونةَ

يبللها في طَيَّةِ الشرشف على خصرها وينطبع بللها على جبهة عباس الذي يرقبها عن بُعد.

تفتح نورية بقجة الدمى البلاستيكية ويبرق بياض عيون الصغيرين على كرانش الفستان القطني المُشَجَّر بالزهري وحزامه الأخضر، وتذهيب أزرار ثوب الولد الناصع والكوفية المُقَصَّبَة. مثل تلك البقج تصلها من حورية، وتتفنَّن نورية ونوري في توظيفها لعروض الأزياء اليومية في بيت الإسطنبولي!

بلا نظرة للأم ينطلق الطفلان وراء نورية إلى المطبخ حيث تنتظرهما الأطايب، بينما تنهمك الحاجَّة حواء في كنس الحديقة مثيرةً عاصفة غبار يلتصق ببللها مختلطًا بعَرَقها ويدبغ جلدها.

عندما تفرغ تأتيها الخادمةُ بصينية الغداء وتتركها على درجات المدخل. تحت صنبور الحديقة تتوضأ الحاجة النيجيرية، يحفر الماءُ قوسَ الغبار أعلى مرفقيها، تُصَلِّي بسكينة مُطَوَّلة قبل أن تلتفت للصينية. تتناول بضع لقيمات بينما تسكب مُعْظَمَ الإدام والأرز مع قرصَيْ الخبز في قصعة توتياء تربطها في كيس بلاستيكيّ وتضمها لثياب طفليها ضامنةً وجبة الغد لأسرتها. يرقب عباس من النافذة ويطفح رأسه بتلك العصيدة.

تلتفّ الحاجّة بشرشفها البرتقالي وتسترخي بأرضية الدهليز في الممر أمام مخلوان نوري. بكسلٍ تغمض عينيها تاركة لبرودة الدهليز كشط التعب والعرق وحرقة الشمس عن جلدها. بين الحين والآخر تأخذ قضمات صغيرة من بذرة (القُورو) التي تُشبه الكستناء، وتمضغ بتلذذ ثمرةَ الكيف المُرَّة والتي تُعطي لباطن شفتيها لونًا برتقاليًا.

تحمل ابنةُ الرابعة أخاها الرضيع ويتبعها ابن الثالثة إلى مخلوان نوري، يدخلان ويتعثّران خجلًا بترحيبه الضاحك:

«كاشفكم، زَيِّ المغناطيس جَرَّتكم الصُوَر».

تكمل نوريةُ كلامه: «طبعًا صُوَرهم بالنسبة لهم عجبة».

تمد الأمُ رأسَها بين الحينَ والآخر لتشارك في الفُرجة على طفليها في عملية تحوّلهما العجيبة والتي لا تجهِد نفسها بفهمها!

من صندوق عجائبه خلف الباب ينتقي نوري لكل طفل زِيًّ باليه أحمر فاقع، يكتم الطفلان ضحكاتهما بين نشوةٍ وخجلٍ بينما تكسو نوريةُ سوادَهما بالأحمر. تدسُّ خشونةَ أقدامهما المُشَقَّقَة بالحفاء في نعومة أحذية الساتان، وتربط بعناية أشرطتها الحمراء.

الأطفال الذين تمرَّسوا على الحضور يعرفون أنهم سيلعبون في ذلك القصر العجيب، وأنهم بتلك الأزياء الغريبة بوسعهم اللعب طوال النهار وتلاحقهم بين الحين والآخر كاميرا نوري، يباغتهم في لقطاتٍ على الأشجار أو يتدلون من الرواشن أو يتعفّرون في صراعات بتراب الحديقة. أما لقطات المخلوان فمدروسة وتتطلَّبُ منهم انضباطًا وانصياعًا للتعليمات. من صفِّ الشمعدانات ينتقي نوري لكلٍ من الطفلين شمعدانًا ذهبيًا صغيرًا يضعه كتاج على الرأس، ويقفان جاحظَيْن لعين العدسة التي تخيفهما بقدر ما تثيرهما، على جسدَيهما تفتح العين وتغلق مثل دراكولا ينشب فيهما أنيابه فيتحولان لكائنات مُحَنَّطة برّاقة في تلك الصور المنتشرة على جدران المخلوان. تتجرأ البنتُ ممسوسة بتلك العين فتنساب بحركاتٍ حُرَّة، تشطح بذراعيها موازنة الشمعدان على رأسها بِدَلَالٍ فِطرِّي. يهتف نوري بينما يلاحقها بلقطاته:

«الله الله... كمان... خليكِ كده طير فرحان». يحاول الصغير تقليد أخته فيتهاوى عن رأسه الشمعدان، ويسارع نوري لتصوير سقطته.

يتأمل عباس مفكرًا بما في داخل رأس نوري، متاهات من الأحمر والأسود المُفْرط الحيوية، يُخَيَّل إليه أن أولئك الصغار يطلعون من متاهات جنون نوري العَبقري وذلك لتسلية نورية.

كرياماتينا

جدة، 1994

انتهت سُكَّريَّة عارية إلا من قميصها الأزرق وقد فكَّت مشبك صديريتها. بشعره الأبيض وابتسامته الهادئة أشار طبيب الأشعة لها بأن تتجه إلى سرير الفحص، واستجابت متراجعة لترقد،

«لا، لن أحرك، اقترب أنت».

أجلَسَها على طرف السرير تتدلَّى ساقاها للأرض، واقترب منها بكرسيّه الدوّار. واجهها بركبتيه تترك مسافة شعرة مع ركبتيها. مَدَّ يديه لقميصها وكمنْ يهدّئ حيوانًا جافلًا قال: «لا تخافي، أفهم معنى ان تقفي عاريةً أمامَ شخصٍ غريب لأول مَرَّة». كلماته أبكتها، كامل جسدها بكى عندما سمع صوتَ رجل يقول لجسدها بأنه يفهم أنه جسد لم يُمَسّ من قبل. وبالكاد تمالكت دمعها فلا يطفر ويفضحها. رَفَعَ القميص، وبيمناه مضى يتلمَّس محيط الثدي الأيسر، «لن أزعجكِ». أحزنتها تلك العبارة بعُمق غير قابل للتفسير، هل لأنه فَضَحَ كونها تتعرَّى لأول مَرَّة أمام رجل؟ أم لعله يشفق عليها؟ أو أنها تستلذ الشفقة إن فاتها الشبق؟ وربما لوعيها، ولأول مَرَّة، أنّ لها صدرًا قابلًا للتحسس؟ «لن أزعجكِ!». من قال إن صدرها لا يريد إزعاجًا؟ وربما لمجرَّد أن رجلًا وَاجَهَهَا ومدّ يده طواعية صوبها. صمدو دائمًا كان يعطيها ظهره ويتفادى مواجهتها!

حاولت يدُ طبيب الأشعة أن تنقل لها مِهَنيّة تَحَسُّسِه لثدييها، حتى تَعَمَّقَ حزنُها مثل قبر: «سأعصر الحَلَمَة لأعرف ما إذا كان هناك حليب، أحيانًا يتسبب الحليب في قطع الطمث وآلام الثدي». أيُّ حليب؟ داهمتها ضحكة اختلطت بدمعة طَفَرَتْ.

لم تعِ كيف انتهى فحص الميموجرام ذاك، مُغَيَّبَة بما قاله الطبيب اخترقت سُكَّرِيَّة في ممرات مستشفى الملك عبد العزيز الجامعي صوب عيادات القلب الخارجية.

بعد ساعة أقبلت المُمَرِّضة على سُكَّرِيَّة في حجرة الانتظار، بينما ومِنْ طرف الممر أقبلت طبيبةُ الامتياز سوسن السردار في ثوب الأطباء الأبيض الواصل إلى ركبتها، يظهر من تحته بنطال الجينز آخر طراز، وحذاء برادا الرياضي الأبيض الصقيل. بمرحٍ تسبقها غُرَّتها المُمَوَّهَة بالأشقر متسللة من تحت الطرحة الملفوفة حولَ وجهها. سمعت الممرضة الفلبينية تسأل:

«أنتِ مدام إيش في اسم؟».

«سُكَّرِيَّة». عرفت سوسن صوتَ عَمَّتها، فاسرعت الخطى، بينما أعادت المُمرِّضَةُ السؤالَ:

«إيوه، سُكَّرِيَّة إيه؟».

«سُكَّرِيَّة خرية متينة». شَلَّتِ الإجابةُ سوسنَ، وتجمَّدت على وجهها الابتسامة.

«ثانكيو مدام». كتبت الممرضة الفلبينية الاسم كما سمعته (سكرية كرية متينة) وعمَّ صمت. اندفعت سوسن صوب عَمَّتها مصعوقة:

«عمَّة؟!»، قالتها بلوم، مُحْرَجَة أمام الجمهور الذي صدمته تلك الكلمة، واجتمعت على سُكَّرِيَّة أعينُ المريضات المنتظرات في الحجرة.

«لا عمَّة ولا يحزنون». ضربتها سُكَّرِيَّة على كتفها بخفة ساخرة: «خلاص، ترى كاز قلبي ما عاد يكفي يُوَلِّع لمبة سَهَّاري».

اللامبالاة في عيون المريضات تحوَّلت فجأة إلى اهتمام. تأمَّلن في المرأة التي يخبئ شموخها حزنًا عميقًا، بعباءتها من الحرير الأسود الخالي من النقوش، وطرحتها المحيطة بوجهها تُعَزِّز سواد نظَّارة الشمس المثلثة مثل نظارة جاكلين كينيدي، وحذائها بكعبه العالي الرفيع موضة الثلاثينات. بدت مثل بطلة خارجة من فيلم ملحمي.

«عندكِ فكرة عن الفحوصات المطلوبة منكِ لأجل أوصّي عليكِ؟».

«الآن خلصت فحص الميموجرام، خلينا نشوف هذا الدكتور أكبر، قال شكل ألمي غريب، مرّات يطعن بين الضلوع ومرات يعضّ بالثدي. فَهّمني أن قلبي على شَعْرَة، وقدّم لي قائمة طويلة بالممنوعات، ونسي يقول بلاش خواء قلب».

«لازم تخرجي وتِتْنَفَّهي».

«خلّوني مستورة أحسن، ترا الدكتور أعطاني دواء التهاب الأعصاب lyrica. تقول وصفته إنه يثير المرح والشبق ونوبات الهلع واختفاء المحاذير الاجتماعية ورفع المزاج! ترا رَفْع المزاج هَلَع».

لم تفهم سوسن الغضب الذي تكتمه عمّتها بتلك اللهجة بينِ الجد والهزل.

فجأة حان دور سكرية وظهرت المُمرِّضة تنادي:

«سُكَّريَّة كريامتينا، سُكَّريَّة كريامتينا...».

وفوجئت بانفجار حجرة الانتظار بالضحك في جوقة سوسن وسُكَّريَّة التي خلعت نظارتها لتُحرِّر ضحكتها العالية، ولاحت للمريضات رؤية شعلة النظرة، نظرة القمرية المتّقدة بكاز.

لم تشعر سكرية بالسيارة تقطع بها الصحراء عائدةً إلى مكة، تأمّلَتْها عينُ السائق الأندونيسي، ساهمة ببصرها في الرمال تتسلق الجبال البركانية، ساخرة وحائرة في سِرِّ البكاء الذي داهمها.

في هذا العمر، ولأول مرة، ثَبَتَ أن لها ثدييْن، والخَدَر الذي يسري على عريهما من عين رجل، ولَمْحَةَ التَوَقُّع الملذّ حين تمتد لهما يد رجل!

في المَرَّة الوحيدة التي عرَّت صدرها لرجل أطبق عليه بشرائح الصفيح القارسة البرد، وسَحَقَه بلا رأفة بتلك الآلة بحثًا عن وَرَم؟

«صَاغ سليم!». لم تحتج حُكمَ خبير الأشعة ليُعلن ملفُّها الطِبِّي بأن صدرها غير فاعل، مضخَّة ترهَّلَ تصميمها ونضبت غُدد حليبها قبل أن تلتقمها شفة. ثديان فاقدا الصلاحية ويُعادان إلى مستودعات السردار.

كانت سوسن قد طيَّرتْ نكتة «الكرياماتينا» إلى بيتهم بالمُدَّعَى، وما إن ولجت سكّريّة حتى استقبلتها الوجوهُ بين صعقةٍ وضحكة. وسارع عباس يخلع عنها عباءتها، ويُقَبِّل رأسَها مشاكسًا: «يعني غافلتيني وخرجتِ؟».

وعاجلتها حورية ضاحكة: «والله يا سُكَّرِيَّة قِلَّة خروجك خَلَّت أثقل الكلام خفيف عليكِ. كثَّرْ خيركِ، يعني عائلة السردار بجلالة قَدْرِها كرياماتينا؟!»، قالتها بشيء من إعجاب.

ردّت سكريّة شامتة في أهلها، معبّرةً عن تناقضها بين فخرها بتلك العائلة وقهرها منها:

«وأنتو إيش دخلكم؟! خارج هذا البيت لا أنا سردارية ولا من سر داركم ولا محكومتكم وهذه عملتي بحياتي، أنا سُكَّرِيَّة الكرياماتينا. لمَّا أكون بَرَّة حُرَّة أشوف نفسي زي ما أشوفها...».

بين ضحكات أخواتها المُشَجِّعة تتَّجه إلى حُجْرَتها ويلحق بها عباس:

«والله لو سمعكِ جَدِّي أو أعمامي تجيهم جلطة في قبورهم».

يصيبها عَمَى مؤقت من نظارة جاكلين كينيدي الشمسية التي لا تخلعها في عتم البيت القديم، لتُخفي اضطرابها.

أمام كرسي مرآتها، تنهّدت بضعف. حسرة سُكَّرِيَّة أحد أهم دوافع عباس لإنجاز فيلمه التسجيلي عن عمّاته، يريد لفيلمه أن يكشف لكل عمة أسطورتها. يشعر عباس بأن سُكَّرِيَّة تنظر في المرآة وترى نورية. ترى ما الذي كانت ستعيشه لو لم تلحقها لعنةُ المندليون. وفي محاولة لقشع الحزن شرح لها فكرة تسجيلاته، وأذهلتْه حماستُها:

«أنا أتمنى ذلك، عين تشوفنا وتورِّينا أنفسنا على حقيقتها بحلوها ومُرِّها. أنا معاك، صَوِّرني وكَمِّل فيلمك التسجيلي، اعطني معنى، أحس كأني لم أُوجَد في الدنيا. أنا أملي ولو بعد ما أموت ألاقي نفسي اللي سرقوها منِّي. نورية تبغى تسكن بطن الحوت زَيِّ زوجها الساكن للمازيراتي وأنا أبغى أسكن في فيلم بمهرجان أتْنَفَّه وأعيش. المهم، علي خاطركَ أطلِّع لكَ المندليون تأخذ له صورة، تسجيل لظُلم النَذل اللي طَلَّقني».

تستدير صوبه وتهبُّ معها أرواح الريحان. تأخذ رأسَه بين يديها وتُقبّله. يتقلّص جوفه فهي مع تقدّم العمر صارت نادرًا ما تُعبِّر جسديًا عن حُبّها له:

«أكبر حبس عشناه كان في كلمة «عيب». عيب تخرج، عيب تشوف، عيب تسمع، عيب تضحك بصوت أو تردّ كلمة بنقاش. تعرف القَضَا والقَدَر؟ كلمة الكبار قضاء وقدر يحرم علينا نرده أو نناقشه».

«لكن جوابكِ يا سكرية كان دائمًا حاضرٌ، ما سكتِّي لأحد منهم».

«فَرْفَرَة موت. شوكة وقفتْ لهم وكسروها أول بأول». تبتسم ساخرة، «يا الله لما أفكر فين راح عمري، جسمي كله يرتجّ. ناس تحيا وتموت مثل عمَّتك حليمة وما عرفت إلا قتل الوقت بفصفص ولبان والشوق لشيء مجهول يخلِّي التنهيدة تشق الصدر شقّ. لما تتنهد البنت يكبحوها بالتهزيء: وَنَّتْ بَغل مُحَمَّل حجار وطالع جبل كَرَا! أهلنا جاهزين بالبغل والحجار يسدّوا بها رئة البنت وشُعَبها الهوائية. الأمهات تربط بناتها عُقَد لأكفانهنّ، يعني يربطوا البنت تخدم أمها حتى توصِّلها لكفنها وتتربط البنت عُقدة على الكَفَن وتندفن». يكفُّ الريحان عن التنفس يتبع أنفاسَها، «سيدكَ مصطفى الكبير الله يلطف به في قبره كان ديكتاتور بنمرة واستمارة. الديكتاتورية طلعتْ من رجال مكة ويتوارثونها حتى آخر عِرْق. تعرف نار الحداد؟ نار الحداد اللي يطوّعونا بها متلخصة في كلمة ونصف: برضايا عليك! كلمة ونصف جهنَّم، تقَوِّم كل انفلات وكل حلم يخالف مقاساتهم الضيقة. لا تظن أنتَ لوحدك تمشي الصحراء على رجولك، نحن كمان مشينا صحاري من أربع جدران. أحيانًا أفكر أنا ليه خُلقت بهذه الدنيا؟ أكثِّر هذا الريحان؟ وأقرأ هذه الكتب؟ عوالم أكوِّمها في سكوتي، وفي حبسي ما أقدر أمرِّرها ولا لمخلوق. السردار الكبير مصطفى الهول لا يرضى أن يعترف أن عنده بنت اسمها حورية تتمتّع بهذا الجمال في الخلق والخُلق، فيمنع عنها أن تتنشّق الهواء خارج مخلوانها فتمضي وقتها تدرِّس أولاد المساكين يفكّوا الحرف، وأنا أقرأ كتب جدتي وأتعرّف إلى حيوات

مدهشة ومغرية تعيش أحلامها وأقدارها، في حين أنني مربوطة في قهري، كأن الحياة حطتني ستاند باي، لأي ممثل؟ الله العالِم».

تصمت. تغرق في صورتها عن حياتها، فيحثّها عباس: «احكيلي أكثر».

«حياة البنت منّا يمكن ما تزيد عن التنقّل بين بضع غرف، من ولادتها لمماتها، وآخرتها سدوا الرواشين والشبابيك بالمكيّفات. تدخل لنا الشمس ضربات مسمار متسلل من خروم هنا وهناك، بطلات ألف ليلة وليلة حفروا بالعظام وشَقّوا الخروم وطلعوا، ونحن فاشوش، فشلنا نشقّ طرحة. نتعلّق وراء قلاليب الرواشين أو تخريمات السطح ونراقب الرايح والجاي. نحن البنات، ضعيفات الله، حياتنا كانت واقفة. شغلتنا نرضى حتى يخلّصنا الموت من رضانا».

عمّ الصمت الدار كلّه. كأنما كل ما فيه ينصت لصدى صوتها العميق. يكسر عبّاس الصمت:

«أحبكِ يا سكرية لما تتمرّدي وتخلعي سكوتك، وتلفحينا بالنار اللي بتذوبكِ شمعة».

«نار بردت بالسِنّ، الله الله لو شُفتني أيامها. لو أحكيلكَ ما أعرف حتضحك ولّا تبكي علينا».

«أرجوك يا عَمَّتي احكي، احكي بلا رحمة».

«لا تِتْدَحْلَب بالكلام وتجرجرني وآخرتها تفضحني، أنا أخاف أصارح حتى نفسي بناري. من أولِ طلعتي أحسّ المَسَاند بصدري». تضحك بقرقرة وتضيف: «لكن، خلّيني أحكيلك عَنَّا، مَثَل يعبِّر عن المَسْخَرَة. لما تركَّبت التليفونات في بيت المُدَّعى، ما صَدَّقنا على الله، مثل شياطين مفلوتين من سلسلة. لكن السنترال كان رقيب عتيد واقف لنا بالمرصاد، وفي أحيان كان يفضحنا ويشتكي لأبويا مصطفي: تَرَا ولدك كَلَّم بيت فلان أو بيت فلان كلمكم. وطبعًا ما في بنت فينا تجرؤ تقول آلو لغريب، يفضحها. لما كتموا السنترال، وطلعت موضة التليفونات تتصل من دون سنترال وجدناها غنيمة ننفلت. الأولاد كانوا يجمعونا، بنات على حريم

كبار، حلقة حول التليفون ويتصلوا على الناس. نتصل على أيّ رقم ونقول أي كلام نِفِشّ به غلّنا. مثلًا عمّك محسن بالقلعة، عقله مقفل ويغيظنا، يتصلوا به، يغيّروا صوتهم ويقولوا له: أنت محسن السردار؟ المسكين يرد: أيوه... خير؟!! ونتقاتل على السمَّاعة نتنصَّت، يقولون له: أختك زينب الدُبْلي[1] ادهنها بالزيت وزَرِّقها خازوق!! ونسقط على الأرض نتلوَّى من الضحك، ونحن نتخيله يَزْرَقّ لونه من القهر وينفجر. ولمَّا يجونا ونشوفه مُجرجر أخته الدُبلي وراه تكون بانتظارهما ضحكات العائلة. كانت هذه تسليتنا وتليفزيوننا ومسرحنا والسينما، كنا نبغى نشق في جدران البيت ونطلع على برَّة، وأحد يسمعنا. أي أحد، مو مهم. المهم نقول: نحن هنا، عايشين. كنا نبغى نغافل سيدك مصطفى الهول ونكون في مكان لا يستطيع أن يصل له، ويسمعنا أحد بعيد أبعد من القلعة».

«خطيرة يا عمتي سُكَّرِيَّة، لو تكتبي مذكراتك». يتأملها، «رغم قفل سيدي عليكم صرتِ كده؟! معقول الحبس يعطيكِ هذه الشخصية؟!».

تفرح بتشجيعه: «أنا من يومي قُمريَّة حريقة ملعلعة من الطِيرَمَة».

تغيم عيناها بالذكريات: «نفسي تقدر ترجع بكاميرتكَ للوراء، وتشوف الحياة اللي عشتها في مصر. الدكتور اللي غلطتْ جَدَّتي مَرَّة واحدة وعَرَضَتْني عليه، شَخَّص وقال: فِصَام، شيزوفرينيا! نَظْرَتُه قالت لي: إنتِ محكوم عليك بالإعدام بعقلك المفصوم. وكتب لي كومة مُنَوِّمات، إبر وحبوب. صحيح إنها عقاقير تعقر القلب، ما تنفع غير تفقع المرارة بالحلق والغشاوة على العين ورجفة اليد، خلّاني عجوز كركوبة في العشرين، وقال وحَذَّر: لا تقطعي العلاج. يعني حجاب أبدي حتى في غرفتي وبسرير نومي، نَصَبَ على عيني وعلى عقلي حجاب، بحُجَّة قشع الشيزوفرينيا. في ليلة شربت شَرْبة زيت خروع فَرَّغت كل عقاقيره من جوفي وقطعت العلاج، وصحيت خفيفة مثل شاشة السينما». تمسح التقطيبة بين حاجبيه بسبَّابتها، وتكمل:

---

(1) السمينة الضخمة التي تفوح منها رائحة براز.

«علاجي جاء بعدين في السينما والناس الحلوة، الكتب والناس اللي تتكلَّم وتحلم بصوت عالي، ناس كريم شانتييه تذوب في أحلامها. أنا عمري ما حلمت بصوت عالي، نفسي أكتب وأمثِّل لكم ولو حلم واحد، نحن متعوّدين لمّا نحكي أحلامنا لبعض نقتلها أول بأول، مُتدرِّبين نقول: لا تقوليها لتتفسَّر! هنا حلم واحدة زَيِّي أصله وغايته كابوس يخافوا ليطلع لهم».

يشاركها تنهيدتها الساخرة ويؤكد: «كلنا في العائلة عندنا شيزوفرينيا. أنا نفسي -والله أعلم- عندي شيزوفرينيا».

فتقول: «إما الرجل منهم يكون هُبَل جبَّار زَيّهم وإلا يعيِّروه بباهبَل. يفخرون بأن الرجل منهم جبل».

تَمُرُّ جَدَّته سكينة مُشمِّرة عن ساعديها في طريقها إلى الحمام للوضوء، وتلتقط كلمة الجبل، تقاطعهما وتَتَوَجَّه لها كاميرا عباس، يصدمه شعرها الذي لم تجدد صبغته وتهوَّشت قصته الآلا جارسون، طالت الخصلات لتزيد في قصر عنقها وتربيعه، بحركة أتوماتيكية تستر شَعْرَها ووجهها بشرشف صلاتها، يظهر ركنا عينيها اللّتين تواظب على تكحيلهما يوميًا، سال كُحلها فتوسَّعت كعين مُهَرِّج وهي تقول:

«مين الرايح على جبل بيروت؟ أول ما شطحتي يا سُكَّريَّة نطحتي، من حبسك للجبل؟».

«الشاطح هو عباس...». تفقد العجوزُ تركيزها، توصي وتؤكِّد: «أمانة لكل من يروح بيروت ما ينساني، يسلِم لي على ريحة الصنوبر».

حين تتوارى في الحَمَّام تتنهد سُكَّريَّة:

«لاحظت شعرها؟ طول عمرها تحب أقصّه لها آلا جارسون وأصبغه، وفجأة من ثلاثة أشهر منعتني. بيني وبينكَ قلبي ما طاوعني أقنعها، أقول يمكن أحسن أتركه يطول، وهي مُقبِلة على موت. الحرمة لازم يبلل شعرها كفنها، يعني شعرها بهذا الطول هو حدود الستر الذي تُبعث به من قبرها».

تؤلم عباس هَزالة تلك الخصلات الواصلة إلى كتفيّ جدته:

«يعني هالشَعَرتَين رح تسترها؟!».

يتجنب النظر لعلقات شعر سُكَّريَّة، يعرف من الابتسامة على وجهها أنها قرأت أفكاره، يهرب من حجرتها بحيلة متابعة جدته، يتسلَّل بالكاميرا إلى حجرة سكينة، يُصَوِّر خلوّ الحجرة إلا من سرير ضيّق، يُقابله لليسار جدارٌ مُغَطًّى من أقصاه لأقصاه بالأرفف التي تحمل مزهريات الورق الملوَّن والطافحة بالورد الصناعي من الحرير أو البلاستيك! تظهر تسريحتها لليمين عارية، يُرَكِّز كاميراه على زجاجة العطر المُرَبَّعة بغطاء على شكل كوزِ صنوبر، تحتفظ بها جَدَّته سكينة في نفس البقعة لتتصدَّر التسريحة منذ أحضرها لها هدية من سفرته إلى بيروت قبل عشر سنوات. يومها ما إن تنشَّقَتْ رائحة صنوبرها حتى وقعتْ في غرامها، وما فرغت الزجاجة ولا أزاحتها من على تسريحتها، وكل ضحى تفتح الغطاء، تمسكه بين يديها كما تمسك بكوز حقيقي وتشم رائحة الغابات التي تحلم بالذهاب إليها، وتُكرِّر:

«أنا عارفة، لما أنازع لاتقطِّروا لي موية في حلقي وتحسبوني أموت هنا، يكون في علمكم إنها روحي طالعة جبل لبنان تسكن مع الصنوبر».

عندما تعود، تنظر إلى حجرة سكّرية:

«هو أنا جاية ولّا رايحة أتوضأ؟»، وقد نسيتْ أن تتوضأ، «لاحظت بيت الجيران؟ زارعين ريحان».

اختلاط الأزمنة والحوادث برأسها تفاقم مع سلسلة الجلطات الصغيرة التي بدأت ذات فجر من عامين حين قامت تتوضأ لصلاة الصبح وأغمي عليها. لزمت الفراش لثلاثة أيام قامت بعدها وقد قُضِمَت قطعة محورية من ذاكرتها. ثم تتالت تلك الإغماءات وخسوفات الذاكرة، حتى صارت ترى طوابقَ البيت وحجراته أكوانًا غريبة عنها، لا مألوف فيها غير حجرتها ووجه ممرضتها الأندونيسية سمينة.

طافت جَدَّته بالأرفف تمسح الوردَ الصناعي بمنديل مُبَلَّل، وتتفحَّص المزهريات، «مزهريات تُحفة»، تشجعه على تصويرها: «رَبّنا أرسل لي سمينة، هذه الجاويه تخترع المزهريات من الورق، تُطَبِّقها وتُشَبِّكها في

بعض وتعمل منها أشكال وألوان. شوف هذا الصَفّ العالي كأنه عرايس بترقص أيديها في أيدين بعض».

يشعر عباس بالورد الصناعيّ يكتسب روحًا من قربه ومعاشرته لجَدّته لفرط ما كانت تحبه.

تجلس الجدة سكينة لتسريحتها وقد نسيت ما جاءت لعمله: «يا الله، من هذه العجوزة اللي تِوايق لي في المراية؟!»، تكشف عن ذراعها، تتأمل ضمور عضلاتها في المرآة وتتلمَّس ترهّلها، وقد زاده توقفها عن أكل اللحوم:

«هو جسمي أتكرمش كده ليه؟ أيشمعنى أنتَ يا واد مشدود؟!».

يضحك لضياع وعيها بالمسافة بين الشيخوخة والشباب، «كُلِي اللحم تشد عضلاتك».

«يقولوا تحرّكي ترتاحي، ههه. يا حبيبي الحركة تحتاج عافية، كل أوتار ظهرك ورجليك تنصبك. تصَدِّق؟ حتى النوم متعب، ما عدت اقدر أتقلب في سريري، كل قَلْبَة ووَنّتي تبلغ رَبَّ العالمين، كل حبال جسمك تقلبك، ولمّا تضعف الله لا يِحَملَك. تحتاج سمينة تقلبك».

تَتَنَهّد جَدَّتُه بعمقٍ وينقبض قلبه. في وعيه حديثُ عَمَّاته عن أن تَنَهُّد العجائز وتثاؤبهن هو طلوع تدريجي للروح، قد يستغرق أيامًا قبل أن تُتم نزعها.

تُطِلّ الممرضة سمينة، في تناقض كوميدي مع اسمها: فتاة أندونيسية دقيقة مثل دمية. يتعجَّب عباس كيف ينجح ذلك الجسد الصغير في حمل عبء جَدَّته حين تفقد وجهتها ويجدونها بأعلى الدرج وقد نسيت كيف تهبط،، وإلى أين تتجه؟ عند العصرية تضع سمينة أمام الجَدَّة طبق فاكهة، وتغادر. بيد رهيفة مرتعدة تلتقط حبّة من فاكهتها المُفَضَّلَة:

«خذ هذه التفاحة الخضراء الصغيرة. لا أدري من أين يأتون بهذا التفاح الجميل؟». لا تتذكر أن ذلك التفاح مجلوب من بستان ابنها بهدا الطائف.

وحين أقول لها إن التفاح من بستان ابنها، تقول «هذا الرجل حقكم... اللي اسمه؟ اسمه؟؟».

أساعدها فأقول: «بستان وَلدِكِ آخر العنقود، عمِّي منصور».

تنهمك في تركيب طقم أسنانها الصناعية. يتأمل عباس في معجزة الوجه البشري الذي ينبني مثل نَصْبٍ فنِّي حول عظام الفَكّ، وكيف ينهار مع انهيار أسنانه، بالشفتين منطبقيتن طوليًا مثل فوهة قِرْبَة غير منفوخة.

«هذا منصور حقكم، يقطف لي التفاح من بستانه. هو بستانك طَرَح إنت كمان؟».

«آمل أن يطرح بستاني في الخريف يا ستي». قالها عباس بمزيج من سخرية وأمل في نجاح مشروعه الفني.

بطفولة وبصوتِ تَلَذُّذ واضح تنهمك الجَدَّة في قضم واستحلاب الفاكهة التي تعشقها منذ طفولتها، وظلّت تفخر سعيدة بأن مهرها جاء حمولةَ بغل من التفاح الأخضر المِزْ الصغير والرمّان الحامض والسفرجل وأثار فضول المُدَّعى.

قال مداعبًا: «أظن جنَّتك يا جَدَّتي كلها أخضر فرايحي وحلا حامض».

«لا يا حبيبي، أنا سريري هذا كافيني، لا تفتحوا عليَّ الأبواب».

لا تعني لها تلك المفردات أي شيء، لا الجنة ولا الخضرة التي عاشت تعشقها ولا الماء. لا مرجعية برأسها خارج ما في حجرتها.

وجاء تعليقه فارغًا: «الجَنَّة على ما نشتهي ونتمنَّى».

«إلا الدجاج. حين تدخل هذه الجنة لا تحط على سُفرتك دجاج».

يضحك عباس مضطربًا بين خوفٍ وإحباطٍ عميقٍ واستسلامٍ لمرح الجدة المفاجئ:

«برضك يا ستي ما تلطمي الدجاج؟». فجأة تظهر شريحة من ذاكرتها المفقودة بمَسْقَط الضوء، ولبرهةٍ تبدو الجَدَّة بكامل قواها العقلية.

«هو هذا أكل؟! يكاكي وياكل المخطان، والله جيراننا كانوا يربُّون دجاج ياكل كل وسخ بني آدم».

يستغل عباس اتّقاد ذاكرتها: «مَرَّة أعزمك في مطعم فرنسي وأأكّلك الضفادع بالثوم، وحنشوف الجَنَّة فيها ضفادع ولّا لأ».

«أعوذ بالله، ليه من قلة الأكل في الدنيا؟!».

مضت أعوام لم تكن فيها جَدَّته بذلك الحضور، مما عَمَّق فزع عباس من قرب مغادرتها للدنيا، «يا ستي، التنويع والطَفَاسَة سِرَّ بني آدم، ياكل طوب الأرض»

فجأة تبدو تائهة، تمد يدها لدُرج تسريحتها كمن يمد يده لسر: «خلينا نشوف جبلنا».

تتنهَّد بعمق، يشعر بسحابةٍ من روحها تتسرب في تلك التنهيدة، تفتح وتناوله الشريط عن جبل لبنان الذي عَرَضَه عليها في رجعته من بيروت وفُتنت به. فرحت حين تركه لها، وأخفته إلّا عنه، كلما حضر تخرجه ليتشاركا مشاهدته، وعوَّضَها قليلًا عن فاتن حمامة التي تباعدت نوباتها، حيث لم تعد جدَّته تحزن. مع العمر سقطت كل المشاعر السلبية والحادّة، وبالذات الحزن والغضب، بينما تضخمت مشاعر الاضطراب التي تُكَسِّر شرائح الخوف بالضياع المفاجئ، وبالوجع والارتباك لأي تغيير أو مفاجأة تحدث حولها.

كعادة عباس في طقسهما المشترك، يُلقم الشريط للفيديو المحشور بين مزهريات الورق برَفٍّ سُفلي ويبدأ العرض. يجلس تحت قدميها واضعًا راحته على ركبتها، وتعلو الموسيقى التصويرية بأغنية فيروز:

(نَسَّم علينا الهواء من مَفْرَق الوادي).

يهتف ليُضَخِّم فرحتها الطفولية ويطرد تلك التنهيدة: «هذا جبل لبنان وصوت فيروز غابة من غاباته».

يتفرّجان بفرحة منصتين لفيروز: «آآخ، شُمْ، هبت علينا ريحة الصنوبر طالعة من الجبل الظاهر قدامي»

وكالعادة تكون تلك الإشارة، يقف عباس يتناول قارورة العطر، يفتحها

كما تفعل جَدَّتُه كُلَّ صباح. مَرَّر الزجاجة المفتوحة تحت أنفها، عبَّتْ نَفَسًا عميقًا أغرقَ التنهيدة: «آااخ يا الله، أشم عظَمَة ربّنا في الصنوبر».

تسحره نشوتُها، نشوةٌ رغم تكرارها تتجدّد يومًا وراء يوم بشحنة الفرحِ الطفولية التي تزداد عفوية، كلما شاخت جَدَّته رجعت طفلة لم يُعَكر مَرَحَها العمرُ والهَمّ ودرزن الولادات:

«و الله لو عرفتكِ تحبيه كده حَمَّلت لكِ كرتون».

«وعلى أيه؟! الروح في قطرة، وأنا ممكن أسلِّم روحي في دي القطرة».

دَلَّكَ كتفيها وذاب قلبه شفقة على اللحم الذي تَهَدَّل والعضلات التي تراخت وذابت وتركت العظم ناتئًا مكشوفًا للكسور:

«جارتنا -بسم الله- عيونها زَرقة مثل البسَّة». وتقصد ابنتها حورية. تتعثَّر في تَذَكُّر اسم ابنتها، تَضَافَرَ العمرُ والجلَطاتُ فتحوَّل البيت ومَنْ فيه في نَظرها إلى حريم ورجال بلا أسماء، حتى أبناؤها. ولم يصمد برأسها غير اسم ممرضتها سمينة،

«شوفها، تمرّ في طَاقتها». تنظر للرَفِّ العريض الفارغ بصفته نافذة تلك الجارة، ينظر عباس ولا يرى أثرًا لأحد، «ها، شفتَها؟ وجهها أبيض مثل قرص الحلاوة الشامي، رايحة جاية تِسَلِّم عليَّ وتناديني أزورها. وفي نومي أشوف خيالها يقول لي: وأنتِ قاعدة وقايمة يا سكينة رَدِّدي، استغفر الله! طيِّبْ، قُلناها: استغفر الله، لكن على أيه أستغفر؟!».

فقدت جدته حتى الحس بالموت والجنة والنار والله والذنب والعبادة. مَرَّرَ يده بحنانٍ على عنقها بفكرة أن هذا اللحم وفي أي لحظةٍ سيصير طعامًا للدود. أراد أن يسابق الدود لتلك الكتف، أن يشحنها بأكبر قَدْرٍ من الحُبِّ قبل أن تُحلِّلها حرارة القبر الصارخة، وقبل أن يغيب هذا الجسد ويفوته التعبير له عن إعزازه. وفي نفس الوقت لاحقته سخرية نوري:

«جسدكَ يا عباس مُؤَهَّل للسقوط للدود في اللحظة التالية، شبابُك لا يعني أمانَكَ من الموت، كما أن شيخوختها لا تعني موتها، في الساعة التالية قد تسبقها لقبركَ».

لكن يد عباس مضت تُدَلِّك كتفيها وقفص العظم الناتئ بظهرها بحرارة الحُبِّ الذي جاش بصدره.

إن هي إلّا أيام، استيقظَت الجدّة في حجرة الطوارئ. يدفع عباس نقالتها مع الممرضين، ويندفع صوبها فريق الإنقاذ، صاحت مستنجدة به:

«ياعباس الحقني، شوف الأغراب يتكشَّفون عليّ».

تقدم عباس ليحول بينها وبينهم، لكنهم أزاحوه:

«ذبحة صدرية... رجاءً، غادروا الحجرة هذه ذبحة». هتف الأطباء باضطراب وردّدت الممرضاتُ الأمرَ. دفعوا عباس للخارج، شقوا ثوبها من العنق وانكشف صدرها. لا يزال بملمس الحرير، انشقّ الثوب وانشقَّت معه في صدرها تنهيدة خجل:

«استرني». وطلعت روحها في تلك التنهيدة، عاجلوها بالصعقات الكهربائية.

«أقسم بالله، جَدَّتي سكينة ماتت خجلًا». يكررها عباس، ولا يفهمونه، ويُمَثِّل لهم حركتها:

«لحظة شقوا ثوبها تلوَّت مثل جذع تخترقه صاعقة من الصدر صوب الأعلى. وتنهدت: آه. انغلقت عيناها وفارقت دنيانا».

لا يعرف إن كان طقم أسنانها هو ما يمنح ابتسامتها شموخ شبابها القديم.



موضة يوم القيامة

انتظرت نورية حتى مضى أسبوع على تشييع والدتها لتظهر. تركت سيارتها الرولز الحمراء والبيضاء أمام الحرَم، وأقبلت مع عباس على بيت جَدِّه مصطفى السردار الكبير. حتى بعد موت والدها لم تكسر أمره بألّا تقف الرولز ببابه. تستقبلهما طوابقُ البيت الخمسة من الحجر المُقَنَّع برواشينه المتراكبة، في تناقض مع تجريد أكشاك الزجاج حوله وقد مسحتْ توسعةُ الحرم سوق المدَّعى القديمة.

عن يمين الباب يبدو المرزا مثل تحفة مُحَنَّطة في كشك الزجاج الذي اكتراه. اختفى كتاب الموتى المبعوثين وربما سرقه أحدهم، لكأنما توقفت محاولات البشر للفرار من الموت.

تتحدَّى حداثةُ عباس غزارة شعر المرزا الفضّي وجذعه المعقوف. يستفزّه:

«آخر الكلام يا عَمّ مرزا؟».

ومن دون أن يرفع رأسه عن الخلطة التي يعجنها في طسته جاء صوته عميقًا من قبر:

«يا ولد لا يغرَّك طقم الأزارير البرلنط وسروال الدَفَّة، تصحى وتنام في المستورد، تخرق وتلبس الشرق والغرب، لكن آخرتها ما يقشِّرَك ويعطرِك لوقفتك إلا ليفتي وحنوطي. وما غير قُطني يسد خُرقك وقرطسة البفتا البيضاء، موضة يوم الدين. بَفْتَا ما تتبدَّل مقاساتها ولا قَصَّاتها ومع ذلك دائمًا موضتها طالعة».

ينتاب عباس الحرَج، ويشعر بثيابه الأنيقة آخر صرعة تُطبِق على جسده.

تدخل نورية بعباس الدهليز، وفورًا شعرت بالخيال يترصدها، نفس البرودة التي كانت تظهر لمصطفى الكبير قبل وفاته. برودة لا تسكت إلا بغسل ميت، كل موتى السردارية غُسِلوا بالمجلسِ الجنوبي العاري والمفتوح ببالوعات تقود لتُربة الفَناء الخلفي. تغلق نورية أنفَها مسترجعة صدى كلمات أختها حورية:

«تعرفوا أنهم يغسلوا عن جسم الميت طعم خروج الروح، لحظات مثل لحظات صب الروح في الجمَاع، فيها تِمخِض كل موية الحي».

ينفصل عباس ليرقب الغثيان الذي ينتاب نوري من تجسُّد تلك الرائحة التي يعجز عن فهمها هو. يستوقف عمَّته بالدهليز فجأة:

«ممكن تلاقي فوق بقيَّة مُعَزِّين. وممكن كلمة تطيش ويِنْكتوكِ لمقاطعتك التشييع». مازحًا يستعمل الكلمة الدارجة (يِنْكتوكِ) بدل (ينتقدونك) ليخفف تحذيره.

«لا يا حبيبي، كل واحد يعزِّي نفسه في نفسه! يعرفوني، وبعد ما يئسوا؟! أنا على اعتقادي: ما لي فقيد. على العموم أنا عاذرتهم، كل واحد يسوِّي القادر عليه. لو الحضور يرجِّع اللي فارقوا أهو كل العائلة حَضَرَتْ، ولو الغياب يرجِّع أهو أنا الوحيدة غابت».

ميتًا وراء ميت كفَّتِ العائلة عن لوم نورية التي تغيب عن تشييع الموتى بمن فيهم أبوها، والآن أمها.

تتفادى البرودة قافزة الدرجات، تقف فجأة تُعدِّل ثنيات ثوبها الموسلين الأخضر، وبقلق تدور سبَّابة يُمناها على اللؤلؤة السوداء الضخمة تحيطها حجارة الزمرد هديَّة عرسها، يرقب عباس شارة توفّزها تلك، تُباغته بالسؤال:

«هاااا؟ شكلي مقبول؟».

«شكلكِ يردّ الروح». صَدَمَتْها العبارة، للمحةٍ خافت أن ترتد فيها روح أمها الميتة. نفخت لطرد تلك الروح، ثم عَدَلَتْ ساخرة:

«لو الشُرْعَة تردّها كنا اشتغلنا خيّاطين وعارضات أزياء ومقينات ماكياج».

ويتلاشى نوري لا يجرؤ على الصعود. في وقفته بالدرج بين الموت والحياة يتأملها عباس تصعد وتتضخَّم مع ظلال ذلك البيت.

تخترق نورية كثافة الحزن المُخَيِّم على البيت بعطرها الأوبيوم، تتدفق بحيوية لمَعْقَل من بقي من العمَّات:

«وي وي وي إيش دي الغَنْبَجَة، فُكّوا فُكّوا خلينا نشوف وجه رَبّنا».

تفتح نورية ما يجيء في طريقها من أبواب، «سلامٌ قولًا مِنْ رَبٍّ رحيم».

تهتف على كلِّ باب وكلما عَبَرَتْ ممرًّا أو درجًا لتُمَيِّزها ملائكةُ الدار عن أخوتها الأموات، أو لتضمن انسحاب الزوَّار من الأموات قبل دخولها.

تستوقفها سُكَّرِيَّة في مرورها بالمطبخ بأعلى طابق:

«داخلة برجلك إلى مقبرة البنات، ولّا على عادتك داخلة علينا فَنْطَزَة؟».

«لا تخوّفيني، ترى والله مَا أَطُبُّ بيتكم هذا». تثرثر وترقب بطرف خفي تأثير الموت الذي مَرَّ على ملامح أختها، تقيسُ عُمقَ الحزن حول فمها، تكمل ببهجة: «جبت لكم خشب عود أصلي، وَلِّعي يا زينب جمرة نبخِّر».

تُبخِّر وتطرد بثرثرتها أذيالَ الحزن، صوتُ ماكينة الخياطة لا يكفّ يدور دولابها في حجرة جورية، صدى خشخشةِ ورق الكروشيه لتصنيع الورد الصناعي من حجرة أُمِّها سكينة يوحي بأنها لا تزال حية. تمضي الحياة كما مضت مذ قام هذا البيت وتتشرَّبها نورية، تتبع سُكَّرِيَّة لحجرتها، نفخت متعجبة لباقات الريحان مشبوكة في التسريحة مُطِلَّة على مرآة أختها وفي الكوب المملوء بالماء إلى جوار السرير.

أطلَّت نورية على تزاحم مراكن الشرفة، أخذتْ نَفَسًا عميقًا وتنهَّدتْ:

«كلما أقبلتُ على غرفتِك روحي تحزّن، الريحان ريحة الآخرة. والله تحصيل حاصل يا أختي سُكَّرِيَّة كل من يتجسد لك ويزورك من موتانا. أنتِ متقصِّدة زَارعة الريحان لهم مصيدة؟!».

تتخذ جلستَها في الكرسي الوثير المُوَاجِه للشُرفة، الشُرفة تُطِلُّ على السوق ويسترها شَبك من الخشب المُعَشَّق يخفيها عن أعين الرائحين والغادين بالأسفل.

«ها؟ الأهل راضيين اليوم؟ كيف أحوالهم هناك؟». مازحة تقصد سكان عالم الموتى.

«بعضهم تخفَّف من ذنوبه وظَهَرَ لي، واللي بعد بيصفِّي حساباته غائص مع منكر ونكير ولايِصْ، الله يرفع عنهم عذابه».

الجِديَّةُ في صوت سُكَّرِيَّة لا تُثني نورية عن مزاحها:

«يجوكِ الأول بالأول، أو حسب جدول؟ يعني أخويا عبد الرزاق اللي راح الحَجّ الماضي ما بان لك خَبَره؟». رغم تَحَرُّقهم لم يجرؤ أي منهم أن يسأل عن حال أمهم الميتة الجديدة. بطرفٍ خَفِيٍّ تتأملها سُكَّرِيَّة للاطمئنان على تماسكها.

«بالعكس، عبد الرزاق رايح جاي حمامة. عتيق يا بخته، العِتْق على قَدِّ الموازين، لكن أبويا مصطفى لِسَّه غاطس». تقولها كمن يغسل يده من عذابه.

«عَقْد ونُصّ من زمان الموت ما صَفَّى حساباته؟!».

«حسابي انا لوحدي معاه كَفَّة، وأبويا على خُبرك به: يكابر حتى في موته، ولا مرَّة تناول وطلب مني السماح. عارف وأنا كرَّرتها له: أني لن أسامحه على تلفيقة الزيجة التي لَفَّقها لي مُجامَلَة للجدّ الإسطنبولي الكبير. لأنكِ بنت سكينة اختار لكِ الغندور عبد الجليل، وأنا بنت الجارية رَمَاني لصَمدو المعروف في كل المدَّعى صَرَنْقَعوه».

تُقاطعها نوريةُ مُحْتَدَّة، «هاااا رجعنا لِضيقَة العين وطَرْطَشَة الكلام». تفتعل نوريّة المشاكسات لتُقَشِّر عن ملامحهم همود الموت، «يا سُكَّرِيَّة مين البني آدم الضعيف مصطفى عشان يختار؟! نصيبكِ هو الذي حَرَّك الرجال والأوراق. ارمِي ورا ظهركِ، لا تجلسي تحصي وتقاضي أخطاءَ

الحَيِّ من البَشَر والميت. هذه شَغلة ملائكة، رقيب وعتيد شغلتهم يجمعوا، ومُنْكر ونكير يحاسبوا، شَغْلَة فوق طَاقَةَ البَشَر وآخرتها تِرَكِّعِك».

«خليكم شاهدين إن: حتى قلبي الشيء الوحيد الأبيض فيَّ حرقوه، أبويا من أول ما جابني لهذه الدنيا بإيده سَوَّده».

تتحرشف عن وجهيهما سكتةُ الموت.

فجأة يسكتُ دولابُ ماكينة الخياطة، وتنبعث حورية الأخت الكبرى على باب الحجرة، بضفيرتها العسلية المموَّهة بالأبيضِ تتموَّج على ظهرها، تُنَقِّل عينيها في الوجوه لتستقر بسكينتها على سُكَّريَّة، ويجيء صوتها مترقرقًا:

«تعرفي؟ بختكِ يذكِّرني بقول عَاشِرِ جَدَّاتنا خديجة، كانت تقول إن الله لما يخلق الأرواح الكبيرة يحجبها، يغطِّي عليها غطاء من الصعب تكشفه عيونُ العامة، حتى تعمل إعجازها في خَلقه بِسِرّ، يخفيها بفقر أو مرض أو وحدة وغُربة!».

تنفجر نورية ضاحكة: «يعني بالمُخْتَصَر: ربّي حَجَبكِ يا سُكَّريَّة بلونكِ الشوكولاتة ومَيلة بختِك، وجعلكِ بحرمانك وسيط بين الحَي مِنّا والميت. أما أنا فولَّع بختي لأني مُطَرْطعَة».

«وآخرتها؟ أنتِ مطَرِطعَة وأنا مُطَنْقرَة!» تستجيب سُكَّريَّة لمزاحها، مُتحرِّكة لتقف خلف كرسي نورية، تُثَبِّت رَاحَتَها على كتفها اليسرى، تُمَسِّد للقلب، لا تخْفَى على الأختين نبرة الفزع من الموت الكامن تحت طلاقة ضحكة نورية. تحرص حورية أن لا تدنو من نورية، تُوَبِّخها مُهدهدة بحنان:

«لا تقولي عن نفسكِ كده يا نورية أنتِ على اسمك فيكِ نعنشة تنوِّر، لكن سُكَّريَّة من يومها واقفة للدنيا بالعرض».

تقاطعها سُكَّريَّة: «يعني ما جيت على قَدْ أسنانكم، حارقة رُزّكم».

«تتقدمنا وتصادم ونحن نتعلَّم من فَقْشَات راسها». لا تبهت ضحكةُ نورية، لا مؤشر لحقيقة استيعابها للموت الذي يمنح الأصواتَ وردودَ

الأفعالِ لمحةً سوريالية، كلُّ شيءٍ بطعم زئبقي وقابل للتلاشي في اللمحة التالية، «على قولكِ أنا نُزهِيَّة، يمكن عشّان كِده عَمَّرت مع الرجل، ليه لأ؟ نَفِّه الروح قبل ما تروح».

تسترخي ضحكةُ نورية ملتفتة لأختها سُكَّرِيَّة: «أسلاكك واصلة أيضًا لمسافري الدهر؟». لا تعترف بموت زوجها وتعتبره مسافر الدهر: «خبِّريني عن نور عينيّ الأسطنبولي، على الموضة حامي ولّا بردت شوكته، يشتاقني ولّا لقى الحلوة القوية المستويِّة اللي تنسِّيه ريحتي في روحته؟».

«عبدك الجليل الإسطنبولي على حَطَّة إيدكِ، مُرابِط لنا في نِفس المجلس بالدور الأول. يؤكد لكِ بأنه في حياته ومماته ينتظركِ، تخلِّصي هَرْجك ومَرْجك وتلحقيه».

تنفخ نورية مستعيذة: «تُفْ برَّة وبعيد، فَال الله ولا فالكِ، لا تِخَطْرِفي وتقولي مماته وألحقه، لا تِسَبْكِي على هواكِ الكلام أنا عارفة أنتِ مبسوطة إني أكبر منكِ، وبالصف متقدمتكِ لعزرائيل، لكنها يا حبيبتي ما تجي كده، أنا في عروقي روح تهد جبال، وسوف أعمِّر بعدكم كلكم، فَتِّحوا عيونكم قَدْ الريال، اللي شِبع يتوكَّل... أنا لسة ليَّ مع الدنيا شُغل طويل عريض، ما أموت».

«يا أختي نورية شيلي العُصابة عن عينيكِ، الموت والآخرة بيت. وحياتنا وَقْفَة في روشانه، نِتْنَفَّه شوية وراجعين. ما يستر راسنا إلّا سقفه».

«عشان فاتتك الدنيا تقولي عنها وقفة؟ أنا -من دون خلق الله- أعِزّ نظارات الشمس الخضرة ومستأجرة في مكان غير بيت الآخرة والموت، لَمَ لا؟ أنا ورثت سيدي الخِضْر».

«من خوفك من عزرائيل سوف يدخل عليكِ في شكل ولد جيعان من الأولاد المنهمكة تقشّريهم».

«أنا مُؤمرته[1] أنه أجمل الملائكة، أعرفه ولو بين ألوف وأزوغ من طريقه؟

---

(1) أي وضعت عليه علامة.

متيقنة وأنا في ظَهْر أبونا آدم نَذَرت نَذْر: قبر ما أدخل ولا ينقفل عليَّ. ومن صغري أول صلاة صلِّيتها دعيت وعقدت شرشف صلاتي على نِيَّة أن: بإذن واحد أحد أنا ما أريد أموت موتة طبيعية. أريد يجي الحوت ويبلعني».

تضحك سُكَّريَّة ساخرة: «وتظني الحياة أبدية ببطن الحوت؟».

«أقلّها بطانة حَيَّة غير حَبْسَة التراب، أهو يونس طلع وكمَّل حياته. أنا قلتُ له: دخيلك يا ربي على إيدك على طول، لا قبضة عزرائيل ولا ناكر ونكير... نَذْر عليَّ لو تركوني ما أخلِّي طفل عريان».

«كل اللي راحوا يا نورية قالوا إنها طريق مكتوب يسلكها كلٍ بني آدم».

تؤنبها نورية: «والله ما أظنه عِلمهم، هذا عِلْمك يا سُكَّريَّة، أنتِ الموسوسة بعزرائيل، والهوى هواك تفلّتيه على رجال الدنيا».

«أقول لكِ ولّا أخليكِ على عماكِ؟ هنا وهناك كله مفتوح على بعضه».

ترتعد نورية لتخيّل الموت مفتوحًا على الحياة: «كل أمواتنا مُستخفِّين روحي، دائمًا يجوني ويجلسوا عندي ياخذوا نَفَس ريحان ويكلموني وجه لوجه. جَدَّتي خديجة كانت عندي من يومين، تحب تحج». تُوَجِّه كلامَها لعباس لكي يُنَفِّذ طلبَ الجَدَّة الميتة.

طَفَتْ برأس عباس عبارةُ: she is the kind to see the dead لكي يقترحها على المخرج جورج كعنوانٍ للفيلم التسجيلي.

تنقلب نبرة نورية من المزاح للتوبيخ:

«لأنك ما تسمعي كلامي، قلتُ لكِ: لا تشجعيهم يتكركبوا علينا. ياسُكَّريَّة كل هذه التهيوءات من عزلتكِ في هذا البيت المُقْبِض، عمري ما شفت بني آدم ما يخرج من بيته بالسنوات. لو كسرتِ هذه العُزْلَة وخرجتِ تعرفي الفرق بين الحيا والموت».

تتأملها نوريَّة بمزيج من شفقة وإعجاب، بينما تقول سُكَّريَّة:

«الزوار من الآخرة يفتحوا عيني على المخفي ويحذِّروني: لا تخرجي يا سُكَّريَّة لو خرجتِ تنطبق السما عليكِ».

لمعة جنون في ذلك التصريح تدفع نورية للتحدِّي: «يطبقوا عليكِ السماء؟! وهُمَّ داخلين خارجين من آخرتهم لدنيتنا؟! يا روح ما بعدِك روح، اخرجي ياسُكَّريَّة وخليها تِتْطَرْبَق علينا وعليهم».

«لا تشكِّكوا عَمَّتي سُكَّريَّة، أنا ولد أخوها أيضًا يطلعوا لي بين الحين والحين يزوروني. مَرَّة كنت قاعد في السوق ومرَّتْ قدامي عَمَّتي بدرية. هَدَّت وابتسمت في وجهي وراحت. وأنا كنت خائف لا تكون زعلانة مِنِّي يوم موتها. قمت أجري وراها وأنا متأكد أنها هي. أنا لاني مُحَبَّب ولا سكران، على قول طاهر كتالوج في أغنيته. متأكد أنها عَمَّتي، وهي دائمًا تِطَلْطِل عليَّ من موتها».

عاجلتهم نورية بضحكة تطرد الانزعاج الذي انتابها:

«ما خاب يا عباس اللي سمَّاك ولد سُكَّريَّة. مهما سرقناك منها وسَرَّجناك بنورنا يبقى فيك من سَجَم حزنها».

تفضح عبارتُها المنافسةَ بين الأختين على وِدِّ عباس، ويؤكدها تعليقُ سُكَّريَّة بفخر:

«ما يفهم رَطْني إلا ولد بطني. وعباس روحي انشقَّتْ ووَلَدَتْه. هو عندي السردار الأول والأخير».

«و الله هذا طالع لي، من رأسه الآلافرنكا لكاميرته تلاحقنا. مين في العائلة جابها قبله؟ يوصِّلنا نحن موديلات الأربعينات لمهرجانات سينما القرن العشرين؟». ينتشي عباس بتنافسهما عليه، يتلفّت حوله خوف أن يظهر نوري فجأة ويُشَتِّت اهتمامهما.

«طبعًا وأنتِ ما صدَّقتِ تلاقي اللي يشطح بكِ من المُدَّعى لفينيسيا!».

«بالله يا عباس لما تطَلِّع بيتنا -قلعة مآسينا- خلّي في فيلمكَ فَرْفِشْه بشوية موضة، يعني لَيِّسْ ولَمِّعْ تاريخ السردارية، لا تخليهم يطلعوا على حقيقتهم كِشْرين».

«يعني اللي أكلناه بيض بقشره خَرِّجه للمتفرجين فراريج؟!».

«ما عليكَ منهم، خَلِّي حكايتنا تشم نَفَس في بيت فنظزة بين القديم والجديد، لا تخلِّينا نغَنْبِج المتفرجين، يعني إذا تحب صحيح تخلِّدنا كَلِّفْ نوري بالديكورات وهو يعرف يطْلِقنا من مجالسه وكلاحتها».

يقرص قلبَ عباس استحضارُها لنوري في مثل تلك اللحظة الخالصة له بينهما، يتجاهل غريمَه لينضم إلى سُكَّرِيَّة، يُسايران نورية في ثرثرتها عن الدنيا، الكل يُدرك فزعها في تجاهلها للموت، بينما سائقها صالح يتبع تعليماتها يشتري أكياس الأرز والسُكَّر والشاي، يوزعها على الأربطة بمكة عن روح سكينة، المؤشر الوحيد لوعي نورية لموت أمها.

إِمَامُ ريحان

بيت المدَّعى، مكة، 1994

جاء عباس راكضًا، اندفع في بيت المُدَّعى، استقبلتْه الحركةُ غير العادية. «كل عمري وأنا أشتكي لك إنهم فجعوني في دُنيتي؟ فَرَّغوا كازي وسحبوا فتيلتي؟ كل هذا ولا يهمّ الآن. الحسرات كلها صِغْرَت في مفتاح. هي شهقة أشهقها تفتح لرب السماء». تَلَقَّته عمَّتُه سُكَّريَّة بتلك الافتتاحية، تمسك بيدها باقة ريحان، وتَمَهَّلَتْ لتتفحَّصه: «حضرت عينكَ التانية؟».

«الكاميرا جاهزة، خيرْ قلتِ إنّك مُوَدِّعة؟ على فين؟».

«خلاص القُمريَّة فرغ كازها». لم يفهم، أو تَوَجَّس من الفهم: «خارجة! وأهل رأسكِ موافقين[1]؟».

«هم الذين بَشَّروني بالخَرْجَة، قالوا لي: هذه هي الخرجة الكبيرة التي حجبناك وكنا نُجهِّزك لها».

نزلت أمام عباس الدرجات، أحسَّ برهافتها وأنها ستطير في الخطوة التالية، رهافةٌ غير بشرية أحاطت بها، لكنها لم تستند إلى جدارٍ كعادتها مذ اشتدَّ مرضها الذي ظَلَّتْ تُخفيه بتماسكها الخرافي، لم يحدث واشتكت بينما تتآكل من الداخل.

ومَضَتْ أمامه بيمناها تقبض على حزمة الريحان، شيء في هبوطها أفزعه:

«الوقت عصرية والدنيا هَدَى وتتبرَّد، تحب نسقي الريحان؟».

---

(1) يقصد الأموات الذين تُجَالِسهم.

يعرف غرامها بسقي الريحان وقت العصر، خوف غامض يدفعه لصرفها عن تلك الخرجة.

«رايحة أسقيه، الوقت وقت سقاية بالروح مو سقاية الموية».

حين بلغت الطابقَ الأول لَمَحَتْ أختَها صبرية تضع عباءتها متأهبة للخروج، نَهَرَتْها برِقَّةٍ: «لا تخرجي! اليوم أنا خلاص أودِّعك. أما نورية فلا تفجعوها، ما تلحق توحشني، فَصَلنا خط القلب بقي خط العمر، الله يغفر لي، ضحكت عليها بحكاية السكين والكي». أخذ قلب عباس يخفق، والأرض تميد تحت قدميه.

في وسط المجلس الكبير الذي شهد جبروت السردارية فرشتْ سكرية سجادة صلاتها، ممتدة من دولاب الجدار الذي طفح يومًا بالمطاريف الصفراء، وانتظرتْ النداء لصلاة المغرب:

«أنا طلبتكَ خصِّيصًا يا عباس لأجل تِسَجِّل خَرْجتي».

«يا عمتي لا تفجعيني. أي خَرْجَة؟ ما عادتكِ الخروج، وبعد المغرب؟!».

«لكن أمانة لا تدفنوني في ليل، الميت يستوحش بين عتمتَيْن: قبره وسماه. وَنِّسوني وانتظروا عليَّ، خلّوا جسمي يرتاح ويستلذ بفراغه من روحي وجروحاتها وشِدتها. الصباح رَباح، صلّوا عليَّ الجمعة».

أراد أن يطفئ كاميراه أمام هيبة كلماتها، فمنعته بإشارة من حزمة ريحانها: «شَغِّلْها. هذه الساعة الخاتمة لا تفوِّتها على عمتك سُكَّرِيَّة. عشان أزوركَ في المهرجان».

«الله أكبر...». انشقَّ الأذانُ على وجهها بنور، لمعت عيناها بحمَّى غريبة، وضعت حزمةَ الريحان بموضع سجودها، واصطفَّت وراءها:

«الذين انكشفوا لي شملوني بالرحمة التي شملتهم، عليهم الصلاة والسلام ما فَوّتوا معي فَرْض صلاة، يؤمّوني».

واصطف زُوّارها من الأموات خلف حزمة الريحان. ما إن سَلَّمت حتى بدأت رعدةُ عباس الذي ثَبّت الكاميرا على الرف المواجه ونسيها مُسَلَّطَة

على عمَّته لتسجيل المشهد أوتوماتيكيًا، وجاء راكعًا على ركبتيه على طرف سجادتها. بأنفاس التشهُّد مَسَحَتْ سكرية على كامل جسدها، ونادت:

«يا صبرية تعالي، ساعتِك تودعيني». أقبلت صبرية تتعثَّر، وفي أذيالها أخواها عبد الكريم ومحسن، وتصدَّرَتْهم الأخت الكبرى حورية والتي لم يفتها موت ولا فراش مرض في العائلة. بسطت سكرية جسدها بطول السجادة وبدت فارعة ريانة كأيام مراهقتها، بيديها القابضتين على حزمة الريحان للقلب. واجتمع الإخوة والأخوات حول رقدتها باعتقاد أنهم يشاركون في مشهد تمثيلي عبثي سينتهي بنكتة من نكات «الكريا المتينة».

سَجَدَ عباس مُسْنِدًا جبهته وكامل أنفه وشفتيه لقدميها، همسًا أصدرت لهم الأمر:

«يللا، اقرأوا عليَّ وشهِّدوني!». وأغمضتْ عينيها، تشهَّدتْ وأسلمتْ الروح قابضة قلبها على حزمةَ الريحان. شعر عباس بالروح حين نُزِعَتْ من أطراف أصابع قدميها، شيء من روحه نُزِعَ في تلك الشهقة.

في الأعوام التي استغرقَتْه لتنقيح فيلمه التسجيلي لم يسمح عباس بعرض فيلم الفيديو ذاك عن وفاة سكرية. كلما بدأ عرضه وحيدًا اضطرب هواء المكتب وساح الأموات من صفوف الصلاة الأخيرة على سجادة سُكَّرِيَّة وخلف حزمة ريحانها. ساحت وجوهٌ وروائحُ يعرفها -أبوه وأعمامه وعمَّاتُه الذين سبقوا بالموت- أجساد من طاقة (أينرجي) يمكن لمسها تنتشر مُتَنقِّلة بسَلاسَة ما بين الصور المحبوسة في إسطوانات الـ DVDوهواء المكتب.

صار عباس على يقين من أن عالَم الصُوَر وعالم الموت مفتوح واحدهما على الآخر، وأن الخيال هو من تجليات تلك الدنيا الآخرة، وأنه بالتداخل بتلك الصور يموت مع كل من مات ويرجع للحياة من جديد...

أفيون وأظافر يورانيوم

جدة، 1994

في الحلم قالوا لنورية: «قسمتِك وسكرية مربوطة، وعُقْدَتُها في بقجة في دهليزكم. لا بد وأن تفتدي نفسك بكسوة، وإلا جرجرتكِ تلحقيها».

حمَّلوها طاقة القماش، وأطلقوها في دهليز السرداب.

رائحة السِدْر والورد المُجَفَّف جَعَلَتْ قلبَها يدقُّ في رأسها، سَقَطَتْ منها لَفَّةُ القماش في عتم الدهليز ولم تنحنِ لتلحقها، لأنها ابتلَّت بمياه غسل كل موتى العائلة وخافتْ من استرجاعها.

قوى خفية قادتها إلى باب المجلس الخلفي، دَفَعَتْه وتسمَّرَتْ أمام المَشْهَد الذي وَاجَهَها، بُقجٌ تُغَطِّي الأرففَ المُطوَّقة للحُجرة والطاولات الخشبية القديمة، في الصدر حواملُ معدنيّة بعَلاّقَاتٍ تحملُ ثيابَ أطفالٍ من كلِّ المقاسات. الحواملُ تُشبهُ تلك المُسْتَعْمَلَة لعرض الثياب في المحلات التجارية، وتبدو كإضافةٍ حديثةٍ دخيلة على جوّ البُقَج العتيق. جَفَّ ريقُ نورية حين مَيَّزَتْ مجموعةَ الثياب الأقرب للباب:

«ثياب حاتم». تفوحُ ياقاتُها بوردٍ فاتر، من آثار ماء الورد الذي تمسح به أُمُّه ما وراء أُذنيه كل صباح. نَفَّرَتها تلك الرائحة فاتجهت إلى الباب تريد الفرار، اعترضت طريقها حورية تسدُّ الباب:

«على عادتك غبتِ عن جنازة حاتم، أُمُّه ما غفرتْ لكِ حتى الآن، ولدها واحد وحيلة، وهي طول عِشْرَتها لنا ما استوعبتْ غيابكِ عن الجنائز».

حريصة لا تدنو من الحوامل أو البقج مضت نورية في التعرُّف على الثياب غير مُصَدِّقة: «قمصان الطفلة مريم! الله يرحمها».

في صوتها اتهامٌ مُوَجَّهٌ لحورية. بهدوءٍ أَكَّدَتْ حوريةُ فزَعَها: «نعم، كل هذه حوائج ميتين».

فرغ المخلوانُ من الهواء فجأة، جحظتْ عينا نورية مرتطمتان بالجدران تبحثان عن مَفَرٍّ من ذلك المخبأ الذي يطفح بثياب الأطفال الموتى.

أكملت حورية: «في هذا المخلوان نستقبل ثياب كل من مات من أولادنا، ما تمتَّعوا بها ولا تمتَّعت بهم. نجهِّزها للصَدَقة، تَسَامَعَ بنا القريب والبعيد إلاكِ يا نورية، وصارت تصلنا حوائج مِنْ كلِّ شَقّ وطَرَف، من كل مكة. عزرائيلِ دائمًا سَابِقنا، يكَوِّم ولا نلحق نوزِّعها».

تَصَدَّع سَدٌّ بصدر نورية أمام تلك الثياب التي لا تزال تفوح بموتاها، «هذي البقج الواصلتْني منَّك يا حورية؟!».

«الملابس على الحوامل بعدها واصلة خام، أنا أرقِّع وأنظّف وسُكَّرِيَّة تصرّ وتقسِّم في البقج، وأنتِ الله يطوِّل عمركِ تلبّسيها لمن يُحييها».

«كل هذا الوقت توصلوني بحوائج ميتين؟!! كان لا بد أعرف أن سُكَّرِيَّة مُتآمرة معك، هي لو بيدها تلبِّسني الموت. ما هان عليها أنساه ويقاطعني، لازم تحضِّره حتى يوصلني».

«راحت جات كل حوائجنا بالنهاية حوائج ميتين».

تلجلجت نورية لا تعرف ما تقول: «خدَّرتينا بكلامكِ عن أن الملابس جسمٌ ثانٍ لنا نحن نفصِّله، أنتِ التي ما كان لكِ نصيب في زوج ولا ولد، كل ظني أنك كنت تخيطي الذُرية التي تمنيتيها وترسليها لي!».

«أحيانًا أطَعِّم ثوب ميت ببقايا أقمشتنا، شيء نرتقه، وشيء نخيطه ونضيف عليه، وشيء ما يحتاج نخيط له، جاهز لكِ».

«هو البيت ناقص موت تلمِّي له موت مكة في هذه البقج؟!».

«المُزَهننة بنات، واللاس المُصفرّ أولاد، والبَرَكَة فيكِ، تطرِّزيها وتدندشيها وتكسيها لـ الحيين. ما يبقى عندنا خزين، كل قطعة واصلة لحي».

«كل هذا الوقت خلِّيتيني أوزِّع حوائج الموت؟!». تلمح الصندوق الطافح بمتعلقات أطفال، «الأهل من حُرْقَتهم يلموا الملابس بما فيها

ويرسلوها، نلاقي في الجيوب الأشياء التي شغفت الطفل الميت، أجمعها وأوزِّع ما يمكن توزيعه».

تقعَ عينُ نورية على دمية قماشية محشوة بحجم ذراع، عوراء بعين واحدة، وبشعر منتوف، تُجيب حورية فضولها:

«جزء من أرواحهم حاضرٍ مُعَلّق بأشيائهم الصغيرة هذه».

تخوضُ حوريةُ بيدها بتلذُّذ في الأشياء، من القاع يَعْلَقُ بأصابعها عِقْدٌ على هيئةِ خيطٍ أسود يَتَعَلَّق به حوتٌ زجاجي أزرق، بحجم عُقلة، تشهق نورية لرؤيته:

«هذا عِقْدي اختفى من زمان!».

تندهش حورية لظهور العِقْد هناك، تهتف شبه معتذرة:

«كيف لَقَي طريقه لهنا؟! الله العَالِم في ثوب أي طفل جانا؟».

«رجعت به من سفرتي لمورانو بإيطاليا». تتذكَّر نورية كيف لم يُفارقها لسنوات في صحوها ومنامها، تلبسه كحجاب جنبًا إلى جنب مع مجوهراتها ولكل حفل، حتى ضَاعَ ويئستْ من العثور عليه.

تتجاهل يد حورية الممدودة إليها بالعِقْد، لا تمدّ يدها لتتناوله، بوسعها أن تشمَّ فيه رائحةَ أصغر قطراتِ عَرَقها ومخاوفِها، يقشعِّر جلد نورية. شفقةٌ حوَّلتْ عينَ حورية لحوتٍ بنفسجي ورَدَمت المسافةَ بينهما بلمحة. مسَّت بيدها كتف نورية الأيسر، انطلقت صيحة ارتجَّ لها بيت السردار، أفاقتْ نورية على يد نوري تنتشلها من ذلك الكابوس، «خير اللهم». أفاقت، أدركت بأن ما رأته لم يزِد عن حلم داهمها حين نعست بينما هو يُدلِّك قدميها على مقعدها الطويل بشرفة قصر النزهة.

صرختها أفزعت نوري: «خير؟!». وسارع فأشرعَ النوافذ السبع والمتماهية برؤوس الشجر، انتثرت شمسُ الضُحَى في تدويرةِ الشُرفة، مُتخلِّلة من بين أغصان الجوافة، محيطة بنورية المُسترخية على مقعدها الطويل (الشيزلونغ)، مُلاحِقة الزُرقةَ الخفيفةَ عن صدغيها، وفاح من

قدميها زيتُ العنبر الباعث للحيوية. يدلّك نوري صاعدًا لركبتيها، يطرد العَرَقَ والبرودةَ التي هَبَطَتْ عليها فجأة: «سُفِّي وانفخي عن يمينك».

انصاعت لتعليماته وتمتمت ثلاث مرات ونفخت عن كتفها اليمنى، «أعوذ بالله من شر ما رأيتِ... حلم لا أحكيه حتى لا يتفسَّر».

لا تزال رائحةُ مخلوان ثياب الأطفال الموتى تملأ خياشيمها وقد لحقتها من الحلم:

«ألديك فكرة: بقج عمَّتك حورية، ملابسها جديدة أم مستعملة؟».

حاجتها للطمأنينة جليَّة في السؤال:

«لا يدخلكِ يا أمي الشَكّ، كلها جديدة من تحت سِنِّ إبرة ماكينتها».

«خير». برودةٌ تقرصُ بكتفها اليسرى حيث لمستها حورية في الحلم... أكمل:

«وحتى لو بعضها مُسْتَعْمَل، أنا وإنتِ جَدَّدناها تطريز وزَبْرَقَة بالقَصَب والفصوص والترتر والأحزمة والكرانيش، يعني تصلح نفتح بها معرض للفن المفاهيمي. يعني أنا وأنتِ بنصنع فن حي!»، ويبالغ لطرد كابوسها: «فن حي ويُحيي البزورة المساكين».

تتنهّد نورية مستسلمة لتطميناته: «الله يريِّحكَ».

تتبع كاميرا عباس نورية في ثوب استحمامها وفوطتها بلون اللافندر. بينما يغسل نوري شعرها الذي أتمَّ صبغه في حوضِ الحَلاقة الذي استورده خصيصًا من بيروت لتدليلها وينهمك في قصِّ شعرها.

«توفقنا في اللون، الأسود ملكي، بخيوط من النبيذي. ضربة فرشاة وسشوار ورأسك يولع توليع وتحسدك عليه بنات أربعطعشر».

نَخَسَها ذِكْرُه للشباب: «بلا أربعطش بلا عشرين، الشباب نيَّة ننويها. وبكرة تشهد: أمك نورية لا عجز ولا موت».

يُدَلِّك فروتَها بحنانٍ لتصريف الكابوس الذي عكَّر مزاجَها.

على مقعد مجاور ينبسط الثوب الذي سترتديه للعرس تلك الليلة، أراحت بصرها على بنفسجه:

«والفستان -يسلمْ ذوقكَ يا نوري- لونه يرجِّع لي كل بساتين البرسيم حين تزهِّر في جبال الشَفَا بالطائف».

«وهذه الوردة الخضرا لُقطة». في رأسها توقعت همسات المدعوّات (عجوزة وتشوفيها في فستان بنفسجي ببروش) يتمم تجفيف شعرها ويُصعِّد عبثية المشهد بالمديح:

«آلا جارسون، ولا بنات الحي اللاتيني».

طبق توتياء أزرق

قصر النزهة، مكّة، 1995

«مخدة فستقي محشوَّة ريش نعام على كنبة مخملٍ أحمر. تحتها على الأرض طوَّالة عدنية لونها أزرق سماوي وكرانيش الطَرَف زهر. القماش لاس نايلون له لمعة، المخدة بيضاء ومطرزة بوردتين أحمر وأخضر، ومكتوب عليها: صباح الخير، بالأصفر».

في ذلك السيناريو سخر عباس من علاج نوري لذبحة نورية الصدرية الأولى، وشقَّ ذلك الشرخ الأكبر في العلاقة بين القرينَيْن، حين صمَّم عباس أن يستقدم ممرضة لضمان العناية الطبية المتخصِّصة. وتحدّاه نوري متضامنًا مع نورية، التي أعلنت أن أيدي الأغراب ستُعجِّل بموتها، ولم تثق إلا بيدَي نوري تُمَرِّضها، وتم تهميش عباس المستوحش بوفاة سُكَّريَّة، وبلهفة تَلَقَّف نوري حبكة مرض نورية السوريالية. انتقلت نورية للنوم بمخلوانه وعلى أريكة المخمل الحمراء، وتحتها على الأرض ينام نوري على طوّالته العدنية ليلبّي طلباتها ليل نهار. ألغى كلَّ مشاريعه، وَظَّف اكتشافاته كمعيد في ميدان العمارة الإسلامية لاستنباط محركات الحيوية بجسد أمه، ابتداءً من حَمَّامها وانتهاءً بتحليلاتها النفسية. يتلذذان بموازنة مُعَدّلات الحياة بجسدها: الضغط، السُكَّر، نسبة الأوكسجين في الدم بعد كل سيجارة تدخّنها. لم تكفّ أن تلفّ سجائرها كما اعتادت وتَرصَّها بعناية في العلبة برسم روميو وجولييت بالطبق التوتياء الأزرق، وفي كل شهر تُشعل سيجارة تشمّ رائحتها في الهواء حولها وتطفئها.

«خُذْ نَفَس من هذه السيجارة بطعم أول ليلة مع عمك الإسطنبولي.

فتحت عيني برأسي على ذراعه، حَطَّ السيجارة بين شفايفي بطعم ريقه. دخَّنتُها وحفظتها تحفة في متحف، تركتُ آخر سَحْبَة منها لآخر أيامي». تُشعلها وتَعبُّ مذاقَها المُغَمَّس بالحُبّ. يسحره ذاك الجزء المفصول من علبة التوتياء، والحاوي على أجزاء من سجائر: أنصاف وأرباع وثلاثة أرباع.

«سجائر! ما قاوَمْت، دخّنتها لما قَبْل نهايتها. وسجائر تركتُ منها الجزء الأكبر، لساعة عُوْزَة...». يفهم أن طول السيجارة له علاقة بعُمق لحظة المتعة التي عاشتها عمته نورية أيام عزّها. المتعة الأكبر لم تترك منها غير رشفةٍ أخيرة! لا يعبأ إن كانت الأعقاب تأتي من الزمن البعيد أم من مُخَيِّلَةِ عَمَّته، إذ كلما أخرجت عُقْبًا انبثقت منه الحياة التي تتمنَّاها.

«وهذا العقْب، بطعم بحر اسكندرية، أول صباح صحيته على بلكونة على الرمل وأبوك الإسطنبولي شايلني ورَامح للموج. أول غطسة ليَّ في بحر، طلعت والقهوجي النوبي مُجهِّز لنا صينية الفطور، والقهوة. أول مَرَّة أشرب القهوة التُركي وأدخّن بأصابع مبلولة بملح اسكندرية. وأُشاركه الرشفة بمرارة قهوة الصباح الإسكندراني».

كمدمنَيْن يفرطان مسبحة الذكريات المُخْتَزَنَة بتلك الأجزاء من السجائر، يلاحقان هَبَّةَ الدخان قبل أن تتبدَّد، ويغسلان قبضة حورية التي مذ مسَّتها في الحلم وهي تتوسع وتُفَرِّخ النوبات القلبية. وصارت نزوة التدخين والذكريات تلك سلوتهما يمارسانها كإثم ويفرحان، وبين الحين والحين يسمحان لعباس بمشاهدتهما.

رغم طمأنة الأطباء لهما عن حالة قلبها الصحية، إلا أن نوري لم يفارق رقدته تحت قدميها، يستشعرها كجهاز تخطيط للقلب، يعرف بالنوبة حين تبدأ الخربشة والعتم بصدره هو، فيُسارع لإشعال النور.

«كأنكَ تولِّع نورَها في صدري»، يسقيها الأسبرين الفوّار ويدلك قدميها بالكادي، حتى تنحسر الذبحة.

«عارف أنه ليس الخوف من الظلام لكنه الشوق لاستنارة».

لا تنام حتى لا تبقى فرعونية بعيدة. يتحلَّقن بشمعداناتهن حول بؤبؤ نورية المُضَبَّب وتغفو برأس نوري لِحجرها يتنفس عَرَقَها العميق بنكهة موت وفاغية وأوبيوم.

عامٌ كامل مَضَى على تَوَحّده بقلبها الواهن. ذلك الصباح أفاقت بإشراقة، سرقتْ قلبَه بضحكتها الجاهزة لكل كلمة. لم تتناول عصيدة العسل بالشوفان كعادتها. ذَوَّبت العَسل في الشاي وشربتْ، وعلى الغداء اكتفت برشفات من شوربة الخضار. كان يشعر بها تَخِفُّ مع تقدُّم ساعات النهار، حين تَوَسَّطتِ الشمسُ السماءَ بَلَغَتْ نوريةُ أوج تألقها، كان ذلك عصر الوقفة بجبل الرحمة بعرفات ولا يفصلهما عن عيد الأضحى إلا ليلة، والذبائح تُعَدُّ للنحر.

رغم توجسه من شفافية نورية إلا أنه كان عليه أن يقوم بتلك الرحلة إلى دبي. كان عليه حضور اجتماع طارئ صباح اليوم التالي مع وفد قادم من ألمانيا لمناقشة مشروع تمدد شراكة مع شركة في هامبورج. عندما دخل حجرته في الفندق شعر كما لو أنها تنطبق عليه رغم رحابتها. ضيق في صدره لا يتفسر. بكامل ثيابه ألقى بجسده فوق السرير العريض، حشرجت أنفاسه وغرق في ما يشبه إغماءة. مثل تلك الحالة تعاود عباس منذ طفولته، حين يسقط في إغماءة ويغوص في عوالم بعيدة، يقرأ غيبًا أو يطلع على حدث جلل. في غيبته تلقى نداء عمته، وللحال شاهد نفسه في قصر النزهة، محوِّمًا حول عمته نورية التي أرسلته ينتقي لها أضحية،

«ضَحِّي ووزِع على المحتاجين، وادعُ أن يحرّرني دم الضحية».

كان من العسير العثور على أضحيةٍ عَصْرَ يوم الوقفة، وقد نُقِلَت الخراف لمنى حيث يجتمع الحجيج لإتمام شعائر حَجِّهم بالأضاحي.

شاهد عباس نفسه يرجع إلى قصر النزهة مع انقضاء صلاة العشاء، رَبَطَ الخروفَ الصغير لشجيرة حِنَّاء قريبًا من حجرة السائق اليمني صالح، الذي غادر إلى عرفات حَاجًا لأول مرة مذ هبط مكة قبل عشرات السنوات. للمحة رأى عباس في نظرة الخروف ما ذكَّره بسُكَّرِيَّة. سخِرَ من وهمه.

مقبلًا على القصر تقمَّصه نوري، وتناول زمام الحدث بينما عباس يرقب مشلولًا.

خطوة أولى خَطَاها نوري في القصر، وشَعَرَ بالطراوة. تيار غريب قادم من على سطوح مائية ويحمل معه ثغاء الخروف الذي يُعلن عطشه في الخارج. تَساءل مًا إذا كان أنبوب مياه قد انفجرَ بمكانٍ ما في القصر. وقف حائرًا، قدمٌ في اتجاه مخلوانه الأحمر حيث ترقد أمه، وقدمٌ تتردَّد أمام السلالم التي تقود إلى الطابق العلوي.

مَرَقَتْ ظلالٌ في البَسْطَة وحَسَمَتْ تردّده. ارتقى الدرجات، واستقبلتْه الصالةُ المهجورة تترقَّب. الشُرفةُ غارقة في ضوءٍ شاحب، النوافذ مغلقة وتحجب رؤوس شجر الجوافة المُحمَّلة بثمار صفر ناضجة.

شَعَرَ بتَدَفقٍ حوله، تيقَّن بأنه مُحوَّط بستائر مياه لا مرئية، لو مَدَّ يده أو أحد أطرافه لاخترقت تلك الستائر وذابت إلى حيث لا يعلم. كتم أنفاسه وتَجَمَّد في وقفته ليتأكد. عندها التقط سمعُه صوتَ انشقاق ستائر الماء تلك، انشقاق بالكاد يُسْمَع وتنبثق منه كائنات يعجز بصرُه عن التقاطها. أجساد عملاقة وأخرى ميكروسكوبية تنفض رذاذها حوله طالعة لتوِّها من الكون الخفي الذي يترصَّد وراء تلك الستائر. لم يكن البحر هو العالم الآخر وإنما البحر هو الوسيط بين العالمين، بحر مُرَقَّق لشرائح بالغة الرقة في ستائر حرير ممتدة بين باب حجرة عمَّته بأقصى اليمين وأبواب الأخوة الذين لم يولدوا في أقصى اليسار، والكائنات لا تكفّ تعبر (تتدفق لتحمل عمَّته؟!) لم يخطر له ذلك حينها، لكنه شعر بقلبه يتقلَّص في قبضة كلاليب مثلجة.

بشكل عفوي اتجهت قدماه إلى حجرة عمَّته التي لم تُفتح في عام، اندفع إلى وسط الحجرة ليُبَاغِت الحَدَثَ الساري في الداخل، متوقعًا أن يشق في ستارةِ ماء ولا يرجع. حوله كانت حركةُ انحسار، حركةُ حَزْمٍ لحقائب، مع أن كل خزائن ثيابها وَاجهَتْه مغلقة، كان خواء يصفر خلفَ أبوابها، فلم يجرؤ أن يفتحها، السرير بدا مُهَوَّشًا على عجلة، هناك من عَكَّر

ملاءةَ الساتان الزرقاء الفيروزية، التي بدت طافية على موج خفيّ، حتى أخشاب السرير العثماني بَدَتْ طافية. لم يكن من أثر لعطرها الأوبيوم، ارتدَّ مُغادرًا هابطًا السلالم إلى مخلوانه في الأسفل، لا يعرف ما الذي دَفَعَه إلى الصعود بدلًا من قصد هذا المخلوان حيث يُمَرِّض عمَّته نورية.

استقبله بابُ مخلوانه مُشرَعًا فتسمَّر بمنتصف الممر، لا يجرؤ على التقدّم لكشف ما يجري، يُنصت لذاك الصدى السحيق بالداخل، أشبه بنداء دلافين، لم يخطر له أن تلك روح عمَّته تُنْزَع. تباطأ تفكيرُه مُتبلِّدًا بشكلٍ مغيظ، مستترًا بعتم الممر، ماذا لو أطلَّ برأسه؟ أكان سيُفاجئ عزرائيل وهوَ يقبض روح عمَّته؟ ينسلها عِرْقًا عِرْقًا من آخر أطرافها؟

الصدى الغريب يدل على أن نَزْعًا غيرَ مُحْتَرف يتمُّ في الداخل، ربما استجاب عزرائيلُ لمُقَاطَعَة نوريَّة فأناب عنه مَلَكًا أقلَّ احترافًا، والذي عِوَضًا عن أن يرفع روحها صار يغوص بها... إلى أين؟ إلى جوف الحوت؟ أو ربما غرقت مباشرة ليد الله كما عَزَمَتْ طوال حياتها، وها هي ترسل له شفرة مثل نداءات دلافين ليتبعها.

أم إن ذاك صوت الحوت؟ أكان نوري سيرى حوتًا في حُمرة الحجرة؟

بعدها بساعاتٍ حين رُفِعَتْ ستائر الماء وتَجَمَّدَ الحاجز بين عالمَيّ الحياة والموت، دَخَلَ نوري شاقًا طريقه بين أنوار الشمعدانات المُجَمَّدة، دخل بِنِيَّة المُرابَطَة بالمخلوان. مضى ككل صباح غير عابئ بسكتة قلبها، دَلَّك قدميها وكَفّيها بالسُكَّر المطحون المنُدَّى، ورَطَّبَ كاحلها ولَمَّع أظافرها بزيت اللوز، ثم خَتَمَ بمسح وجهها بماء الورد. دار في حجرتها كطيرٍ حيران، لا يجرؤ فيغوص في خزانة ثيابها ينتقي لها ثوبًا للخروج إلى البحرَ، احتار أي الأثواب يليق برقدتها في بطن الحوت؟

بضربةِ إلهام فَتَحَ صندوقَة العاج، أفرج عن ثوب أم كلثوم الأحمر الأسطوريِ، رَفَعَ نورية في نصف جلسةٍ، ولم يكن جسدها قد تخشَّب بعد. كان لَدِنًا حنونًا مال على ذراعه، بينما وبخِفَّةٍ انزلق الثوبُ فوقَ قميص نومها، خُيِّلَ إليه أن تنهيدتها رَفَّتْ على أذنه، أوقف آليات جسده ليستعيد

دفءَ أنفاسها، وعاد فأسجاها لترقد في حُمرةٍ زاهية. فاحت رائحةٌ فاترة ذَكَّرَتْه بجلْدِ مَقاعد المازيراتي.

وفدُ أمواتٍ نَقَلَ خبرَ موتها لأختها حورية، والتي أشعرت الجميعَ. بشكلٍ مُباغِتٍ تَقاطَرَ المفجوعون إلى قصر النزهة. بقي نوري حائمًا كطير بحريٍّ على ظهر حوت، وغَلَبَتْه كثرتُهم وفجيعتُهم فحملوها إلى حجرة نومها حيث أسجوها على سرير عرسها العثماني.

غَافَلَهم وتَسلَّل وراءها مربوطًا لجسدها الذي لم يكفّ يفيض عليه بحنانه. غَطّى قدميها بالتفتا الزرقاء كموجة عظيمة تخطو فوقها، واصلة إلى السماء. استرخت طافية ببهاء بانتظار خرجة من خرجاتها. وحيٌّ نَخَسَه فشَرَعَ يفتح نوافذ حجرتها الخمس، ونوافذ الشرفة السبع، والأربعين نافذة للمجالس، انصبَّت الشمس في القصر لترقد حولها، سبحتْ في نور، وفجأة هبَّت ريحٌ وفوَّحت حجارة القصر القديمة، دفعت بعصفة من أوراق الجوافة وثمارها الذهبية إلى الشُرفة والحُجرة التي لم تتنفس في دهر، وغطَّت سريرها. ثمارٌ وَقَعَتْ بمَرْمَى ذراعها اليمنى، وخضرة فضَّضَتْ ثوبَها الأحمر الذي فاح بعبق الأشجار التي عَمَّرت القصرَ واختزلت سِجِلَّ حياتها.

لا يعرف كيف دُفِعَ إلى خارج الحجرة، ليضيع مثل ورقة شجر بين الرجالِ في الحديقة. يرقب تجهيزاتٍ لم يُسهِم فيها بكلمة، بينما كان أخوتها الموتى والأحياء يجهِّزونها لبياض الكفن. قَاومَ نوري الحَنوطَ الذي حَضَرَ مع لَفَّة البفتا البيضاء، رمى بكيس التسوق الذي يحوي الكَفَن من الشُرفة حيث عَلِقَ بأحد أفرع الجوافة المُحَمَّلَة بالثمار، تسلق سائق الجيران الأندونيسي بصعوبة لاسترداده.

«ما لم أكفّ عن التدخّل وعرقلتهم فسيحبسونني في غرفة».

التهديدُ ثَبَّتَ المَشْهَدَ حوله، يلعب فيه هو دور المُهرِّج ونورية تُقْسَر على الموت، وعلى تمثيل دور جثة يُشيعونها بطقوس تقليدية، بلا مسحة إبداع.

«والله هذا يحزنها». لم يبدُ أن أحدًا يسمعه. كان مجرّد شبح يحوم.

حين بدأ نواح الأخوات وبنات الأخوة وتأكدت طقوس الموت لم يحتمل. حزنهم يلدغ، سامًا، لولا يد حورية التي لم تُفارق قلبه، يشعر بها مثل حريرة مُنَدَّاة على حرقته، خبيرة في إطفاء الوجع والفجيعة! وتسارعت الحركة فهناك من يحثُّهم على دفنها مع صلاة العصر لتجنيبها دفن الليل.

«لا، لا دفن». صاح بهستيريا وبدأ بمحاربتهم. فيلم أكشن قطعوه حيًّا. تعاونوا وكفّنوها بالبياض الصامت كأن لا وجود له ولا اعتبار لإرادته.

في لمحةٍ اختفى نوري كما تفعل أمه نورية في غيباتها عن طقوس الموت، رصدوه حين ظَهَرَ في جلسة عودٍ بثلوثية الشيخ القُدُس بقلب جِدَّة القديمة كأنّ موتًا لا ينتظر.

أما عباس فيذكرون دخلته الدراماتيكية إلى قصر النزهة. وَصَل من دبي متأخرًا بعد أن انتهى التشييع والدفن. اندفع يركض في أرجاء القصر وغرفه وحديقته مسعورًا، يبحث عنها ويجأر بالبكاء:

«لا تتحجَّجوا بالليل، نادوا عفاريت المقابر تلبسني، لكن الآن، الآن تطلعوا معي مقبرة المعلاة وتدلّوني على قبرها». يضرب الأبوابَ بقبضته: «يعني أنا كنتُ في الأسكيمو؟ ما كان ممكن تنتظروا ساعتين أرجع من دُبي؟ ليتها ما كانت سفرة سافرتها. سكين ضربت بقلبي ورجَّعتني على تياري. ألغيت الإجتماع وأخذت أوّل طيارة. يعني استغليتوا خطفة رجلي ودفنتوها؟ قتلتوها؟ هذا سيناريو نوري الكلب».

أخيرًا رأف به مصطفى ابن عمه، متطوعًا ليسوق به إلى مقبرة المعلاة. سكت عباس سكتة مريبة حين قاده مصطفى إلى سيارته التويوتا اللاندكروزر. ركب إلى جواره، وحين أدار مصطفى المحرِّكَ انبعثَ عباس، فَتَحَ وقَفَزَ خارجًا صافقًا باب اللاندكروزر وراءه. لم يجرؤ على المضيّ لرؤية قبرها.

«لا تضحكوا عليَّ بحكاية الموت وتلفّقوا لي أي قبر. تظنّوني أصدّق

موتها؟ هذا نوري خفاها واختفى، وخَلَّانا نِفَحِّط في هذا العزاء المسرحية».

هدَّ عباس تآمر نورية مع نوري لإقصائه عن حوادث ساعاتها الأخيرة. لم يحتمل ألم تلك الخيانة، لذا لزم الصمت حين ظهر نوري مع صلاة المغرب بين صفوف المعزّين بقصر النزهة، تَابَعَه يرقب عن كثب ليؤكدَ شكوكَه في حقيقة اختفائها. تحرَّكَ نوري مرِحًا متجاهلًا حقيقة خروج جنازة نورية، يتنقَّل بخِفَّةٍ في الشوق والعتمِ الذي تخلقه كثافةُ أشجار الحديقة، يتصافح مُتلامسًا بخَدِّه وصدره المكشوف مع صفوف أرواح الموتى والملائكة التي تجوب، تُفَوِّح ثمار الجوافة وفاغية الحِنَّاء:

«كنت أتمنى لو تركوا الي التصرُّف. لما دفنتها في الأرض، وكنت رميتها في البحر. لكن كانوا خَرَّجوني من البلد». العبارة التي استقبل بها المُعَزين وصدمت حتى عباس:

«I see Noria's funeral inside the sea». أعادها بإنجليزية ركيكة بعثت ضحكةً في صفوف الكراسي الحمراء المرصوفة في الحديقة ممتدَّة إلى الطريق حول مدخل القصر، وارتجفت لها أشرطة المصابيح (مصباح مضاء يليه مصباح مطفأ/ لتفريقها عن إضاءة الأعراس الكاملة). نادى نوري السائقَ صالح بالسُلَّم، وتسلَّق بنفسه ليضيف المصابيح مكان المطفأة. نجح في تبديل شريط الأنوار على باب القصر الداخلي، وحَالوا بينه وبين تبديل البقية، حتى لا يطمس الإشارة للمارين والقادمين إلى موقع الموت وطقس العزاء.

«هذه من سجائرها». طاف بطبق التوتياء الأزرق وبقلبه العلبة برسم روميو وجولييت، يُوَزِّع من سجائر نورية اللف، سيجارة لكل أخ من إخوتها الثلاثة الكبار،

«دَخِّنوا ريقَها». قَدَحَ عودًا من علبة الكبريت أبو شُعلة، وطَافَ يُشعل لهم السجائر تحت النظرات الناقدة لعباس والمُعزّين، يتناولونها حرصًا على ستر جنونه، وفاحت رائحة نورية في الحديقة مُهيّجة عَبَقَ الفاغية.

«شايفها، وأحسّها في ريقي، تدخّنها بأصابع مبلولة بملح في بطن

الحوت». وتَفَاقَمَ شعور كبار العائلة بالحرَج، وسارعوا لإطفاء سجائرهم. للحال قام نوري بجمع الأعقاب كمن يجمع كنزًا، ضمَّها إلى علبة روميو وجوليت في طبقها الأزرق وابتعد. هرب من ساعات الدفن الأولى المُحَمَّلة بأصداء المرزيات تنهال على الميت في قبره، حتى شكك البعض في توازنه العقلي، والبعض في انتمائه:

«ولد البطن غير ولد التبني، الحبل السُرِّي دايم موصول لما بعد القبر، لو أنه مربوط لها لذاق الموت الآن».

ولأول مرة يدخل قصر نورية الأرُزّ بالحمص الذي حَرَّمته في حياتها بصفته أكل موت، وتتأجَّج حول صوانيه الأحاديث بين تصاعد نسبة حوادث السيارات وسوق البورصة، والتدخل الأميركي في الخليج، وآخر صيحات الراقصة «دينا» التي ترقص بلا ثياب داخلية. ويرقبونه، إذ لم يكن من اليسير تفسير ابتسامته الممطوطة بما هو أقرب للتعجّب، أو أقرب للغيظ أو للسخرية، من كل ما يجري في عزاء امرأةٍ على يقين من كونها لن تموت وبلا شك خرجت في نزهة ببطن الحوت.

باليه موت البجعة

قصر النزهة، مكة، 1995

«الليالي الثلاث الأولى يسمّونها ليالي الوحشة، ونحن لا بد وأن نؤنسها».

نظرة نوري شكّكت عباس في ما إذا كان يقصد ليالي غياب نورية في القبر أم تغييبه هو، عباس.

تلك الليلة، ومع انفضاض العزاء وخلوّ القصر من الدخلاء، أقفل نوري عليهما حجرةَ مخلوانه بتماثيلها وستائرها. منفردًا بعبّاس، وبلا كلمةٍ، أخذ يطوف يَصفُّ التماثيل في دائرةٍ حول الأريكة الحمراء التي ختمت عليها نورية وجودَها الأرضي. أشعلَ كلّ الشمعدانات المحمولة على رؤوس الفرعونيات والعبيد، وتلك النوبية على أطراف أصابعها بالشمعدان الأخضر يسيل كخصلات إلى كتفَيها.

نظر نحو عباس وقال: «الذي يفرِّحني، لو طلعت روحنا بصحيح، إنها طلعت في كل هذا الفن في هذه الغرفة المُشعلِلَة. أقول لكَ سر يا عباس يا قريني؟ هذا المخلوان هو قلبي من الداخل، والفن هو الدم يضخ فيه، ونورية شَربَتْها بلحظات سعد، هي أسعد لحظات حياتي».

حديث نوري يُربك عباس، وقوله (روحنا)، لماذا يؤكد أن روحه مشتركة مع نورية التي ماتت. يفزعه أن يتكلم عن روحه وروح نورية كواحد؟ وفي نفس الوقت يستجديه نوري من دون كلام لكي ينفي شكوكهما في احتمال موتها. يخون عباسَ الكلامُ، يَشخص في الجنازة المهيبة التي تُشَكِّلها الأريكة سابحة في النور ووجوه الحَجَر والرخام والبلاستيك المغمضة الأعين:

«لا بد نؤنسها، بالذات في ليلتها الأولى، لو كانت كاميرتكَ مزوَّدة بأشعة تحت الحمراء لسجَّلت روحها، أنا شايفها هنا حائمة في الغرفة. ولمَّا تطمئن لوجودنا تنام علي تختبوشها».

تطوف عينُ عباس المُشَكِّكَة في الجدران وصور الأطفال الأفارقة، وبين الستائر وأكداس الأسطوانات والأشرطة فلا تُسَجِّل غير حُمرة المخمل التي تزداد كثافة وعمقًا وأسى.

يُجلسه نوري على المقعد ليُقابله بوسط الحجرة، يضع بينهما علبة روميو وجولييت تبرق زرقةُ طبقها التوتياء في الضوء، وبكبريت أبو شعلة يشعل من سجائرها اللف، ويناول عباس سيجارة، بشكل غير مفهوم يُعَزِّيه طقس التدخين ذاك فيلجأ لتكراره:

«حين تجلس لتلفّ هذه السجائر، تلفّ فيها أفكارها العاجزة عن أن تصارح بها أحدًا. تلفّ فيها الشوق المكبوت على أطراف أصابعها». يَعبُّ بتلذُّذٍ، بينما يتحرَّج عباس من رشف سجائرٍ ممزوجة بالموت.

«خلطة الدخان هذه هي خلطة حياتها: تبغ نخلطه بأي شيء، من فاغية الحناء لأوراق النعناع لقشر الليمون للزعفران، وندخِّن أُمّ الدنيا». يتنهَّد بحُرقة، «تعرف أن أنا وأمي نورية أول من اخترع فكرة المُعَسِّل؟».

يتناول عباس طقم سجائرها ليُسَلِّط عليه آلامه: «تعرف إن علبة روميو وجولييت هذه وطبق التوتياء هي تلخيص أمنا نوريّة؟».

يُحَدِّق واحدُهما بغيظٍ بعين الآخر، يتصاعد دخانُ سجائرهما مع الصراع المستتر على عمق معرفتها. يحبس ذلك الدخان بصدره لآخر أطرافه متلذذًا بريقها، يُباغتُه نوري بتشغيل جهاز الفيديو:

«شوف كيف كانت العلاقة بيني وبين نورية». بذهولٍ يقرأ عباس العنوان:

The Dying Swan variation with Natalia Makarova

وبدأ عرض فيديو باليه البجعة التي تموت، للراقصة ناتاليا ماكاروفا، ويقول:

«هي هنا في بياض ثوب الباليه، روحها ترجع في هذه الرقصة!».
ارتعشت يد عباس بالدهشة، بينما لاحقت حواسُه البجعة التي تحتضر برقصة، يبحث عما ينكشف لنوري ويحتجب عنه.
شاهدا معًا باليه موت البجعة، وبينما تحتد حسرة عباس كلما أشرق وجه نوري بالدمع تأثرًا بموت البجعة أم موت نورية لا يعرف، يُكرِّر:
«هذا إحساسي بها، هي الآن في الغرفة، أحس بها مثل موية نور تتهادى بالبجعة...».
يتناول نوري زجاجةَ عطرها أوبيوم، يرشّ فضاء المخلوان حولهما، يشهق عباس مأخوذًا بأفيون روحي.
«شمْ، هي الآن معطّرة، لا بحنوط الميتين والورد الناشف، لكن بأفيون. طول عمرها تكره الورد الناشف. حتى الفاغية تدسّها في صدرها طرية، لا تذبل».
«وتظن عمَّتي نورية ماتت؟»، يأتي سؤال عباس المباغت، «أبعْدَ كل ذاك التصميم على مقاطعة عزرائيل، ماتت؟». في السؤال رجاء ألّا يمضي نوري في خداعه وإخفاء تآمرهما على انسحابها المفاجئ ذاك.
«الله العالِم، ما هو عزرائيل الذي زَارَها، ابدًا ليس بعزرائيل، صدِّقني، جدران البيت انشقَّت بحر وهي أبحرت».
«لكنهم دفنوها...». يتجاهل نوري تلك العبارة: «إن لم يكن عزرائيل، إذًا مَنْ؟ أيّ الملائكة زارتْنا وأخذت عَمَّتي نورية؟». يصمِّم عباس على إلحاحه، يستجدي نوري والكون بأجمعه أن ينفي موت نورية.
«الثابت الوحيد أن المَلَك المُخْتَار لمرافقتها من دنيانا لا بد وأن يكون بشطارة مفكك المتفجرات في الأفلام الأميركاني، يشتغل على تفكيك وقَطْع حبال الرجاء وحبال اليأس، من دون أن يفجِّرها في أحباب الميت».
ينتاب عباس اليأس أمام عبثية نوري الذي يكمل بقَناعة وجدية: «لأ، الملاك على حرافته لم يفكّك حبال الوحدة! أنا وأمي نورية بيننا وِحدة

عمرها ربع قرن في دنياكم، وملايين القرون، العاجز يشوفها أمثالكم من البشر العاديين... ومستحيل تفكيكها».

في اليوم السابع، وبحضور عباس، فَتَح نوري خزانةَ الثياب المخفيَّة في ركن حجرة نوم نورية:

«خزانة الثقيل: السِينْيِيه»، كما يسميها مع نورية. تحوي أطقم بدلاتها من أقدم تصميمات بيوت الأزياء مثل ديور وفالنتينو وجوتشي ولا كروا وفيرساتشي.

«موديلات وقَصَّات ما عادوا ينفذّونها، انقرضت. يعني هذه تحمل تاريخ أثري لبيوت الأزياء العالمية الكبيرة».

انتقى مع عباس أجمل بدلات نورية وتلاشى، وحملها ليظهر في بيت ابنة أخيها رناد بالقاهرة. رناد، ابنة عمّه، هي الأشبه بنورية، قضى معها أسبوعًا يتنقلان بين القاهرة وبيروت. لبست رناد أطقم عَمَّتها، وزارا بها كل المواقع والمقاهي والمسارح التي تُحبّها نورية، واستضاف نوري الناسَ الذين أحبوها وأحبَّتهم في زياراتها مع الإسطنبولي:

«عِشتَها، عيَّشت ريحتها، أحييتها في فساتينها وبلوزاتها الحاملة للأبد لعَرَقها، حتى جِزَمها مقاس رِجْل رناد ضيقة شوية من قدام لكنها «بيرفكت». وكانت نورية معي طوال سفرتي تلبس وتتشخلع فرحانة. حتى السامبا رَقَّصتها سامبا. ودَخَّنت آخر سجائرها اللف على النيل بعد كوب حَلَا بِسَّة». كانت تلك الضربة القاضية لأمل عباس في التفوّق عليه بعمق معرفتها، (بليلة بالخل) الضربة القاضية أقصى القرب بين نوري ونورية.

كتب عباس تلك الخيبة لفيلمه التسجيلي، وجاءت الإضافة لحبكة الفيلم كالتالي:

«جهَّزتني نورية لفرقتها، بالتخطيط لزواجي. قامت بتلبيس حبات الهال والفوفل واللُّبان الشامي والقرنفل بالكنتيل المُذَهَّب والفِضَّه لكي تُوضَع فى عُلبة الدَفْع - المَهْر، ولا أزال احتفظ بها، وصمَّمتْ لي عِقْدًا كرِفْد

من سلسال ذهب خالص يحمل قلبًا مفتوح النهايه، وقام الصائغ بتعليق مجموعة من الفصوص الألماس على شكل قلوب تتناقص حتى تصل إلى القلب الأخير والفريد من نوعه من زمرّد لونها المفضَّل.

سافرتُ سفرتي الأخيرة إلى دُبي وهي شديدة المرض، وعند عودتي استطعت أن أرى من نافذة الطائرة حُمرةَ نور سيارة الإسعاف في فناء قصر النزهة والمصابيح المطفأة في ميدان البيت الكبير، فأدركتُ أنها رحلتْ.

هل نقلتها سيارة الإسعاف إلى المعلّاة؟ أم إلى مكان لا بد من اكتشافه؟؟

من مكانها هناك تراقبني بصمتٍ كأنها تلومني: خلاص لا تتكلَّم مو كفايه أنكَ ما حضرتَ ميتتي؟».

دُخْلَةَ بطعم حلاوة قُطُن

1996

~~غَضْبٌ عنِّي حَشَرَت بيننا رفيقة~~

ما إن وطأت قدمُ عروسه دالية حجرة نوم نورية حتى تجمَّدت. أمامها امتد السرير العثماني بملاءة الساتان الفيروزي، وفوقها تُظلل السريرَ سحُبٌ من حلاوة القطن الفوشيا المتعنقدة في الدانتيل الأبيض، بينما تغطي الجدار خلف السرير نسخة لوحة مكبَّرة للفنان الأميركي كيث هارينج Keith Haring، يتكرر في اللوحة العضو الذكري مثل سرب طيور تغطي صدر الحجرة، ثبتها نوري كمن يَنذر عضوَه للاستشهاد في فعل الحب.

لم تنبس دالية بكلمة، أسعده أن نجح في إدهاشها بإعداد مسرح الحب لليلتهما الأولى على تلك الصورة، وبالذات في قصر النزهة، القصر الذي اشتراه من ورثتها ليكرِّسه مسرحًا ومذبحًا يضحّي عليه الغالي والرخيص لدوام ذلك الوصال.

تَقَدَّم مرتعشًا بشوق أن يوصل لدالية شحنة الحب التي يحلم بأن يعيشها معها في ذلك المسرح الغرائبي. كان من الحيوي له أن يتحول فعل الحب لملحمة فنية، وكان يعقد الآمال على مهارته في الإخراج وقدرتها على الارتجال لجعل المشهد ذروة فنية تدهشهما معًا.

صمتها أجّج خطورة المشهد. كان على يقين بأنها لو فتحت فمها فإن صوتًا أوبراليًا أو آهة أم كلثوم من حنجرتها ستشعل المشهد. بأصابع مرتعشة فَكَّ مشابك طرحتها الواصلة للباب تمنع انغلاقه، لم يعتن بإغلاقه إذ لم يكن في القصر سواهما وخيالٌ يراه لأمّه نورية، هذه التي تمشي حوله

ويسمع دبيبها في الجدران والنوافذ ولا يُجدي معها إغلاق، هذه التي تفهم حجم إثارته، وأبعادها الفنية.

جَفَّ ريق نورية وريق دالية حين سَقط الثوب الأبيض لاحقًا بالطرحة على الأرض. فجأة غدا هواء الحجرة من جنس الموسيقى الإلكترونية، وصار جسد دالية يصدر أصواتًا مثل طقطقة شرائح معدنية. لم يجد نوري الفرصة ليمسَّها. بلا مقدمات أطبقت يدها على جذره، وتغيرت ملامحها. التوَت شفتاها، وصار لوجهها وهج أزرق، وسال عرَقها بغزارة جعلت كل شيء ينزلق. انزلقت غمامة هارينج من اللوحة، وتحولت الحجرة إلى مطر من الأعضاء الذكرية تطاردها يدُ دالية. كان هناك شبه مؤامرة بين رغبة دالية الطاغية ولوحة هارينج. وشعر نوري أنّ دماغه من ماء وأن تفسيراته المضخَّمة لحركات دالية تنتقل فيه بصدمات كهربائية. فجأة ماتت رغبة نوري، واستولت عليه فكرة واحدة ملحّة: أن ينتهز أول فرصة ليحرق تلك اللوحة، ويتخلص من جوع ذلك العضو الذي صار يتكاثر حوله.

بإحراج حاول نوري إخفاء عضوه الذي انسحب من المشهد تمامًا وخلّاه وحده بمواجهة دالية المحمومة. قام بسحب الحبل الذي يربط سُحُب القطن فهطلت نتف الحلاوة القطن على عريهما المشتبك. لا يعرف طوته أمواجُ حلاوة القطن أم ذلك العَرَقُ الفوَّاح. رائحةٌ مُلِذَّةٌ إلى درجةِ الغثيان طَغَتْ على فاغية الحنّاء والخزامى وتركتْ في حلقه طبقة ملح جاف.

كمن انفكّت من أَسر تمرَّغتْ دالية حوله، حرقت نارها الباطنية السُكَّرَ للون ذهبي على كتفيها ومؤخّرتها المسبوكة ككمثرى. لا يعرف هل استيقظت رغبته أم أسعفته منحوتة البلاستيك. كان عليه أن يعاود ويعاود اختراقها ليقشع ذلك الملح والدَبَق المُتكثِّف بحلقه وعلى أطرافه.

حين انهدَّتْ إلى جواره مستنزَفة احتاج وقتًا للسيطرة على خرَسه. بحث عن أي شيء يقوله ليُخْرِج المشهدَ من إحباطه، وليُسكت الأسطوانة المشروخة التي أخذت تدور وتكرّر برأسه بلا توقف تلك الكلمات:

(نشعر بالهشاشة أمام كل ما يحد من رؤيتنا، مثل المطر والغيم ورغبة امرأة لا تهتم بإيقاظ رغبتنا، وإنما تندفع تحفر أجسادنا بحثًا عن أدوات سريعة لإشباع رغبتها هي أولًا وأخيرًا)، كلمات سخيفة، وبصوت مبتذل، تشرب خلايا دماغه المائية. خفف صوته المبحوح بابتسامة:

«تعرفي أنها نُصّ نُصّ. نُص فرحانة عشان اخترتكِ رفيقة، ونص غيورة».
احتاجت دالية وقتًا لتستوعب وتسأل: «من هي الغيورة؟!».

«شوفيها، منوَّرة في ثوب أم كلثوم الأحمر».

«تقصد مَنْ بكلامك؟».

تملكته رغبة أن يعود بالمشهد بينهما لشيء من السوريالية المدوِّخة، والتي تجعل من العسير إدانة أي منهما على فشله. أي شيء يمسح طعم اغتصابها له:

«اسكتي شويه تشوفيها، هم حين يحضرون أحيانًا يستحيل مع حضورهم القوي نشوف ثيابهم، وأحيانًا يلوِّحون في آخر ثياب شفناهم فيها، وكلامهم غير الكلام المعروف لنا».

كانت عينا دالية تتوسَّع وهي تنظر إليه. بغياب عباس لم يكن يملك نوري التحكم في ما يُصَرِّح به. أكمل متلذذًا بصدمتها، «أمي نورية الآن معنا في الغرفة، تدس لكِ الفاغية الطازة في دواليبكِ، وتقول لكِ خليكِ حنيِّنة».

بقفزة انسحبت دالية من بين ذراعيه وصارت خارج السرير:

«اسمع». تلك كانت المرة الأولى التي ينتبه لبقعة الدم في عينيها: «أنتَ صحيح مفقوع فلوس، وهذا يغفر لكَ، لكن أنا كلامك طرشق عِرْق في دماغي». صَدَّقها، يُرَكِّز في الشريان النازف بعينيها، يقسم أن وجهها قد تحوَّل إلى عين تطقطق شرايينها، يفكر أن سلفادور دالي سيفخر بتبني تلك العين للوحاته. تُغيظها نظرتُه، يُحشرِج صوتها:

«ما دمنا في لعبة رفع البراقع، خلِّيني أكون صريحة».

فجأة ظهرت برأسه عَمَّته سُكَّرِيَّة ضاحكة تردد مَثَلها المُفَضَّل: «وَرِّي المجنون قُرْصُه يِعْقَل».

ابتسامته فجرت غيظ دالية وحَسَمَتْ تَرَدُّدَها:

«يا خسارة استعدادي للفرح مدة شهر بالكريمات الفرنسية ومساجات الحجارة البركانية. لا تفكِّر تعيد هذا الدَبَق، تظنني بزرة تلطّخني بحلاوة قطن؟!! لو عرفت كنت تركتهم يطبّلوا لنا في جلسة زَار ويدخِّلوني عليكَ بحلاوة النتف».

سخريتُها تجسّدت قدمًا عملاقة داست قلبه مثل حشرة، ورأى أجنحة الحشرة الخضراء الشفافة تتهشّم. تلك الأجنحة هي الفرحة التي توقّعها في لقاء جسده بالأنثى لأول مرة.

أفكاره السخيفة مثل تلك صارت تتداخل بينهما، وتمزّق الحوار وتُحدث فراغات في المشاعر، فيستجديها: «أنا استنفرت لليلتي الأولى معكِ حاستَي السابعة والعاشرة، لا تحرميني يا دالية. أحبُّكِ بكل حواسي ومُخيِّلتي، وإلا أموت. أنا مخلوق أحب بمخيِّلة منقرضة. ما منع انقراضي إلّا طريقتي في الحُبِّ».

ارتفعت القدم العملاقة وداست بالون الماء الذي هو دماغه، وصعقت داليةَ الشحناتُ المنفلتة من عينيه ومسامه حين ردّت مصعوقة:

«بلا خيال بلا تهريج، ليه أنا تزوّجت مخلوق من زمن الديناصور؟! أنا تزوجت لأجل انفلت وأجرب كل شيء، والأهم جسمي، وجسمك لا بد يكون محترَف، هنا كونكريت بكونكريت، وهي حركات مدروسة فين يوجعك وفين يصحّيك. يا سيدي خذ كُورس، أنتَ ما تشوف سينما؟»».

انتفض واقفًا واحتضنها. دفعت يده بلطف لكن بحزم.

لا يعرف لماذا يصرّ على تلك الحبكة الرومانتيكية، لكأنها وسيلته الوحيدة للنجاة بأحلامه الكبيرة التي عقدها على اللقاء بالأنثى للارتقاء بالروح والجسد:

«من يومنا هذا اعتبريني كوافيركِ وليفة حمَّامكِ. والروب اللي تصحي ملفوفة فيه كسلانة وتشربي قهوة صباحكِ».

يدرك نوري أنه لو كان عباس هنا لصعقته سذاجة تلك العبارات التي زادت نفور دالية. أصرَّ على الاقتراب منها. غاص بأصابعه في خصلات شعرها غامرًا أنفه يتنفَّسُها. برأسها بين يديه استدارت بتلك النظرة المذعورة.

«إنتَ بتكلمني ولّا بتكلمها؟!». أفلت رأسَها، واتَّجه إلى الجارور بجوار السرير. أخرج المخطوطة الضخمة المُزَيَّنَة بشريط أحمر معقود في وردة، وَضَعَها في حِجْرها:

«هذه هديتي لكِ، my masterpiece مخطوطة طبخات أمي نورية، كل يوم افتحي صفحة واتْشَهّي، وأنا أطبخ وأكِّلك من إيدي».

بانزعاج تفتح دالية المخطوطة وتصيبها بالقرف رطوبة القِدَم، الصفحات مطلسمة بكتابات من خطوط مختلفة يصعب قراءتها، متداخلة بوصفات طبخ بخط اليد، يرقبها نوري منتشيًا بأمل أن تثير فضولها تلك الفوضى الفنية. سيتخير الكلمات ليقول لها بأن تلك مخطوطة المرزا الأصلية، والتي تحوي قصص كل من فرّوا من الموت. وقد سرقها متفائلًا بكونها مثل حجاب ستطرد الموت عن كل من يملكها. وحوَّلها إلى عمل فنّي حديث حين أضاف إليها، وبخط يديه وخطوط عماته، وصفات طبخات أمه نورية التي تردّ الروح في الميت بلذَّتها. اخترع ذلك العمل مدفوعًا بنظرية أن لكل مخلوق وسيلته للبعث من الموت ونورية تنبعث مع كل طبخة.

زادت ارتباك مشاعرهما هديته التي يرى أنها لا تقدَّر بثمن، شيء في نظرة دالية جعل نوري يُحجم عن الشرح أكثر في محاولة لإقناعها بأنه يخصّها بذلك العمل الفني الذي يفخر بأنه من فئة الأعمال المفاهيمية العظيمة بما يحمله من تاريخ، مضافًا له طرحه المعاصر عن البعث بالطبخ.

بصعوبة كتمت دالية خيبة أملها. أزاحت المخطوطة وأعادتها إلى الدرج بحذرٍ وانزعاج واضحَيْن:

«لا تطبخ ولا تنفخ، أنا عاملة ريجيم، ويوصلني أكلي من الدايت سنتر يوم بيوم». يفكّر بأن عباس سينفجر ضاحكًا لو سمعها. شعرَ بسخفه. حاجته لأن يُحِبَّ كطفل فنان ماتت في تلك اللحظة، قتلها الدايت سنتر.

«وإياك أن تكلّمني بهذه الطريقة بعد اليوم».

اصطفقتْ أغصانُ الجوافة بالنوافذ الطويلة. اجتاحت البيتَ رائحةٌ غريبة، كالكحول الطالع من قصم جسد صرصور. سأل:

«أي طريقة؟!».

«طريقة الترالَلّي». يغوصُ صوتُها إلى قاع رأسه مع كحول الصرصور يترجع ترارا را را رالللي، «أنا قبلتُ بكَ رغم سماعي عن جنانكَ مع المرحومة نورية. لكن، مِن الليلة، لو نيّتكْ نستمر، خلّي في بالكَ: نورية ماتت، وهذا البيت مملكتي أنا».

شردَ عباس يبحث عن نوري لكي ينصحه كيف يتصرف. شروده أجّجَ شراستها. «اسمعْ، ألعاب المخنّثين التي كنت تلعبها معها امسحها من رأسك».

رَنَّت برأسه ضحكة نورية تنصح سُكَّريَّة: «لا تتفنطزي وتهدّدينا بالاكتئاب، إذا طفشانة مَرّة روحي الملاهي اتْمَدْرَهي». ابتسامته المستغرقة أفقدتْها صوابها.

«أنا أحب تكون بيننا مسافة، طبعي كده، ما أحب الـ لَسْلَسَة».

«أول مَرّة أسمع حُرْمَة تتكلّم في الحُبّ عن المسافة، أصحابي حريمهم طابقة على زمامير رقابهم. على علمي الحُرْمَة تِلالِي بالرومانسية، وتِحْفَى أقدامها حتى تلاقي رجل رومانسي».

«أنا دَقّة ثانية. دَقّة جيمس بوند، مودرن. إذا عاجبك وإلّا يفتح الله من أوّلها».

«ما يحتاج كلام. ذبحتِ قطكِ ليلة عرسكِ».

سخرية سوداء. سخرية سوداء سخرية *قطران*، كرَّر تلك العبارة كعنوان لحوارهما ذلك، ولم تهتزّ لخيبة الأمل الممزوجة بالسخرية على وجهه.

«وبعد، هذا البيت يضيّق الخُلْق، وأنا بدأت أهرش». يسمع شرايين ذراعيها تُطقطق، «نورية وسواس انتهى بموتها، الله يرحمها، وإذا شبحها ناوي يسكن هذا البيت نتركه يشبع به. وخلّي في علمك، لا أنا نورية ولا خَدّامة. أنا خارجة من بيت أهلي ما أغسل فنجان الشاي».

«أنا غرامي أغسل حتى رجليكِ». مخرج شرّير داخله يصمم على إحداث تلك الربكة العاطفية بسذاجة اقتراحاته. يشعر بعباس يرقبه ويحاكمه على إخراجه المأساوي السخيف لليلته الأولى مع دالية التي نفخت ساخرة:

«وليه الغُلب، صالونات التجميل على آخر صيحة، لو نفسي في حَكّ حَجَر خَفَّاف حكّوا وغرّقوني في العسل والطحالب».

اعتصام فارغ

مع غروب احتفالات سابع أيام عرسه هبط على قصر النزهة صمت، وفاحت رائحة حريق قادمة من البِرْكَة في آخر الحديقة. دق نوري الجرس عند صالح ليستطلع سبب الرائحة، لكن صالح لم يجب. أُصيب السائق بالصمم مع نهاية مراسيم تشييع نورية، واعتكف في حجرته.

اضطر نوري للخروج بنفسه متوجّهًا نحو مصدر النار. من بعيد لمح مؤخّرتها التي مثل كمثرى تلمع في ثوبها اللؤلؤي، والنار التي تؤججها بين كومة الأغصان الجافة أمامها. انطلقت من صدره تلك الصيحة الحيوانية، وسارع يختطف مخطوطة المرزا المشتعلة من بين الأغصان المتقدة.

انطبق صدره فلم يصدر عنه غير تلك الصيحة. بصمتٍ أطبقت يده على النار يشد عليها ليخنقها، الحروق المتفحِّمة على راحتيه تشبه جسد المخطوطة التي تآكلت أطرافها. لم يلتفت نحو دالية، لم يعد لها من وجودٍ، القضية صارت بينه وبين النار. حمل قلب المخطوطة المحترق وتراجع، قبل أن يتوارى في القصر ألقى لها بالكلمة:

«أنتِ طالق». وتَلَاشى لمخلوانه الأحمر. ربما لأسبوع أو يزيد لم ينفتح باب المخلوان ولا سُمِعَ لنوري حسٌّ، وفشلت طَرقات دالية الهستيرية في دفعه لفتح الباب، حتى شَكَّتْ في وجوده. يومها بدأ أول تقارب بين عباس ودالية، حين بدأت محاولة استدراجه.

«جهّزت لك أرجيلة وتركتها على بابك تروِّق مزاجك، مُعَسِّل ثلثين تفاح وثلث فراولة مع عنب ونعناع، خلطة آخر صيحة من كازينو النخيل بالكورنيش، لا تفوتك».

مع مغادرة دالية انفتح باب الحجرة وظهر عباس. تناول الأرجيلة

وأدخلها بحركة مسرحية. تلك الحركة أشاعت انفراجًا في الحجرة. دبَّت الحياة في نوري المكتئب، ونطق لأول مرة في أسبوع.

«أنا حين اتزوجت ظنيتَك قاطَعتْني، وصرت سخيف بلا معنى ولا أملأ ولا حتى عين دالية، لأجل ذلك اتطربقت عليَّ. لكن الآن، بوجودكَ يا عباس أحس بنفسي خفيف، وكل شيء مباح ولطيف والله المُصَوِّر والجميل والكامل ويحب الجمال ويحبّنا». لساعة تبادلا سَحْب أنفاسٍ عميقة من التفاح بالنعناع ونَفْخِها في هواء الحجرة.

«هذه الستارة مَصَّاصة الدم تتشرب نكهة التفاح المحروق، وتضيف لسكتتها». كلام عباس نَجَحَ في إذابة البؤس عن وجه نوري.

«أرجوكَ لا تتركني بعد اليوم، أنتَ يا عباس آخر القلوب الكبيرة في دنيتنا، ولولا وجودكَ في حياتي أضيع. أنتَ آخر من يفهم العبقريات».

سَحَّ الدمع على وجنتي نوري واختلطت ملوحتُه بنكهة التفاح على شفة عباس، فأكملَ: «خلِّيني أكون فنان وأنظر لقضيتي بمنظور مسرحي كوميدي». يهذي نوري بلا هدف، متلذذًا بوجود عباس إلى جواره بعد غيبة.

«لا يجب أن نغْفِل المنظور العبثي، لأنه يشرح كلَّ شيء ويبرِّد القلب في الخسارة. قالها العم صمويل بيكيت في مسرحيّته: بانتظار جودو. يا نوري خُذْها من قرينكَ حكمة: لا تخلِّي شيء يكدِّرك، خلِّيك سبور وافهمْها على حقيقتها، الدنيا فُنْيا. وكلُّنا بانتظار جودو هذا الذي لا نعرف شكله. ولا يأتينا غير عزرائيل ما سواه. يعني: إذا كانت الدنيا انتظار في انتظار خلينا نفَلِّلها».

«أنا مشكلتي أني أُخِذْتُ على حين غِرَة، لم يمهلوني وحضروا لي دالية، من هذا الذي قَصَد طَبْخَةَ الدنيا بالموية، وظَرْوَطها؟». يضحك عباس للسؤال: «يا عباس لو شُفت...»، فتح كفه عارضًا الحروق المتفحّمة عليها، وهو لم يعالجها فتقيّحتْ أطرافها. اختنقَ صوتُه: «سبعة أيام عشتها مع دالية كأنها سبع طبقات جحيم، أستحمل وألاقيني ساقط لطبقة أَضْخَم

وأَضْخَم، تَصَبِّحني بمجنون وتِمَسِّيني بجوعها... وختمت بالنار، وبلا رحمة حرقت مخطوطتي الفنية النادرة بمعجزات المرزا وطبخات أمي وأنفاسها، هذه الحروق مثَل بسيط على جبروتها».

لم يجرؤ عباس على سؤاله عما بقي من تلك المخطوطة. و بطرفٍ خفي أثلجت صدرَه شماتةُ أن تُعْدَم تلك القطعة من روح نورية، أراد لنوري أن يفقد آخر آثارها.

يستمتع نوري بعرض حروق كفيه المُقَزِّزة، «هذه الحروق هي كلام دالية ونظراتها. أحِسَّها على جسم أمي نورية، وعلى شجر الجوافة الممحوق بأنفاس دالية ودَخلتها علينا. حين تمنعني دالية أكلِّمها عن أهم حُبّ في حياتي أكلِّم من؟ يعني غرضها تعيش مع رجل نُصّه ميِّت». رَاوَدَ عباس أنه هو نصف نوري الميت، «أنا غشيم حريم لكن اكتشفتُ يد الحرمة، يا عباس، عشرات الأيدي تخربش وعشرات تكوي وتداوي، وإيد تولِّع ما تِطَفِّي، وإيد قارسة ولا يد عزرائيل. إيد دالية ما أعرف أصَنِّفها، أنا كنتُ جيعان، عُري طَبّ على دُكّان جزّار، طبّتْ عليَّ دالية بجوع يخوّف وصَدَّتْ نَفْسي. سردان طاح على بردان».

«الْصِمقْها ولا تسأل، سيّر أمورك ولو حتى بمَرَقَة هوا، المهم يمضي اليوم ورا السنة».

«يا عباس أنتَ قوي، وتقدر تمشِّي كلامكَ عليَّ وعليها. أنا ضعفي في قلبي، حين يحب يتنخر نخر، وقَدَري أن الذين أحبهم يدعسوا ويفشفشوه». يتأمله عباس في محاولة لفهم ما إذا كان يقصد مديحه. يمضي نوري في استعطافه: «طيب قُلْ لي ورَجِّعْ لي ثقتي في الدنيا: دالية هذه، كلّ الحريم أو عَيِّنة لوحدها؟».

«حرام أقول كلهم واحد، لكن على قول القائل النسوان من فينيس/ أي كوكب الزهرة».

«يا شيخ، هذا مارس بكل جوعه للحرب، وما شمّ رائحة فينيس. أحيانًا أقول: أنا غبي وغاوي سُخرة. وأحيانًا أقول: مسكينة دالية، ما تعرف

تنسنس مثل النسيم. بنت غِنَى وأرصدة في بنوك، أعطوها فلوس بدل ما يعطوها قلوبهم ووقتهم، وفهَّموها إن الإستقلالية والموديرنيتي أن تأخذ كل شيء بالذراع، وتمص القملة وتسيّح دمها، يعني استهلاكية طراز أول، تستهلكني مثل ما تستهلك البضاعة في الهايبر والسوبر».

«يا أخي مِسَّاجاتك الأفلاطونية أفلام هندية. حتى لا تصلح حكاية تِتَفشخَر بها مع صاحباتها الراجعات ببشرات حرير من سْبَا بريتاني وأكوا يونيفيرسال».

الصمت اليائس الذي حلَّ على نوري أضحك عباس:

«مالك مصدوم؟ أنتَ يا نوري حكاية في كتاب، أبدًا لا تصلح لبيت بالسعودية في أيامنا هذه. نحن بالطفرة الأولى والثانية صرنا آلا جلوبال، كُعْ فلوس لبنات حواء، وكَثِّر خيركَ. هذه مهمتنا نحن أولاد آدم البترولي».

«هذا كلام بترول أسود، ويخرّب كلّ تركيبة مزاجي من أساسها».

أراد عباس أن يُخرج لسانه لنوري شامتًا، وقد فشل في العلاقة الحقيقية الوحيدة في حياته. بعيدًا عن تَحَيُّز نورية ظَهرَ على حقيقته ككائن عاجز عن فك أسرار امرأة وأسر قلبها: «أصلًا أنتَ يا نوري تربيت في متحف. فكرتكَ عن الدنيا نورية والفن، يعني كتلة وسواس. بدوي عتيق في زمن الإنسان الآلي. يا نوري العلماء بيشتغلوا على الصورة الثلاثية الأبعاد، يعني كلها أيام ونعاشر ونضاجع ونلقِّح خيال مبثوث من آلة عرض».

«كلكم نفس الأسطوانة المشروخة. تعيدوا وتزيدوا أن نورية وسواس، هذا حُبّ فوق تخيُّلكم. هذه الدنيا ما تعجبني».

«تعجبكَ ولّا تقرفك هي ماشية ماشية. احمدْ ربَّك أن قسمتَك حرمة سُخنة مثل دالية».

يجتهد نوري لشرح معضلته: «طيِّب خلِّينا من دعس الجسد والجنس، خلينا في الوِدّ والوَدْوَدَة، أنا نقطة ضعفي وَدْوَدَة الحَمَام. وهذه دالية ناشفة. هي الأرواح صلب وسائل وغازي، وقابلة للتحول من حالة لحالة، هذه

روحها مقاوِمة للحرارة والبرودة، ما تتحول. صَبَّة، أحايل وأداور لا تلين ولا تناغي!!».

«حَمَام ويَمَام! أنتَ يا نوري لازم تعمل أفلام للجمعية الجغرافية البريطانية. هذا ما جَرَّأ دالية عليك، استهبلتك».

«أتمناها تحس إني حنون، مو أهبل».

«لو أنا مكانك أخلّيها تحس إني قوي، حتى تمشي مثل البَرَمَان على صراطي المستقيم».

«ولا هي مِحْرِزَة نعـ...». قاطعه: «لأ، مِحْرِزَة ونُص».

«خلاص أنا طَلَّقتها، وكل واحد يعيش فلسفته».

«الطلقة هذه غلطة لازم نمسحها، احمدْ ربَّك ما خرجت دالية من بيتك، اسمعِ كلامي يا نوري ولا تفتِّح علينا أبواب، والله تشيِّع عليك وتِرْكَبَك حكايةُ المجنون، وما توعَى إلا والدنيا اَنْطَرْبَقَتْ وحَجَرَتْ عليك ورموك في يد طبيب نفساني».

«المُرُسْتَان أرحم».

«أنا أعلّمك كيف تلبس الحُرمة خاتم في إصبعك. أنتَ لا عليك، خَلِّها عليَّ وأنا أوضِّبها».

«يعني أنتَ تعرف لها؟».

النظرة المستنكرة بعين عباس أسكتت نوري.

زرقاء الحمامة

2005

على الباب الموارب يتحاور نوري ونورية ويتلذذان بمراقبتهما،

«المسكينة دالية لو عرفت مَن الجنّي الرَاكِبها، لا نوري ولا نورية، ما غيرو: عباس. جنّي عظمه أزرق، أنا راهنتُه على مليون أنه يهدّ حيلَها، ويِطَلِّع جيمس بوند من خشمها».

من طرف السرير العثماني العريض يرقب نوري دالية ساخرًا، مُطْبقَة على عباس بين ساقيها، ووجهه يطفو على وجهها مكشوفًا لضوء المصباح القوي المُوَجَّه لوسادتهما. يُعرّيهما للعظم ضوء الهولاجين القوي. ضربا الرقم القياسي في عدد المصابيح التي تعاقبت عَبْر الشهور على تلك الوسادة، كلما خَرَّبَ عباس واحدًا استبدلته دالية بعنادٍ، وبما هو أقوى.

«برأيكِ ما مشكلتها مع النور؟! تظنه يُثيرها جنسيًا؟».

«هذه يا حبيبي النومة معها جلسة تحقيق مو غرام، والنور الكشّاف لأجل تتأكد من يشاركها السرير نوري أو نورية؟ أو عباس؟».

ضحكهما يشتت انتباه عباس الذي يمضي يضخ ويضخ في جسد دالية بلا غاية. يرى نوري في ذلك المَشْهَد المُتكرِّر مادةً فنية مُعاصرة، حيث جسد عباس هو الشاشة بينما نوري جهاز البروجيكتور، يُسْقِطْ عليه اقتراحاته لتحقيق الإشباع، ويوحي له بحركات محرِّضة ومهيِّجة يزيد سرعته أو يبطئها. بينما يُكرر عباس تلك الحركة الماخضة، وتتضخم الهالات البنفسجية المُحِيطة بعينيه، ويسقط ظل جُمجمته الفاغرة على وجه زوجته دالية التي تخترق بنظرتها لرأسه باحثة عما يدين فحولته ورغبته في النساء، بينما هو يمخض لدفع التهمة عن رجولته وقواه العقلية.

«إنتَ رجل ملبوس». تدفعه دالية عنها، «يتلبّسوك وطبعًا تعجز توصل الذروة، هذه حفلة جماعية للأحياء والأموات من أهلك، وآخر همك خلوتك في رقدتك مع حرمتك».

تُسَلِّط الضوءَ الكاشف عليهما لكي تحرق خطوات شبح نورية التي تسمعها جَلِيَّة رغم صرخات شبقها العالية. صراع خفي تَفَجَّرَ بين المرأتين الحية والميتة، صارت نورية تظهر لدالية أكثر مما تظهر لنوري وعباس. وتنتقم دالية بأن تُبالغ في صرخات المتعة لكي تحرق قلبها.

في جلسته المُرَاقِبَة تظهر لنوري تلك المفرقعات التي تدسّها دالية لأُمّه في سريرهما، «إما أنا وإما أُمّكَ نورية بهذا البيت».

«يا دالية هذا من عقلك؟!! أمي ميتة، كيف أخرِّجها من بيتها؟ هذه خرجت من كل الدنيا؟».

وتكرر دالية بتصميم مجنون: «إما أنا وإما هيَّ».

وتَصمُّ آذانَ نوري وعباس وتُخْمِد جذوتَيْهما.

ينشغل عباس بحضور نوري ونورية عن الجسد الجائع تحته، فيسأله نوري ساخرًا:

«هاا؟ انتهى مفعول الحَبّة الزرقاء؟ تحب أكمّل عنَّك؟ أوصّل الشُعلة لقمّة جبل الأولمبياد؟». بغيظٍ يتجاهله عباس ويمضي يضخ بجسد دالية بينما يزيد نوري سخريته: «نعم نعم يا بو حديد، كهرِبْها ووَرِّينا عيون القطط وضخ كابلات شركة الكهرباء».

يتلعثم عباس بغيظ يُفقده حماسته، ويفوته السباق للذروة. تبلغ دالية خط النهاية بينما هو لا يزال يلهث.

«36 دقيقة لخَطِّ النهاية، زيادة خمس دقائق عن البارحة». سجَّلها نوري وفاحت الحجرة بذلك العَرَق، وفاحت الخزائن والستائر وأصابته بغثيان، بينما جحظ عباس يرقب وجهَ دالية تحته على الوسادة: يموجُ ويرسمُ خَطًّا بيانيًا كذلك الذي يُسَجّله القلب على جهاز مونيتور. حين بدأ الخط يَتَسطَّح

ويدخل القلب في سكتة، لم يُتِمّ عباس قَلْبَتَه إذ سمع شخيرها الخفيف ممتزجًا بشماتة نوري.

«46 ثانية بين الذروة والشخير». قالها نوري وهَبَّ لتسجيل الأرقام القياسية التي حَطَّمَتْها دالية الليلة، «أنا لو مكانكَ يا عباس أراسل شركة التصنيع، تضمكَ لفريقها التجريبي، بصفتك كسرت الرقم القياسي في تطويل مفعول الحَبَّة الزرقاء. أنت حوّلتها لجِنِّي أزرق».

دَقَّاتُ قلب عباس لا تزال تُسابق. الدوي يجعل كلمات نوري تتقدم صوبه بالسرعة البطيئة، وتَتَضَخَّم فيما تَتَقَدَّم، وتدوسه. تصلَّب جسد عباس، ألمٌ يُحَجِّرُ مثانتَه، بالكاد سار إلى الحَمَّام، لكن مهما حاول لم يكن بوسعه التبوّل. هدأت ضربات قلبه ووصلت إلى خمسين دقة في الدقيقة، الدَقَّة الثلاثون جاءت رفيعة بتطويل وتنخس بصدره. شعر بأنه مهدَّد يومًا بسكتة قلبية، بعصبيةٍ خَلَعَ عباس بيجامتَه الحرير الزرقاء وقذف بها نوري الذي تفاداها. تركت البيجاما قوسَ هزيمةٍ في الهواء، مهما غسلَتْها الخادمة ونَعَّمتها بمواد التعطير لا تفارقها رائحة الاستحلاب القسري ذاك. يأخذ نوري خطوتين بعيدًا عن تلك البيجاما حتى لا تتلبَّسه. يَتَجَنَّب نوري صفوف بيجامات عباس المصفوفة بعناية في خزانته ويرقد عاريًا. مزيج من خوف وشماتة وشفقة يُجَمِّد الابتسامة على وجهه.

من وقفته على باب الحَمَّام تَأَمَّلَ عباس في نوري النائم، وفي الحجرة حوله. تحوَّلت عَبْرَ عَقْدٍ ونصفٍ من سُخْرَةِ الزواج إلى ساحة حرب بأسلحةٍ متطورة تتلخَّص في: مصباح الهولاجين المُسلَّط على الوسادة مباشرة، وخزانة ثيابها الداخلية ببابها المُوَارب، والعلبة التي يُخفيها جيدًا في معطف المطر الذي لا يترك مشجبه إلا لسفر. يحرص ألّا تلمح دالية تلك العلبة وفيها مَدَد الحبة الزرقاء التي تُسعفه ليليًا.

تأَمَّلَ في جسد زوجته المُفَرَّغ من الحياة، ويحفر في جسده فراغًا مخيفًا يأكله من الداخل مثل حشرة تلتهم الذكر عقب كل عملية تلقيح. كل ليلة تترك جسدَه حفرةً قادرة على ابتلاع مدينة جِدَّة وبحرها الأحمر.

يتأمَّل في ثوب نومها الشفَّاف، يحمل توقيع لاكروا، يتقوَّر بإغراء على الصدر المحشو بالسيلكون والمُرَقَّط بتلك الرائحة.

«خمسة، عشرة، عشرون ألف ريال؟».

امرأةٌ لُولي بُوب ملفوفة في سوليفان مُصَمِّمي أشهر بيوت الأزياء، بطاقات الائتمان مُحَمَّلة بأثمان أمثال تلك القطعة، لكن تلك القشرة لا تصنع أنثى.

«قمصان النوم الفاخرة أكبر طفَّايَة حريق»، تسخر دالية وتتهمه بالانحراف حين يعبّر عن جاذبية المرأة بثياب نوم بسيطة قطنية غالبًا، أشبه بملابس الفتيات الصغيرات.

قلوب لها دروب وقلوب من الهَمّ تدوب

«يمكن يصدمك كلامي، لكن كأنّ جسمي بشوق للحمل والولادة، ولذلك أدفن شوقي في الفن».

كانت تلك العبارة هي أول ما صارح به عباسُ الطبيبَ النفسي الذي خضع لرؤيته تحت تهديد دالية بشكوته لأبيه. أكمل: «لو تعطيني مهدّئ للمخيّلة، طامس للأفكار ترحمني من التناقض مع كل الناس حولي».

لم يطرف للطبيب جفن. ورد: «اسمع، إذا جئتني بغرض الحصول على مخدرات وعقاقير تغيّبك عن الوعي فيفتح الله، إذا ترغب نستمر فاستعد، أرجع معك خطوة خطوة لماضيك، وأنبش عن نقاط التسوّس، أحلّل الدوافع قبل أن أعطي حبة دواء». صوت الطبيب الميكانيكي الخالي من المشاعر ذكّره بوصف سكرية لزيارتها للطبيب النفسي.

«يا دكتور حيّرتني، ليه ترجِّع حكايتي دائمًا لـ«نص لسان»؟! هذا شخصية وهمية ليس لها وجود إلا في عقل عمّاتي وصدّقوها أعمامي، اخترعوه لكي يفصدوا صرامة جدي».

تلك الليلة أعلن لدالية أنها آخر جلسة تحليل يخضع لها، وانفجرت في نوبة سخط، مما دفع نوري للتمادي بإغاظتها:

«أنا تعبت حتى من نفسي وتحكّمك حتى في عقلي، تعيّني لي دكتور مخلول وصي على أفكاري، يقول لي إنه يونجي يحلل وفق مدرسة يونج. الهوى هواه يفتح رأسي ويجسّد «نص لسان». ترك كل طفولتي وعمّاتي ومصمّم يحفر في خِرَقي عن نص لسان، ذاك الخنثى في وصاية جدي مصطفى الكبير! والله لو ما قفلتي هذا الباب أهجّ وأترك لك الدنيا، وأحوِّل نفسي حرمة وأخلص من سخرة الزواج».

التهديد أرعب دالية فسارعت تبكي وتشكوه لأمه بيقم، ما يُحبطها هو يقينها الباطني بأن شكوتها ستذهب هباء لأن لعباس -كما يدّعي- أكثر من أم مبعثرات بأرض الله مع أطراف أرواحه المنتشرة، ويكفي لقهر دالية تجسّد ثلاث من تلك الأمهات، بيقم التي يسميها عباس «أمي البيولوجية» بينما سكرية هي أمه الروحية ونورية أمه الموحية الفنية. لكن دالية تنساق في الشكوى لبيقم بأمل ان تنقل شكواها لأبيه:

«تعالوا جرّبوا معاشرته أسبوع، هذا رأسه طافح مشاريع جنون ويسميها فن. عَذَّبَنا السنة الماضية يدور بجهاز تسجيل، يقول يسجل أصوات ناس فارقوا عالمنا، وأصوات الأقمشة. يقول لثيابهم وأشيائهم المهجورة أصوات، ولسكوتهم أصوات». السَّكينة التي تلقّت بها بيقم ذلك التصريح أزعجت دالية، وهزّت آمالها:

«كل يوم يطلع لنا بطلعة، وكل سنة ينوي يهجّ على بلد، وهذه السنة يتحسَّر على نيويورك، لأنه مسكون وأسكنَ معنا شبح فنان ميت أسمه آندي وارهول الذي يسميه ملك البوب. ولذلك يقول إن طرفًا من روحه كان ساكن في وارهول أثناء حياته، ويفجعني بقوله إنه الآن هو وارهول ذاته رجع من الموت، ومحتفي داخل علينا بالموت وناشر صوَره ولوحاته في غرفة مكتبه وممرات بيتنا. مع نوري حياتي مرجيحة فوق تحت... وآخرتها كاره عشرتي ويحلم بفنّانين صرعات يستنبطوا شياطينه، مثل هذا المخنث الأميركي الورا الهول بشعره الأبيض مثل ليفة الميتين».

تسخر من وارهول بتشبيهه بأبي الهول.

ترن في أذنيها كلمات نوري المتحسِّرة: «آه لو الإنسان يكتشف جهاز يؤخِّر ويقدّم زمن ولادته، كنت فورًا أطلّق هذه الدنيا والعائلة، أرجع عشرين سنة إلى الوراء، وأهجّ على نيويورك وأقتحم باب استديو وارهول The factory وأعرّفه بنفسي وسيعرف أننا روح واحدة... وأصير واحدًا مع الدراغ كوينز Drag Queens والفنانين والممثلين والضائعين وأجرّب كل أنواع الهلوسة...». وحين تُظهر غيظها يُمعن عباس في المبالغة: «أنا

روح من أرواحي كانت في الفاكتوري لحظة اقتحمته كاتبة السيناريو وأطلقت على وارهول الرصاص، والله كلما استعدت ذلك المشهد أشعر بالرصاصة في بطني أنا، أكيّف بالألم الغريب، حتى سكنتني فكرة عمل مفاهيمي من سلسلة كورسيهات على نمط الكورسيه الذي اضطر وارهول يلبسه طول عمره. الكورسيه رمز، يحمل فلسفة عميقة ما هو مجرد قطعة ثياب».

تسترجع نظرته عندما يتكلم عن الكورسيه ويحدق فيها بتلك الطريقة، يصير بوسعها أن تقرأ الشريط الذي يدور برأسه من كونها كورسيه من حديد مطبق على جسده وقلبه. تمسح دمعها مستعطفة حماتها:

«يا خالتي بيقم افهميني، أبو أولادي محيّرنا، لا نعرف صاحي أم نائم؟ أغلب الليالي لا نعرف ماشي في نومه أو سهران؟ ويتجادل مع مغنّين وموسيقيين ويعزف ويصيح ويفتح حنفيات الماء في كل البيت، ويقول سيمفونية الملح ببحر جدة. يسافر لأجل يسجل أصوات ساحات الخزعبلات، ويسحروه في المغرب بحيلة الفن يعجز ينام إلا مع بناتهم. ولذلك ليس على الأرض، طاير في أغاني وأعمال فنية خزعبلية يسميها مفاهيمية، ومسكون بناس متطرّفين ويقول عنهم عباقرة، بينما حياته معانا يقول كلها ضياع».

«يا بنتي، عباس بين كل أولادنا فاكهة، كل ما يسكن رأسه إبداع فن في فن، وهو يغْدِي. أنا نفسي سحرتني مزادات المجوهرات التي دَلّني عليها وقت سفَّرني يعالجني بباريس. وإنت يا دالية ربي يسعدك إجلسي مع نفسك وفكري، مع سنوات العِشْرَة ما وجدتِ فيه شيء تحبّينه، وتشاركينه في غرامه؟!».

«يا خالتي خليني صريحة معاك، خوفي أن يجرجره الفن للنسوان. هذا قدوته بيكاسو، يقول إنه يشتغل بالطاقة الذرية، رجل أوقع في غرامه أصغر النسوان، ثمانية ويمكن زيادة، وحتى في التسعين كانت في فراشه بنت الثلاثين سنة. يوم وراء يوم الفن يتمكن من عباس، ويبدل تفكيره وحتى

هيئته، صار خفيف وما أحد يقدر يربطه، أعرف أنه يحلم يلتقي حرمة من غير هذه الدنيا، حرمة يمكن هو يفصِّلها في عمل فني. يعني: أصبر عليه في شبابي ويرميني في عَجَزي؟».

«يا سبحان الله، هو خروف تربطيه؟! الله يخلي المودة والرحمة وولدي -يشهد الله- ودود، ورافعك، وأولاده في عزّ ما بعده عزّ. لا تؤاخذيه على كلام في الهوا».

تتخبط دالية بحثًا عما يمكن أن تضيفه لتُشعر حماتها بالخطر، لكن ليس فقط أن الحماة لم تسمع كلامها، بل أكملت بهجوم ألجمها:

«و بعد، لا تهوِّلي وتحاسبيه على فنّانين يحبهم، وساعة تشتكي بُعدو عن فراشك وساعة تقولي نسوَنجي. يعني الفنانين، ما دخل فعلهم في تصاويرهم بفعلهم في فراشهم؟! صحيح كان الفن غريب علينا نحن في صغرنا وجهلنا، لكن أنتِ خريجة جامعة والمفروض عارفة فين صار الفن في حياتنا. ولدي -الله يرضى عليه- سوسته الفن من صغره، يتخبّى في المخلوان يلبس ثياب بنات ويغني ويرقص ويلوِّن جسمه ووجهه، لما يضيّقوا عليه يلاقي في الفن شكوته وفرحته... ما ضرّك يفرفش، ما دام فاتح بيتك على الواسع وناجح في عمله وتجارته؟! حقيقي، ما يستاهل منك ترسليه لدكاترة المُرستان يلعبوا بعقله. قفّلي هذه السيرة لا تطلع علينا سمعة، ويسمع عمك سالم وتقوم قيامته».

بَكَرَة فيلم بحوادث بالمقلوب

«كده تمام مِيّة مِيّة». بتلك العبارةٌ خَتَمَ المُخْرِجُ جورج وفريقُ التصوير كومة من أسطوانات الأفلام التي تُمَثِّل ذاكرة عباس. يستغل عباس انفراده بالفيلم بعيدًا عن صرعات نوري ليتلقّى كل المديح. الممثلة التي تلعب دور دالية، اقتربت من عباس في وقفته المُرَاقِبَة:

«كل هيدي المَشَاهِد حتتسنسر[1] إذا حبيت تعرض فيلمك في بلد عربي؟». وانضمَّ لرأيها فريق التصوير.

«الله يخليكم لا تكسّروا مجاديفي، المهم مهرجان فينيسيا. بعدها يحلّها حلّال، ممكن أفكر أختصره أو أكتفي بأن أعرضه في مهرجانات فنِّية عالمية. وممكن عروض خاصة. إنها حياتي المُعَبِّكَة». يحرك يديه أمام وجهه كمروحة أسبانية.

«وتنوي تحمِّله اسمكَ: إخراج جورج ملحم وعباس السردار؟». استوقفه سؤالُ البطل. للمحةٍ رأى فيه نوري مُتجسدًا يُوَجِّه له تلك النظرة المُخَوِّنَة. طَرَدَ هاجس أن فريق التصوير يُشَكِّل فرقة لمحاكمته، تَمالَك نفسَه وأجاب:

«ليس الغرض إخفاء أنه عمل نوري أو عباس السردار، لكن السينما التسجيلية هي وسيلتي لأثبت هويَّتي وهويَّة من يشبهونني الفَنِّيَّة، أنا زئبقي ومؤمن بالزئبقية بوجه المجتمعات الديناصورية. اسمي الفنِّي مُحَمَّل برسالة لا بد أؤكدها: عباس الزيبق. هذا الاسم اخترعه أهلي ليحوِّلني إلى مهرِّج، لكنه أعطاني مَخْرَج. تعرف معنى أن يكون مرفوع عنَّك القلم؟

---

(1) من كلمة (censure): ستتعرّض لمقص الرقيب.

أنا هذا الشارد في العائلة، غسلوا إيديهم مني. صار بوسعي أن أقول كل ما بدخيلتي، وأخرج أي خَرْجَة فنتازيا مجنونة... ولتحقيق هذه الحرية المطلقة أريد الفيلم باسم الزيبق وليس السردار». هكذا طمس وببساطة اسم نوري.

«يعني هذا الفيلم ما يشكِّل لكَ إحراج مع العائلة؟».

«يا حبيبي أنا حياتي معاهم مراحل ولا مراحل بيكاسو: مرحلة باهَبَل وبعدين الزيبق وبعدين العمدة، ومتوقعين مني مرحلة التعرية. من يوم رجعتي من أمريكا مكّاوي مكّاوي لا قصَّرت أذني ولا نَعَّمت رَفْزتِي، كل ما عملته أني نَعَّمتْ صوتي النشاز». وهذا زاد في غيظهم، قالوا: «تخنَّث».

ضحكوا وتأملوا في حركاته المؤنثة مضمرين أن التهمة راكبته،

«لا تنظروا لي بعين متشكّكة، أنا أندروجين، يعني لا تُخجلني الأنثى فيَّ. لكن ريِّحوا بالكم ماني هومو. ولا ضد أي شيء، لكن وببساطة خِلْقَة رَبِّي كده بين البينين: ماني هومو، ولا أريد ثوب رجولتهم القاسية».

يقاوم الضيقَ الذي ينتابه حين يلمحون تأثير نوري المؤنَّث عليه.

«بصراحة يا شيخ عباس...». قاطعه: «أرجوكم لا تمشيخوني».

«والله إنت بها الفيلم قُطب وشيخ طريقة». صَمَّم جورج على مجاملته. لكن المصوّر سأله:

«يعني بالله ألم يقهرك مناداتهم لك: باهبَل، الزيبق، عباس عبابيسو؟».

«أبدًا، يمكن في الأول زعلت، لكن أنا طول عمري أعرف نفسي من داخل الداخل، أستبطن حقيقتي بوضوح، وأعرف اني أشوف نجوم وعوالم هم ما يعرفوها، أما عوالمهم فمجرَّد أصنام».

«أصنام؟ كيف يعني؟».

«نعم، أهل مكة من زمن دنيتهم وهم صنّاع أصنام: هُبَل وذُو العزة وأبو تمرة... السردار الكبير صنم. صنم يهابونه. وأنا جعلوني صنمًا بطريقة أخرى، صنمًا يلهون به ومعه. أما هم فمجرد توابع وجمهور».

«يا واد يا فتَاكَة!!».

«بجد. لكن تعرف، الغريب في الأمر أنه زمن الجاهلية كان أرحم. كنت تعرف هؤلاء مسلمين وهؤلاء مشركين، الآن كله قريش على مقرقش، ما إنت عارف لهم ملة».

«ههههه، لكن قل لنا بصراحة يا قُطب، أنت صوَّرت هذا الفيلم نكاية فيهم؟».

«و علام النكاية؟! طول عمري جنتل ولا غايتي التنكيل، وهذا الذي جرّأهم عليَّ، أنا بالكثير أعاني من أعراض سلسلة فضائح في الطريق لفهم الذات. ضمن عائلة فوق وقبل وبعد عائلة السردار، عائلة من أرواح فريدة من دراويش الناس فاهمينهم غلط، ويسمّوهم منفصمين».

«عسى أن تصل إلى العائلة ملحمة فهم الذات هذه».

«كل مِنَّا رسالته في الحياة أن يُصَوِّر وسواسه الخنَّاس. تعرف! عمِّي صادق كان يجيب بكرات الأفلام من مصر، وينسخها كلها في بكرة كبيرة، أنا محتفظ منها بفيلم حوادثه مُرَكَّبة بالمقلوب، وهذا بالضبط فيلمي، أقلب الحوادث. نشوف الحياة من الآخر، وربما من الآخرة». ضحكوا وقد اعتبروها نكتة، فأكمل: «أنا جاد، لأجل أن تعرِّي وسواسك لا بد وأن تصوّره، وتنظر له عينك بعينه. لأجل ذلك أنا ونوري اتفقنا نصوِّر بعض. لأننا اكتشفنا حقيقة بسيطة: إنني أنا التجسيد لوسواسه وهو وسواسي الأكيد».

«نوري هذا شخصيّة غريبة في سياق حياتك كما تراها».

انساقَ لصرعة تعرية الذات، صار نوري يتكلم بلسانه:

«من تلك العلاقة المركّبة، كما من مفارقات حياة أهل مكة، وخاصة «السردار»، ركبني وسواس الأفلام التسجيلية. وهو شَجَّعني. قال لا تتردَّد ولو فيها انتحار اجتماعي!».

«يعني كل واحد فيكم مستعد ينتحر؟».

«الانتحار نحن نمارسه منذ اللحظة التي نفتح فيها أعيننا على حُرمة في

فراشنا تضطهدنا، ونسكت على خاطر الأولاد وعَمَار البيت. نسكت كما سكتة جبال مكة وأهلها المطوَّقين بصورتهم عن أنفسهم».

«يعني إنتَ مع أو ضد الانتحار؟ هذه حالات نادرة عندكم في السعودية».

«ليست نادرة! إعلانها نادر. يمكن أن تحصل في البيوت لكن يُتستَّر عليها بشدّة».

«وكيف تكون الحياة في ما لو انتحر قرينك؟».

لم تفُته اللهجة الساخرة.

«القرين حالة مُثبَتَة علميًا. وأنا عندي إثبات لقريني، بل ولأكثر من قرين، صَوَّرتُهم. كل إبداعات البشرية وأعمالها الفنية هذه صُوَر قرين. الفنان ينتج قرينه ويحبسه في كتاب أو لوحة أو منحوتة أو قطعة موسيقية أو عمارة بديعة أو لمبة مُخْتَرَعَة. هذه الكهرباء وسواس عمَّنا أديسون. نحن نتنوَّر في قرين أديسون. المخترعات هي الأنا الأخرى. الفن هو تجسيد للإيجو، بقدر ما هو مستمَدّ من الأنا الأخرى. وهذا الفيلم هو أنا ونوري، وفي الخلفية بعض من قرنائي. مَقَاطِع صوَّرناها من لحمنا ودمنا، ومشروعنا نحوِّلها لفنتازيا، والحريم مُنشّطات نكرعها لتحفيز القرين. والآن أنا أستعين بممثلين يكمِّلوا المستور الذي نعانيه ويعانينا وراء أبوابنا وأسوارنا العالية. إذا يئس نوري أنا هنا، ولا بد أن أشدَّه معي. نقوم على رجل واحدة، وننقذ مخيلتنا من الدهس». صار عباس هو الهامشي ونوري هو قائد مخيلات فريق التصوير.

«نوري طول عمره عجيبة، مُخيِّلته بالنسبة له هي الدنيا والآخرة! كنت أضحك حين يبالغ ويقول: من دون المخيّلة أنا عدم. خلِّيهم يحرقوا جثتي ويسلِّطوا ضوءها على مخيلتي».

عندما رأى عباس أن العيون مشدودة نحوه والصمت يعمّ، أضاف:

«مثلًا هذه المَقَاطِع من قصر النزهة وبيت جَدِّي بالمُدَّعى أنا أنقذتَها من الموت، صَوَّرتها قبل محقها في الهدم لتوسعة الحرم. بعد فترة لن

يبقى لها أثر إلا في هذا الفيلم التسجيلي. وآمل أن من هذا الفيلم يمكن إعادة بنائها، تمامًا كما بنينا هذا الديكور البديع لغرفة نوري وعَمَّتي نورية. من يراه لا يفرِّق بين الديكور المصنوع والحقيقة التاريخية. والبَرَكَة في الحرفيين الخرافيين الذين ساعدونا. السرير تُحفة ولا الأصلي، أفكِّر آخذه حين ننتهي من التصوير وأُركِّبه في غرفتي، للتفاؤل».

يتأمله جورج:

«إيه يا قُطب؟ زَوِّدنا أشجانكَ. فهذه الحماسة ضرورية لندخل أكثر في أعماق ما تريده من هذا الفيلم».

«تعرف؟ أمنيتي لهذا الفيلم أن يخرج خَرْجَة تُمَثِّل خَرْجة عمتي سُكَّريَّة».

«إنت زلمة محظوظ عشت هيك حُبّ».

«عمتي سُكَّريَّة لا يُوقفها عن حُبِّي ولا حتى الموت، لها أكثر من 12 سنة ميتة وما زالت تجيني. بين الحين والحين فجأة أحس بطراوة ذراعها التي كنت أتحسَّسها تمسح على رأسي، وبعض الأحيان تدخل بيدها إلى عمق قلبي تطبطب عليه، وتقرأ على رأسي المعوّذات، وتقول: لا تنسى، إنتَ أحسنهم! عينيّ فقط تشوفها كما أشوفك الآن، متجسّدة حنونة كعادتها. أو أحيانًا تروح للعَمَّة حورية المُعَمِّرة، التي دائمًا تستقبلني بقولها: عَمَّتكَ سُكَّريَّة ما تجيني إلا تسأل عنكَ، وتوصيكَ: لا تنسى.

وحين أوحشها كتير تجيني في هيئات مختلفة من هيئات بني آدم، في أول مرة زراتني شفتها في مكتبة جرير، ظَهَرَتْ لي في شكل حاجِّية من ثاوث أفريكا، ومن دون الناس قصدتني وقالت لي بلكنة إنجليزيه مُحَبَّبة: (do I know you from before? هل أعرفك من قبل؟)، ابتسمتُ لأنها أمامي! كانت سُكَّريَّة. وأجبتُ مازحًا: (ربما فى حياه أخرى). وقلت لها يمكنك أن تزوريني في أي وقت. بعِد يومين كنت في محل التراث الذي أديره في مركزنا التجاري، ذهبت مُبَكِّرًا على غير عادتي، وبعد دقائق دخلت سُكَّريَّة -بهيئة الحاجية الإفريقية- بدهشة شديدة عندما رأتني: (لا أعلم ما الذي أتى بي اليوم إلى هنا لأجدك أمامي مرة أخرى. هذا غريب this is

weird!!) تبسّمتُ ودعوتها للجلوس. أهديتها عباءة موشّحة بطبعة جلد النمر وصندل أزرق فيروزي بلون سُكَّريَّة المُفَضَّل، ومخدة بلون الزهر الفضّي أحسست أن سُكَّريَّة ستحبه، وقلت لها: هل أستطيع أن أضمّك ضمّة الوداع؟ can I hug you goodbye، وعندما ضممتها بَكَتْ وقالت: يا إلهي! لن يصدّقني أحد oh my God no one will believe me. لم أسأل لماذا، ورافقتها إلى الباب».

نجح عباس في لفت انتباه الفريق كلّه بتلك الحكاية والمضامين المُضخَّمة المُسقَطَة عليها من قبله، يتأمله المُخرج جورج بين المُتشكِّك والمؤمن،

«أظننا نسينا كيف نحب هيك فوق الموت وبعد الموت، صار كله فاست فوود».

«تعرف؟ أمنيتي أنقل تسريحتها نعمل منها عملٍ فنِّي. كلما نظرت في هذه التسريحة أرى نفسي شوكة لا تنكسر مثل سُكَّريَّة، تنتعش ما بين الصور المُعَلَّقة على مرآتها، منها صورة نادرة لأبيها وعن يمينه الصبي «نص لسان» بملامح مكحوتة، وأسفلها صورة لأمها دادة فرح، وصُوَر لي أنا ابنها المُفَضَّل. تركت لي مصحفًا موقَّعًا بخط يدها: سُكَّريَّة».

يتنهّد بحرقة: «سُكَّريَّة. سُكَّريَّة. راحت. تحجم تكلمني، زعلانة، لا بد أرسل أحد يحِجّ عنها هذه السنة، أنا عارف، أنها سوف تظهر لي. أنا أبدًا ما نسيت يا سُكَّريَّة، أخترع وأُصَوِّر لكِ وأفجّر تُحفتي التسجيلية».

ما إن سلَّم عباس المخرجَ جورج كومةَ ذاكرته في أشرطة حتى لم يعد واثقًا مما يمكن أن يفعله بما بقي من عمره. أدرك المعنى الصاعق لكون حياته لم تعد محبوسة داخل جسده، وإنما تسري في ذلك الشريط السينمائي القابل للنسخ والنقل للآخرين، يتوصَّل الآن وبلا شك إلى أن مشكلته الأزلية هي الفتاق، ليس الفتق الجسدي فقط وإنما الفتق الوجودي في كل حلم ورغبة انتابته، الفتق الذي تمثَل الآن في ذلك الفيلم.

كاجوال

اخترقت بهم السيارة طُرُقَات الجبل الزلقة. تبرق شمس الضحى باهرة على بقايا الثلج على جانبي الطريق، ثلج لا يزال مُتكَدِّسًا على مَدِّ البصر وبين أجراف الجبل رغم التقدّم في شهر مارس:

«اللقلوق أقل في الأهمية من فاريّا كموقع تزلج. فاريّا عَجْقَة وتجارية أكثر، بينما اللقلوق رومانتيك، لها سحر خاص. اخترتها لك خصيصًا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع قبل أن تفارقنا».

«لا أعرف كيف أشكركَ على مفاجآتك اللطيفة تسعفني بها».

«و بعد، تنتظرك مفاجأة أكبر رَتَّبناها لكَ أنا وابن عَمّك. شاليه صغير على تلة، يطل علِى الدنيا البيضا. سوف تتركنا ومزاجك مِيّة مِيّة».

«والله أتمنّى أعْدِل مزاجي. أنا جيت على بيروت كياني مُزَعْزع. قبل يوم سفري كنت في مكة».

وغامتْ عينُ عباس على الطريق المُغطى بالثَلج. تجسّدت مكة أمامه، وكيف قادَ تحت شمس الثانية ظهرًا، مسودّ الوجه يتصبَّب عرقًا، وصولًا إلى فيلا ابن عَمِّه مصطفى في العوالي، «أنا على بابك». أبلَغه وأغلق خط هاتفَه النقال.

«اللهمّ اجعله خيرًا. هذا المشوار تجرجرني له في صَاج يقلي، ولا المُطلِّق مَرَتُه ما يفادي بروحه في هذا الوقت».

ما إن ركب مصطفى إلى جواره حتى انطلقت السيارة، وفشلت محاولات مصطفى في دفعه لشرح وجهته.

حين وقفت السيارة بهما أمام مقبرة المعلاة ارتجّ بدنه. فتح عباس الباب ودفع مصطفى أمامه عبر البوابة، أوقفه بمنتصف المقبرة:

«الآن، حدّد لي مكان قبر عَمّتي نورية؟».

لم تفت عباس الهَزَّة التي ضربت جسد مصطفى. جسده هو نفسه تَحَوَّل إلى قنفذ، يلتقط أصواتًا للموتى تنبعث تحت قدميه، ويوشك أن ينخلع قلبه. دار مصطفى حول نفسه. أشار إلى قبرٍ ثم آخر وآخر:

«يا شيخ حرام عليك، والله مُخّي ساح بالصهدِ، بعد خمس عشرة سنة تظنني أفتكر قبر فلان مِنْ قبر عِلّان؟ كلها تتشابه وتِفرّغ وتِمَلّي». بدا صوته هزيلًا أصفر تحت الشمس والموت، صاح فجأة: «هي دَخْلَة المَعْلَاة سياحة يا عباس؟! شوف بدأت الحساسية تتلَبّشني». بدأ يهرش ذراعيه وعنقه حين طَفَتْ الخدوشُ الحمراء فجأة، «والله كل دَخْلَة تحرمني النوم أيام، ما أعرف لماذا لم يخترعوا للميت تذكرة يقطعوها، ويرسلوه لوحده؟!».

«الله يعينكَ لما يحين دوركَ وتسكنها». ببرودٍ صَرَّف عباس غيظه في تلك العبارة المتشفّية. انقلب لسانُ مصطفى منحشرًا بحنجرته، استدار وغادر يتخبَّط.

وقفَ عباس وحيدًا بوسط المقابر، فتح صدره وصار يتنفَّس من فمه لكي يشم رائحتها.

«والله ألقطها في سابع موتة». قالها لخيال نوري الذي لاح برأسه ساخرًا. حين جفَّ ريقه هتف بصوت أجش مسموع لأكوام التراب حولِه،

«حلفت عليكِ تحسّسيني بوجودكِ لو كنتِ موجودة، افتحي لي وخليني ألحقكِ». ونورية لا حِسّ ولا خَبَر.

في الليل رجع عباس، وَقَفَ بسيارته خارج المعلاة التي أُوصد بابها مع صلاة العشاء، فجأة لفتته أنوار دُكان أبو نار متوهّجةً أمامه مباشرة، من الواجهة الزجاجية تنفتح للمقابر صواني الحلاوة اللَّدو واللبنية والطحينية والمفروكة. فجأة سمع سُكَّريَّة تهمس في أُذنه: «إنتَ عارف».

سألها مُتعجّبًا: «عارف؟!».

«كل ما تتجاهله وما تسعى لتعرفه، كل الذي أعادوه وزادوه أمامك

وكان يضَحِّكك، كله حقيقة: رأس نورية طريق، مثل رؤوسنا يأخذنا حيث نحبه أن يأخذنا».

شَقَّتْ طرقات اللقلوق ضحكةُ سُكَّريَّة:

«وبعدكَ حائر: مَنْ اللَّدو مِن الطحينية؟! آخرتنا هنا مفروكة». يجزم جورج بأن عجلات السيارة انزلقت برنين تلك الضحكة.

يُحَدِّق عباس أمامه ويشعر بالطريق مفروشًا بـ«مفروكة» البشر الذين غادروا عالمنا ويثير ذهابهم الغصة. يلوح لجورج أنه يلاحق عَمَّاته أمامه على الطريق، وأنه لا يُحَدِّثه هو بقدر ما ينظم لهنّ تلك الكلمات:

«كلام سُكَّريَّة قَشْعَر بدني، القشعريرة لم تفارقني إلى أن غادرنا الأجواء السعودية في طريقنا إلى بيروت». صمتَ فجأة، خاف أن يسخر جورج من فكرة أن نوري يخفي عنه مآل نورية.

«نورية هيدي المَرَا تفرِّح الألب، من حكيك بتخيَّلها نعنوشة بجلسة كاس».

«هذه سِتّ تعجبك، تحب الوَنَس والفرفشة، ومَثَلها المُفَضَّل: جَنَّة من غير ناس ما تنداس!».

«هلق صرنا رح نوصل. بس رح أطلب منك تعذرني، أنا لازم إرجع عبيروت، لكن بوعدكَ ما تزهق».

«واضح إنو المكان حلو كتير! أكتر من حلو! لكن على قول عمتي: الجنة بلا ناس...».

قاطعه جورج:

«لا تخاف. حَبَّينا نشكرك يا صديقي على جرأتك وحماستك اللي خلتنا نعمل عمل بعتقد رح يكون شي كويّس».

«والله لولا خبرتك لترهَّلت الحبكة وغرقنا في ساعات تصوير بلا آخر وبلا أفق. أنت يا جورج عندك اختزال عجيب. هذا ساعدنا نلم كل حيوات عماتي في قطرة، لكن قطرة معتقة».

«طريقتك بالحكي منحت رؤيا إلي وللفريق كلو».

استقبلتهما الأكواخُ الخشبية والبيوتُ المغطاة بالثلوج. قصدا مجمّع الشاليهات الخاص، وانزلقت السيارة قبل أن تقف في مُنْحَدَرٍ يقود إلى المبنى الرئيسي حيث صالات الترفيه المشتركه. بعد تسجيل دخول عباس قاده جورج إلى المطعم،

«حابب نتغدّى سوا قبل مغادرتي».

ما إن جلسا حتى ظهرت تلك الفتاة الشقراء، هَتَفَ عباس ناهضًا:

«هيلدا! يا الله، مِنْ كل الدنيا الواسعة لم يخطر لي أن ألقاكِ في اللقلوق!».

«أنا تلقيت دعوة خاصة»، وغَمَزَتْ جورج.

«نعم يا عزيزي، هل تكفي هيلدا لتملأ الجنّة بالناس؟ الحقيقة أنا كنت اقترحت عليها ترافقك بهي الإجازة القصيرة، ووافقت بكل سرور».

لم يفهم. تَفَاقَم ارتباكه بتلك النظرة العميقة التي رَكَّزَتْها العشرينيّة في عينيه.

وعندما جَلَسَ ثلاثتُهم لتناول الطعام، كان في ذهن عباس أسئلة عديدة. لكنه لم يستفسر ولم يسأل، استسلمَ جسدًا وكيانًا لموجة حضور هيلدا تحمله حيث شاءت.

تتفجّر برأسه حلاوة ذكرى لقائه هيلدا مع جورج قبل ثلاثة أشهر في مهرجان دُبي للسينما. تعرَّفا عليها من خلال الوسيط الذي جاءا للقائه ليُرَتِّب إجراءات إشراك فيلمهما في مهرجان فينيسيا. نجح الوسيط في الحصول على دعوة لهما لحفل الغداء الذي نظمه الشيخ أدهم للحفاوة بنجاح عرض فيلم هيلدا التسجيلي (في العشرين بلا جذور). فيلم عن الغربة التي غَذَّتها خلال نشأتها في غير بلدها. كان يُحضر القهوة عندما وَجَدَ عباس نفسَه بمواجهتها وحيدًا. إشراقتُها جعلت الشُرْفَة تنجرف تحت قدميه لبساط الحشائش اللانهائي، ابتسامتُها الجاهزة عزَّزت رقرقةَ النافورة الزجاجية التي يقفان على حافتها. الحديثُ بينهما تَداعَى سَلِسًا،

أبدتْ دهشتَها من وجود سينما في السعودية وأبدى إعجابَه بعرضها. حَدَّثَتْه عن خصوصية الفيلم كما لو كانت تعرفه معرفة عميقة:

«رغم أنني وُلِدْتُ هنا وتَشَكَّلتْ حياتي في الخليج إلا أن أبي افتتح مراهقتي بعبارة كانت هي الحوصلة التي تحرَّكتُ فيها، قال: إياكِ وأن تنساقي لوهم تكوين جذور هنا، لأن هذه أرض مؤقتة. الدائم هو رجعتكِ إلى بلدك، وانخراطكِ في الحضارة التي تنتمين إليها كغريبة».

بعد مناقشة أفكار فيلمها عرض عليها أن تسمح بعرضه في نادٍ خاص شَكَّلَه مع رفاقه في مدينة جِدَّة على أن تحضر عرض ثمّ مناقشة الفيلم.

بينما هي تتكلّم بدا شاردًا في نباتات الصّبّار التي تتوسط حوض النافورة، بعضُها لا يزيد عن طول الإبهام بأزهار صفراء وبرتقالية فاقعة مُحَوَّطة باشواك شرسة، خيطٌ من الشمس يضرب من تلك الأزهار لوجهها ونحرها المكشوف بسخاء، عَشِيَتْ عيناه وفَاتَه سؤالها.

أبدت انزعاجها من شروده عندما سألته عن بعض التفاصيل ولم يُجِب. وعلى الفور تلعثم وهو يعتذر ويقول لها:

«لا بدّ لي أن أعتذر بشدّة وبرجاء، وأن أتجرّأ على قول سبب شرودي».

كانت تنظر في عينيه غاضبةً وتنتظر توضيحًا.

بقي على تلعثمه إلى أن قال لها:

«لأعترف أنني كنت مأخوذًا بحركة شفتيكِ، بنظراتكِ، بطريقتكِ في الكلام. حتى سيطرت على رأسي فكرة واحدة. والآن ساسألك سؤالًا مباشرًا وكلي أمل أن تتقبّلي سؤالي بأريحية مهما كان ردّك: أشعر أننا شخصان يمكن أن نتعامل مع بعضنا بطريقة كاجوال» وانتقل إلى الإنكليزية: «sex?! what's wrong with casual».

باغتها كلامه. لم تنطق بشيء، لكن لاحت ابتسامة على شفتيها، وقالت: «you are forgiven!»

كسكين غاصت ابتسامتُها الغامضة بصدره، مدَّ يده إلى إصبع صَبّار، بِرِقَّةٍ انتشله من الماء ولَفَّه في منديله الحرير الأزرق ودسَّه مبتلًا في جيب

معطف بدلته الفالنتينو، وقال: «سأحمل هذه الصبارة إلى جدّة، وستجدينها في استقبالكِ في مكتبي».

بنفرةٍ من رأسها دفعت خصلة الشعر الأشقر عن وجهها، وقالت: «لن تصمد في جيبك، تَعازيَّ مُقدَّمًا». ولم تجب عن سؤاله بشيء.

في نهاية الغداء انسحب جورج معتذرًا بأنه يريد أن يرتاح. نظرت في وجهه مبتسمة وقالت:

«اسمع، هي ثلاثة أيام، بعدها أغادر، وننسى هذا اللقاء. اعلم بأنني سأتزوج بعد ستة أشهر، وستكون لي حياة في مكان آخر. هي ثلاثة أيام فقط، سنمضيها معًا».

تركا لأقدامهما العنان، لم يكن ما يحركهما الرأس وإنما النبضات العصبية التي تتبادلها الأقدام، لم يتركا لفكرةٍ أن تتدخَّل بين جسديهما والخطوة التي تلي، موجةٌ حَمَلَتْهما حتى وصلا الشاليه. كوخ خشبيّ معلّق ويُصْعَد إليه من الطريق بسلالم خشبية، ما إن مَسَّتْ أقدامهما أوَّلَ درجات السُلَّم حتى تحوَّل صوت خطواتهما على السُلَّم إلى هديرٍ عميق تحت الجِلْد، وكلما ارتقيا درجةً من ذلك السُلَّم تَعَمَّقَ الهديرُ ليصعد من قمم الثلج تحت أقدامهما ويحمل لأعلى وأعلى، وحين انغلق عليهما الباب كانا في السماء وسَقَطَ الزمن في الخارج.

لأيام ثلاثة لم يكن بينهما غير قطرات تمتمة مُبْهَمَة لا تفسَّر إلا بحفر الضغط الجوي والانسياق بالمزيد من المَسّ، وفيض الحِسّ.

تَوقٌ ينبعُ فيه يُحَرِّك يدها ومنها ليقود يده، وتوقٌ واحدٌ يُحَقِّقُ الالتحامَ، وفي مرحلةٍ لم يكن الدماغ هو ما يُوَجِّه الأطرافَ، انبثقتْ للأطراف إرادةٌ، ماءٌ يتدفَّقُ على مُنْحَدَرٍ، تقوده انزلاقةُ سطح هنا وانعطافةُ مغبن هناك، ترشَّحُ القطراتُ هنا وهناك وتُعزِّز ليونةَ ومُطَاوَعَةَ التضاريس وشكيمتها، حتى إذا بلغا قعر الكون تفجَّرت خلاياهما، لم يكن بلوغًا بقدر ما كان انشطارًا ذرّيًا في كلِّ خلية. لم يكن الأمر رحلة وصول بِقَدْرِ ما هو عن التوقف بكل مَعالِم الطريق، للتملّي والتلاغي وتمرية الذات.

ولم يكن يعرف أيّ منهما من أين يأتي الدفء، من حيث يتّقد الجذعان بالدفء الذي تغذّيه المدفأة، أم هو ذلك السواد الذي حدَّثته عنه يومًا سكرية؟

شيء يضخ بجسده ويجعله أجمل، وجود أعلى من الوجود الحلمي، وجودٌ في صمتٍ في فراغ من كل رغبة وزمن وفضاء إلا اللحظة الراهنة، وجودٌ هو الكمال ذاته.

صباح اليوم الثالث حين فَتَحَ بابَ الشاليه كان الثلج يغطّي كل بقعة والشمس مسفوحة وراءه على الوسائد. تَرَكَها راقدة. قَفَزَ الدرجات بحيويةٍ، سار إلى مطعم الفندق، جَهَّزَ صينية الإفطار، الوجبة الأولى في المطعم بعد يومين استمرا ينامان ويصحوان ويأكلان في الشاليه. شطائر الجبنة الحلَّوم، مناقيش الزعتر، يشرخ الزعترُ بأنفه كحقل، بوسعه تحسُّس ضرعِ البقرةِ في لمعةِ الجبنة، لحواسّه حواسٌّ فوق وتحت الحواس، بوسعِ أنفه أن يلتقط عَرَقَ البنت وراء مكتب تأجير الزلاجات، عطرها ديور «زعاف منتصف الليل» (midnight poison)، تَهَشُّمُ الثلج تحت حذائه له عُمقُ ريكيوم موزارت، فوق طاقته تلك المحسوسات بكثافتها، يسرع الخُطَى وعينه مثل عين نعامة أكبر من دماغه تلتقط كل شيء، على لسانه طين وسواد المنحدرات التي قيعانها أرْز، البيوت البعيدة المغطاة بالأبيض، الشُرخ الوردي في السحاب الأبيض، الصنبور في فناء القرية البعيدة، الأشياء الصغيرة المدفونة حية لا تزال تحت الثلج.

فَتَحَ بابَ الشاليه بهدوء. كشف شعرها الأشقر عن وجهها وعانقها يصحّيها. بلسانها ذاق الزعتر لأول مرة، وسَالَ زيت زيتونها على ذقنه.

في اليوم الرابع حلَّ صمتٌ بعد معزوفة طويلة. فقد أفاق ولم يكن لها من أثر، تلاشت فجأة كما ظهرتْ.

لم يرجع معشوقًا كسيرًا، لم يرافقه الحزنُ إلى المطار ولا في الرحلة إلى جِدَّة، رجع مثل منخفض جوّي، أو بؤرة وجودية، تنجرف له الحياة من

كل ما حوله، لم يعد لفشله وفشل نوري مع المرأة تلك المرارة القديمة، انمحى من حواسه طعم الفشل، تأكَّدَ ما كان يظنه في نفسه من أنه كائنٌ مشتعل وحيٌّ حيٌّ حيّ.

ذهب فيلمها إلى جدّة ولم تذهب هي. وبقيت زهرة الصبّار في حوض في مكتبه. اليوم في جدّة يعاوده ذلك الشعور. كان يدرك في دخيلته أنه لقاء لن يتكرّر. لم يكن ما حصل في اللقلوق أمرٌ يتعلّق بالجسد، وإنما هو اكتشاف الكائن لـ«قنواته»، في الاحتكاك بكائن يشحذ تلك الموصلات.

لم يكن بوسعه مراجعة البحث عن هيلدا، تمامًا كما أنه ليس أمر مراجعة أول لحظةٍ للبلوغ، تلك مرحلة من نُضجه تمَّتْ، كمال لكينونته يُؤهِّله للتقدُّم لا للتراجع للوراء. خَلَّى هيلدا كما لحظة بلوغه: وراءه.

(الدخول في الحبيب خروج من الموت. تغطيس في ماء الشباب الدائم) عبارةٌ سَجَّلَها كاقتراح لعنوان الفيلم التسجيلي.



جِدَّة إكسبريس

2008

تجربة اللقلوق نفخت فيه روحًا متوثّبة، سلَّطت ضوءًا كشَّافًا على كل شيء مُسَلَّم به في حياته. مثل توأم سيامي وضع «ذاته» و«نوري» على طاولة مشرحة. أراد أن يبترَ كلَّ نقاط التماسّ بينهما سواء أكانت نقاط ضعفٍ له أو قوة. عباس الراجع من اللقلوق كان يشعر ولأول مرة في حياته بهرش في نقاط التماس تلك، هرش أقرب للتآكل.

يجمعه ونوري بكالوريوس العِمارة، كتوأم تآخيا على مقاعد الجامعة، واستقلَّت «أنا» كلٍّ منهما حين رفض هو وظيفَةَ أستاذ الجامعة بينما رَفَضَ نوري التجارة.

نجاحُ تجارته كان الحَدَثَ الأهم في محيطه، حَوَّله من باهَبَل للعمدة. بينما صاغت لنوري وظيفتُه في الجامعة، وضمنت له احترام السردارية، وقادت لترشيحه في سن الرابعة والثلاثين لرئاسة قسم العمارة الإسلامية.

تلك العوامل -التي يحسدهما عليها الآخرون- حين ينظر إلى أعماقه يُدْرِك هامشيتها. ليس غير الفن المحور الذي قام عليه احترامه لذاته، ونوري هو المحَرِّك لهويَّتهما الفنية. لأول مرة يجرؤ عباس فيعترف بأنه قد انقلب على نوري، ونقل الفيلم إلى المُخرج جورج من دون استشارته. يسترجع اشتباكهما الأخير. بدأ هو بالصراخ ليربك نوري: «أنا تخطيت الثلاثين، أحتاج فرقعة دولية تُجبر أبويا على الاعتراف بعبقريتي».

تضيع كلماته في الصمت الذي حلَّ بينهما فجأة.

يُحَدِّث نفسه: «يا نوري افهمْني، أنتَ كل الذي قتلتُه في نفسي لأجل

أن أقف في مجلس أبويا وقفة رجل. لا تظنني أسْتَعر مِنك وأخجل! على العكس، أنا صغير أمامك، أنت فنَّان بالفطرة، مجرد وجودك تحدٍّ لأبويا والعائلة، على كل إصبع صَنْعَة، تُصمِّم الأزياء وتصَوِّر وترسم وتُهندس سيناريو فيلمنا».

«تعرف يا عباس أنا كيف أراكَ؟». توقف قلب عباس عن الدويّ متوقعًا اعترافًا بإعجاب، «أراكَ إنسانًا سُلِقَ بلا تسبيك ولا بُهار. صرفدوك، أبوك سالم السردار الطفيلي يعيش من خلالك، متمدّد فيك، ويطمسك، ويحرمك تعرف لذة الفن للفن، كان لا بد تحفظ التسجيلات كسِرٍّ حميم بيننا، نسبِكُ منها فيلمنا على نار هادئة حتى نفجِّره مَرَّة واحدة».

فشله في إثارة إعجاب نوري دفعه للانقلاب عليه:

«وأنا أراكَ بالكثير الكثير: مجرد طَبَّاخة شاطرة. اللذة فيكَ أنكَ لا تستحي أن تفكّر بسذاجة، والسذاجة ممكن لها متعة في مطبخ نورية، لكن، حين نطمح أن نطبخ للعالم لا بد نعطي الخبز لخَبَّازه. لا يمكننا أن نوكل الأمر إلى هاوٍ مدّعٍ. جورج مُخْرِج صاحب تجربة وهو القادر على أن يخرج فيلمنا بمستوىً عالمي».

تلك اللطمة التي وجهها أخرجت نوري كالقذيفة منسحبًا من رأسه، ولم يعد يُشْرِكه في أفكاره. مثل ورم استؤصل من دماغ عباس وترك فراغًا مكانه يُفقده توازنه.

«نوري». أفزعه أن كل نقاط قوة نوري هي نقاط ضعفه هو عباس، لذا حاول دراسة المَشَاهِد التي سمح فيها لذلك الضعف بالهيمنة عليه.

لأول مرة وقف عباس مع نفسه، يستقصي «نقطة الصفر» التي التحم فيها به. نوري، متى كانت اللحظة الأولى التي التقاه فيها؟ كلما عصر أفكاره استولى عليه رعب، فيتراجع.

في تلك الليلة لم يعد هناك حدٌّ بين السماء والأرض، لا أضواء صناعية ولا نجوم، وجد نفسه واقفًا في كون وحيد مواجهًا لذاته، التي كلما تَعمَّق فيها انبثق نوري. وهذه المرة تخطى الرعب، لما وراءه، وتلقَّفتْه أصواتٌ

غريبة: صيحات ملثَّمين، طلق رصاص، وبقع دم وأكداس جثث. أدرك أنه بشكل أو بآخر قد عاش أو تخيل حوادث حصار الحرم في الكوابيس التي استولت عليه وسط هذيان الحمى الناجمة عن فتاقه. وكما تؤكد عمته سكريَّة والشيخ ليمونية بأنه في سنواته الست الأولى بالجسد كان مكشوفًا لعوالم لا يراها غيره. وصوت سكرية يترجَّع برأسه: «فجعتك عملة جهيمان وأصابك لُطْف. كنت على حافة الموت الجاري بمكة، محمومًا طوال فترة الحصار تهذي وتصحو بكوابيس عن قتل ودماء ولولا رحمة الله لفقدناك».

أنا لقيت نفسي

أغسطس 2009

لأول مرة صَعَقَتْ عباس حقيقةُ فصامه وانبعاث نوري من مخاوفه كشخصية وهمية لم توجد إلا في رأسه. دفعت به الصعقة إلى مخلوان نوري في قصر النزهة، وما إن دخل حتى هوى، ومن كل أطراف الحجرة انقضَّت عليه أشباح، قبضات حديدية أطبقتْ على عنقه، جحظتْ عيناه وغَامَ بصرُه بدوَّامةٍ من حُمرةٍ وسوادٍ خرجتْ فيها كلُّ صور الأطفال من الجدران، وامتزجت بالتماثيل التي دَبَّتْ فيها الحياة وانحشرت بصدره. موجاتٌ تتلاحق طافحة من كلِّ أطرافه إلى حلقِه حيث القبضة تشد، ففقد الرؤية وعرف أنه الموت يطمس حواسه، وكان سمعه لا يزال حادًّا، كعادة الموتى الذين آخرُ ما يُغادِرُ من حواسهم السمعُ. سَمِعَ صوتَ الدوامة التي اجتاحت الحجرةَ بستائرها الحمراء من مخمل، انصفقت النافذة وصَفَرَ حضورٌ غريبٌ في الحجرة أو بصدره. شيء كالريح عَصَفَ بصندوق أم كلثوم وطحن محتوياته، يشعر بالثوب الأحمر يهترئ ويتمزَّق، ومكتبة الأفلام تُطْحَن تحت أضراسٍ جبَّارة. شَعَرَ بالطحن في جسده، تكسَّرتِ التماثيل واستمرَّتْ تنفلتُ منها أجسادٌ، تناثرتْ شظايا وانبجست منغرسة بساقَيْه المُعلَّقتَيْن في الهواء تختلجان كلما زاد شد القبضة على عنقه. كل عروقه محزومة في تلك القبضة الحديدية، يتّسع منخراه يشفطان هواءَ الحُجرة ويتحوَّل الهواءُ إلى مَطَارِقَ في جمجمته المعزولة عن جسده، لم يَعد مِنْ فَاعِلٍ فيه إلا رأسه، تتفجَّر في مكانٍ ما بين عينيه تَكَّاتُ عدسةٍ تنغلق وتنفتح هي وعيه الباطن. في تكَّةٍ تَضَخَّمَ صوتُ انفصام عنق النوبية تحت

ثقل شمعدانها الأخضر، وشَعَرَ بالأيدي تغوص لتنبش عن قلبها تنزعه، وفي تكَّةٍ ينفجر بأُذنيه سِرٌّ تَعَلّقه بتلك النوبية، يعي أنها تختزل عمَّاته: تختزل صلابتها وانتصابها بسُكَّريَّة وضحكتها بنورية وخضرتها بحورية.

أدرك أنه يعيش لحظات احتضار نوريٍ بأدَقِّ ألمها، وفي لحظة شعر بالروح تَجْمُد من الدائرة حول العنق وتندَكّ بجسده وترتد لتتفجَّر من نقطة انكسار عموده الفقري. بتضخيم سَمِعَ انقصامَ الفقرة السابعة المحورية من عموده، فقرة الشمس البارزة بقاعدة العنق خرجت من مفصلها، وشَعَرَ بنخاعه ينبجس ويملأ صدره بكثافة. كل العروق في جسده تضخَّمت وصارت أنهارًا تتدفّق بروحِه لتسكبها من مكان انقصام العنق. حين انْخلع آخرُ جذرٍ سكتت كل الأصوات فجأة وشَعَرَ بخفّة، أدرك أنه خارج ذلك الضِيْقِ الجحيمي، فجأة رجعت له الرؤية، عيناه أكبر ما فيه وتطفوان خارج سيطرته، تتنقلان بانبهارٍ على الجسد المشنوق أمامه، تجنبتا القدمين اللتين يعرفهما تمام المعرفة، قَدَم محفورة القوس بمبالغة وبأطراف دقيقة بمواصفات يتشاركها كلّ رجال السردارية.

انجلت عيناه تدريجيًا وهما تتسلقان جسد المشنوق، حين وصلتا للوجه انصعقتا للملامح، الصعقة قذفت بجسده وروحه ليجد نَفْسَه في شقة أبيه الفخمة المطلة من برج مكة الحديث على الحرم، البرج المحتل لما كان يُعْرَف بسوق المُدَّعى.

تَلَقَّتْه حورية على الباب، ظهورُها المُبَاغِت أرسلَ أجراسَ إنذارٍ برأسه، انتشرت زرقة عينيها وأحاطته، سكت ذلك النزع القوي بأطرافه، قادته إلى حجرة نوم خلفية مطلة على جبل عمر الذي تنهشه المتفجّرات وتمسحه الجرافات بالتدريج لإقامة المزيد من أبراج السياحة الدينية.

«يا عَمَّتي حورية اخفيني حتى عن نفسي». رأسه فراغ إلا من ذاك التوسُّل، «أنا شفت...»، يتلعثم: «ما أحب أفجعكِ... لكن... أنا عشت شنق نوري».

بعنفٍ يمسح من رأسه ملامحَ المشنوق. لنظرتها على وجهه المصعوق شحنة لا يفهم اضطرابها.

«هل معقول أن نوري نوَّمني مغناطيسيًا ويخوّفني بهذه التمثيلية؟؟ أو... لا تقولي أنا خلصت من تفوّقه عليَّ؟». يدرك سخف تساؤلاته: «لا تخلِّيني أفكِّر، حُطِّي رأسي في عُبِّكِ وسكّتي هذه الكهرباء، لا تخليني أنظر ولا أفهم. حياتي واجعتْني، نَسّيني كلَّ المدفون في وعيي ولا وعيي، وَاجِعني».

ركع غارسًا رأسَه في حِجْرِها، فحوَّطت رأسه بكفَّيها. بالأمان في حجرها تقوَّت روحه فصارت قادرة على مواجهة التغيرات التي لا تزال تتلاحق مع إشاعة شنق نوري. صار يرى الحوادث في ومضات مثل الصعقات الكهربائية، لاحقت أصابع حورية تلك الومضات تدلّك حروقها بحنانٍ وتخفّف وقعها عليه، فصدَّتْ رائحةَ الهجر التي استدرجته إلى مكتبه الذي تَرَكَ بابَه مفتوحًا بقلب جِدَّة، خَفَّفتْ وَقْعَ أقدام الغرباء تروح وتجيء تُفرغ المخازن الحاوية للتحف التي كرَّس حياته يجمعها، لاحَقَتْ سَبَّابتُها الصفيرَ بصدغيه حين لمح أرفف الأفلام فارغة، ولا أثر للتسجيلات التي انعزل أيامه الأخيرة يفحصها، ولمح جدارية الشكمان التي لم يعتن أحد بالتخلص منها، وطَمأنَه وجودُها.

دَفَّأتْ يمينَها ومسحت على قلبه. وَصَلَتْه بملامح من طفولته بين ذراعي سُكَّريَّة ومن رائحتها التي يُحبها، ومسحت أصوات انصفاق الدواليب والأدراج المتعجل بحجرة نومه في فيلته بطريق الملك بجدّة. كان في حالة غريبة كمن في رحلة حج لكل مواقع الخيبة في حياته. شغَله ما يجري في فيلته، حركةُ تفريغ قادته ليصعد ويعترض ما يجري في الأعلى، لكن وقع الخطوات المتعجِّلة على السلالم أشعره بتهديد دفعه متراجعًا إلى مكتبه بالفيلا، ما إن صار في المكتب وأغلق الباب واستدار حتى تناوشه اللاشيءُ

هناك، ما كان مِنْ أثرٍ لكتابٍ أو مِلَفٍّ أو مخطوطة من مؤلفات نوري التي كان يحفظها بمكتبته فخورًا بإنجازاته. هناك من مَرَّ وأزال كلَّ آثاره وحَمَلَ أوراقَه لينبشها في مكان ما. شعر بصفيرٍ حادٍّ حين انعجن رأسه بقاعدة المكتب في محاولاته لحشر جسده مختبئًا تحته، مَدَّ ذراعَيْه وأطبقهما على حوض حورية وضَمَّتْ عليه فخذيها بقوةٍ.

الخطواتُ الغريبة صارت وراءَ بابِ المكتب، تلكأتْ هناك، ثم عادت تصعد وتهبط، وشَقَّتْ بجوفه خوفًا جارفًا. سكَّنَتْه أصابعُ حورية التي دَلَّكَتْ رقبتَه في موضعِ انقصام عنق نوري، أينما مسَّت بأطراف أصابعها سكت وجعٌ حادٌّ كَسِكِّين لا تكفّ تحزّ موضع الشنق.

حين انحسرت الأصواتُ خرجَ من مخبئه تحت المكتب، اندفعَ وغامت عيناه وتَرَنَّحَ بغثيان، لاحقتْه ذراعا حورية على الدرج تلملمه، تضمه، فلا يفتح بابَ حجرة نومه، لكنه كان مُنْجَرِفًا بقوى تفوق أي سيطرة، فَتَحَ الباب فإذا أكوام ملابسه، كل ما عشقه من ثياب: من ربطات العنق، للجوارب، للأثواب السعودية المُطَرَّزَة والبدلات الفخمة من ماركات يحسده عليها رفاقه، كل شيء مُكوَّم الآن في وسط الحجرة، وفي اللحظة التالية تلاشت الكومة، وانفغرتْ أبوابُ خزانة ثيابه خاوية، بسطتْ حورية أناملها المُلَوَّزَة الطويلة على أذنيه وعينيه، وأوصدت ذلك الخواء.

يئنّ في حِجْرِها:

«من يوم حكاية شنق نوري وأنا أشعر بأشباح تطاردني».

«طول عمرِكَ ومِنْ عرفناكَ وأنتَ مُطَارَد يا عباس من سكّان رأسكَ؟ أولاد عَمّك يقولون إن رأسكَ شبكة كي جي بي وسي آي إي ومافيا... خلطة جبارة...».

«يا عَمَّتي أنا ونوري قَلَبنا الدنيا على راسنا بفكرة هذا الفيلم عن حياة العائلة، بالصُدفة صَوَّرنا». لا يعرف ما يقول، يعيد المحاولة: «بالصُدفة

صَوَّرنا يمكن شحنة ممنوعات ويمكن جنّ... يا عَمَّة أخذوا كل الأفلام، كل حياتنا...». بلطف وَضَعَتْ سبَّابتها على شفتيه، وقادتْه للجلوس:

«يا حبيبي لا أحد يملك أن ينقص أو يضيف لهذه التسجيلات، بدايتها ونهايتها أنتَ، والعائلة الآن مجرد شاهد مصدوم».

لدغتْه نبرةُ حورية، أهو تطمين أشبه بإنذار؟ كيف هي صدمة العائلة؟ تلذّ له الفكرة. بمجرد الرغبة انفلت.

إسطوانات DVD

أغسطس 2009

كان مثل كرة هواء، لا يعرف كيف ارتدَّ من حضن حورية واندفع صاعدًا برج مكة حيث يسكن أهله، فوجئ بأخوته وأعمامه مجتمعين حول أبيه في المجلس الكبير مطلّين على الحرم من واجهته الزجاجية. على الطاولة التي تَتَوَسَّط الحجرة فاجأه صندوق كرتوني يحوي كلَّ إسطوانات الـ DVD التي اختفت من مكتبه، سنوات وسنوات من الرصد والتسجيل لمناسبات واعترافات العَمَّات. تَنَفَّسَ الصعداء. في حالته الكهربائية تلك كانت كل المشاعر تَهُبُّ عليه هبوبًا، نشوةٌ عَصَفَتْ به أن تنجو تلك الإسطوانات من مطارديه الذين نجحوا في مسح كلّ آثاره. أراد أن يصرخ بين أهله صرخة طرزان، أن يحتضنهم جميعًا، يشكرهم على إنقاذها من الدمار الذي يطارده. اختلج النورُ في المجلس مُستجيبًا لعمق نشوته.

ارتعش بشكل لا يمكن السيطرة عليه حين لمح رسالة صديقه جورج المُخْرِج اللبناني التي استلمها قبل أسبوع، ويُبلغه فيها بحماسة المسؤول بمهرجان فينيسيا لِضَمِّ فيلم سعودي للأفلام المعروضة على هامش المهرجان.

تلك الرسالة مفتوحة الآن بين رجال العائلة، يهزُّون رؤوسَهم في حركةٍ بندولية، بينما يقرأ أخوه أهمَّ مَقَاطِعها بصوتٍ عال:

«وأعلمك يا أستاذ عباس، هناك حماسة لفكرة أن فيلمكَ التسجيلي سيرة ذاتية لعَمَّاتك، بحيث تُلقي شيئًا من الضوء على حياة المرأة السعودية المحجوبة...».

تأمل في وجوه أخوته وأعمامه واحدًا واحدًا -وتَجَنَّب أباه- انتظر أن تحدث بأدمغتهم نفسُ الفرقعة، ويُوْلَدوا نفس الولادة التي عاشها بقراءة تلك الرسالة، والتي أنهتْ شكوكَه في قدرته على القيام بذاته كفنان وكإنسان، وشَجَّعَتْه على قطع حبله السري حتى مع نوري.

لكن الوجوه حوله زادت قتامة، عرقلت تياره الكهربائي، حاول أن يصعقهم بخطورة الرسالة، هتف بهم:

«هذا مهرجان دولي، وهذه السنة 2009 تقدّمت أفلام تُمَثِّل أركان الكوكب الذي نعيش فيه، ومعيار القبول فيه توپ توپ».

تَجَمَّعَتِ الوجوهُ في خلفيَّةٍ لوجهِ أبيه: (اللوحة الأزلية لعدم الرضى!)، تُقابلها وجوه أبناء عمومته: (شماتة صافية!).

ينحني أخوه للكرتون ويشرح: «أرفف مكتبه طافحة بمثل هذه الأفلام، جمعتُ التي لها علاقة بالعائلة وقلت نكشف عليها».

يُقَلِّب الأفلام ويقرأ العناوين بذهول، يتحرَّك عباس بقلق، يتذبذب بين التَوَجُّس والفرح أن تجتمع الأسرة لأول مرَّة في تاريخها على مشروعه الفني.

«معقولة عباس جاد في خزعبلات الأفلام التسجيلية؟».

تَأَجَّجَ تياره الكهربائي إذ نجح أخيرًا في صدمة أبيه. يتبادل الأخوةُ قراءةَ العناوين، لكن يَتَعَجَّلهم الأب لقفل الصندوق:

«لا تُطلعوني على عملته ولا تصيبوني بذبحة، استروا ما كشفه منا واخلصوا من هذا العار. ومَنْ هو جورج هذا المطّلع على عارنا؟».

«لا يغرّك، بلا جورج بلا تهيوءات، لو ما خاب ظني هذا خطه هو نفسه».

«هذا مجنون، استغل خرف العمات ليفضحنا بجَلاَجِل».

تفجّرت كهرباء عباس في المكان، مندفعًا ليتحدَّاهم:

«أي فضيحة؟ جورج المُخْرِج الكبير فَتَنَه الفيلم وقال إننا عائلة فنتازيا بصحيح، لأجل تفهموا قيمة وجمال الفن أقترح أنكم تشوفوا الفيلم الأول».

تتقدّم عَمَّتُه حورية، تشدّ قبضتها على ذراعه، تلصق جذعه لجذعها، تغلق على شبكة الطاقة المكشوفة بجسده، وتتحرك لتُغادر به الصالة:

«خليهم يطلعوا على فنك برواقة، وتعال. ما أحد فيهم يسمع لكَ، يا حبيبي إنتَ عارفهم».

صدى الألم الذي عاناه من تعرية شبكة الطاقة في جسده يدفعه للانسحاب من أيِّ مواجهةٍ جديدة، يستسلم ليدها.

على الأريكة القريبة من باب المجلس استوقفَه المانشيت في الجريدة المطوية لأربع طيَّات بحِجْرِ أخيه سليمان. تَعثَّر بأول كلمتين: (انتحار الدكتور...)، في ومضة كهربائية سَرَتْ بقية الخبر المطوية برأسه! بحركةٍ مُتعجِّلةٍ من يدها حالتْ حوريةُ بينه وبين التَمَهُّل لقراءة آخر المانشيت في النصف المطوي يسار الصفحة. غادر برفقتها بوخزات من الكلمتين بقاع دماغه: (انتحار الدكتور...).

قادتْه إلى حُجرةِ سُكَّريَّة، الحجرة التي كانت لقلبه مثل بلسم، تعجّب من أين ظهرت هذه الحجرة التي أُغلقت بوفاة سكرية منذ خمسة عشر عامًا، ثم ذهبت بهدم بيت جدّه في المدَّعى! أذهله عن التساؤل تكاثر الريحان الذي صارت أزهاره بحجم إنسان. تعجب! مَنْ يسقيه بالهرمونات النافخة في موت سكرية؟! بادرته حورية:

«يا عباس لا بد تواجه حقيقتكَ وقَدَرَك، تَعَلُّقك بكل هذه التسجيلات للإعادة والزيادة عذاب أوجع من الانتحار».

اضطربَ لكلمة انتحار وداهمتْه حاجةٌ للتقيوء: «والله الوجع في هذا الفصام العائلي. أبويا ملكوت بذاته، ويظن يقدر يحكم بالإعدام على الفن. لكنِ الأدهى أخواني، جيل السردارية العصري، كيف يمكن يكونوا بهذا التخلّف الفني؟! نوري فهم دنياكم هذه على حقيقتها وتَرَكْ لكم الجَمَل بما حَمَل».

«يا حبيبي لازم تقطع حبلك السُرِّي مع فكرة هذه التسجيلات، ومعاها شوقك وحرقتك لاعتراف سالم، أبوكْ هذا هو الذي رابطك هذه الربطة».

تتأمله بشفقة أغضبته. فقال: «ما بكِ تنظريني كمخبول؟ أنا منفصم مثلكم كلكم لكنني لست المجنون الذي تتصوّرونه، جنوني فن، أنا ونوري خضنا مغامرة الأفلام التسجيلية بغرض بعث حياتكم يا عماتي، لكن يظهر أننا سجلنا موت كثيرين، أكثر من الحياة. أنا وهو دفعنا بعضنا لنحيا انهياراتكم، والآن يدفعني لأحيا انهياره».

زرقة عينيها صارت تتّقد بخضرةٍ جعلت شيئًا بصدره يرفرف، خَافَ من تلك الخِفَّة، أشاحَ عن عَمَّته، حين بدت له أطرافها تتحول للشفافية فجأة، كأنما تكشف له حجاب حقيقتها، وأطرافه هو تستجيب للشفافية وتصير تترجرج كألسنة لهب، للحظةٍ احتارَ في كل ذلك الذي يحدث له، وفي أي عالم يقف؟

«الخبر في الجريدة يقول نوري ولّا عباس؟».

وعَصَفَ بهما حضورٌ ناري من سؤاله المباغت، وفاح حريق ريحان فاتر، اقتربتْ، حين مدّت يدها لتمسك بيده، صارت يداهما واحدة هي عبارة عن مساحة من اللهب البارد المنوِّر، تملَّص منها منهارًا على ركبتيه مواجهًا مرآة تُذَكِّره بمرآة تسريحة سكرية، لكن بلا نهايات:

«تظنِّي يا عَمَّتي كل هذا تهيوءات؟ دخيلك قولي كيف شايفتيني: أنا مين فيهم؟ الأشقر ولّا الأسمر؟ ولّا أنا الاثنين؟». تَرَقْرَقَ نورٌ مالح بزرقة عين حورية، وسَرَى بملوحته إلى صدره.

«يا ولد أخويا يا حبيبي هذه ساعة حق. الحق أننا ما عرفنا نوري. نوري ما له وجود إلا في رأسكَ. من يوم ما فجعتكَ عَمْلَةُ جهيمان طلع لك نوري هذا. اخترعتَه من خوفكَ لأجل يشيل عنك الوجع. كنت تقول إنه خفيف وظريف ويريِّح. والأهم شال عنك غُلب الفتاق. مِنْ لحظة بدأت المشي كنت لما تِغْلَب تصيح ومن صياحك تتفتَّق سُرَّتك، وتخلِّي الكل يحزن عليك ويسيِّبك في حالك والأولاد الشياطين ما يتعرَّضوا لكَ. لمّا اخترعتَ نوري استغنيت عن الفتاق والبهدلة. عشان كده نورية اتبنَّتْ حكاية نوري قرينك وفَرَضَتْه على الكل، والكل ماشاها رحمة بكَ، وقلنا

ما يضر: قرين فنّان وبيشجِّعك تصوِّر وتفرح وتصير آدمي مُعْتَبَر. أنتَ كنت صمَات ماسخ ونوري هو الذي مَلَّحَك، كنت تتراجع وهو يصادم ويفتح لك الدنيا فرحان».

الحسمُ في تصريحها قَطَعَ عليه طريقَ الرجعة للغفلة التي كان فيها. يتفسَّر له الغضب الحقيقي تجاه نوري. إنه هو عباس ومن عمر مُبَكِّر توقف عن أن يحلم، وحين ينام ويبدأ رفيف أجفانه كمؤشِّرٍ لبداية حلم تلسعه باكورة أبيه وسخرية أنداده ليفيق مذعورًا. دخلوا دماغه وأوقفوا آلية الحلم، ولفرط ما جُوِّعَ للحلم قام باختراع نوري ليحلم عنه، هلوسة ترمِّم تشققات دماغه المحروم من الحلم.

«والآن لا بد أن تواجه حقيقتك، وكل الذي تجاهلته في حياتك، لأجل تحسم وتتحرَّر».

سَكنتْ كهرباؤه فجأة: «قوليها صريحة: أتحرَّر من إيه؟ من الدنيا؟».

سكتتْ، وحين تسكت يهيج ذلك الرفيف بصدره، كل ما في جوفه ينجرف ليسكن فيها:

«أنا الآن في وقفتي هذه أمامكِ، حقيقي بجسدي في دنياكمٍ هذه ولَّا من دنياهم، أولئك الذين فتحوا الحاجز بين الحياة والموت، وسُكَّريَّة، وكانوا يزوروني؟». تقوَّستْ رقبتها الطويلة إلى الوراء تشدّه إليها، وأمعنَ صمتُها في خلخلته: «طَيِّب ضُمِّيني».

شَعَرَ كأنَّ جسدَيْهما من نور يتَّحد حين يتقاربان ولا يعود هو معزولًا بأوجاعه، ويسارع للانفصال لكي يستوفي وجعه وحده.

في حالته الضوئية تلك انفتحت جدران الحجرة مثل مرآة وانعكس عليها عباس وتضاعفت انعكاساته، صار في المرآة شفيفًا خفيفًا يخترق في الجدران ولُبِّ الأشياء وينفتح بحجم الزجاج بمجلس أبيه حيث تركَّزتْ أعينُ أهله على شاشة التليفزيون، ألقموا إسطوانةَ الـ DVD الأولى. بدء العرض أرسلَ صدمةً في عباس قبل جمهوره. ليس غير فراغ! الإسطوانة الثانية والعاشرة كلها فراغ...

«مستحيل». يتضعَّف مُتَرَنِّحًا في المرآة متلفتًا طلبًا لعونٍ من عمَّته حورية.

«مستحيل! فين عمتي سُكَّرِيَّة؟ فين نورية؟ ونوري؟ وأنا، فين؟!». يدق برأسه المرآة بخفة لتفتح تسجيلاته: «ممكن أنا صحيح ميِّت، لكن هذه الأفلام حياتي، تعبي وأحلامي وكل عَصَب نَبَضَ في جسمي. ليه بيشوفوها فراغ؟ حتى الأمس أنا كنت أتفرَّج عليها، وأتأمل بكل الجمال والغرابة اللي حَبِّيت أسجِّلها عنكم، عنَّنا. كل جَمالنا فينه؟».

«موجود فيكَ وفيهم». وتحاول طمأنته عبثًا: «هذه الأشرطة التي كنت تراجعها -والتي كل واحد مِنَّا مصيره يراجعها- هي شريط نور ممتد من الدنيا للآخرة، وتعرض فيه حوادث، هي ذاكرة الميت».

لم يكن صوتُ عمته هو ما صاغ تلك العبارة، وإنما وعيٌ عميق بكيانه، قاوم،

«لكن المخرج جورج وفريق التصوير، واللقلوق والخرافية هيلدا نقطة التحول في حياتي، لا تقولي بأن كل هذا مجرد وهـ...». ولم يجرؤ على نطق الكلمة.

تسارع عمّيه لتلطيف وقع تلك المواجهة:

«يا حبيبي إنتَ خيالك رامح يهد وينصب بلاد وعباد».

تَمَهَّلَ، حَدَّق عميقًا في المرآة، مَرَّرَ يده على أطرافه، في محاولةٍ يائسةٍ ليحشرَ برأسه فكرةَ أن الأسطوانات فارغة، وأنه في الأيام الماضية كان قد عُزِلَ ليجري في ذلك الشريط الضوئي المُمتد بين الموت والحياة والذي هو ذاكرته. وأنّ عمله لن يُعرَض على هامش المهرجان السينمائي ذاك. اكتشف أنه لم يكن هو الفنان التسجيلي الوحيد لمادة حياته، لكن كان هناك فنانان تسجيليان أزليان هما الملكان رقيب وعتيد، يصوِّران فيلمه الذي قضى كل حياته يحلم به، وأنهما قد اختزلا حياته بِحِرَفِيَّة لِتُعْرَض في وقفةٍ مُدَّتُها وَمْضَة، كل ما عاناه -مُذْ وَقَفَ يتفرَّج ويلتقط الصور بينما دفع

نوري بالسُلَّم من تحت قدميه- لم يكن إلا ومضة بين عالم الأحياء وعالم الأموات.

أدركَ أنه حين أخذ يمسح نوري في ذلك الشريط كان يمسح قِطَعًا من ذاته هو.

«أنتِ يا حورية عمود البيت، المُعَمِّرة. جَدِّي كان يقول إن كلمتكِ فَصْل وقلبكِ ميزان زُمُرّد. أوزني ولَخِّصي: معقول أكون ميت وبكل هذا الحضور؟! أنتِ حاسة بكل كياني يطقطق بكهرباء عجيبة؟».

تحوَّلَ جسدُها إلى موجةٍ تنغلقُ عليه، ملمس جسدها بانفتاحه الكلي أرسل في روحه معرفة عميقة تحوَّلتْ إلى قشعريرة، لطم جبهتَه بانصعاق: «لحظة؟ أنتِ حَيَّة ولّا ميتة؟». النظرة الصامتة انبسطت على وجهه كبلسم:

«هو أنتِ عَمَّرتِ ولّا نحن تهيّأ لنا؟؟ كَذِّبي ظَنِّي وقولي إنكِ حيَّة». لم تُجبه. استوقفها:

«لحظة، حكاية نوري وجهيمان لم تكن من خياله، أنا حلمت بكِ تقتلك رصاصة، أنتِ كنتِ في الحرم فجر طلوع جهيمان؟ الآن تتضح الصورة وأنا أتذكَّر، الكل كان مفجوع عليكِ، وأنا بدماغي الخفيفة عاصرتُ موتكِ من بيتنا، يعني أنتِ رحتِ في الحرم وأنا تبعتكِ في الحلم وشفت نهايتكِ، وهذا فجَّر فصامي؟؟». لم تجبه. كانت الصورة واضحةً أمامه، وتأكَّد أنه مصيب.

«هم الأموات مهمَّتهم مثلكِ يرافقوا عزرائيل والأوجاع؟ لأجل ذلك كنا نشوفكِ معاهم؟! لأجل ذلك أنتِ الوحيدة التي استمرت ترافقني بعد ما كسرت رقبتي بإيدي».

دفعة واحدة صارت يداه وعيناه على سواد الحزّ برقبته صعودًا للأعلى، مُواجِهًا لوجهه هو في الجثة المشنوقة، مُتقبِّلًا الجحوظ الكوني والمُفْزع بعينيه: «هو أنا استمريت لثلاثة أيام أنازع؟ لهذا العمق عروقي مُشَرَّشَة في الدنيا!».

«يا حبيبي الزمن في هذه الوَقْفَة لا يُحسب بالأيام، الدنيا كلها بقرونها غمضة».

تَمَهَّل ليستوعب أنه هو الأشباح التي كانت تطارده، تلك الأشباح هي مجريات موته، هي تفاصيل حياته في محاولاتها للتنصل من الموت، هي أذيال حياة ظلَّتْ تطارده لكي يُصَفِّي حساباته ويُوَاجِه حقيقة نقائصه ليُكمِل موتَه بسلام! أكمل:

«الميت هو أنا؟ وكنت مشغولًا بالهرب في ذاكرة عماتي؟ في وقت كانت زوجتي وأهلي يتخلّصون من آثاري. أنا الميت، دفعوا حوائجي صَدَقَة للجمعيات الخيرية وتبرَّعوا بكتبي وأبحاثي لمكتبة الجامعة؟».

«حكمة يوسِّعوا وراء الميت».

«كانت عملية مسح للشريط الذي اسمه عباس باهَبَل العمدة القطب الزيبق الذي نصفه خنثى اسمها نوري؟! هكذا هذه الدنيا! ألقاب تحرق دمنا تخسف بنا الأرض وترفعنا لسابع سما، لعبة يضحكوا بها علينا عشان نتسابق للألقاب ونهايتها مسَّاحة تمسح كلَّ آثارِكَ بحُجَّة الصَدَقَة وحُجَّة نلحقه بالثواب؟! هم يطلبون للميّت الثواب ولّا يسعون يورّثوه المَسَاحة؟». يضحك ساخرًا بغيظ، يتوقّف بهلوسته فجأة، يتقلّص وجهه بألم: «أنا لا ولد نورية ولا سُكَّريَّة ولا بيقم ولا حرمة مجهولة اخترعنا قتلها بالحرم. نحن بالنهاية أولاد موت».

تبرق عيناها بلون رقبة حمامة، يُدركُ بأنها ستصارحه بكل شيء، يرتجف، يقاطعهما صوتُ أخيه من مجلس أبيه:

«والرسالتان تركهما وراءه، الأولى محفوظة في ملفات البوليس، الضابط قال لي غير مفهوم مضمونها، ذكر لي أول سطورها، يقول: حولتوا سجاجيد صلاتنا لجنازير، وريق صيامنا لموية بطاريات... دخلتوا معانا حتى الحمَّام حصى تحت ألسنتنا، لكيلا نذكر اللطيف... الله يسامحكم».

يصمت المجلس:

«الله العَالِم تلك الرسالة مُوَجَّهة لمن؟ وكلام كثير، وتصليحات

لفتاوى... فضيحة تَحفَّظوا عليها. وهذه الثانية مُوَجَّهة لمن يهمه الأمر! من يهمه أمر مخبول كهذا؟!». تَوَجَّه السؤالُ كاتهام، وزاغت لتفاديه أعينُ الإخوة وأبناء العمومة، وامتدَّت يد الأخ الأكبر للرسَّالة:

«للمَرَّة المئة قرأناها وأعدنا، ما فهمنا منها شيء».

تتناقلها الأيدي، تَبْلُغهما أسطرٌ مما يقرأ ابن عمه:

(بعبقرية رسمتُ كل شيء لكي تجدوا جسدي طريًا،

الميت الطري يجرّ أهله وراءه... أنا لن أجرّ أحدًا منكم، أشفط آخر نَفَس وأتمنى:

أتخَيَّل جسدي المشنوق مصبوبًا في قالب زجاج مثل جدارية الشكمان، ويعرضونها بمجلس أبويا، وليرقب الذين شككوا في فنّي، كيف يتفاعل جسدي فنيًا في موته.

أو أتخيل وقفتي مشنوقًا في المخلوان وكاميرا تُسَجِّلني دقيقة بدقيقة ولأشهر وأنا أتحلّل، حتى أنتهي إلى لوحة أخيرة مُخْتَزَلَة.

أو أحلم بسفرة أخيرة لجسدي إلى القاهرة، لهذا العنوان: القَرَافَة. زنقة أبو حُنوش، للغفير بُلبل، وهو يستلمني للتحنيط.

أينفع لو رجَوتكم بألّا تدفنوني؟

كل الكلام السابق بهدف أحطّكم في اللي بيحصل بعقلي.

أنا مسرح العبث. هل احتجت أن يكون لي أكثر من أم، وتلدني حرب في حرم فشلت تطلّع المهدي المنتظر وطلَّعت المسيح الدجال؟ المتشدِّدون اللي خنقونا ورجّعونا للظلمات. حيلة تشرِّدني من الموت؟ وسواء اخترعنا حرب جهيمان أو أنها اخترعتنا، حوَّلنا نساءَ مكة أو حَوَّلَتنا لمشروع فنّي أو لعنة، رغم كل ما أنجزناه أنا وعباس فلا زلنا كغيرنا: ضعَاف على باب الله، وتخترق رأسنا رصاصة إرهابي متطرّف، يشوف كعب أخته لو انكشف فيلم بورنو. موت سُكَّرية استمرارية لموتنا بالحياة، سكرية كان غاية مناها تعيش دنيا. ونورية غاية مناها تتخطى لحظة الموت، وتعيش بعده.

لما خلطوا أقدار البنتين ليلة العرس، كل واحدة من جوعها أخذت نصيب الثانية...

في الآخر ولمّا حبّت الوحدة تهرب من خيرتها كان توووو ليت *too late*...

أنا حاسس أن نورية جاهزة الآن في موتها تعطينا إجابة، ولازم نمدّ لها يد. هي ما أطفأت الثريا ولا الشمعدانات لسنة كاملة. وبسبب النور المستمر بان لها الكوثر، ويمكن بلعها حوت من بين حيتانه.

ومن المهم ألّا نغلط غلطة أولاد خالد بن سِنان الجاهلي، الذي قال عنه رسولنا إنه أقرب لنبي، خالد قال لأولاده: تحبوا تعرفوا ما يحدث لبني آدم بعد الموت؟ إذا مت ادفنوني، وتعالوا بعد يومين، لما تشوفوا فرسي تنبش على قبري، انبشوا وخرّجوني، أحكي لكم الرحلة تحت.

ولما مات ونبشت الفرس خاف الأولاد أن تعيّرهم العرب بنبش قبر أبيهم، تركوا الرجل تحت بالمعلومات كلها. وراحت علينا، بسبب كوننا خائفين من القيل والقال والعيب والفضيحة.

عباس أُشعل كلَّ شيءٍ ويحاول أن يحلم بماءٍ لكن النور القوي يحرق الشريط في التحميض.

بأيّ زيتٍ نُسرج شمعدانًا يكشف لنا حقيقة الموت؟ ليس غير زيت أرواحنا، الزيت الذي يُضيء ولو لم تمسسه نار. ربما كان على نوري أن يخترق للطرف الآخر ليكتشف الحبكة التي انتهى إليها أمثال أم كلثوم ونورية. ولنطلع من حرق التحميض الفاشل ولو بخيال وبالأبيض).

يتوقف الأخ عن القراءة ساخرًا:

«هذي خطرفة وتحشيش. موت نورية أصاب عباس بخلل عقلي، راح وراها». ينتفض عباس:

«هل سمعتيهم؟ هل سمعتِ التشفّي في أصواتهم؟ يقولوا عباس راح، مقلب أنهم دفعوا نوري للانتحار والذي مات هو عباس!».

تُشَاغِل حوريةُ عباسَ عن التعليقات والشفقة التي فجَّرتها تلك السخرية،

«بعدكَ حيران في نوري وعباس، ومين الحي مِن الميت؟!».

«لكن أنتِ عرفتِ تعيشي الحياتين؟ ليه يسمعوكِ صغار وكبار ويردّوا عليكِ وأنا لأ؟! يعني روحي تستحق الإعدام وروحكِ خالدة؟ هو هذا الخلود؟ وقفتك رِجْل في الدنيا ورِجْل في الآخرة؟». يتمهَّل في سخريته، يتراجع ويتأمّلها بإعجاب:

«يمكن لأنك شهيدة؟ حتى لما دفنوكِ مع أكوام موتى الحرم قمتِ ورجعتِ لبيتك. كنتِ أَغْلَب وقتكِ ساكتة، عرفتِ جوهرة السكوت... يمكن أنا كان لازم أسكت، لكنني تكلمت بلسانين، اضطروا يعدموني».

تقول بنظرةٍ تحمل الكثير من الحنان:

«تعرف أنه كان لكَ توأم واختفى ساعة ولادتكَ؟ أنتَ اخترتَ نوري هذا خِلْف خِلَاف: كل ما ينقصكَ يكمل فيه، ويكمل فيكَ كل ما ينقصه».

يتأملها بعدم فهم، ثم يقلع عن فهمها. تُحَوِّم حوله بسلام لا يَمتّ للأرض بِصِلَة، ينحطّ على الأرض بين قدميها، يتحسَّسهما، وتتماهى براحة يديه:

«دعسات رجولِك هذه محفورة في وعيي، أسمع دَبَّتها وأنا صغير وأنا مريض وأنا مقهور وبصري ضايع، ما دَقَّتنا شوكة وتَوجَّعنا إلّا وجدناكِ داخلة خارجة غُرفنا، نكلمكِ وتكلمينا حَيّ لِحَيّ، ونناقشكِ في مشاكلنا، وتُحَلِّليها معانا. غير معقول كل تلك السنين كنتِ ميتة وكنَّا معاشرينكِ في موتكِ ومُعَاشرتنا في حياتنا. يعني هذا ممكن؟!! يعني ممكن عَمَّتي نورية الآن تكون ببطن الحوت ولا التقت بمُنْكَر ونكير؟ والإسطنبولي

مسافر الدهر يسوق سيارته المازيراتي؟ معنى كده عمتي سُكَّريَّة رامحة في مهرجان فينيسيا؟ لأن هذا كان أملها».

ذِكْرُ المهرجان أجَّج في داخله حاجةً للثورة، للتهوّر، والقيام بأي شيء كفيل باسترداد فيلمه التسجيلي الذي تعرَّضَ للطمس:

«لو نحن في دنيا الموت فأين هي نورية لم نقابلها حتى الآن؟ أهي هنا؟ هي ماتت أصلًا وأنتِ استقبلتيها، ولّا فتحت لنفسها طريق غير؟! الإسطنبولي مَرّ وأخذها أو نوري حَنَّطَها؟ عاجز أكمِّل موتي بسلام من دون معرفتي لإجابة هذا السؤال. كنتُ دائمًا أتَّهِم نوري بأنه عارف طريقها وخفاه عنِّي. لا تقولي نوري ما له وجود، نوري راح لها، خلاني وراح لها».

تتبدَّل زرقةُ عين حورية للخُضْرَة الفيروزية، يَتَوَهَّج وجهه باليقين: «نوري مع نورية؟».

«يا حبيبي الموت كلمة ضخَّمناها بُعبُع للحي منَّا لأن الفُرْقَة هي اللي توجع، لكن الموت للرايح شيء تاني، لا أحد يعرفه إلا لما يجيله».

«وأنا أشعر بفراغ يشبه العدم لحظة أفقد إيماني بشيء جاهدت لأصنعه في دُنيتي. لأجل ذلك ومنذ البداية أنا اخترت أكون منفصم، هل ممكن لمنفصم أن يموت موتَيْن؟ وأنا منفصم في نسخ متعددة عني... ولو ماتت حالة من حالاتي تبقى الثانية والثالثة وحالاتي المتوزعة في أنحاء العالم. الذي انتحر هو قريني، مات كمشروع فنِّي، نعم نوري هو الفيلم الذي لم ينتظرهم يمسحوه، ولا اعترَفَ بفُراق نورية. لَحِقها يصوِّرها ببطن الحوت، أما أنا فموجود. لأنني أحس ومتأكد الآن أن الموت يمكن أن يكون حالة ذهنية، الموت للذهن بكل أوهامه الشكلية، الموت للشكل لكن الأُس دائم»، وأنا بأقول لكِ مرعوب من الشعور بأن طاقة جبارة بتتفجر في كياني. حالتي الوجودية الروحية أبعد ما تكون عن الفَنَاء، أنا في حالة من الوعي الكوني، أُسّي واسع واسع واسع الواسع، وهذه الأفلام -المستمرة في العرض للأبد رغمًا عنا جميعًا- هي وسيلتي لإثبات اللاموت، لإثبات

الواسع الساكن في مَن هم مثلي بيتحركوا في دنيتنا اللي يسموها الفانية، الواحد منا غير محدود بجسد نشنقه ويفنى، الواحد منا كون، أنا الكون».

تَرِفُّ عيون حورية وتشيع في الحجرة خضرة، يتشعشع عباس بنورٍ طاغٍ يسطع لينير الشرفة الطافحة بالريحان ويتبدد في الخضرة.

ويشيع الصمت بلا نهائية أغواره.

النهاية

امتدادًا للنهاية

لا أريد لمن يقرأ بَاهَبَل أن يَعْلَق برأسه سؤال: مَنْ الحي ومَنْ الميت؟ مَن المُنْفَصِم ومَنْ أحادي الشخصية؟ وهل الفصام ازدواج في الكينونة أم تبعثر؟ وإلى أين الحياة وإلى أين الموت، أو أين تنسانا المقابر ويبتلعنا الحوت؟

فمع نهاية الكتاب، وباكتشافي لغياب عباس أرَّقَتْني حاجةٌ لمشاركته النهاية، على الأقل ليوقِّع ببصمته على الحبكة، واحترتُ: على أيّ عنوان تُراسل شخصًا يُفْتَرَض بأنه قد انتحر؟

أخيرًا -وككلمات للبحر في زجاجة- بعثتُ لعباس برسالةٍ على بريده الذي كُنَّا نعرفه له في الفيس بوك، لأن حسابه ظل مفتوحًا بعد موته ولم يعرف أحد كلمة السر لإغلاقه، أرسلتُ عبارةً واحدة اختبارية:

«غارقة لشوشتي مع العَمَّات، معتكفة في شِبْهِ كسوفٍ كلِّي...».

ولذهولي وفي نفس الليلة تلقيتُ إجابتَه على الفيس بوك:

«الحكاية هذه أنا لَقَّمتها لكِ، شفتي كيف الحمام يلقِّم؟ بمناغاة.

المهم،

كنتُ في مكة مررتُ لحضور دفن أحد أقرباء الوالد.

مع أبي غادرتُ المعلاة ومشغولًا به.

وعند عودتي بعد منتصف الليل بالسيارة ولسببٍ لا أدركه أخذتُ مَفْرَقًا جديدًا في الطريق لم يسبق أن عرفته،

على أمل الوصول إلى طريق جِدَّة لأجد نفسي أمام مقابر المعلاة مَرَّة أخرى.

أدركتُ أنني لم أقرأ السلام عليهم،

قرأتُ عليهم الفاتحة واحدًا واحدًا.
حضورهم كان طاغيًا طوال طريقي إلى جِدَّة،
لم يتركوني إلى ان غادرتُ إلى بيروت.
سُكَّريَّة تسلِّم عليكِ، ومصطفى الكبير -حسب ظني- عتبان.
حليمة وَصَّتْني أروح أسلِّم على أمها في البقيع.
وحورية وهي تودِّعني قالت لي: ما تنسى سالم.
ونورية لا حِسّ ولا خبر».

تَأَكَّدَ لي حينها أنهنّ يُرَافقنَنا ويُمْلينَ عليَّ هذا الكتاب. وتساءلتُ ما إذا كان مصطفى الكبير منزعجًا من هذا الفضح. وما إذا كانت لسالم إضافة فاتتنا؟

ولم أعرف -أثناء تغذية عباس للحبكة- متى انقطعت رسائله من هذا العالم وبدأت مراسلاته لي من العالم الآخر؟ بل وكثيرًا ما شككتُ في هوية المنتحر، هل هو عباس أم حالة من حالاته؟ واحدة من الحالات المقموعة؟

وبناءً على رسالته الأخيرة قمتُ بتعديلات طفيفة في كتابي فأضفت ما حدث في اللقلوق.

حتى كان هذا الصباح الربيعي، حين وصلني هذا الطرد البريدي، وعرفت من رائحة الريحان بأنه من عباس.

فتحته لتصدمني هذه المخطوطة القديمة، المحترقة الأطراف. نفذت رائحة الحَرْق إلى قلبي فارتعش. عرفتُ أنها مخطوطة المرزا، وعلى وجل -كمن يفتح قبرًا- وبحِرْص تصفَّحتها لأتفاجأ بأجزاء من كتابي مكتوبة بخط اليد على ظهر الصفحات التي خطّها المرزا. كتابة تتخلّلها فقرات مطلسمة وخربشات من خطوط مختلفة كثير منها غير مقروء، وتتداخل فيه أجزاء حكايا الموتى الذين ذهبوا من دنيانا، وحكايا الموتى المبعوثين من موتهم مع وصفات طبخ، مع كلماتي مكتوبة بخط عباس الذي أعرفه تمامًا!

عندما وصلتُ إلى خاتمةِ المكتوب سمعت صوتًا لم أشكّ بيني وبين نفسي بأنه صوت عباس يهمس في أذني مطالبًا بأن أكمل كتابة صفحات المخطوطة. وكنت كلما أسرعت في الكتابة أجد كلمات المخطوطة تتلاشى أو تتحوّل إلى طلاسم بلغةٍ لا أفهمها. ما عدت أعرف إلى أي حد تداخلت تخيلاتي بحكاية عباس، وانتهت لهذه النتيجة التي لا هي حكايته ولا هي تخيلاتي.

رجاء عالم

بَاهَبَل

عائلة «السردار» نموذج للعائلة المكيّة العريقة، من خلالها نرى حياة مكة، وعلى الخصوص حياة النساء في مكّة في الفترة ما بين 1945 حتى العام 2009، وهي الفترة التي شهدت تحوّلات كثيرة في حياة أهالي تلك المدينة التي تعيش على وقع وجود الحرم فيها.

في عائلة يسيطر فيها الأب على كل مناحي الحياة يولد الطفل «عباس» (باهَبَل)، الذي كان أحد توأمين، بحسب ما قالت القابلة، لكن توأمه شرد!! وعاش الطفل قريبًا من نساء العائلة، وقرر أن يكتب حيواتهنّ.

***

«من المهم الاعتراف بأن ما دفعني ابتداءً لكتابة هذا الكتاب، هو هذا الغضب تجاه صرامة العبودية المُبَطّنة التي خضعن لها، عبودية تأتي باسم الحب وباسم التكريم وصون العِرْض، لكنها تسحق وتطمس الهوية والوجود...

ولا زلت حتى الآن حين أقرأهن أشعر بألم.

«بين طوفان جدّة وثلج باريس، زارتني نورية... ودفعتني لمراجعة كتابهنّ هذا المطمور في الأدراج. قرأته. قد تبدو أنها حيوات من زمنٍ منقرضٍ، أو من كوكب آخر، لكن الآن هذا الصوت القديم يكتسي صوت العصر، لأنه جزء من تاريخ مسيرة المرأة في تلك البلاد.

«بين نورية وسكّرية وحورية وعائلة السردار... كنت أشعر بأن هذه الحكاية لا تستقيم إلّا بالتعبير عنهم بلغتهم المكّية. كانت موسيقى اللهجة المكّية تلحّ عليَّ في أصداء تترجَّع في قلبي وقلوب مكية رحلت لكنّها باقية في كياني.

«لا أدري إن كان سيعذرني عباس في تحريفي لأمور في حكايته لأبعدها عن أن تكون حكاية عائلة بعينها، وفي هذا السياق أوضح أن اسم «السردار» لا علاقة له بأي عائلة تحمل هذا الاسم».

لوحة الغلاف: شادية عالم


daraltanweer.com